

كتاب الغزوات البيانية والفتوحات الربانية وذكر السبب الذي حمل على ذلك

لم يزل الشيخ رحمته، مقيمًا في بلد الغيبة على الحالة الموصوفة والطريقة المعروفة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعلم الناس دينهم، ويُميت ما قدّر عليه من البدع، ويقيم الحدود، ويأمر الوالي بإقامتها.

وفي تلك الأيام جرت قضية استنكرتها قلوب أهل الزيغ والجهل والرّدَى، الذين لم يستنشقوا من عَرَفِ الشريعة ربح الهدى، وهي أن امرأة من أهل الغيبة زنت، فأقرت على نفسها بالزنا، وتكرر ذلك منها أربعًا، فأعرض الشيخ عنها، ثم أقرت، وعادت إلى الإقرار مرارًا، فسأل عن عقلها فأخبرَ بتمامه وصحته، فأمهلها أيامًا رجاء أن ترجع عن الإقرار إلى الإنكار، فلم تزل مستمرة على إقرارها بذلك، فكانت أقرت أربع مرات في أيام متواليات، فأمر الشيخ رحمته، الوالي برجمها؛ لكونها قد أحصّنت، وبذلك الإقرار قد صرحت وأعلنت، فأمر الشيخ عند ذلك أن تُشَدَّ عليها ثيابها، وتُرجَمَ بالحجارة على الوجه المشروع، فخرج الوالي عثمان وجماعة من المسلمين فرجموها حتى ماتت، وكان أول من رجمها عثمانُ المذكور، فلما مات أمر أن يغسلوها وأن تكفنَ ويصلى عليها.

فلما جرت هذه القضية كثر القيل والقال من أهل البدع والضلال، وطارت قلوبهم خوفًا وفزعًا، وانخلعت ألبابهم رهبًا وجزعًا، وداخلهم من حصول تلك القضية السوية، والخصلة المرضية السنية، والفعلة المحمودة السنية، ما لم يعاينوا قبله مثله حزّن، ولم يعرّج على أسماعهم في سابق الزمن، وذلك لما ألقوه من الضلال والشرك، وما عاشوا فيه من الفواحش والإفك، كيف وقد

أتاهم ما لم يحتسبوا! ودَهَمَهُمْ ما لم يرتقبوا! وطاف بهم ما لم يسعهم منه أن يهربوا، ومَجَّتْ الأسماع، ونفرت تلك الطباع، ما ليس لهم به دفاع، مع كونه الحكم المشروع بالسنة والإجماع!

فيالله العجب! كيف تنكر القلوب والعقول سنة الرسول، وتطاوت السنة العلماء على مَنْ نَصَرَ الشريعة وَحَمَيْت، ولكن الحب يُعْمِي وَيُصِمُّ، لم يكن لهم عدول ولا إباء، عن سنة الأسلاف والآباء، وكذلك شأن النفوس، إلى الباطل تميل، ولا يجدوا زعماً في نفسه إلى الحق إلا القليل، ونحمد الله المولى الجليل أن جعل الشيخَ مِنْ هذا القبيل، وبنصر السنة كفيل.

ثم إن الشيخ لما أعياهم ردَّ ما قاله من تلك المسائل الجليّة، عدلوا إلى ردها بالمكر والحيلة، فَشَكَّوه إلى شيخهم الظالم سليمان آل محمد رئيس بني خالد والحسا، وكان قَبَّحه الله مغرماً بالزنا، مجاهرًا به غير مختفٍ بذلك، وحكاياته في ذلك مشهورة، وقصصه فيه غير محصورة، فأغرَّوه به وصاحوا عنده، وقالوا إن هذا يريد أن يخرجكم من ملككم، ويسعى في قطع ما أنتم عليه من الأمور، ويحسم مادة الأمكاس والعشور! فلما خَوَّفوه بزوال محبوه وتفويت مطلوبه، كتب إلى عثمان المذكور يأمره بقتله، أو إجلائه عن وطنه، وألزم عليه في ذلك غاية الإلزام، وشدد عليه في حصول القصد والمرام، وصرح له في المكتوب بأنك إن لم تفعل المطلوب فما لك عندي مستباح، وليس علينا في ذلك من جناح. فآثَر الدنيا على الدين، وسلك منهج المُبْطِلِينَ، وأمر الشيخ بالخروج، ولم يكن إلى قتله سُلْمٌ ولا عُروُج، وذلك لما اقتضته الحكمة الإلهية والعناية الصمدانية، من إحياء دارس السنة المحمدية والآثار السلفية.

فخرج الشيخ إلى بلد الدُّرعية والسَّدَّة المرعية المحروسة، إن شاء الله، عن كل بلية، فنزل على عبد الله بن سويلم تلك الليلة، فأقام عنده ذلك اليوم، ثم

بعده انتقل إلى تلميذه الشيخ أحمد بن سويلم، فلما سمع بذلك الأمير محمد بن سعود، أسكنه الله دار الخلود، قام من قوره مسرعاً إليه، ومعه إخوته ثنيان ومشاري، فأثاه في بيت أحمد بن سويلم، فسلم عليه، وبادره بالقبول والتقبل، وأبدى له غاية الإكرام والتبجيل، وأخبره أنه يمنعه بما يمنح به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وكأده، إلا أنه طلب من الشيخ بركة، العهد والميثاق ألا يرحل عن بلده إلى سائر الآفاق، وهذا من عناية الله تعالى بهذا الرجل وتوقيفه، وإهدائه إلى سبيل الخير وطريقه، ﴿وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وكان الأمير محمد بن سعود في جاهليته بحسن السيرة معروفًا، وبالوفاء وحسن المعاملة موصوفًا، مشهورًا بذلك، دون من هنالك، فعند ذلك أعطاه الشيخ عقد المرام ألا يخرج عنه إلى بلاد، وبعد ذلك قام يدعو الناس إلى ما خَلَقُوا لأجله، ويحث على ذلك بخيِّله ورجله، حسب الاستطاعة، لا يفتُر عن ذلك ساعة، وكذلك قام معه وزراؤه وأعوانه وأنصاره، من أهل الدرعية وإخوانه، ومن مشاهيرهم ثنيان بن سعود ومشاري بن سعود وفرحان بن سعود والشيخ أحمد بن سويلم والشيخ عيسى بن قاسم ومحمد الحزيمي وعبد الله بن دغثير وسليمان الوشيقي وحمد بن حسين وأخوه محمد وغيرهم، فجردوا للدعوة أمضى سنان، وأرخوا في ذلك العنان، من غير تراخ ولا تَوَانٍ، وشهروا سيف العزم، وباتر الهمة والحزم، جزاهم الله خيرًا.

وكانت هذه الأمور المذكورة، والأفعال المقررة المسطورة، في حدود سنة سبع وخمسين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية، فلما استقر به القرار، في محروسة تلك الديار، وساعده على إعلان تلك الدعوة للملك القهار، من ذكرناه آنفًا من الأخيار، حشرهم الله في زمرة الأبرار، فبقي، رحمة الله عليه وأجزل

ثوابه لديه، قريبًا من سنتين، من غير شك ولا مَين، ينصح الناس ويكشف عن الحق حجب الالتباس، ويشيد السنة النبوية أقوى أساس.

وفي خلال هذه المدة أقبل إلى الدرعية للهجرة، مَنْ أحسن الله قصده، منهم: عبد الله بن محسن وإخوانه زيد، وسلطان المعامرة، وعبد الله بن غنام وأخوه موسى، وهاجر مع هؤلاء خلق كثير. وبعد أيام قليلة لم يجد عثمان عن القدوم على الشيخ وابن سعود من حيلة، لما رأى من جماعته وشاهده، وعلم أن الله رفع للدين مصاعده، فأقبل إليهم وقدم عليهم، وحاول الشيخ في الرجوع إلى بلده، فأحال الأمر على محمد بن سعود، فأبى ولم يسعفه بالمقصود، فرجع على عقبه، ولم يفز بغاية طلبه، فأضمر العداوة والشر، وجدَّ في الغدر والمكر.

وفي أثناء تلك المدة أيضًا ناصح الشيخ والأمير محمد بن سعود دهاً بن دواس، رئيس البلدة المعروفة بالرياض، فاجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد، فلم يكن له إلى قبول الحق ارتياض، بل أعرض عنه نهاية الإعراض، واعتاض الدنيا عن الآخرة، وبس الاعتياض، وحمله على ذلك البغي والحسد، الذين قل أن يخلو منهما جسد، وينجو منهما أحد، وإلا فهو قد أقر بأن هذا هو الدين، وأن ما يدعو إليه هو الحق المبين، وقد صح النقل عنه، والتطرق بذلك منه، ولكن حقت عليه كلمة العذاب، وسبق له ذلك في أم الكتاب، فأبطن عداوة هذا الدين، وأظهر موالاة المبطلين.

وكان هذا الدين قد فشا في بلده ودخل فيه كثير منهم، فإذا رأى من جماعته مَنْ يُحب هذا الدين ويفشيه، أخذ يصادره ويؤذيه، وإذا رأى عدوًا يُقرِّبه ويؤيه، فجعل يتزايد في العداوة، ويتظاهر بقمع الحق لما كتب له من الشقاوة، ويعلن بالقبايح الشنيعة والفصائح الفظيعة، إذ كانت من أخلاقه القديمة وأفعاله القبيحة الذميمة.

وكان أبوه رئيساً في بلد منفوحة متغلباً عليها، فقتل أناساً من جماعته من المزاريع ظلمًا وعدوانًا، فبقي بعد ذلك زمانًا ثم مات، وتولى بعده ابنه محمد، فقام عليه ابن عمه زامل بن فارس، هو وبعض أهل منفوحة فقتلوه، وأجلّوا إخوانه، ومن جملتهم دهام وإخوته عبد الله وتركبي ومشلب وفهد، فاستوطنوا الرياض، وكان واليها إذ ذاك زيد بن موسى أبا زرة.

فلما قُتل زيد المذكور، على غير سبب مأثور، وكان الذي قتله أحد بني عمه، وكان معتوه العقل، صعد عليه، وهو نائم في عليّة له^(١)، فذبحه بسكين معه، فلما قتله جاءه عبد لزيد يقال له خميس، فقتله ورماه من رأس العلية، فتغلب العبد المذكور على بلد الرياض، وكان أولاد زيد إذ ذاك صغار، وزعم أنه قابض لهم حتى يتأهلوا لذلك، فأقام واليًا عليها مدة يسيرة نحو ثلاث سنين، ثم حرب خميس من الرياض خوفًا من أهلها؛ لأمر جرت منه، فأقام في الحائر مدة، ثم أتى منفوحة، فأقام بها مدة، ثم عدا عليه رجل من أهلها، كان قتل أباه زمن رياسته على الرياض، فقتله.

ثم بقيت الرياض مدة يسيرة بلا رئيس، وكان دهام بن دواس مدة تغلب خميس على الرياض خادماً له، فلما بقيت الرياض بعد هروب خميس بلا رئيس، ترأس فيها دهام بن دواس، بشبهة أن ابن زيد أبا زرة هو ابن أخت دهام، فزعم أنه يكون نائباً عنه في ذلك حتى يكبر ويعقل، ثم بعد ذلك يتخلى له عن الولاية ويتصل، وهيهات الرجوع عن الأخلاق والطباع، وردع النفوس المجبولة على البغي والأطماع، فمجرى مع ابن أخته على عادته وستته، وعامله بما رسخ فيه من جورهِ وسطوته، فأجلّاه عن البلاد، وأخلفه ذلك الميعاد.

(١) العلية: سطح البيت.

فبعد صدور هذه القضية، واشتهاره بهذه الفعلة الردية، كرهه أهل الرياض، وسَعَوْا في عزله، إذ لم يكن لهم حيلة إلى قتله، فاجتمعوا عليه، وأحاطوا بقصره وحصلوه فيه، وكانوا عامة وغوغاء، ليس لهم رئيس يرجعون إلى أمره، ولا مصدر يصدرون عن رأيه وفكرته، فأرسل أخاه مثلبًا ركبًا فرسًا إلى محمد بن سعود أمير الدرعية، يطلب منه النجدة والنصرة على تلك الرعية، ويتضرع أن يعينه على دفع تلك البلية، فعند ذلك قام له محمد بالنصرة أتم قيام، وأرسل إليه من الجنود فقام، ورئيسهم مشاري بن سعود، فبلغ دهام بمجيئهم المرام والمقصود، فخرج من قصره مع تلك الجنود، وقتلوا من أهل الرياض ثلاثة أو أربعة رجال، ثم فروا بلا توانٍ ولا إمهال. فبعدها قر ملكه فيها، وأقام رئيسها وواليتها، وأقام مشاري عنده شهر، ولم يتوقع ما صدر من الخبيث من الشرور، فاستفحل أمره وتعاضم فُجْرُهُ ونُكْرُهُ، وتزايد على الرعية شَرُّه، وتوالى عليهم ضَرُّه، وتظاهر بأمور، وأعلن بفجور، تحاكي الأفعال النمرودية، والتضاييا الفرعونية.

فمنها أنه غضب يومًا على امرأة، فأمر بفمها أن يخاط، ويتكرر في شفيتها تردد المخاط.

ومنها أنه غضب يومًا على رجل، فقطع من فخذة قطعة، وقال: لا بد أن يُسَيِّعَهَا مُضْغَةٌ مُضْغَةٌ. فحاول الرجل المعذَّب، بعد أن لم يجد له مهرب، أن يأكلها بعد أن تشوى، فلم يسعفه بذلك، فأكلها، نعوذ بالله من البلوى.

ومنها أنه غضب يومًا على رجل مسجون، ذُكِرَ له أنه فَلَكَ بأسنانه الحديد، فأمر بمقمة من حديد، فضربت بها أسنانه، فتساقطت في مرة بلا ترديد.

ومنها أنه غضب على رجل آخر، فأمر بقطع لسانه، فقطعه بعض أعوانه.

وله قضايا مثل هذه كثيرة، ونظائر محققة شهيرة.

فلم يزل في تلك الحال، وأهل بلده يُعانون منه التكنيل والوبال، ثم لما منَّ الله تعالى بظهور هذا الدين، ولمعت شوارق الحق المبين، ونادى منادي المولى الكريم ﴿إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مِّنْ قِبَلِ اللَّهِ﴾، دُعِيَ دهام إلى هذا الحق الواضح، والبرهان الساطع اللائح، فأبى ونفر، وأعرض واستكبر، بل صد الخلق عن الدخول فيه وحذر، وأخذ يسعى لأهله بالمكائد، ويترصدهم في عداوتهم المرصدة، ويستليح^(١) كل معاند وجاحد.

فأول ما تظاهر في هذا الدين بالعداوة والحراية، وجمع لذلك أعوانه وأحزابه، أخزاه الله تعالى وجعل النار مآبه، أنه خان بأهل منفوحة، وهم إذ ذاك قد دخلوا في هذا الدين، وللأمير محمد بن سعود من المتبعين، وهو إذ ذاك مُظهرٌ لمحمد بن سعود الصداقة والاتفاق، ولم يتبين منه قبل هذه الخيانة شقاق. وحاصل ما جرى منه، وصفة ما صدر عنه، أنه عدا عليهم صباحًا، ومعه بعض البوادي، فرقان من آل ظفير، وأهل منفوحة على غرة وغفلة، لم يتبين من العداوة لهم شيء، فكمن لهم في أحد دور البلد ليلاً، وأمر البوادي والخيّل أن تُغيّر على بعض الزروع والنخيل، لكي يخرج أهل البلد، فيعقبهم الكمين على البيوت، فلما أصبح الصباح، وغارت الخيل والبادية على النخيل، وفرغ أهل البلد عليهم، ولم يبق في البلاد أحد من المقاتلة، خرج الكمين ودهام معهم، فلم يخطئوا قصر الإمارة، فصعدوه وقهروا البلد، وأقاموا في ذلك ساعة، فلما

(١) جاء في «لسان العرب» (مادة: لوح): «أَلَاخَ يَثْوِيهِ وَلَوْحٌ بِهِ: أَخَذَ طَرَفَهُ بِيَدِهِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، ثُمَّ أَدَارَهُ وَلَمَعَ بِهِ؛ لِثَبْرِيَّةٍ مِّنْ يُحِبُّ أَنْ يَرَاهُ». ففعل معناها: يستميل، ويتعاون مع كل معاند وجاحد.

علم بذلك مَنْ خَرَجَ، رَجَعَ على عقبه وانزعج، وهموا بالرحيل والنقلة، بلا تثييط ولا مهلة، حتى أن الله أعقبهم بالنصر والفرج، فانشرح صدر كل موحد وابتهج.

وسبب ذلك أن علي بن مزروع، وطائفة معه من أهل الدين، ثبت الله أقدامهم، وأعانهم وأعظم إكرامهم، سعدوا بعض البيوت المشرفة على قصر الإمارة، وبُقُوا يرمونهم منه حتى قتلوا منهم أناسًا، فلما أعيتهم الحِيل وضاعت عليهم السبل، وتحققوا أنهم إن بقُوا ساعة هلكوا، بعدما جزموا أنهم ولوها وملكوا، رموا بأنفسهم من وراء الجدار، إذ لم يكن لهم على معاينة الحِمَام اصطبار، فهربوا وقد لبسوا ثياب الخزي والخيانة والعار، وتَرَدُّوا برداء الرَدَى والشَّتَار، وصار عقبى مَنْ ناوأهم وأخفاهم عنده في تلك الدار، شناعة السمعة وحلول الدمار، وقُتِلَ مِنْ أَشْرَارِهِمْ ورؤسائهم وفُجَّارِهِمْ درع الصمعر وخضير الصمعر وزهمول الفضلي، وغيرهم نحو الأحد عشر، وأصيب دهام صوابين، وقُتِلَ حصانه، وقُطِعَتْ أصابع رجله، وهرب هو ومن معه، يَعُضُّ أنامله من شؤم فعله، ويتجرع حرارة الجرح والصلَف، ويتحسى مرارة الندم والأسف.

ثم لَمَّا تظاهر بعداوة الدين وعداوة ابن سعود، وتمزَّى بذلك وتميَّز، وسؤل له الشيطان أنه للسياسة قد أحرز، حاربه ابن سعود، فلما تيقن ذلك، حمّله الشيطان من التَّيِّه والطغيان، على نذر جَزُور لتاج بن شمسان؛ إن قطع ابن سعود عليَّ الفواره^(١) عادين على بلادي، فلما بلغ ابن سعود وإخوانه المسلمين ذلك، تعاهدوا على أن أول عدوة يعدونها عليه تكون في قصره، فوَفَّوا بذلك الوعد، وبذلوا لتحقيقه الجهد، فأتوا إلى باب القلعة التي فيها قصره، فشذبوا الباب

(١) غرب مدينة الرياض، أصبح الآن حيًا من أحيائها.

بالمنشار، ودخلوا بيت ناصر بن معمر وتركي بن دواس، فعمقوا فيهما إيلاً كثيرة، ورمّوه بالرصاص وهو في عليّته، ثم خرجوا سالمين، ولله الحمد.

ثم بعد ذلك ييسر عدا ابن دواس على العماريّة^(١)، فقتل عبد الله بن علي وعمقروا أبله، فلما بلغ ابن سعود ذلك جمع أهل الدرعية وأهل عرقة، فرأى أنه يرصدهم ويكمن لهم في فيضة لبن^(٢)؛ لأنها طريقهم الذي يرجعون منها، وكان ابن دواس قد كمن فيها، ورصد هو وإخوانه خوفاً على عدوته أن يشد عليهم الطريق، ولم يشعر بذلك ابن سعود وجماعته، حتى توافى الفريقان في الفيضة، واقتتلوا ساعة، ثم انهزم دهام وجماعته، والمسلمون بأثرهم، حتى طلعت عليهم عدوة ابن دواس التي صدرت من العمارية، فلم يشعر المسلمون إلا وهم خلفهم، فانكسروا، ولم يقتل إلا رجلان أو ثلاثة منهم، أكرمهم الله بالشهادة، ورجع كل منهم وقصد بلاده.

ثم بعدها بمدة يسيرة جرت واقعة مذكورة شهيرة تدعى وقعة الشياب؛ لأنه قد قُتل منها شياب من آل ابن شمس من أهل الرياض، وصفتها أن عثمان بن معمر مع جماعته من أهل العُيَينة، ومحمد بن سعود مع جماعته من أهل الدرعية، ساروا جميعاً إلى أهل الرياض، فلما قربوا من البلد، أغار بعضهم على نواحيها وكمن بعضهم، فخرج دهام مع أهل الرياض، فالتقوا بمكان يسمى الوشام^(٣) خارج السور، فلما خرج الكمين عليهم انهزموا، ولم يأل أحد على أحد، بل كل منهم عربد وشرد، وقُتل منهم نحو العشرة من المشهورين، منهم أحمد بن علي بن ناصر وشايبان من آل شمس.

(١) بلدة تقع شمال غرب الرياض بحوالي ٢٠ كم.

(٢) غرب الرياض.

(٣) روضة معشبة تجتمع فيها السيول. أصبح الآن من أحياء مدينة الرياض.

ثم بعدها الوقعة المسماة بوقعة العبيد، وذلك أن ابن سعود خرج في أهل الدرعية، وقراها خاصة، وسار على أهل الرياض، وعبأ كمينه في جرف يقال له جرف عبيان، ثم أغار على البلد، فخرج ابن دواس ومن معه من المقاتلة خارج السور، فلما التقى الفريقان خرج الكمين، فرجع دهام ومن معه مكسوراً، وقُتل منهم نحو العشرة، غالبهم عبيد، ولهذا سميت بهم الوقعة بلا ترديد، وتسمى أيضاً وقعة غيبة؛ لأن القتلة بقُوا فيها أياماً بلا دفن، وكفى بذلك مصيبة، وبقي دهام بعدها متحسراً، وفي أمره متندماً متحيراً، إلا أنه للحرب في تهيو واستعداد، وفي التأهب للملاقاة وجمع الأمداد، طلباً للمقاضاة والأخذ بالثأر ليشفي الفؤاد، فأجمع أمره، وصمم رأيه وفكره، أن يأتي إلى الدرعية ويغير، ويجعل الكمين فيما خفي من الحفير، فجمع الحاضرة والبادية، فأصبحت خيله على البلاد عادية، فخرجوا إليه سراعاً، ولم تألوا المقاتلة غير القتال دفاعاً، بل باعوا النفوس دفناً عن الحرم، حتى كشفه الله تعالى فانهزم، غير أن المسلمين لما ظهر عليهم الكمين، ولى غالبهم مُذْبِرِينَ، وقُتل خمسة من المسلمين، ومن مشاهيرهم فيصل ابن الأمير محمد بن سعود، وأخوه سعود ابن الأمير محمد. وكان الأمير محمد، رحمة الله عليه، حين خرج ورأى أن الغارة لم تُفد، ولم تعرج على نقص أحد، أشار برأي مبارك ميمون، وهو أنهم إلى بلادهم يرجعون، ولا يناشبونهم القتال، خوفاً من الكمين بالرجال، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وبعد هذه شمر الأمير محمد للحرب ساعده، ولم تكن همته عن القتال قاعدة، بل كانت إلى ذرى المعالي صاعده، وفي هذه الواقعة من الفوائد النافعة والمصالح الجامعة، لمحمد والمسلمين، ما لا نحُدُّه ولا نُعَدُّه تحريراً ﴿فَمَسَّحَ أَنْ تَكْرَهُوا سَيْفًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا﴾ وكانت هذه الوقائع المسطرة، والأفعال المقررة، في حدود السنة التاسعة والخمسين بعد المائة والألف.

ثم دخلت سنة الستين بعد المائة والألف.

وفيها وقعة تسمى وقعة دلقة^(١) وذلك أن أهل العُبَيْنة وأهل حُرَيْمَاءَ وأهل الدَّرْعِيَّةَ وقَرَاها وأهل منفوحة، خرجوا في ربيع الأول يريدون الرياض ومصادمة أهلها فيها، فانفلت رجل من أهل حريماء يقال له أبو شَيْبَةَ من آل داود، فأَنْذَرَ دَهاَمَ وجماعته، فلم يأتهم المسلمون إلا وهم مستعدون للقتال، فصَبَحَهم المسلمون في جوف البلد، فلذا سُمِيتَ وقعة دلقة فاقْتَتَلُوا فيها قتالاً شديداً، وحَمِيَ القَتْلُ عند باب القصر، والتقى دَهاَمُ بن دواس مع حَمْدُ بن مُحَمَّد بن مَنِيس، وكان فائِزاً، وتقاتلا رَجُلَيْنِ، فَضْرَبَ حَمْدُ بن مُحَمَّد دَهاَمًا ضَرْبَاتٍ بالسيف في جسده ورأسه، حتى أَتَى مُوسَى بن عيسى الحريص إلى حَمْدُ بن مُحَمَّد من خلفه، فقتله وصار سبباً لسلامة دَهاَمَ، بعد أن أَشْرَفَ على الحِمَامِ، ثم لم يكن جزاؤه له مع فعله فيه الجميل إلا المعاقبة والتنكيل؛ وذلك أن موسى بن عيسى بان له الإسلام وأراد الهجرة، فذَكَرَ ذلك لدَهاَمَ، فأمر بقطع يده ورجله ففُطِغَتَا، ونَفَاَهَ إلى الدرعية، فلم يَبْرَحْ إلا ثلاثة أيام فمات.

وقُتِلَ ذلك اليوم من أهل الرياض مُحَمَّدُ بن سودا وسرحان البكاوي وابن مسيفر وثمانية غيرهم، وأما الجراحات فكثير، واستشهد من المسلمين حَمْدُ بن مُحَمَّد وحموؤُ بن حسين بن داود وسليمانُ الزير وحسن الشميري وغيرهم. وكانت تلك الغزوة من غير رضا عثمان بن معمر ومشورة، لما يَتَهَمُونَهُ من النفاق وموالاته لأهل الباطل خفية، إلا أن هذه الوقعة زادت رجساً إلى رجسه، وَخَبَّتْ بها دَعْلُ نفسه.

ثم لما رجع كلُّ إلى بلده، وآبَ إلى مسكنه ومعْهَدِهِ، ومَرَّ أهل حريماء على

(١) مَوْضِعٌ فِي الرِّيَاضِ. «مَعْجَمُ مَدِينَةِ الرِّيَاضِ» (ص ٤٠).

العُيُنة، طلب عثمان بن معمر من أمير حريملاء محمد بن مبارك العهد والميثاق، على الإخاء والمصافاة والاتفاق، وذلك لما أبطن من الشر، كما كان شأن ذوي النفاق، مع أن قلبه قد مُلئ من الرعب والوجل، وخالطه الخوف والذل والخجل، ثم إن عثمان غشيه الندم، وجلَّه الفشل، حيث لم يكن مع الغُزاة قد عزم، وخشي وقوع الإذلال والإهانة، وتصديق ما يُرمى به من النفاق والخيانة، فأرسل إلى الشيخ وإلى الأمير محمد بن سعود، يستشفع إليه بكل صديق وودود، في قبول العذر والاعتذار، والصفح عن التخلف الذي صار، فقبلاً منه جليّ عذره، رجاء منهما ألا يعود إلى مكروه، ثم إنه قدم إليهم ووفد عليهم، ومعه وجوه أهل حريملاء والعُيُنة، وعاهد الشيخ ومحمد بن سعود على الجهاد، والقيام بالنصرة والاستعداد، ولو إلى أية بلاد، فتوهموا فيه الصدق والوفاء، وغاب عنهم ما كمن بقلبه واختفى، فعندها رأسوه وكبرّوه، ورفعوه على المسلمين وأمرّوه، وصار ابن سعود له متقاداً، ولأمره طالباً مرتاداً، ولا يخالفه ولا يشاققه، بل يتابعه ويوافقه، في السفر والبلاد، والغزو والجهاد.

وكان من أعظم ما على عثمان به نُقم، وأوضح ما رُمي به واثمهم، أنه أرسل إلى إبراهيم بن سليمان أمير ثرمداء، وأمره أن يركب إلى دهام مع جماعته، ويسوّسه ويزين له الاتفاق مع عثمان والقُدوم عليه إلى العيينة، ويتفوه في المجالس والمحافل، أنه لمنهج الإصلاح مائل، ولتكثر سواد المسلمين فاعل، والله أعلم أنه خائن خاتل، فحسّن له تلك الأفعال، وقدم إبراهيم مع دهام بلا إمهال، فاجتمعوا عند عثمان في ذلك المكان، وكان ذلك من غير مشورة للشيخ وابن سعود ولا غيرهم من الأعيان، فصار سبباً لما ناله من الذل والهوان، فحين علم بذلك أهل البند، ورأوا دهاماً إليه قصد، شق عليهم ذلك وعابوه، ولكنهم من الفتك به هابوه، وذلك أنهم عرفوا مراده وقصده، وتحققوا ما بذل فيه طاقته

وجهد، لما يشاهدونه منه، ويأثرون عنه، من موالاته أهل الضلال والمبطلين، وإبعاده عن حزب الموحدين، فاجتمع أهل البلد جميعاً، وساروا إليه سريماً، فلما اجتمعوا عنده، ورأى ما أصابهم من الكآبة والشدة، مؤه عليهم مطلوبه وقصده، وقال لهم: ليس لي مراد، إلا الإرسال للشيخ من تلك البلاد، حتى يحضر عقد الصلح، ويتم بمجيئه المرام والصلح، ويدخل دهام في دائرة الإسلام، ويحكم عليه العهد غاية الأحكام، فاطمأنت نفوس القوم، لأجل قوله ذلك اليوم.

ثم إنه أرسل إلى الشيخ تلك الليلة، وأعملوا في قدومه الحيلة، يحثه على المجيء والحضور، ويستدعيه إلى ما دبره من الأمور، وقد ألقى الله في روع الشيخ خيانه، وتحقق أنه لم يؤف أمانته، بل حكى أن الشيخ جاءه النذير، يحذره عن الحضور والمسير، وأبدى غاية الامتناع، وتعدّر عن الموافاة والاجتماع، فلما أخبرهم الرسول، بعدم القدوم والمثول، عرف المسلمون من أهل البلد، ما أعمله عثمان من المكر واجتهد، فحصرُوا ابن دواس في قصر عثمان، وهموا به إذا خرج بلا استئذان، فلما جنّ الظلام خرج دهام هارباً، ولبله طالباً، وللهوان والخزي كاسباً، وكان صدور هذا الأمر منه، والتفوه بالمكر عنه، قبل أن يأتي إلى الشيخ والأمير محمد، ويأخذ منهما العهد المجدد، فلما تحقق عثمان من جماعته الغيظ والغضب، خاف من وقوع الشقاق وارْتَقَب، وأخذ يصانعههم ويرضيهم بقوله، ويعتذر إليهم مما صدر عن فعله، لعلهم إلى ما كانوا من محبته يرجعون ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم لما أبطل الله تعالى كيدهم وما أرادوا، وعلموا أنهم تضمخوا بقدر الخيانة وما أفادوا، ووصل إبراهيم بن سليمان إلى ثرمداء، تدرع لباس الحراية وارتدى، وتنصل عن الدين واعتدى، وفارق منهج الحق والهدى، وبادر المسلمين بالحرب وابتدا.

ثم دخلت السنة الحادية والستون بعد المائة والألف.

وفيها جرت وقعة تسمى وقعة البنية^(١) وذلك أن عثمان بن معمر لما أُعطي العهد وأمر، كما ذكرنا، سار بمن معه من أهل الغينة وأهل حريملاء ومحمد بن سعود وأهل الدرعية وقراها وأهل ضرما إلى الرياض، فأتوها من شرقها يمشون في وادي الوتر، حتى نزلوا بين العود والبنية، فلم يجر ذلك اليوم قتال، إلا أن رجالاً من المسلمين تراموا مع أهل البلد من بعيد، فقتل من أهل الرياض سليمان بن حبيب وأناس معه، وأصيب منهم كثير، ودخل قلوبهم من الرعب أمر كبير، واستشهد من المسلمين عبد الله بن عبيكة وابن عقيل.

فلما كان آخر اليوم سار المسلمون إلى منفوحة، وأقاموا بها ثلاثة أيام، يتداولون الرأي ويبرمونه غاية الإبرام، حتى انتظم الرأي واتفق، واجتمع الفكر واتسق، على المسير إلى الرياض والمكابرة، ومنازلتهم بالجد والمصابرة، فتعبأ المسلمون للقتال، وافترقوا فرقتين للمحال، فعمدت فرقة إلى صباح^(٢)، فدخلوه وقت الصباح، فاستولوا على ما فيه من الأموال، وذلك بعد شدة القتال، وقتل من مشاهيرهم موسى بن عبد القادر. والفرقة الأخرى ساروا أهل حريملاء وأهل عرقة، فعمدوا إلى مقرن^(٣)، فدخلوها حتى وصلوا إلى الظهيرة، وكان جملة أهل البلد قد اجتمعوا فيها عند قصر دهام بن دواس، فاقتتلوا ملياً، ثم خرج من ذكرنا من المسلمين بعدما اجتمع أهل البلد منهزمين، وقتل من المسلمين خمسة وعشرون رجلاً، فخرجوا مسرعين.

(١) موضع في مدينة الرياض، غرب البطحاء.

(٢) حي من أحياء الرياض. كان قديماً هو ومعكال ومنفوحة بلدان مستقلة.

(٣) كانت بلدة عامرة تقع في قلب مدينة الرياض. انظر تحديدها في «معجم مدينة الرياض»

ثم إن دهاماً وقومه لما فرغوا من قتال تلك الطائفة، أسرعوا في المسير إلى صياح، وكان من وليها من المسلمين، إذ ذاك في البيوت والنخيل متفرقين، فدهمهم فيها دهام، وأكرم الله بالشهادة من قرب له الجمام، وجاءهم بمن معه بغة، وكان افتراقهم ذلك اليوم فلة، فقتل منهم عشرون، وكان جملة من استشهد ذلك اليوم خمسة وأربعون. ثم لما ظهر المسلمون عن البلاد، اجتمعوا خارجها فهدموا جدران البنية، وهدموا تلك المربعة المبنية، فلهذا سميت بهذا الاسم، ووسمت بهذا الوسم، ثم رجع كل إلى بلاده، ووطن أهله وأولاده.

وفي السنة المسطورة جرت وقعة تسمى وقعة الخريزة، وسُميت بذلك لكون القتال في مكان يقال له الخريزة^(١) وذلك أن عثمان بن معمر سار بأهل العيينة وحرملاء، وعبد العزيز بن محمد بأهل الدرعية وقراها وأهل ضرماء، فساروا جميعاً، وأميرهم عثمان بن معمر، حتى نزلوا بصياح، فلم يكن لأهله عن الخروج من براح، فخرجوا إليهم سراعاً، وراموا عن البلد دفاعاً، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل من أهل الرياض ستة تقريباً لا تحديداً، وقتل من أهل العيينة نحو عشرة رجال، ومن أهل الدرعية ومنفوحة ستة بلا إشكال، وقطعوا من شمار المعلقة، أربعة من النخيل محققة، ثم رجعوا إلى بلدانهم، وساروا إلى أوطانهم.

وفي السنة المسطورة أيضاً جرت وقعة عظيمة تسمى وقعة البطين؛ لكون الواقعة والقتال صدر في مكان يقال له البطين^(٢) وذلك أن عثمان بن معمر سار بأهل العيينة وحرملاء، وعبد العزيز، حرسه الله تعالى، بأهل الدرعية وقراها

(١) قال ابن بشر (١ / ٢١): «موضع في صياح».

(٢) قال ابن بشر (١ / ٢١): «موضع قريب من ثرمدا».

وأهل ضرما، والأمير على الجميع عثمان، فساروا إلى ثرمدا، فنزلوا بها ليلاً حتى انغلق الصبح وبدا، وقد جعل المسلمون لهم خارج البلد كمينا، يكون لهم إذا نُسب القتال مُعيناً، فلما أصبح الصباح، واتضح النور ولاح، خرج أهل البلد إليهم، وأقبلوا للقتال عليهم، وتناشبت الرجال، وضاق مجال القتال، خرج إذ ذاك عليهم الكمين، فولّوا الكفار مُدْبِرِينَ، ومنح الله تعالى المسلمين أكتافهم، وقتل أشرفهم، وكانت القتلى نحو السبعين، على سبيل التحقيق لا التخمين.

ثم بعد ذلك التجأوا إلى قصر يسمى الحريص، فتحصنوا فيه وخلت البلاد من المقاتلة، فأشار عبد العزيز وجماعة معه على عثمان بدخول البلد والمعالجة، فأبى عثمان من ذلك وكانت منه مكيدة ومخاتلة، فعند ذلك استطال عليه عبد العزيز بالكلام، ووبخه ولامه غاية الملام. ثم إن عبد العزيز، حفظه الله تعالى، نهض مريداً دخول البلاد، من غير توقف ولا استرداد، وأمر بذلك جميع أتباعه، فبادروا لامثال أمره وأتباعه، ولكن كان الذي معه ذلك اليوم نَزْر يسير، ومع عثمان الجَم الغفير. ثم إن عثمان بن معمر بعد تلك المراجعة، وصدور تلك المنازعة، ارتحل راجعاً إلى بلاده، وبقي عبد العزيز متحيراً بين الدخول فيفوز بمراذه، أو اللحق بعثمان فيوافقه في ارتياده، حتى اختار الله تعالى له ما اختار، فجَدَّ في لحوقه فلم يأتَه إلا آخر النهار.

وأعظم ما صرَف في رأي عبد العزيز عن دخول البلاد، قلَّة مَنْ بقي معه من الأجناد، فأشار عليه وجوه مَنْ بقي معه، أن يلحق بعثمان فلحق به وتبعه، إلا أن الأحوال متغيرة، والقلوب بينهما متنافرة، فلما أضاء صباح الليلة، وأسفر جمع عبد العزيز حرس الله تعالى جميع الغنيمة، وأحضر ونادى بالرحيل في قومه وثوَر، وأخذ سائراً على طريق الخبرة، لما أجمع على المفارقة أمره، وقال: لا

بد من إحضارها عند الشيخ وابن سعود، حتى يقسمهاها على المنهج المحمود.
فقدم بها عليهم، وأحضرها لديهم.

وفي تلك السنة أيضًا غزا المسلمون ثمرًا مرة ثانية، ولم تكن همتهم عن
الجهاد وانية، والأمير عليهم عثمان، ولم يخرج من أهل البلد للقتال إنسان،
فدمر المسلمون المزارع، إذ لم يحلّ دونها من مدافع، ثم انقلبوا مسرعين، وإلى
بلدهم راجعين.

وفيها أيضًا غزا المسلمون ثادق، فلما وصلوا إلى قرب تلك المرافق، وكان
وصولهم ليلاً، وعبأوا الجيش واستعد الكمين، حتى ينشب القتال ويستين،
فلما خرج المقاتلة، ظهر الكمين بالمعاجلة، فأخذوا عند ذلك منهج الفرار،
ولم يكن لهم على لقاء المسلمين من قرار، وقُتل منهم عند الانكسار محمد بن
سلامة وستة معه، وأخذوا جميع الغنم المرتبعة.

ثم دخلت السنة الثانية والستون بعد المائة والألف.

وفيها وقعة تسمى الجبونية^(١) سميت بذلك لأن القتال بها صار، وحُدم ما بها
من جدار، وذلك أن المسلمين ساروا إلى الرياض، وأميرهم محمد بن سعود،
رحمه الله تعالى، فلم يصلوا إليها إلا وضوء الصبح قد انتشر، وخرج أهل البلد
إذ لم يأتهم ما يوجب الحذر، هذا وجيش المسلمين قد استعلى على تلك
البروج، فلم يكن لأهل البلد إليها من عروج، وأخذوا يترامون معهم
بالرصاص، ولكن ليس إلى المقاربة من سبيل ولا مناص، وقد قُتل بينهم رجال
في ذلك المجال، فقتل من المسلمين ثلاثة: عبد الله بن شوذب وعبد الله بن
حمود وغنام بن دعيج، وقُتل من أهل الرياض سبعة، منهم عبد الله بن سبيت،

(١) حي كبير في جنوب الرياض.

فلما غربت الشمس ذلك اليوم سار المسلمون إلى منفوحة.

وقد وقعت في هذه السنة وقعات كثيرة، لكنها صغار، فلهذا لم يكن لنا إلى تعدادها اعتبار.

ثم دخلت السنة الثالثة والستون بعد المائة والألف.

وفيها مقتل عثمان بن معمر، جزاء لما أبطنه وأضر، وذلك أنه لما تزايد شره على أهل التوحيد، وأخذ يعمل في إذلالهم بلا ترديد، وظهر للمسلمين بغضه، وبدا لهم منه هجرانه ورفضه، وتبين لهم مولاته لأهل الباطل، وما ربك عما أراده بغافل، وتحقيق تقريبه للمنافقين واستتلافه، واشتهر شقاقه للمسلمين واختلافه، وكانت حاله بذلك شهيراً^(١)، «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلَّيْ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلَبِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

فلما تحقق الشيخ عنه ما ذكر، وتيقن ما سطر، وجاءه أهل البلاد كافة، وشكوا إليه خشية العذر والمخافة، وتثبت في تسطير هذه الأنقال، وتحرير ما يُرْمَى به من سبب الأفعال، وتحقيق ما له أنبيى وخشي، على المسلمين وقوع ما به رمي، قال لمن قدم إليه ووفد عليه من أهل العينة: أريد منكم البيعة على دين الله ورسوله، وعلى موالاة من والاه، ومعاداة من حاربه أو ناواه، ولو أنه أميركم عثمان. فأعظوه على ذلك صفقة الإيمان، فتتابعوا على البيعة أفواجاً، فملئ قلب عثمان من ذلك رعباً وانزعاجاً، فعتد ذلك زاد ما به من الغل

(١) قال ابن بشر (١ / ٢٣): «قيل إنه أتاه كتاب من محمد بن عفاقي يُحَرِّصُه على معاداة المسلمين، ونقض بيعتهم، وعدهم». قلت: انظر مراسلاته مع ابن عفاقي عدو الدعوة في بحث «موقف عثمان بن معمر من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب»؛ للدكتور عبدالعزيز آل عبد اللطيف. ضمن كتابه «بحوث علمية محكمة» (ص ٢٩٣ - ٣٠٩).

والحقد، وزين له الشيطان أنه لا يفوز بالقصد، حتى يفتك بأهل الإيمان، ويُجْلِي مَنْ يُسَلِّم لَأَقْصَى الْبِلْدَانِ، فينجلي ما بقلبه من الهم والأحزان، فأرسل لابن سويط^(١) وإبراهيم بن سليمان^(٢) يحثهم ويدعوهم إلى المجيء عنده والاجتماع، حتى يُنْفِذَ ما عزم عليه بالمسلمين من الإيقاع.

فلما تحقق أهل الإسلام، ما عزم عليه من ذلك المرام، وأبرز الملك العلام، لذوي الأبواب من الأنام، مصداق قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾، فتعاطى الأيمان على قتله من أهل التوحيد أناس، أرادوا بذلك القرية وإراحة الناس، وإزاحة ما عزم عليه من إيقاع النعمة والبأس، ومن مشاهيرهم حمد بن راشد وإبراهيم بن زيد، فأبطل الله بهم ذلك المكر والكيد، فلما انقضت صلاة الجمعة، وخرج سرعان الناس مُسْرِعَةً، قتلوه في مسجده ومصلاه، وأريخ المسلمون من أذاه، فلم يَنْتَضِ لذلِكَ سِنَانٌ، بل لم تنتطح لمقتله عزان، بل أُعْمِدَتْ، واللَّهُ المَحْمُودُ، قَوَّاضِ الْفِتْنَةِ، وَأُخْمِدَتْ لَوَاهِبِ الْمِحْنَةِ، واطْمَأَن المسلمون، ﴿أَمْ أَرْمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾، ﴿وَمَكْرُؤٌ مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فلما قُدِمَ إلى الدرعية بتحقيق هذه القضية، وأسرع بذلك إلى الشيخ والأمير محمد البشير، عجل الشيخ إلى العيينة المسير، وذلك لما خشيه من الاختلاف، وعدم الموافقة والاتلاف، وقدم عليهم ثالث يوم، فهدأت لمقدمه نفوس القوم، وتجاذبوا عنان الرأي والمشورة، والقضية في ذلك مشهورة، في الترييس والتأثير، وتفويض الرياسة والتدبير، والكل بما يوافق مراده مشير، إلا أن أهل

(١) رئيس الظفير.

(٢) رئيس ثرمدا.

التوحيد والإيمان، لا سيما من باشر أو سعى في قتل عثمان، حاولوا ألا يؤمروا من حمولة ابن معمر، ولا يولى عليهم منهم إنسان، خشية أن ينالهم منه ذل وهوان، فلم يوافقهم الشيخ في مرادهم، ولم يعرج على اجتهدهم، بل أبى وأعرض عن ذلك، وجنح إلى تمهيد المسالك، وإيضاح المحجة للسالك، فرأس عليهم مشاري بن معمر، وكبره فيهم وأمر، وكان ذلك منتصف رجب، كما حققه من حسب.

وفي هذه السنة أيضًا وقعت وقعة البطحاء^(١) وذلك أن المسلمين عدوا على الرياض ليلاً، فدخلوا البلاد، واستحروا القتال والجلاد، عند باب المروة، بعدما دخلوها فجوة، فلما تراجع على المسلمين الإفزع، نهذ^(٢) غالبهم إلى الخروج والإسراع، ودارت الحروب على سبعة، وحصلت لهم من الله إعانة ومنعة، منهم: علي بن عيسى الدروع وسليمان بن موسى الباهلي ومحمد بن حسن الهاللي وعلي بن عثمان بن ريس وعبد الله بن سليمان الهاللي وإبراهيم الحر، فاقتتلوا أشد القتال، مع ضيق المعترك والمجال، فقتل تلك الساعة، من مشركة تلك الجماعة، ناصر بن معمر وجنيدل وخمسة آخر، ولم يقتل من المسلمين إلا عبد الله بن سليمان وسليمان بن جابر من الأولين.

وفيها أيضًا جرت وقعة تسمى وقعة الرطبة^(٣)، وكانت من أعظم قضية، وذلك أن المسلمين غزوا، وأميرهم عبد العزيز، حفظه الله، وساروا إلى ثرمدا سريعا، فجاءهم النذير، فاجتمعوا مع أهل وثيبه ومرات جميعا، فلم يأتهم

(١) حي من أحياء الرياض، يقع شرق دخنة.

(٢) يقال: نهذ القوم إلى بعضهم البعض؛ أي تجمعوا واستعدوا للحرب.

(٣) قال ابن بشر (١ / ٢٤): «موضع معروف في بلد ثرمدا».

الجيش والأجناد إلا وهم في أتم الاستعداد وتأهب للجلاد، وقد برزوا خارج البلاد، ولكن المسلمون قد أعدوا لهم كمينًا، فلما استمر القتال مليًا، خرج عليهم ذلك الكمين، فانهزموا مدبرين، وقتل منهم خمسة وعشرون، منهم أمير وثيشه علي بن زامل، وسببهان، وكثير من تلك الشجعان.

ثم دخلت السنة الرابعة والستون بعد المائة والألف.

وفيها عدا المسلمون على الرياض، فاقتتلوا داخل البلد حتى ذهب الصبر والجَلَد، وتلاحقت أهل البلاد على المسلمين، فخرجوا بعد القتال منهزمين، وقد قُتل أناس من المشركين، وقُتل نحو الثمانية من المسلمين، منهم علي بن عيسى الدروع، خانه القضاء فلم يفر لما كثرت عليه الجموع كَثُفَ، وكان من الفتاك والشجعان، المشهورين بالعلو على الأقران، والصبر عند الطعان، في ذلك الوقت والزمان.

وفيها ارتد إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن أمير ضрма، ورجع عن الإسلام وخان، وقُتل من أشرف جماعته وقومه، لشؤم فعله ولومه، عمر الفقيه ورشيد العيزار وابن عيسى، لكونهم من أهل الإسلام والدين، وفي الدنيا من أهل الثروة والتمكين، فأخذ ما لهم بعد قتلهم أجمعين، فلم يبق بعد هذه الفعلة، سوى أربعة شهور في المهلة، حتى قُتل هو وأولاده هبدان وسلطان، وأناس غيرهم من الأعوان، المشهورين بالتعدي والطغيان، وهرب من سلم إلى سائر البلدان.

وصفة ما صدر: أن آل سيف السايرة صقر وإخوانه وإبراهيم بن سلطان آل ذباح، تعاهدوا وتعاطوا الأيمان، على الفتك به لما ارتد وخان، فأتوه مع جماعته وهم في المجلس قعود، فقتلوهم وفازوا بالمقصود، ثم بعد هذه القضية المسطورة، وتلى الأمير محمد بن سعود عبد الرحمن إمارة ضрма المذكورة.

وفيهما غزا المسلمون الزلفي، وأميرهم إذ ذاك عبد العزيز، فلما وصلوا الحسي^(١) حُمَّ عبد العزيز، حفظه الله، فأمر على الغزو عبد الله بن عبد الرحمن، وانقلب راجعاً، فأغار الغزو على الزلفي، وأخذ غنماً كثيرة ثم رجع. ثم دخلت السنة الخامسة والستون بعد المائة والألف.

وفيهما جرت خيانة أهل رغبة لأهل سدير والوشم، وذلك أن أهل سدير والوشم وجرّو معهم آل ظفير، وحزّبوا على أهل رغبة، وهم إذ ذاك قد دخلوا في الإسلام، وجرت عليهم الأحكام، فحصرهم في البلد أيام، ثم إن بعض أهل البلاد، جنحوا إلى طريق الفساد، وأدخلوا تلك الأحزاب والأجناد، وحقن الله دماء أهل التوحيد من ذوي الإفساد، إلا أنهم أخذوا جمع أموال البلاد، وصب الله على أهلها سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد، فأصبحوا بعد حلول هذه المصائب عليهم والثقم، يَعْضُونَ أنامل الأسف والندم، على ما حلَّ بهم ودَّهم. وفيها أيضاً حزّب أهل الضلال؛ أهل الوشم وأهل سدير وأهل الجنوب وآل ظفير وجلوية ضرما، فساروا إلى ضرما، وحصروا أهلها أياماً، وعزموا أن يطيلوا بها مقاماً، وفي مدة هذه الإقامة، كلُّ شَدِّ للقتال ساعده وشدّد سهامه، حتى أنهم في بعض أيام الحصار، نصبوا السلالم على رفيع ذلك الجدار، وأرخصوا في نيل مطلوبهم غالي الأعمار، طلباً للفوز بالمنى والأوطار، وأخذوا بأنفة الثأر، فصعد منهم السور، مَنْ قُرْب أَجَلُهُ من الحضور، وكانوا نحو الثلاثين، فلم يرجع منهم أحد، وقُتِلَ غيرهم خلق كثير يزيدون على العشرين في العدد، وغالب القتلى من أهل الحريق، ومنهم حمد بن عثمان الهزاني على التحقيق، ثم رجعوا بعد ذلك خاسرين، ومن مرادهم خائبين.

(١) تبعد عن الرياض شمالاً حوالي ٩٠ كم.

وفيها غزا المسلمون الخرج، وأميرهم في تلك الغزوة مشاري بن معمر، فأغار على الدلم، وأخذوا جميع سوائم الغنم، ثم انقلبوا راجعين، ولبلدانهم طالبين، فافتقى أهل الخرج آثارهم، بعد ما تحقق عدتهم وعرف أخبارهم، ف وقعت في عفجة الحائر الموافاة، وحصلت المصادمة والملاقاة، فأناخ لهم المسلمون، وكلهم للموت مستوطنون، لأن عددهم على الأربعين لا يزيد، والفرع فوق المائة بالتوكيد، فوطئوا نفوسًا عن الفرار أبيّة، وأخلصوا عند ذلك النية لخالق البرية، وصبروا عند هذه البلية، فجرى القتال من بعيد، والكل يرمي بالبنادق ويوجد، فلما رأى المسلمون ذلك لا يجدي ولا يفيد، نهدوا عليهم للاختلاط، وعاجلوههم لقصد الارتباط، فلما عاينوا من المسلمين الموت، عرفوا أن لا منجا سوى الهروب والفوت، فكلّ منهم امتطى راحلته ونار^(١)، وآثر الهروب والفرار، ولم يكن لهم على ملاقاتة المسلمين اضطبار، وقُتل المسلمون منهم قريبًا من الثلاثين رجل، منهم شريقان قُرب له الأجل، وأخذوا كثيرًا من الركائب والسلاح، وبدأ للمسلمين في ذلك الطلب الفلاح، وكان خيرة لهم وصلاح، كما قيل:

الصبر كالصبر مُرٌّ في مذاقته لكن عواقبه أحلى من العسل

وأعلى من ذلك وأرفع، وأعلى منه وأنفع، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، متع الله به المسلمين، وأغاروا على فريق بدو يقال له (دهيمان) فأخذوهم أجمعين، وقُتل من المسلمين اثنان: علي بن عثمان بن ريس وابن جري عمران.

وفيها وقعت من أهل حريملاء الردة والافتتان، واجتمع على ذلك كل إنسان،

(١) نار: هرب.

من أهل الفساد والعصيان، وتمالأوا على قتل مَنْ عندهم من أهل التوحيد والإيمان، وحملهم على ذلك الشيطان، وزين لهم ما كانوا عليه سابقاً من البغي والطغيان، وزخرف لهم سننهم القديمة في غابر الزمان، وأظهر لهم أن شوارق الدين والإيمان تُعْتَبَهُم الذلة والهوان، فصار كل منهم إلى الفتنة ظمآن، وإلى لقاء الردة ولهان، فلهذا أوضحوا سبل الفتنة والردة، وأخذوا في تهينة أسبابها المُعَدَّة، وأقاموا جهراً أعوجهاً، وشادوا طريقها ونهجها، وتبينت لها منهم أسباب، وتوهم المسلمون منهم قبل وقوعها فتح باب، وعرفوا أنهم على الدين ليسوا بماكثين، بل ناقضين للعهد ناكثين.

واستشق الشيخ من أخيه سليمان، أنه لأسباب الردة معوان، وأنه يُلقِي إلى الرؤسا، وخاصة من الجلُسا، شُبهاً كثيرة، وإنما دعاه إلى هذا الحسد لأخيه والغيرة، فلاجل إلقائه عليهم الشبه، وترويجه عليهم بما خفي معنى واشتبهُ، كاتبه الشيخ وناصحه، بل أنه وكافحه، وحذره شؤم العقابة، وبين له أنه لا يُدرك مطالبه، فلم تُجِدِهِ النصائح والإنذار، ولم بجنح إلى منهج الاعتبار ومحجة الاستبصار، والطمأنينة والسكنى في تلك الديار، بل طلب واختار ركوب كواهل الأخطار.

وكان سليمان قبل أن يُطير من الردة اللهب، حين عزله الشيخ وعتب، أرسل إلى الشيخ رسالة، حَبَّرَ فيها كلامه ومقاله، وزخرف فيها أقواله، ولكنها للعهد قد تضمنت، ولعقد الإيمان قد حوت وأحكمت، أنه إن وقع من أهل حريملاء ارتداد، لا يقيم يوماً في تلك البلاد، فلم يَفِ بذلك الوعد، بل أخلف الميثاق والعهد، وآثر السكنى والبقاء، أيام الفتنة والشقاء، كيف لا وهو أبو غدرها، والباعث على تأسيس أمرها، والداعي إلى تأسيس قبيحها ونكرها.

وصفة ما جرى وصدرو، وظهر منهم وبدرو، أن كبار القرية، الذين تعاهدوا

على الفرية، عزلوا محمد بن عبد الله بن مبارك، وكان هو الأمير، وولي التنفيذ والتدبير، وأصابه منهم إنسان، يسمى ابن حوشان، ثم أجلّوه مع أولاده، عن مسكنه وبلاده، وفرّ غيره من أهل الدين، إلى بلدان المسلمين، منهم عدوان بن مبارك وابنه مبارك بن عدوان وعثمان بن عبد الله أخو الأمير وعلي بن حسن وناصر بن جديع وغيرهم، فأتوا إلى الشيخ وإلى الأمير محمد بن سعود، فأخبروهم بذلك الأمر المشهود، وشرحوا لهم تلك الأفعال، وبينوا لهم من نهّد فيها من الرجال.

ثم بعد ذلك بأيام قلائل، أرسلوا حمولة الأمير وعصابته إليه الرسائل، وزيّنوا له المجيء والقُدوم، وحسنوا له الإقبال والهجوم، ووعدوه بعد الوصول، المساعدة على المأمول، والقيام معه والتبيين، وردّه في منصبه والتّمكن، فاستشار الشيخ في ذلك والأمير، ولم يكن أحد منهما بذلك مشير، وقالوا: إن كان لا بد أنت فاعل، فإني لمدد معك جاعل، يكون لك عوناً على من هو خاتل. فأبى عن المراد، وأقبل بمن معه من العباد، حتى دخل تلك البلاد، وكان دخوله في عسق الدجا، فلم يشعر به جماعته إلا حين توغل وفجأ، فلما تلاّوا من الفجر نوره، وولى من الظلام دبجوره، تبين عند أهل البلد مجيئه وحضوره، فلم يكن لهم عليه بد من القيام، فأقبل عليه منهم فنام، وجَرَّعُوهُ كَأْسَ الْحِيَامِ، وَكَتَبَ لَهُ الشَّهَادَةَ وَمَنْ مَعَهُ الْمَلِكُ الْعَلَامُ، إلا مبارك بن عدوان فهرب، وأعجزهم في الطلب، وكان جملة المقتولين ثمانية، كانت مناياهم دانية، ولم يحصل من رفاقته النصرة له والنجدة، ولم يُنَجِّحُوا مراده وقصده، بل خذلوه وتركوه مع من جاء وحده، ولا ينفع الحذر إذا حُمَّ القدر ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ بل ينقطع أمدها وأملها.

ثم بعد ذلك اجتهدوا في أسباب الحراية، وأعدوا للحرب عدته وأسبابه،

وانتفخ منهم السَّحَرُ^(١) لما جرى وصدر، ولم يكن لهم عزم ولا همة، بعد إتيانهم تلك المدلهمة، إلا البناء على البلاد والتسوير، مخافة الخراب والتدمير، ثم أرسلوا إلى مشاري بن معمر، أن يدخل معهم في هذا الأمر المقرر، فأعرض عن ذلك وأنكر، وبقوا على ذلك الحصار، ومكابد الأضرار، بقية تلك السنة، لا تُخالط أجفانهم في الدجى سِنَّة، وكانت تلك القضية في شوال، من غير شبهة ولا إشكال.

ثم دخلت السنة السادسة والستون بعد المائة والألف.

عدا أهل حريملاء على أهل الدرعية، فلم يحصلوا من ذلك بالأمنية، ثم عدا المسلمون عليهم مرات، وكروا عليهم في بلادهم كرات.

وفي آخر تلك السنة ارتد أهل منفوحة عن الدين، ونبذوا عهد المسلمين، وطردها محمد بن صالح إمام المصلين، **﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾**، فلما وقعت هذه الواقعة، خرج مهاجرًا من نفسه إلى الحق وازعة، وإلى الدين نازعة، وللباطل وأهله رادعة، وللشيطان قامعة، وفي أسباب الخير طامعة، وكان من خرج منهم في يوم سبعين، ثم بعده تلاحق أناس منهم مسترسلين.

ثم دخلت السنة السابعة والستون بعد المائة والألف.

وفيها طلب دهام، من الأمير محمد بن سعود الدخول في الذمام، وأن تجرى عليه وعلى بلاده أحكام الإسلام، ويقوم بتلك الوظائف والأحكام، وقصده بذلك الخديعة وإحكام حبلها أشد الأحكام، فطلب عليه خيل وسلاح، فلم ير بذلك بأسًا ولا جناح، ورغب في منهج الإصلاح، فبذل ما طلب، وجنح للهداية ورغب، واستدعى من الشيخ رجلاً إمامًا، يظيل عنده مقامًا، وينشر في

(١) السَّحَر: الرثة.

بلده للرعية أحكاماً، فأرسل إليه عيسى بن قاسم، فكان بشرائع الإسلام حاكم، وبتعليم التوحيد قائم، يقوم بذلك ويقعد، ويدل على الله تعالى ويرشد، ويجد حسب طاقته ويجمد، فانتفع به من أهل الرياض جماعة، حصلوا من التوحيد على بضاعة، وصارت لهم فيه قدم، ولهذا هاجروا لما نبذ دهام العهد وخرم، وسيأتي ذكرهم في محله، عند تحرير الارتداد ونقله.

وفيها جمع الشيخ أهل الإسلام من جميع البلدان، وبين المواعظ في الكلام غاية البيان، لما تظاهر من تظاهر بالردة والخذلان، وأوضح ما يجري على أهل التوحيد، من فجار العبيد ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وكشف لهم معاني آيات القرآن، وما ذكر في محكم التبيان، وكلهم لقوله ﷻ، منصتون، ولما يلقيه من الحكم والمواعظ يسمعون، ويتلو عليهم ما به ينتفعون ﴿اللَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ أَنْ يَتَزَكَّوْا أَنْ يَقُولُوا ءَمْسًا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾ وبشرهم بالنصر والظفر، وحصول المني وقضاء الوطر، إن برحوا على الدين واستقاموا، ولم يبرحوا عنه بل ثبتوا عليه وداموا، وأمرهم بالرجوع إلى الله والتوبة، وصدق النية والأوبة، وتصدقوا بصدقات كثيرة، وسألوا الله النصر وتيسيره.

وفيها مقتل أولاد سيف السيادة صقر وإخوانه، لما قاموا مع الباطل وأعدائه، وهموا بقتل الأمير، فأخبره بذلك النذير، فبادر إلى قتلهم، خشية فعلهم، فبادر بذلك وأسرع، وقتلهم بغيره أجمع، ولم يعاود على قتلهم أحد، بل جد في ساعته واجتهد.

وفيها مقتل سليمان بن خويطر، وسبب ذلك أنه قدم بلدة حريملا خفية، وهم إذ ذاك بلد حرب، فكتب معه سليمان بن عبيد الوهاب إلى أهل العينة كتاب، وذكر فيه شبهاً مزخرفة، وأقاويل مغيرة محرفة، وأحاديث أوهى من نسخ العنكبوت، وأمره أن يقرأها في المحافل والبيوت، وألقى في قلوب أناس من

أهل العيينة، شُبَّها مُضِرَّة شينة، غَبِرَتْ قلوب من لم يتحقق بالإيمان، ولم يعرف مصادر الكلام بالإتقان، فكان يفعل ما به أمر، فلما تحقق حاله واختبر، أمر الشيخ به أن يُقتل فُقُتِل، وامْتِثِلَ أمره وقُبِلَ.

ثم إن سليمان على حالته لم يزل، يرسل الشُّبَّه في الكتب لأهل العيينة مع من خرج منهم ودخل، ويبدل في ذلك الجد في العمل.

ثم إن الشيخ أرسل لأهل العيينة رسالة^(١)، أبطل فيها ما مَوَّه به سليمان وما قاله، وعطَّل فيها كلامه وأقواله، نَحَا فيها منهج الصدق، وبيَّن واضح الصواب والحق، فهي تجر زخَر تبارِه وطمِي، وسحاب هَمَل ودقه وهمي، زين فلكها بنجوم الحق الزواهر، وأشحن فلكها بعلوم التوحيد الزواخر، تلين قلوب السامعين لتقولها، ويصغي لها أهل الهدى بمسامع، دلالتها محروسة عن معارض، وآياتها محفوظة عن مدافع، وهذا فصلها بحروفها.

فصل

قال الشيخ رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

روى مسلم في صحيحه عن عمرو بن عبسة السلمي رحمه الله، قال: كنت، وأنا في الجاهلية، أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان. قال: فسعت برجل في مكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحتي حتى قدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جُراء عليه قومه، فتلظفت حتى

(١) تُسمى: «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد»، طُبعت مرارًا. ومن آخر شروحها: «فتح العلي الحميد في شرح كتاب مفيد المستفيد»؛ لمدحت آل فراج.

دخلت عليه بمكة، فقلت: وما أنت؟ فقال: «أنا نبي» قلت: وما (نبي)؟ قال: «أرسلني الله» فقلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يُشرك به شيء»، فقلت: ومن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد» قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال. فقلت: إني مُتَّبِعُكَ. فقال: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا تَرَى حالي وحال الناس! ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظَهَرْتُ فَأْتِنِي» قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أخبر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم نفر من أهل يثرب، من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراعا، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك. فقدمت المدينة، فقلت: يا رسول الله، أنعرفني؟ قال: «أنت الذي لقيتني بمكة» قال: فقلت: يا نبي الله، أخبرني عما علَّمَك الله وأجهَلُهُ، أخبرني عن الصلاة. قال: «صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس، وحتى ترتفع؛ فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وهي حينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل؛ فإن الصلاة مشهودة محضورة، حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة؛ فإنها حينئذ تُسَجَّرُ جهنم، فإذا أقبل الفجر فإن الصلاة محضورة حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس؛ فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار...» وذكر الحديث^(١).

قال أبو العباس عليه السلام: فقد نهى النبي ﷺ عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب؛ بأنها تطلع وتغرب بين قرني شيطان، وأنه حينئذ يسجد لها الكفار، ومعلوم أن المؤمن لا يقصد السجود إلا لله، وأكثر الناس قد لا يعلمون

أن طلوعها وغروبها بين قرني شيطان، ولا أن الكفار يسجدون لها، ثم إنه ﷺ نهى عن الصلاة في هذا الوقت حسماً لمادة المشابهة، ومن هذا الباب أنه كان إذا صلى إلى عود أو عمود جعله على حاجبه الأيمن، ولم يصمد إليه صمداً، ولهذا نهى عن الصلاة إلى ما عُبدَ من دون الله في الجملة، ولهذا يُنهى عن السجود لله بين يدي الرجل؛ لما فيه من مشابهة السجود لغير الله ^(١). انتهى كلامه.

فليتأمل المؤمن الناصح لنفسه ما في هذا الحديث من العبر، فإن الله سبحانه يقص علينا أخبار الأنبياء وأتباعهم ليكون للمؤمنين من المستأخرين عبرة، فيقيس حاله بحالهم، وقص قصص الكفار والمنافقين لِيُجَنَّبَ وَيُجَنَّبَ من تلبس بها أيضاً.

فما فيه من الاعتبار أن هذا الأعرابي الجاهل لما ذُكر له أن رجلاً بمكة يتكلم بالدين بما يخالف الناس، لم يصبر حتى ركب راحلته، فقدم عليه وعلم ما عنده، لما في قلبه من محبة الدين والخير، وهذا فُسِّرَ به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خِبرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: حرصاً على تعلم الدين ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم. فهذا يدل على أن عدم الفهم في أكثر الناس اليوم عدل منه سبحانه؛ لما يعلم ما في قلوبهم من عدم الحرص على الدين، فتبين أن من أعظم الأسباب الموجبة لكون الإنسان من شر الدواب، هو عدم الحرص على التعليم، وإذا كان هذا الجاهل يطلب هذا الطلب، فما عذر من ادعى اتباع الأنبياء، وبلغه عنهم ما بلغه، وعنده من يُعرض عليه التعليم، ولا يرفع بذلك رأساً، فإن حضر أو استمع فكما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِن ذِكْرِ مِن رَبِّهِمْ فَتُحَذِّثُهُمْ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا هِيبَةَ قُلُوبُهُمْ.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٤/ ١٢٧ - ١٢٨).

وفيه من العبر أيضًا أنه لما قال: «أرسلني الله» قال: بأي شيء أرسلك؟ قال بكذا وكذا، فتبين أن زبدة الرسالة الإلهية والدعوة النبوية هي توحيد الله، لعبادته وحده لا شريك له، وكسر الأوثان، ومعلوم أن كسرها لا يستقيم إلا بشدة العداوة وتجريد السيف، فتأمل زبدة الرسالة.

وفيه أيضًا أنه فهم المراد من التوحيد، وفهم أنه أمر كبير غريب، ولأجل هذا قال: من معك على هذا؟ قال: «حر وعبد» فأجابه أن جميع العلماء والملوك والعامّة مخالفون له، ولم يتبعه على ذلك إلا من ذكر، فهذا أوضح دليل على أن الحق قد يكون أقل القليل، وأن الباطل قد يملأ الأرض.

ولله درّ الفضيل بن عياض رحمته، حيث يقول: لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين. وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الصحيحين^(١) أن بُعِثَ النار من كل ألف تسعة وتسعون وتسعمائة، وفي الجنة واحد من كل ألف، ولما بكوا من هذا لما سمعوه قال ﷺ: «إنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا أكملت من المنافقين»^(٢) قال الترمذي: حسن صحيح.

فلذا تأمل الإنسان ما في هذا الحديث من صفة بدء الإسلام، ومن اتَّبَعَ الرسول ﷺ إذ ذاك، ثم ضم إليه الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم أيضًا أنه قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»^(٣) تبين له الأمر إن هداه الله

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٠).

(٢) الجامع للترمذي (٣١٦٨) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الترمذي).

(٣) صحيح مسلم (١٤٥).

وانزاحت عنه الحجة الفرعونية: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ والحجة القرشية: ﴿مَا تَبِعَنَا هَذَا فِي آلِئُلَةِ الْآخِرَةِ﴾.

وقال أبو العباس رحمته، تعالى، في (اقتضاء الصراط المستقيم) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ يَغْيِرُ اللَّهُ﴾: وأيضا: فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ يَغْيِرُ اللَّهُ بِهِ﴾ ظاهره أنه ما ذبح لغير الله، سواء لفظ به أو لم يلفظ، حرام، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقال فيه: باسم المسيح. ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى مما ذبحناه للحم وقلنا عليه: باسم الله. فإن عبادة الله بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، والعبادة لغير الله أعظم كفرا من الاستعانة بغير الله، فلو ذبح لغير الله متقربا إليه لحرم، وإن قال فيه: باسم الله. كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، وإن كان هؤلاء مرتدّين، لا تباح ذبائحهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، ومن هذا ما يُفعل بمكة وغيرها من الذبح للجن^(١). انتهى كلام الشيخ، وهو الذي ينسب إليه بعض أعداء الدين أنه لا يكفر المعين، فانظر رحمك الله إلى تكفيره من ذبح لغير الله من هذه الأمة، وتصريحه أن المنافق يصير مرتدّا بذلك، وهذا في المعين؛ إذ لا يُتصوّر أن تحرم إلا ذبيحة معين.

وقال أيضا في الكتاب المذكور: وكانت الطواغيت الكبار التي تشد إليها الرحال ثلاثة: اللات والعزى ومناة، وكل واحد منها لمصر من أمصار العرب، فكانت اللات لأهل الطائف، وذكروا أنه في الأصل رجلا صالحا يُلْتُ السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره، وأما العزى فكانت لأهل مكة قريبا من عرفات، وكانت شجرة يذبحون عندها ويدعون، وأما مناة فكانت لأهل

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٦٤ - ٦٥).

المدينة، وكانت حذو قُديد من ناحية الساحل، ومن أراد أن يعلم كيف كانت أحوال المشركين في عبادة أوثانهم، ويعرف حقيقة الشرك الذي ذمه الله وأنواعه، حتى يتبين له تأويل القرآن، فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ وأحوال العرب في زمانه، وما ذكره الأزرق في (أخبار مكة) وغيره من العلماء.

ولما كان لأهل الشرك شجرة يعلقون عليها أسلحتهم، ويسمونها (ذات أنواط) فقال بعض الناس: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط. فقال: «الله أكبر، إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم»، فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أظلم من ذلك أو هو الشرك بعينه؟^(١)

إلى أن قال: فمن ذلك عدة أمكنة بدمشق، مثل مسجد يقال له (مسجد الكف) الذي فيه تمثال كف يقال إنه كف علي بن أبي طالب، حتى هدم الله ذلك الوثن، وهذه الأمكنة كثيرة موجودة في أكثر البلاد، وفي الحجاز منها مواقع^(٢).

ثم ذكر كلاماً في نهيه ﷺ عن الصلاة عند القبور، فقال: العلة لما يُفضي إليه ذلك من الشرك، وذكر ذلك الشافعي وغيره، وكذلك الأئمة من أصحاب أحمد ومالك، كأبي بكر الأثرم، عللوا بهذه العلة، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٣) وَقَدْ أَصْلَحُوا كَثِيرًا ذكر ابن عباس وغيره من السلف أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم وصوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، ذكر هذا البخاري في صحيحه^(٤) وأهل التفسير كابن جرير وغيره.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣١٣ - ٣١٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣١٨).

(٣) صحيح البخاري (٤٩٢٠).

ومما يبين صحة هذه العلة أنه لعن من يتخذ قبور الأنبياء مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا يكون ترابها نجسًا، وقال في نفسه: «اللهم لا تجعل قبري وثنا بعد» فعلم أن نهيه عن ذلك كنهيه عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، فسَدَّ الذريعة لثلاث يُصَلِّي في هذه الساعة، وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله ولا يدعو إلا إياه، لثلاث يفضي ذلك إلى دعائها والصلاة عندها.

وكلا الأمرين قد وقع، فإن من الناس من يسجد للشمس وغيرها من الكواكب، ويدعوها بأنواع الأدعية، وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضل به كثير من الأولين والآخرين، حتى شاع ذلك في كثير ممن ينتسب إلى الإسلام، وصنف فيه بعض المشركين كتابًا على مذهب المشركين، مثل أبي معشر البلخي وثابت بن قره، وأمثالها ممن دخل في الشرك وآمن بالحبث والطاغوت، وهم ينتسبون إلى الكتاب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَبِيًّا مِّنَ الْكِتَابِ﴾^(١). انتهى كلام الشيخ، رحمه الله تعالى.

فانظر، رحمك الله، إلى هذا الإمام الذي نَسَب عنه مَنْ أزاغ قلبه عدم تكفير المعين، كيف ذكر عن مثل الفخر الرازي، وهو من أكابر أئمة الشافعية، ومثل أبي معشر، وهو من المشهورين المصنفين، وغيرهما أنهم كفروا وارتدوا عن الإسلام، والفخر هو الذي ذكره الشيخ في الرد على المتكلمين، لما ذكر تصنيفه الذي ذكر هنا، قال: وهذه ردة صريحة باتفاق المسلمين. وسيأتي كلامه إن شاء الله تعالى.

وتأمل ما ذكر أيضًا في اللات والعزى ومناة، وجعله بعينه هذا الذي يُفَعَّل بدمشق وغيرها.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٠٤ - ٤٠٥).

وتأمل قوله على حديث ذات أنواط هذا، قوله في مجرد مشابهتهم في اتخاذ شجرة: فكيف بما هو أطم من ذلك من الشرك بعينه. فهل الزانغ بعد هذا متعلق بشيء من كلام هذا الإمام؟

وأنا أذكر لفظه الذي احتجوا به على زيفهم، قال بكته: أنا من أعظم الناس نهياً عن أن يُنسب معين إلى تكفير أو تبديع أو تفسيق أو معصية، إلا إذا علم أنه قد قامت الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً أخرى^(١). انتهى كلامه.

وهذا صفة كلامه في المسألة، في كل موضع وقعنا عليه من كلامه، لا يذكر عدم تكفير المعين إلا ويصله بما يزيل الإشكال، أن المراد بالتوقيف عن تكفيره قبل أن تبلغه الحجة، وإذا بلغته حكم عليه بما تقتضيه تلك المسألة من تكفير أو تفسيق أو معصية.

وصرح رحمه الله، أيضاً أن كلامه أيضاً في غير المسائل الظاهرة، فقال في الرد على المتكلمين، لما ذكر أن بعض أئمتهم توجد منهم الردة عن الإسلام كثيراً، قال: وهذا إذا كان في المقالات الخفية، فقد يقال إن مخطئ ضال، لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها، لكن يصدر هذا منهم في أمور يعلم الخاصة والعامة من المسلمين أن رسول الله ﷺ بُعث بها وكُفر من خالفها، مثل عبادة الله وحده لا شريك له، ونهيه عن عبادة أحد سواه من الملائكة والنبين وغيرهم، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام، ومثل إيجابه للصلوات الخمس وتعظيم شأنها، ومثل تحريم الفواحش والزنا والخمر والميسر، ثم تجد كثيراً من رؤوسهم وقعوا فيها، فكانوا مرتدين، وأبلغ من ذلك أن منهم من صنف في دين المشركين، كما

فعل أبو عبد الله الرازي . يعني الفخر الرازي ، قال : وهذه ردة صريحة^(١) .

فتأمل هذا ، وتأمل ما فيه من تفصيل الشبهة التي يذكرها أعداء الله ، لكن من يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئاً . على أن الذي نعتقد ، وندين الله به ، ونرجو أنه يثبتنا عليه ، أنه لو غلط أو أجل منه في هذه المسألة ، وهي مسألة المسلم إذا أشرك بعد بلوغ الحجة ، أو المسلم الذي يفضل هذا على الموحدين ، أو يزعم أنه على حق ، أو غير ذلك من الكفر الصريح الظاهر ، الذي بينه الله ورسوله ، وبينه علماء الأمة ، أنا نؤمن بما جاءنا عن الله وعن رسوله ، ولو غلط من غلط ، فكيف والحمد لله ونحن لا نعلم عن واحد من العلماء خلافاً في هذه المسألة ، وإنما يلجأ من شاقَّ فيها إلى حجة فرعون : ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ وحجة قريش : ﴿مَا تَعْبَأُ بِهَذَا فِي الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا تَخَالُفٌ﴾ ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ .

وقال الشيخ رحمه الله ، في الرسالة السنية ، لما ذكر حديث الخوارج ومروقيهم من الدين وأمره ﷺ بقتالهم ، قال : فإذا كان على عهد النبي ﷺ وخلفائه ممن انتسب إلى الإسلام ، من مرق منه ، مع عبادته العظيمة ، حتى أمر ﷺ بقتالهم ، فيعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام ، وذلك بأسباب ، منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه ، حيث قال : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الآية . وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حرَّق الغالية من الرافضة ، فأمر بأخايد خُدَّت لهم عند باب كندة فقتلهم فيها ، واتفق الصحابة على قتلهم ، لكن ابن عباس كان مذهبه أن يُقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر الصحابة ، وقصتهم معروفة عند العلماء .

وكذلك الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح ونحوه، فكل من غلّا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يقول: سيدي فلان انصري. أو: أغثني. أو: ارزقني. أو: أجبرني. وأنا في حسيك. ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال، يُستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قُتل، فإن الله إنما أُرسل الرسل وأنزل الكتب ليُعبد وحده، لا يجعل معه إله آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى، مثل المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق المخلوق، وتُنزل المطر، وتُنبئ الثبات، وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم أو صورهم، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فبعث الله رسوله ينهى أن يدعى أحد من دونه ﴿فَلَا يَمْلِكُ كُفُّهُ الضَّرَّ عَنْكُمْ وَلَا خَبِيلًا﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْغُوتُ إِلَى رَبِّهِمْ أَلَيْسَ لَهُمْ أَقْرَبُ الآية، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح وعزيراً والملائكة^(١).

ثم ذكر ﷺ، آيات، ثم قال: عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل الدين، وهي أصل التوحيد الذي بعث به الرسل وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وكان ﷺ يحقق التوحيد ويُعلمه أمته، حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال: «أجعلتني مع الله نداءً! بل: ما شاء الله وحده»^(٢) ونهى عن الحلف بغير الله، وقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^(٣) وقال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى؛

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٣ - ٣٩٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١١٧) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٤٩٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٥١) والترمذي (١٥٣٥) وصححه الشيخ الألباني (صحيح

الجامع ٦٢٠٤).

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يُحذر ما فعلوا^(١). وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد»^(٢) وقال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني»^(٣).

ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يُشرع بناء المسجد على القبور، ولا الصلاة عندها؛ وذلك لأن من أكبر أسباب عبادة الأوثان كان تعظيم القبور، ولهذا اتفق العلماء على أنه من سلم على النبي ﷺ عند قبره أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها؛ لأنه إنما يكون لأركان بيت الله، فلا يُشبه بيت المخلوق ببيت الخالق، كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين، ورأسه الذي لا يقبل الله عملاً إلا به، ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال ﷺ: «من كان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله. دخل الجنة»^(٤) والإله هو الذي يَأْلَهُ القلب، عبادة له، واستغاثته له، ورجاء له، وخشية وإجلالاً^(٥). انتهى كلامه.

فتأمل أول الكلام وآخره، فيمن دعا نبياً أو ولياً، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني. ونحوه، أنه يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، هل يكون هذا إلا في

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥) ومسلم (٥٢٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٤٦ / ٢) وصححه الشيخ الألباني (أحكام الجنائز ١ / ٢١٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٤٤) والإمام أحمد (٣٦٧ / ٢) وصححه الشيخ الألباني (أحكام الجنائز ١ / ٢١٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٣١١٦) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٦٤٧٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٣ / ٣٩٧ - ٤٠٠).

المعِين؟ والله المستعان. وتأمل كلامه في اللات والعزى ومناة، وما ذكر بعده، يتبين لك الأمر إن شاء الله تعالى.

وقال ابن القيم رحمه الله، في شرح (المنازل) في باب التوبة: وأما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتَّخَذَ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبتهم الله، ويغضبون لمتنقص معبودهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحدُ رَبِّ العالمين، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا جهرة، وترى أحدهم قد اتخذ ذكراً معبوده على لسانه، إن قام وإن قعد، وإن عثر وإن استوحش، لا ينكر ذلك، ويزعم أنه باب حاجته إلى الله، وشفيعه عنده، وهكذا كان عبَاد الأصنام سواء، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذوها من البشر، قال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فهذا حال من اتخذ من دونه ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى، وما أعزَّ من تَخَلَّص من هذا، بل ما أعزَّ من لا يُعادي من أنكره. والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين وأسلافهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله ذلك عليهم في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له ^(١). ثم ذكر الشيخ رحمه الله، فصلاً طويلاً في تقرير هذا الشرك الأكبر.

ولكن تأمل قوله: وما أعزَّ من تَخَلَّص من هذا، بل ما أعزَّ من لا يُعادي من أنكره. يبين لك بطلان الشبهة التي أدلى بها الملحدون، وزعم أن كلام الشيخ

في هذا الفصل - أعني الفصل الأول - في الشرك الأكبر، على الآية التي في سورة سبأ: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وتكلم عليها، ثم قال: والقرآن مملوء من أمثالها، ولكن أكثر الناس لا يشعر بدخول الواقع تحته، ويظنه في قوم قد خلّوا ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، كما قال عمر بن الخطاب: إنما تُنْقَضُ عُرَى الإسلام عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وما ذمه، وقع فيه وأقره، وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية، فتنقض بذلك عُرَى الإسلام، ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، والله المستعان^(١).

فصل

وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والحلف بغير الله، وقول: هذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله وقصده.

ثم قال الشيخ رحمه الله، بعدما ذكر الشرك الأكبر والأصغر: ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ، ومن أنواعه التوبة للشيخ، فإنها شرك عظيم، ومن أنواعه

النذر لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع والذل لغير الله، وإضافة نعمة لغيره، ومن أنواعه طلب الحوائج من عند الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا عما استغاث به أو سأله أنه يشفع إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله لم يجعل سؤال غيره سببا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زونا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، ونسأل الله لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا، وزادوهم زيارة العباد، وجعلوا قبورهم أوثانا تُعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى تنقص الأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمتهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به. وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم! ولله در خليفه إبراهيم حيث يقول:

﴿وَأَجِئْنِي وَيَقْ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنِّي أَصْلَحْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله^(١). انتهى كلامه.

والمراد من هذا أن بعض الملحدين نسب إلى الشيخ أن هذا شرك أصغر، وشبهته أنه ذكره في الفصل الثاني الذي ذكر في أوله الأصغر، وأنت رحمك الله

تجد الكلام من أوله إلى آخره في الفصل الأول والثاني صريحاً لا يحتمل التأويل، من وجوه كثيرة، أن دعاء الموتى والنذر لهم ليسفعوا له عند الله هو الشرك الأكبر الذي بعث عليه النبي ﷺ فكفر مَنْ لم يُب منه، وقاتله وعاداه، وآخر ما صرح به قوله آنفاً: وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من عادى المشركين... إلى آخره.

فأتمل، إن الإسلام لا يصح إلا بمعاداة أهل هذا الشرك، فإن لم يعادهم فهو منهم، وإن لم يفعله، وقد ذكر في (الإقناع) عن الشيخ تقي الدين أن من دعا علي بن أبي طالب فهو كافر، ومن شك في كفره فهو كافر^(١) فإذا كان هذا حال من شك في كفره، مع عداوته له ومقته له، فكيف بمن يعتقد أنه مسلم ولا يعاديه؟ فكيف بمن أحبه؟ فكيف بمن جادل عنه وعن طريقته وتعدّر: إنا لا نقدر على التجارة وطلب الرزق إلا بذلك. وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ أَهْلُدْئِ مَعَكَ تُنْخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ فإذا كان هذا قول الله تعالى فيمن تعدّر عن التبيين في العمل ومعاداة المشركين، بالخوف على أهله وعياله، فكيف بمن اعتذر في ذلك بتحصيل التجارة؟ ولكن الأمر كما تقدم عن عمر: إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. فلهذا لم يفهم به معنى القرآن، وأنه أشر وأفسد من الذين قالوا: ﴿إِن نَّبِيعَ أَهْلُدْئِ مَعَكَ تُنْخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ ومع هذا فكلهم هؤلاء الكفار نفاق، وإلا فهم يعتقدون أن أهل التوحيد ضالّون مُضِلُّون، وأن عبدة الأوثان أهل الحق والصواب، كما صرح به إمامهم في الرسالة التي أتاكم قبل هذه، خطه بيده، ويقول: بيني وبينكم أهل هذه الأقطار، وهم خير أمة أخرجت للناس، وهم كذا وكذا. فإن كان يريد التحاكم إليهم، ويصفهم بأنهم خير أمة

أخرجت للناس، فكيف يصنفهم أيضًا بالشرك ومخالطتهم للحاجة؟ وما أحسن قول أصدق القائلين: ﴿وَالسَّاءَ ذَاتَ الْخُبْرِ﴾ (٧١) **إِنَّكَ نَبِيٌّ قَوْلٌ مُخْتَلِفٌ** ﴿٧٢﴾ **يُؤْتِكُ عَنْهُ مَنْ** **أَيْتُكَ** ﴿٧٣﴾ **يَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ** ﴿٧٤﴾ فرحم الله امرأً نظر لنفسه، وتفكر فيما جاء به محمد ﷺ من عند الله بمعاداة من أشرك بالله، من قريب أو بعيد، وتكفيرهم، وقتالهم حتى يكون الدين كله لله، وعلم بما حكم محمد ﷺ فيمن أشرك بالله، مع ادعائه للإسلام، وما حكم به في ذلك الخلفاء الراشدون، كعلي بن أبي طالب وغيره لما حرقهم بالنار، مع أن غيرهم من أهل الأوثان الذين لم يدخلوا في الإسلام لا يُقتلون بالتحريق، والله الموفق.

وقال أبو العباس بن تيمية في الرد على المتكلمين، لما ذكر أحوال بعض أئمتهم قال:

وكل شرك في العالم إنما حدث برأي جنسهم، فهم الآمرون بالشرك، والفاعلون له، ومن لم يأمر منهم بالشرك فلم يَنه عنه، بل يُقرّ هؤلاء وهؤلاء، وإن رجح الموحدين ترجيحًا فقد يرجح غيره المشركين، وقد يعرض عن الأمرين جميعًا، فتدبر هذا فإنه نافع جدًا، ولهذا كان رؤوسهم المتقدمون والمتأخرون يأمرون بالشرك، وكذلك الذين كانوا في ملة الإسلام لا ينهاون عن الشرك ويوجبون التوحيد، بل يسوّغون الشرك، أو يأمرون، أو لا يوجبون التوحيد، وقد رأيتُ من مصنفاتهم في عبادة الملائكة وعبادة الأنفس المغارقة أنفس الأنبياء وغيرهم ما هو أصل الشرك، وهم إذا ادّعوا التوحيد فإنما توحيدهم بالقول لا بالعبادة والعمل، والتوحيد الذي جاءت به الرسل لا بد فيه من التوحيد بإخلاص الدين لله، وعبادته وحده لا شريك له، وهذا شيء لا يعرفونه، فلو كانوا موحدين بالقول والكلام لكان معهم التوحيد دون العمل، وذلك لا يكفي في السعادة والنجاة، بل لا بد أن يعبد الله ويتخذة إلهًا دون ما

سواء، وهو معنى قوله لا إله إلا الله^(١). انتهى كلام الشيخ.

فتأمل، رحمك الله، هذا الكلام، فإنه مثلما قال الشيخ فيه نافع جدًا، ومن أكبر ما فيه من الفوائد أنه يبين لك حال من أقرَّ بهذا الدين، وشهد أنه الحق، وأن الشرك هو الباطل، وقال بلسانه ما أريد منه، ولكنه لا يدين بذلك، إما بغضًا له أو عدم محبة، كما هو حال المنافقين الذين هم بين أظهرنا، وإما إظهار الدنيا، مثل تجارة وغيرها، فيدخلون في الإسلام ثم يخرجون منه، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ الآية، وقال: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَ قَلْبًا مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فإذا قال هؤلاء بالسنتهم: نشهد أن هذا دين الله ورسوله، ونشهد أن المخالف له باطل، وأنه الشرك بالله. غرَّ هذا الكلام ضعيف البصيرة.

وأعظم من هذا وأظلم أن أهل حُرَيْملاء ومن وراءهم يصرِّحون بسبِّ الدين، وأن الحق ما عليه أكثر الناس، ويستدلون بالكثرة على حسن ما هم عليه من الدين، ويفعلون ويقولون ما هو من أكبر الردة وأفحشها، فإذا قالوا: التوحيد حق والشرك باطل. وأيضًا لم يُحدثوا في بلدهم أوثانًا، جادل الملحدين عنهم وقال: إنهم يقولون أن هذا شرك، وأن التوحيد هو الحق، ولا يضرهم عنده ما هم عليه من السب لدين الله، وبغي العوج له، ومدح الشرك، وذبحهم دونه بالمال واليد واللسان، والله المستعان.

وقال أبو العباس أيضًا في الكلام على كفر مانع الزكاة:

والصحابا لا يقولون: هل أنت مُؤَرَّبٌ بوجوبها أو جاحد لها؟ هذا لم يُعهَدُ عن

الخلفاء والصحابة، بل قال الصديق لعمر رضي الله عنه: والله لو منعوني عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا. ففعل المُبَيِّحُ للقتال مجرَّدَ المنع لا جَحْدَ الوجوب، وقد روي أن طوائف كانوا يقرون بالوجوب، لكن بخلوا بها، ومع هذا فسيرة الخلفاء فيهم جميعهم سيرة واحدة، وهي قتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، والشهادة على قتلاهم بالنار، وَسَمَوْهُمْ جميعهم (أهل الردة) وكان من أعظم فضائل الصديق عندهم أن ثَبَّتَ الله عند قتالهم، ولم يتوقف كما توقف غيره، فناظرهم حتى رجعوا إلى قوله. وأما قتال المُقِرِّين بنبوة مسيلمة فهؤلاء لم يقع بينهم نزاع في قتالهم. انتهى.

فتأمل كلامه في تكفير المعين والشهادة عليه إذا قُتِلَ بالنار، وسبي حريمه وأولاده عند منع الزكاة، فهذا الذي ينسبون عنه أعداء الدين عدم تكفير المعين. قال رحمته الله بعد ذلك: وكفر هؤلاء وإدخالهم في أهل الردة قد ثبت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنة، انتهى كلامه.

ومن أعظم ما يجلو الإشكال في مسألة التكفير والقتال عند مَنْ قَصَدَهُ اتِّبَاعُ الحق، إجماعُ الصحابة على قتال مانع الزكاة، وإدخالهم في أهل الردة وسبي ذراريهم، وفعلهم فيهم ما صح عنهم، وهو أول قتال وقع في الإسلام على مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ من المسلمين، فهذه أول واقعة وقعت في الإسلام على هذا النوع، أعني المدعين للإسلام، وهي أوضح الوقاعات التي وقعت من العلماء عليهم من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا.

وقال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجُفَّال والطُّغَام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا

وكذا. وإلقاء الخرق على الشجر اقتداءً بمن عبد اللات والعزى^(١). انتهى كلامه.

والمراد منه قوله: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع.

وقال أيضًا: لقد عظم الله الحيوان، لا سيما ابن آدم، حيث أباحه الشرك عند الإكراه، فمن قدم حرمة نفسك على حرمة، حتى أباحك أن تتوقى عن نفسك بذكره بما لا ينبغي له سبحانه، لتحقيق أن تُعظم شعائره وتوقر أوامره وزواجره، وعصم عرضك بإيجاب الحد بقذفك، وعصم مالك بقطع يد مسلم في سرقة، وأسقط شطر الصلاة لأجل مشقتك، وأقام مسح الخف مقام مسح الرجل إشفاقًا عليك في مشقة الخلع واللبس، وأباحك الميتة سدًا لرمقك وحفظًا لصحتك، وزجرَك عن مَصَارِكُ بحدٍّ عاجل ووعيد آجل، وخرق العوايد لأجلك، وأنزل الكتب إليك - أَيْحُسُّ بك مع هذا الإكرام أن تُرى على ما نهاك منهمكًا، وعما أمرك مرتكبًا، وعن داعيه معرِضًا، ولداعي عدوك فيه مطيعًا، يعظمك، وهو هو، وتهمل أمره وأنت أنت! هو حظ رب عباده لأجلك، وأهبط إلى الأرض من امتنع من سجدة يسجدها لك، هل عادية خادماً طالَّت خدمته لك لترك صلاة! هل نفية من دارك للإخلال بفرض أو لارتكاب نهي! فإن لم تعترف اعتراف العبيد للموالي فلا أقل أن تقتضي نفسك إلى الحق سبحانه اقتضاء المكافئ المساوي، وما أوحش ما تلاعب الشيطان بالإنسان بينا أن يكون بحضرة الحق وملائكة السماء سجدًا له تترامى به الأحوال والجهالات، إلى أن يوجد ساجدًا لصورة في حجر، أو لشجرة من الشجر، أو لشمس أو لقمر، أو لصورة ثور خائر، أو لطائر صفر، ما أوحش زوال النعم، وتغير الأحوال،

(١) نقله عنه الإمام ابن القيم (إغاثة اللهفان ١ / ١٩٥).

والْحَوْرُ بعد الكَوْر! لا يليق بهذا الحي الكريم الفاضل على جميع الحيوانات ألا يُرى إلا عابداً لله في دار التكليف، أو مُجَازاً لله في دار الجزاء والتشريف، وما بين ذلك فهو واضح نفسه في غير موضعها. انتهى كلامه.

والمراد أنه جعل أقبح حال وأفحشها من أحوال الإنسان أن يشرك بالله، ومثله بأنواع، منها السجود لشمس أو لقمر، ومنها السجود لصورة، كما يسجد للصور التي في القباب على القبور، والسجود قد يكون بالجهة على الأرض، وقد يكون بالانحناء من غير وصول إلى الأرض، كما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ مُجَذَّابِينَ﴾ قال ابن عباس: أي رُكَّعًا.

وقال ابن القيم في (إغاثة اللهفان) في إنكار تعظيم القبور: وقد آل الأمر بهؤلاء المشركين إلى أن صَنَّفَ بعض غُلَّاتهم في ذلك كتاباً سماه (مناسك المشاهد) ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في عبادة الأصنام^(١).

وهذا الذي ذكره ابن القيم رجل من المصنفين يقال له (ابن المفيد) فقد رأيت ما قال فيه بعينه، فكيف ينكر تكفير المعين؟

وأما كلام أتباع سائر الأئمة في التكفير فنذكر منه قليلاً من كثير.

أما كلام الحنفية؛ فكلامهم في هذا من أغلظ الكلام، حتى أنهم يكفِّرون المعينَ إذا قال: مصيحف أو مسجِد. أو صَلَّى صلاة بلا وضوء، ونحو ذلك. وقال في (النهر الفائق): واعلم أن الشيخ قاسم قال في شرح (درر البحار) أن النذر الذي يقع من أكثر العوام، بأن يأتي إلى قبر بعض الصلحاء قائلاً: يا سيدي

فلان، إن رُد غائبِي أو عوفي مريضِي فلك من الذهب والفضة أو الشمع أو الزيت كذا. باطل إجماعًا لوجوه... إلى أن قال: ومنها ظن أن الميت يتصرف في الأمر، واعتقاد هذا كفر... إلى أن قال: وقد ابتُلِيَ الناس بذلك، ولا سيما في مولد الشيخ أحمد البدوي^(١). انتهى كلامه.

فانظر إلى تصريحه أن هذا كفر، مع قوله أنه يقع من أكثر العوام، وأن أهل العلم قد ابتُلُوا بما لا قدرة لهم على إزالته.

وقال القرطبي رحمته الله، لما ذكر سماع الفقراء وصورته، قال: هذا حرام بالإجماع، وقد رأيت فتوى شيخ الإسلام جمال الملة أن مستحل هذا كافر. ولما علم أن حرمة بالإجماع لزم أن يكفر مُسْتَحِلُّهُ.

فقد رأيت كلام القرطبي وكلام الشيخ الذي نقل عنه في كفر مَنْ استحل السماع، مع كونه دون ما نحن فيه بالإجماع بكثير كثير.

وقال أبو العباس رحمته الله: حدثني الحصري عن والده الشيخ الحصري، إمام الحنفية في زمانه، قال: كان فقهاء بخارى يقولون في ابن سينا: كان كافرًا ذكيًا^(٢).

فهذا إمام الحنفية في زمنه حكى عن فقهاء بخارى أنهم يقولون في ابن سينا، وهو رجل معيَّن مصنّف، يتظاهر بالإسلام.

وأما كلام المالكية في هذا فهو أكثر من أن يُحصَرَ، وقد اشتهر عن فقهاءهم سرعة الفتوى والقضاء بقتل الرجل عند الكلمة التي لا يَفْطُنُ لها أكثر الناس، وقد ذكر القاضي عياض في آخر كتاب (الشفا) من ذلك طرفًا، ومما ذكروا أن

(١) حاشية ابن عابدين (٢/ ٣٣٩ - ٤٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٤٠).

مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ كَفَرَ.

وكل هذا دون ما نحن فيه بما لا نسبة بينه وبينه.

وأما الشافعية؛ فقال صاحب (الروض) رحمه الله: إن المسلم إذا ذبح للنبي ﷺ كفر. وقال أيضًا: مَنْ شك في كفر طائفة ابن عربي فهو كافر. وكل هذا دون ما نحن فيه.

وقال ابن حجر في (شرح الأربعين) في الكلام على حديث ابن عباس «إذا سألت فاسأل الله» ما معناه: أنه من دعا غير الله فهو كافر، وصنّف في هذا النوع كتابًا مستقلًا سماه (الإعلام بقواطع الإسلام) ذكر فيه أنواعًا كثيرة من الأقوال والأعمال، كل واحد منها ذكر أنه يُخرج من الإسلام، ويكفر به المعين، وغالبها لا يساوي عشر معشار ما نحن فيه. وتمام الكلام في هذا أن يقال: الكلام هنا في مسألتين:

الأولى: أن يقال: هذا الذي يفعله كثير من العوام عند قبور الصالحين، ومع كثير من الأحبار والأموات والجن؛ من التوجه إليهم ودعائهم لكشف الضر، والنذر لهم لأجل ذلك، هل هو الشرك الأكبر الذي فعله قوم نوح ومن بعدهم، إلى أن انتهى الأمر إلى قوم خاتم الرسل قريش وغيرهم، فبعث الله الرسل وأنزل الكتب ينكر عليهم ذلك، ويكفرهم ويأمر بقتالهم حتى يكون الدين كله لله، أم هذا شرك أصغر وشرك المتقدمين نوع غير هذا؟

فاعلم أن الكلام في هذه المسألة سهلٌ على مَنْ يَسُرُّه الله عليه، بسبب أن علماء المشركين اليوم يُقرُّون أنه الشرك الأكبر ولا ينكرونه، إلا ما كان من مسيئمة الكذاب وأصحابه، كابن إسماعيل وابن خالد، مع تناقضهم في ذلك واضطرابهم، فأكثر أحوالهم يُقرُّون أنه الشرك الأكبر، ولكن يعتذرون أن أهله لم

تبلغهم الدعوة، وتارة يقولون: لا يكفر إلا من كان في زمن النبي ﷺ. وتارة يقولون إنه شرك أصغر، وينسبونه إلى ابن القيم في (المدارج) كما تقدم، وتارة لا يذكرون شيئاً من ذلك، بل يُعظمون أهله وطريقتهم في الجملة، وأنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم العلماء الذي يجب رد الأمر عند التنازع إليهم، وغير ذلك من الأقاويل المضطربة.

وجواب هؤلاء كثير في الكتاب والسنة والإجماع، ومن أصرح ما يُجابون به إقرارهم في غالب الأوقات أن هذا هو الشرك الأكبر، وأيضاً إقرار غيرهم من علماء الأقطار، مع أن أكثرهم قد دخل في الشرك وجاهد أهل التوحيد، لكن لم يجد بُدّاً من الإقرار به لوضوحه.

المسألة الثانية: الإقرار بأن هذا هو الشرك الأكبر، لكن لا يكفر به إلا من أنكر الإسلام جملة وكذّب الرسول والقرآن، وأتبع يهودية أو نصرانية أو غيرها. وهذا هو الذي يجادل به أهل الشرك والعناد في هذه الأوقات، وإلا المسألة الأولى قلّ الجدل فيها، ولله الحمد، لِمَا وقع من إقرار علماء الشرك بها. فاعلم أن تصوّر هذه المسألة تصوّراً حسناً يكفي في إبطاله من غير دليل خاص لوجهين:

الأول: أن مقتضى قولهم: إن الشرك بالله وعبادة الأصنام لا تأثير لها في التكفير؛ لأن الإنسان إن انتقل عن الملة إلى غيرها، وكذّب الرسول والقرآن فهو كافر، وإن لم يعبد الأوثان، كاليهود، فإذا كان من انتسب إلى الإسلام لا يكفر إذا أشرك الشرك الأكبر؛ لأنه مسلم يقول: لا إله إلا الله. ويصلي ويضعل كذا وكذا، لم يكن للشرك وعبادة الأوثان تأثير، بل يكون ذلك كالسواد في الخلقة والعمى والعرج، وإن كان صاحبها يدعي الإسلام فهو مسلم، وإن ادعى ملة غيرها فهو كافر، وهذه فضيحة عظيمة كافية في رد هذا القول الفظيع.

الوجه الثاني: أن معصية الرسول ﷺ في الشرك وعبادة الأوثان بعد بلوغ العلم كفرٌ صريحٌ بالفطر والعقول والعلوم الضرورية، فلا يُتَصَوَّرُ أنك تقول لرجل، ولو من أجهل الناس وأبلداهم: ما تقول فيمن عصى الرسول ولم يُنْقِذْ له في ترك عبادة الأوثان والشرك، مع أنه يدعي أنه مسلم متَّبِعٌ؟ إلا ويبادر في الفطرة الضرورية إلى القول بأن هذا كافر، من غير نظر في الأدلة أو سؤال أحد من العلماء، ولكن لغلبة الجهل، وغرابة العلم، وكثرة مَنْ يتكلم بهذه المسألة من الملحدين، اشتبه الأمرُ فيها على بعض العوام من المسلمين الذين يحبون الحق، فلا تحقرها وأُمنِعِ النظر في الأدلة التفصيلية، لعل الله أن يَمُنَّ عليك بالإيمان الثابت، ويجعلك أيضًا من الذين يهدون بأمره.

ومن أحسن ما يُزيل الإشكال فيها ويزيد المؤمن يقينًا ما جرى من النبي ﷺ وأصحابه، والعلماء بعدهم، فيمن انتسب إلى الإسلام؛ كما ذكر أنه ﷺ بعث البراء معه الراية إلى رجل تزوج امرأة أبيه ليقتله ويأخذ ماله^(١) ومثل هَمَّه بغزو بني المصطلق لما قيل إنهم منعوا الزكاة، ومثل قتال الصديق وأصحابه لمانعي الزكاة وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم وتسميتهم مرتدين^(٢) ومثل إجماع الصحابة في زمن عمر على تكفير قدامة بن مظعون وأصحابه إن لم يتوبوا، لما فهموا من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾ حلّ الخمر لبعض الخواص^(٣) ومثل إجماع الصحابة رضي الله عنهم في زمن عثمان رضي الله عنه على تكفير أهل المسجد الذين ذكروا كلمة في نبوة مسيلمة، مع أنهم لم يتبعوه، وإنما اختلف الصحابة في قبول توبتهم، ومثل تحريق علي بن أبي طالب رضي الله عنه،

(١) أخرجه البخاري (٢٣١٤) ومسلم (١٦٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٩/ ٢٤٠).

أصحابه لما غلّوا فيه، ومثل إجماع التابعين مع بقية الصحابة على كفر المختار بن أبي عبيد ومن أثبته، مع أنه يدّعي أنه يطلب بدم الحسين وأهل البيت، ومثل إجماع التابعين ومن بعدهم على قتل الجعد بن درهم، وهو مشتهر بالعلم والدين، وهلم جرا من وقائع لا تُعد ولا تُحصى.

ولم يقل أحد من الأولين والآخرين لأبي بكر الصديق وغيره: كيف تقاتل بني حنيفة وهم يقولون: لا إله إلا الله. ويصلون ويذكرون! وكذلك لم يستشكل أحد تكفير قدامة وأصحابه لو لم يتوبوا، وهلم جرا إلى زمن بني عبيد الذين ملكوا المغرب ومصر والشام وغيرها، مع تظاهروهم بالإسلام وصلاة الجمعة والجماعة ونصب القضاة والمفتين، لما أظهروا من الأقوال والأفعال ما أظهروا، ولم يستشكل أحد من أهل العلم والدين قتالهم ولم يتوقف فيه، وهم في زمن ابن الجوزي، وصنف ابن الجوزي كتابا لما أخذت مضر منهم سماه (النصر على مصر) ولم يسمع أحد من الأولين والآخرين أن أحدا أنكر شيئا من ذلك أو استشكله لأجل ادعائهم الملّة، أو لأجل قول (لا إله إلا الله) أو لأجل إظهار شيء من أركان الإسلام، إلا ما سمعنا من هؤلاء الملاحين في هذه الأزمان، من إقرارهم أن هذا هو الشرك، ولكن من فعله، أو حسنه، أو كان من أهله، أو ذم التوحيد، أو حارب أهله لأجله، أو أبغضهم لأجله أنه لا يكفر؛ لأنه يقول (لا إله إلا الله) أو لأنه يؤدي أركان الإسلام الخمسة، ويستدلون بأن النبي ﷺ سماه الإسلام. هذا لم يسمع قط إلا من هؤلاء الملحدين الجاهلين الظالمين، فإن ظفروا بحرف واحد من أهل العلم، أو أحد منهم، يستدلّون به على قولهم الفاحش الأحقق فليذكروه، ولكن الأمر كما قال اليميني^(١) في قصيدته:

أحاديث لا تُعزى إلى عالم فلا تساوي فلسا إن رجعت إلى التقدي

(١) الصنعاني، في قصيدته في مدح الشيخ - كما سبق -.

ولنختتم الكلام في هذا النوع بما ذكره البخاري في صحيحه حيث قال: (باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان) ثم ذكر بإسناده قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة»^(١) وذو الخلصة صنم لدوس يعبدونه، فقال ﷺ لجبرير بن عبد الله: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟» فركب إليه بمن معه فأحرقه وهدمه، ثم أتى النبي ﷺ قال: فبرك على خيل أحسن ورجالها خمسا^(٢). وعادة البخاري ﷺ، إذا لم يكن الحديث على شرطه ذكره في الترجمة، ثم أتى بما يدل على معناه، مما هو على شرطه، ولفظ الترجمة، وهو قوله تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان لفظ حديث أخرجه غيره من الأئمة، والله ﷻ أعلم.

ولنذكر من كلام الله ورسوله وكلام أئمة العلم جملا في جهاد القلب واللسان ومعاداة أعداء الله وموالاته أوليائه، وأن الدين لا يصح ولا يدخل الإنسان فيه إلا بذلك فنقول:

باب وجوب عداوة أعداء الله من الكفار والمرتدين والمنافقين:

وقوله الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ هَاتِهِ اللَّهُ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسَهِّرُهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مَعَهُمْ﴾ وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكَ وَبَيْنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

(١) صحيح البخاري (٧١١٦).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٢٠).

قال الإمام الحافظ محمد بن وضاح: أخبرنا غير واحد أن أسد بن موسى كتب إلى أسد بن الفرات: اعلم يا أخي أن ما حملني على الكتاب إليك ما ذكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس وحسن حالك مما أظهرت من السُّنة، وعيبك لأهل البدعة، وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم، فقمعهم الله بك، وشد بك ظهر أهل السُّنة، وقواك عليهم بإظهار عينهم والطعن عليهم، فأذلهم الله بك، وصاروا يبدعتهم مستترين، فأبشر، أي أخي، بثواب ذلك، واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد، وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله وإحياء سُنَّة رسوله! وقد قال رسول الله ﷺ: «من أحيأ شيئاً من سُنَّتِي كنت أنا وهو كهاتين في الجنة وضم بين أصبعيه»^(١) وقال: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبَعَ عَلَيْهِ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ تَبِعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢) فمتى يُدرك هذا أجر شيء من عمله، وذكر أيضاً: «إِنَّ لِلَّهِ عِنْدَ كُلِّ بَدْعَةٍ كَيْدٌ بِهَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ وَلَيَّا لِلَّهِ يَذُبُّ عَنْهَا وَيَنْطِقُ بِعَلَامَتِهَا»^(٣) فاغتنم يا أخي هذا الفضل، وكن من أهلها، فإن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن وأوصاه: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ كَذَا وَكَذَا» وعظم القول فيه، فاغتنم ذلك وادع إلى السُّنة حتى يكون لك بذلك أُلْفَةٌ وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أمة بعدك، فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة، كما جاء في الأثر، فاعمل على بصيرة ونية وحسبة، فيرد الله بك

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٨) من حديث أنس مرفوعاً: «من أحيأ سُنَّتِي فقد أحيأني، ومن أحيأني كان معي في الجنة» وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ٦٣٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٥) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٢٧١٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤٠٠ / ١٠) وقال الشيخ الألباني: موضوع (ضعيف الجامع ١٩٥١).

المبتدع المفتون الزائع الحائر، فتكون خلفاً من نبيك ﷺ فإنك لن تلقى الله بعمل شبهة. وإياك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس أو صاحب، فإنه جاء الأثر: «من جالس صاحب بدعة نُزعت منه العصمة، ووُكِلَ إلى نفسه، ومن مشى إلى صاحب بدعة مشى في هدم الإسلام»^(١) وجاء: «ما من إله يُعبد من دون الله أبغض إلى الله من صاحب هوى» وقد وقعت اللعنة من رسول الله ﷺ على أهل البدع، وأن الله لا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً، ولا فريضة ولا تطوعاً، وكلما ازدادوا اجتهداً وصوماً وصلاة ازدادوا من الله بعداً، فارقُضَ مجالسهم وأذلَّهم وأبعدهم كما أبعدهم الله وأذلَّهم رسول الله ﷺ وأئمة الهدى من بعده^(٢). انتهى.

واعلم، رحمك الله، أن كلامه وما يأتي من كلام أمثاله من السلف، في معاداة أهل البدع والضلال ضلالة لا تخرج من الملة، لكنهم شددوا في ذلك وحذروا منه لأمرين:

الأول: غَلُظُ البدعة في الدين في نفسها، فهي عندهم أجلُّ من الكبائر، يعاملون أهلها كما يعاملون به أهل الكبائر، كما تجد قلوب الناس اليوم أن الروافض عندهم، ولو كان عالمًا أو عابدًا، أبغض وأشد من السني المجاهر بالكبائر.

الأمر الثاني: أن البدع تجر إلى الردة الصريحة، كما وجد من كثير من أهل البدع.

(١) أخرج الطبراني في المعجم الكبير (٢٠ / ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٦ / ٩٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام».

(٢) الأئمة والحوادث (١ / ٨).

فمثال البدعة التي شددوا فيها مثال تشديد النبي ﷺ على من عبد الله عند قبر رجل صالح، مما وقع من الشرك الصريح الذي يُصَيِّرُ المسلم مرتدًّا، فمن فهم هذا فهم الفرق بين البدع وما نحن فيه من الكلام في الردة ومجاهدة أهلها، أو النفاق الأكبر ومجاهدة أهلها، وهذا هو الذي نزلت فيه الآيات المحكمات، مثل قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الآية، وقوله ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جُهْدُ الْكُفَّارِ﴾.

وقال ابن وضاح في كتاب (البدع والحوادث) بعد حديث ذكره: إنه سيقع في هذه الأمة فتنه الكفر وفتنة الضلالة، لا يحل فيها السبي والأموال، وهذا الذي نحن فيه فتنه ضلالة لا يحل فيها السبي ولا الأموال^(١). انتهى كلامه.

وقال رحمه الله أيضًا: أخبرنا رجل عن ابن المبارك قال: قال ابن مسعود: إن لله عند كل بدعة كيدٌ بها أهلُ الإسلام وليًا من أوليائه، يذُبُّ عنها وينطق بعلمتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن وتوكلوا على الله. قال ابن المبارك: وكفى بالله وكيلاً^(٢).

ثم ذكر بإسناده عن بعض السلف قال: لأن أردَّ رجلًا عن رأي سيئ أحبَّ إليَّ من اعتكاف شهر^(٣).

أخبرنا أسد عن أبي إسحاق الحذَّاء عن الأوزاعي قال: كان بعض أهل العلم يقول: لا يقبل الله من ذي بدعة صلاة ولا صيامًا ولا صدقة ولا جهادًا ولا حجةً

(١) البدع والحوادث (١/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٠٠) وقال الشيخ الألباني: موضوع (ضعيف الجامع ١٩٥١).

(٣) البدع والحوادث (١/ ٦) من قول عبد الكريم بن أبي أمية.

ولا صرفاً ولا عدلاً، وكانت أسلافكم تشدد عليهم ألستهم وتشمئز منهم قلوبهم ويحذرون الناس بدعتهم. قال: ولو كانوا مستترين ببدعتهم دون الناس ما كان لأحد أن يهتك عنهم ستراً ولا يظهر منهم عورة، الله أولى بالأخذ بها أو بالتوبة عليها، وأما إذا جهرُوا فنشُرُ العلم حياةً، والبلاغُ عن رسول الله ﷺ رحمةٌ يعتصم بها على مصرّ بالحاده^(١).

ثم روى بإسناده قال: جاء رجل إلى حذيفة، وأبو موسى الأشعري قاعد، فقال: أرايت رجلاً قاعداً حتى ضرب بسيفه غضباً لله حتى قُتل، أفي الجنة هو أم في النار؟ قال أبو موسى: في الجنة. فقال حذيفة: استفيهم الرجل وأفهمه ما تقول. حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فلما كان في الثالثة قال: والله لا نستفهمه. فدعا به حذيفة فقال: رويدك، إن صاحبك لو ضرب بسيفه حتى ينقطع، فأصاب الحق حتى يُقتل عليه، فهو في الجنة، وإن لم يصب الحق ولم يوفقه الله فهو في النار. ثم قال: والذي نفسي بيده، لَيَدْخُلَنَّ النار مثلُ الذي سئلتُ عنه أكثر من كذا وكذا^(٢).

ثم ذكر بإسناده عن الحسن قال: لا تجالس صاحب بدعة؛ فإنه يُمرض قلبك^(٣).

ثم ذكر بإسناده عن سفيان الثوري قال: مَنْ جالَسَ صاحب بدعة لم يسلم من إحدى ثلاث: إما أن يكون فتنة لغيره، وإما أن يقع في قلبه شيء فيزل به فيدخله النار، وإما أن يقول: والله ما أبالي ما تكلموه، وإنني واثق بنفسي. فمن آمن الله

(١) أنبذع والحوادث (١/ ٦).

(٢) البذع والحوادث (١/ ٨٧).

(٣) البذع والحوادث (١/ ١٢٤).

على دينه طرفة عين سلبه إياه^(١).

ثم ذكر بإسناده عن بعض السلف قال: من أتى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام^(٢).

أخبرنا أسد قال: أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يُلبسوا عليكم ما تعرفون. قال أيوب، وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب^(٣).

أخبرنا زيد عن محمد بن طلحة قال: قال إبراهيم: لا تجالسوا أصحاب البدع ولا تكلموهم؛ فإني أخاف عليكم أن ترتد قلوبكم^(٤).

أخبرنا أسد بالإسناد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(٥).

أخبرنا أسد أخبرنا مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن زيد عن أيوب قال: دخل على محمد بن سيرين يوماً رجلاً، فقال: يا أبا بكر، اقرأ عليك آية من كتاب الله، لا أزيد على أن أقرأها ثم أخرج. فوضع أصبعيه في أذنيه ثم قال: أُخْرِجُ

(١) البدع والحوادث (١/ ١٢٥).

(٢) البدع والحوادث (١/ ١٢٦) وأخرج الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام».

(٣) البدع والحوادث (١/ ١٣٠).

(٤) البدع والحوادث (١/ ١٣٣).

(٥) البدع والحوادث (١/ ١٣٥) وأخرجه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) وحسنه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٣٥٤٥).

عليك إن كنت مسلمًا لِمَا خَرَجْتُ من بيتي. قال: فقال: يا أبا بكر، إني لا أزيد على أن أقرأ ثم أخرج! قال: فقال بإزاره يشده عليه وتهبأ للقيام، فأقبلنا على الرجل فقلنا: قد خَرَجَ عليك إلا خَرَجْتُ، أَفَيَجِلُّ لك أن تُخْرِجَ رجلًا من بيته! قال: فخرج، فقلنا: يا أبا بكر، ما عليك لو قرأ آية ثم خرج! قال: إني والله لو ظننت أن قلبي يثبُت على ما هو عليه ما باليتُ أن يقرأ، ولكني خفت أن يلقي في قلبي شيئًا أجهد أن أخرجه من قلبي فلا أستطيع^(١).

أخبرنا أسد قال: أخبرني ضمرة عن ابن شوذب قال: سمعت عبد الله بن القاسم وهو يقول: ما كان عبدٌ على هوى فتركه إلا إلى ما هو أشد منه. قال: فذكرت هذا لبعض أصحابنا فقال: تصديقه في حديث عن النبي ﷺ: «يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، ثم لا يرجعون حتى يرجع السهم إلى قُوقه»^(٢).

أخبرنا أسد قال: أخبرني موسى بن إسماعيل عن حماد بن زيد عن أيوب قال: كان رجل يرى رأيًا فرجع عنه، فأتيت محمدًا فرحًا بذلك أخبره، فقال: أشعرت أن فلانًا ترك رأيه الذي كان يرى! فقال: انظروا إلى ماذا يتحول! إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله «يمرقون من الإسلام لا يعودون إليه»^(٣).

ثم روى بإسناده عن حذيفة أنه أخذ حصاة بيضاء، فوضعها في كفه ثم قال: إن الدين قد استضاء استضاء هذه، ثم أخذ كفاً من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها، ثم قال: والذي نفسي بيده لَيَجِيَنَّ أقوام يدفنون هذا الدين

(١) البدع والحوادث (١/ ١٤٨).

(٢) البدع والحوادث (١/ ١٥٣) والحديث أخرجه البخاري (٧٥٦٢).

(٣) البدع والحوادث (١/ ١٥٤).

كما دَفَنْتُ هذه الحصة^(١).

أخبرنا محمد بن سعيد بإسناده عن أبي الدرداء قال: لو خرج رسول الله ﷺ إليكم اليوم ما عرف شيئاً مما كان عليه وهو وأصحابه إلا الصلاة. قال الأوزاعي: فكيف كان اليوم! قال عيسى، يعني الراوي عن الأوزاعي: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان!^(٢)

أخبرنا محمد بن سليمان بإسناده عن علي قال: تعلموا العلم تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله؛ فإنه سيأتي بعدكم زمان ينكر الحق فيه تسعة أعشارهم^(٣).

أخبرنا يحيى بن يحيى بإسناده عن أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال: ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا التداء بالصلاة^(٤).

حدثني إبراهيم بن محمد بإسناده عن أنس قال: ما أعرف منكم شيئاً كنت أعهده على عهد رسول الله ﷺ ليس قولكم: لا إله إلا الله^(٥).

أخبرنا أسد بإسناده عن الحسن قال: لو أن رجلاً أدرك السلف الأول ثم بُعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئاً. قال، ووضع يده على خده: إلا هذه الصلاة. ثم قال: أما والله لمن عاش في هذه النكراء^(٦)، ولم يدرك هذا السلف الصالح، فرأى مبتدعاً يدعو إلى بدعته، ورأى صاحب دنيا يدعو إلى دنياه،

(١) البدع والحوادث (١/ ١٦٤).

(٢) البدع والحوادث (١/ ١٦٩).

(٣) البدع والحوادث (١/ ١٧٢).

(٤) البدع والحوادث (١/ ١٨٨).

(٥) البدع والحوادث (١/ ١٨٩).

(٦) أي: الأمور المُنكرة.

فعصمه الله من ذلك، وجعل قلبه يحن إلى ذكر هذا السلف الصالح، يسأل عن سبيلهم، ويقتص آثارهم، ويتبع سبيلهم، ليعوض أجراً عظيماً، فكذلك فكونوا إن شاء الله^(١).

حدثني عبد الله بن محمد بإسناده عن ميمون بن مهران قال: لو أن رجلاً نُشر فيكم من السلف ما عرف فيكم غير هذه القبلة^(٢).

أخبرنا محمد بن قدامة بإسناده عن أم الدرداء قالت: دخل عليّ أبو الدرداء مغضباً فقلت له: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم من أمر محمد شيئاً إلا أنهم يصلون جميعاً^(٣).

وفي لفظ: لو أن رجلاً يعلم الإسلام وأهمه ثم تفقده ما عرف منه شيئاً^(٤).
حدثني إبراهيم بإسناده عن عبد الله بن عمرو قال: لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خَلَيَا بمصحفهما في بعض هذه الأودية، لَأَتَيَا الناس اليوم ولا يعرفان شيئاً مما كانا عليه^(٥).

قال مالك: وبلغني أن أبا هريرة تلا قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فقال: والذي نفسي بيده، إن الناس ليخرجون اليوم من دينهم أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا^(٦).

(١) البدع والحوادث (١/ ١٩٠).

(٢) البدع والحوادث (١/ ١٩١).

(٣) البدع والحوادث (١/ ١٩٢).

(٤) البدع والحوادث (١/ ١٩٣).

(٥) البدع والحوادث (١/ ١٩٦).

(٦) البدع والحوادث (١/ ١٩٥).

قف وتأمل، رحمك الله، إذا كان هذا في زمن التابعين، بحضرة أواخر الصحابة، فكيف يغرّ المسلم الكثرة أو تشكل عليه ولا يستدل بها على الباطل؟ ثم روى ابن وضاح بإسناده عن أبي أمية قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة، كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿لَا يَصْرِكُمْ مَنْ صَلَّى إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت بها خبيراً؛ سألت عنها رسول الله ﷺ قال: «اتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك ودع أمر العوام؛ فإن من ورائكم أياماً، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» قيل: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم»^(١).

ثم روى بإسناده عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «طوبى للغرباء» ثلاثاً، قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «أناس صالحون قليل، في ناس سوء كثير، من يفضهم أكثر ممن يحبهم»^(٢).

أخبرنا محمد بن سعيد بإسناده عن المعافري قال: قال رسول الله ﷺ قال: «طوبى للغرباء؛ الذين يُمسكون بكتاب الله حين يترك، ويعملون بالسنة حين تطفأ»^(٣).

أخبرنا أسد عن سالم بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «بدأ الإسلام

(١) البدع والحوادث (١/ ٢٣١) وأخرجه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ٢٣٤٤) وقال: لكن فقرة أيام الصبر ثابتة.

(٢) البدع والحوادث (١/ ١٨٠).

(٣) البدع والحوادث (١/ ١٨١).

غريبًا، ولا تقوم الساعة حتى يكون غريبًا؛ فطوبى للغرباء حين يفسد الناس، ثم طوبى للغرباء حين يفسد الناس^(١).

أخبرنا أسد بإسناده عن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء» فقيل: وما الغرباء، يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون عند فساد الناس»^(٢). هذا آخر ما نقلته من كتاب (الحوادث والبدع)^(٣) للإمام الحافظ محمد بن وضاح، رحمه الله تعالى.

قال المؤلف: وتأمل، رحمك الله تعالى، أحاديث الغربة، وبعضها في الصحيح، مع كثرتها وشهرتها، وتأمل إجماع العلماء كلهم أن هذا قد وقع من زمن طويل، حتى قال ابن القيم: الإسلام في زماننا أغرب منه في أول ظهوره^(٤). فتأمل هذا تأملًا جيدًا، لعلك أن تسلم من الهوة الكبيرة التي هلك فيها أكثر الناس، وهي الاقتداء بالأكثر والسواد الأكبر، والنفرة من الأقل، فما أَقْلٌ مَنْ سَلِمَ مِنْهَا! ما أَقْلُهُ ما أَقْلُهُ!

ولنختم ذلك بالحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله تعالى في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره»^(٥) وفي رواية: «يَهْتَدُونَ بهديه، ويستنون بسنته، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن

(١) البدع والحوادث (١/ ١٨٣).

(٢) البدع والحوادث (١/ ١٨٢).

(٣) البدع والحوادث (١/ ٣ - ١٩٦).

(٤) مدارج السالكين (٣/ ١٩٨).

(٥) أخرجه مسلم (٥٠).

جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدتهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل^(١) انتهى ما نقلته، والحمد لله رب العالمين.

وقد رأيت للشيخ تقي الدين رسالة كتبها وهو في السجن إلى بعض إخوانه، لما أرسلوا إليه يشيرون عليه بالرفق بخصومه ليتخلص من السجن، أحببت أن أنقل أولها لعظيم منفعتها، قال:

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا ﷺ تسليمًا، أما بعد:

فقد وضعت الورقة التي فيها رسالة الشيخين الجليلين العالمين الناسكين القُدَوَيْنِ، أيَّهما الله وسائر الإخوان بروح منه، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأدخلهم مدخل صدق، وأخرجهم مخرج صدق، وجعل لهم من لدنَّه ما يتم به من السلطان؛ سلطان العلم والحجة بالبيان والبرهان، وسلطان القدرة والنصرة بالسنان والأعوان، وجعلهم من أوليائه المتقين، وحزبه الغالبين، لمن ناوَاهم من الأقران، ومن أئمة المتقين الذين جمعوا بين الصبر والإيقان، والله مُحَقِّق ذلك ومُنْجِز وعده في السر والإعلان، ومنتقم من حزب الشيطان، لكن على ما اقتضت ومضت به سنته من الابتلاء والامتحان، الذي يميز الله به أهل الصدق والإيمان من أهل النفاق والبهتان؛ إذ قد دلَّ على أن لا بد من الفتنة لكل من ادَّعى الإيمان، والعقوبة لذوي السيئات والطغيان، فقال تعالى: ﴿الْعَمَلُ

أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ
يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ فَأَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاتِ يَفُوقُونَ
الطَّالِبَ الْغَالِبَ، أَوْ أَنْ مُدْعِيَ الْإِيمَانِ يَتْرُكُ بِلَا فِتْنَةٍ تَمِيزُ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ،
وَأَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الصَّدَقَ بِالْإِيمَانِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، فَقَالَ تَعَالَى:
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ
هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِخُسْرَانِ الْمُنْقَلَبِ عَلَى وَجْهِهِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، الَّذِي
يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهَا عَلَى حَرْفٍ، وَهُوَ الْجَانِبُ وَالْطَّرْفُ الَّذِي لَا يَسْتَقِرُّ مِنْهُ عَلَيْهِ، بَلْ
لَا يَثْبُتُ عَلَى الْإِيمَانِ إِلَّا عِنْدَ وَجُودِ مَا يَهْوَاهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ
النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ الْآيَةُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ
حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْمُرَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ وَأَخْبَرَ
سُبْحَانَهُ عِنْدَ وَجُودِ الْمُرْتَدِّينَ، فَلَا بَدَّ مِنْ وَجُودِ الْمُحِبِّينَ الْمُحِبِّينَ الْمُجَاهِدِينَ،
فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الْآيَةُ، وَهَؤُلَاءِ الشَّاكِرُونَ
لِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ الصَّابِرُونَ عَلَى الْإِمْتِحَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ فَإِذَا أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَى
الْإِنْسَانِ بِالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ كَانَ جَمِيعُ مَا يَقْضِي لَهُ مِنَ الْقَضَاءِ خَيْرًا لَهُ، كَمَا قَالَ
النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ
فَتَكَّرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١) وَالصَّابِرُ الشَّاكِرُ هُوَ
الْمُؤْمِنُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَمَنْ لَمْ يُنْعَمِ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالصَّبْرِ

والشكر فهو بِشْرٌ حَالٍ، وكل واحد من السراء والضراء في حقه تفضي به إلى قبح المآل، فكيف إذا كان ذلك في الأمور العظيمة التي هي من محن الأنبياء والصديقين، وفيها ثبت أصول الدين، وحفظ الإيمان والقرآن من كيد أهل النفاق والإلحاد والبهتان، فالحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لكريم وجهه وعز جلاله، والله المستول أن يشبكم وسائر المؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة، ويتم نعمته عليكم الباطنة والظاهرة، وينصر دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين على الكافرين والمنافقين، الذين أمرنا بجهادهم والإغلاظ عليهم في كتابه المبين^(١). انتهى كلام أبي العباس رحمته.

ومن جواب له رحمته، لما سئل عن الحشيشة؛ ما يجب على من يدعي أن أكلها جائز؟ فقال: أكل هذه الحشيشة حرام، وهي من أخشب الخبائث المحرمة، سواء أكل منها كثيراً أو قليلاً، لكن الكثير منها المسكر حرام باتفاق المسلمين، ومن استحل ذلك فهو كافر، يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل كافراً مرتداً، لا يُغسل ولا يُصلّى عليه ولا يُدفن بين المسلمين، وحكم المرتد شرٌّ من حكم اليهود والنصارى، سواء إن اعتقد أن ذلك يحل للعامة، أو للخاصة الذين يزعمون أنها لقمة الذكر والفكر، وأنها تحرك الساكن، وتنفع في الطريق، وكان بعض السلف ظن أن الخمر يباح للخاصة متأولاً لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ فاتفق عمر وعلي وغيرهما من علماء الصحابة على أنهم إن أقرروا بالتحريم جلدوا، وإن أصرّوا على الاستحلال قُتلوا^(٢). انتهى ما نقلته من كلام الشيخ.

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢١١ - ٢١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٤/ ٢١٣ - ٢١٤).

فتأمل كلام هذا الذي يُسَبِّحُ إليه عدمُ تكفير المعين إذا جاهر بسبِّ دين الأنبياء، وصار مع أهل الشرك، ويزعم أنهم على الحق، ويأمر بالمصير معهم، ويُكره على مَنْ لا يسبُّ التوحيد ويدخل مع المشركين لأجل انتسابه إلى الإسلام، انظر كيف كَفَّرَ المعين، ولو كان عابداً، باستحلال الحشيشة، ولو زعم حلّها للخاصة التي تعينهم على الفكرة، واستدل بإجماع الصحابة على تكفير قدامة وأصحابه إن لم يتوبوا، وكلامه في المعين، وكلام الصحابة في المعين، فكيف بما نحن فيه مما لا يساوي استحلال الحشيشة جزءاً من ألف جزء منه! والحمد لله رب العالمين، انتهى.

وفي هذه السنة أيضاً جرت وقعة تسمى وقعة الغفيلي، وهو رجل في قصر من قصور ضرما، فعزم على الردة، وصمم عليها قصده، فأرسل إلى إبراهيم بن سليمان، يخبره بذلك الأمر والشأن، ويستنجد به بأن يرسل إليه أعوان، فأرسل إليه بعض الجيش، لكي تطمئن نفسه ويسكن ما بها من الطيش، فعثر على ما نواه وأراد، واطلع على حاله أمير البلاد، فأرسل إلى الأمير محمد بن سعود، يخبره بالأمر المعقود، فجهز الأمير جيشاً في ساعته، من أهل العينة وأهل الدرعية وغيرهما من جماعته، وبادروا إلى قصر ضرما بالمسير، ليعالجوا ذلك التدبير، وسار معهم محمد بن عبد الله أمير ضرما وغالب قومه، بعد التهيؤ في الحال والاستعداد في القتال، فلما قارب البلد، كمن في زرع الذرة وقعد، فلما مضى هزيع من الليل، سمعوا وقع حوافر الخيل، فبدروهم بالجملة، وقتلوهم فوزاً من غير مهلة، ولم يسلك منهم فج الانهزام، إلا من نجا برأس طميرة ولجام^(١)،

(١) الطميرة: الفرس. وأخذه من قول حسان بن ثابت - رحمته الله - :

إن كنت كاذبة الذي حدثني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طميرة ولجام

وُقُتِلَ من أهل ثرمدا، ممن أقبل منهم واعتدى، على سبيل التحقيق لا التخمين، قريب من نحو سبعين، وأسير أناس من الأماثل، منهم عبد الكريم بن زامل. ثم دخلت السنة الثامنة والستون.

وفيها فتح الله تعالى للمسلمين حريملا، أخذوها بالسيف عَنوةً، وبغتوا أهلها بها فجوة؛ وذلك أن عبد العزيز، فسح الله له في الأجل، وبلغه غاية الأمل، غزا بالمسلمين، وكانوا نحو الثمان من المئين، وخيلهم لا تزيد على عشرين، فأناخ شرقي البلاد، وقد اشتد ظلام الدجنة في السواد، وقد عبَّأ المسلمون، وجعل ذلك الكمين في موضعين، فصار الأمير عبد العزيز في شعب عوجا^(١)، ومبارك بن عدوان مع مائتي رجل، وأقاموا بالجزيع^(٢) فوجًا، فلما بدا جبين النهار، وأسفر وجهه واستنار، وأخذ أهل الفلاحة في الانتشار، شنَّ الشعواء وأغار، فلم يكن لأهل البلد عن الظهور اضطبار، فعند ذلك نشب القتال، وتلاحمت الأبطال، وظهر الكمين الأول، فكان كلُّ من أهل البلد على الصبر قد عوَّل، وأرخصوا عند ذلك المُهْج، ولم يكن أحد لمنهج الفرار قد انتهج، حتى بدا لهم الكمين الثاني، فلم يكن أحد على القرار ثاني، بل جدوا في الفرار بلا تواني، وملك المسلمون أعقابهم، وحققوا مطالبهم، فقتلوا منهم مائة، عَجَّلَ الله ذهابهم، وأراد استئصالهم وعذابهم، ونال المسلمون بذلك غاية الآمال والمناال، وغنموا تلك الذخائر والأموال، وطاف على أهل ذلك الأفعال، طائف العذاب والنوبال، وقُتِلَ من المسلمين سبعة رجال، ودخل المسلمون البلد، ولم يكن أحد من أهل الشرك إلا شرد، وأعطى عبد العزيز بنية

(١) بين بلدتي حريملا والقرينة.

(٢) من أحياء حريملاء، يقع شرقها.

الناس الأمان، وكانت البلد فيثًا من الله على سبيل الامتنان، وخرج هاربًا منها مختفيًا ابن عبد الوهاب سليمان، وأمر عبد العزيز مبارك بن عدوان، وبش الأمير كان، لأنه أثر بعد ذلك سبيل الشيطان، كما يأتي بيان رده، في شهره وسنته، وقد أعطاه عبد العزيز من الأموال، كل نفيس عزيز، وخيَّره في البيوت والمنازل، وفي البساتين والأصائل، وأخذ ما شاء من تلك الدار، واختار ما طاب من العقار، ولما توقف في حكم أموال أهل هذه البلدة الناس، كشف الشيخ، رحمه الله تعالى، عن ذلك حُجْبِ الالتباس، وأماط عن وجه الحكم الأدناس، وبت الحكم بأنها على المسلمين من جملة الإلباس، نظير ما صدر وجري، من فعل السلف الكبرى. وكان ما دُكِرَ لثمان مضت من جمادى الأولى يوم الجمعة، وأقبل عبد العزيز بتلك الأموال والغنائم إلى الدرعية، ثم وقعت فيها المقاسم.

وفيهما تظاهر على نُصرة الدين، ومحاربة أهل الضلال والمشركين، عامة أهل شرقا، فأدركوا بذلك عزًا وفخرًا، وأحرزوا ثوابًا وأجرًا، فاجتمعوا على ذلك بعد الافتراق، واضمحل ما كان منهم قبل ذلك من الاختلاف والشقاق.

وفيهما محاربة ابن دواس الثانية في شعبان، بدت الردة من دهام، واجتمع هو وابن فارس على محاربة المسلمين والإسلام، بلا سبب من المسلمين لذلك باعث، بل على سبيل الاختيار أصبح للعهد ناكث، فأول ما جرى منه عدا على أهل أبي الكباش، وانقلب راجعًا متحاش^(١)، ولما تظاهر دهام بذلك الاعتداء، وعدل عن سنن الاهتداء، وتبين ذلك منه وبداء، ضاق على أهل الدين والهدى، من أهل بلده السكنى عند أهل الردى، فأجمعوا على الهجرة، وكل حق عليها

(١) أي: هارب.

رأيه وأمره، فتركوا الأموال والوطن، وباعوها بأغلى وأعلى ثمن، على مُولي المنن، فمن مشاهيرهم: محمد بن صالح وسعيد بن عمران، أهل الهجرة الأولى من الرياض إلى منفوحة ابن ذهلان عبد الرحمن وابن صالح وسعيد بن عمران وحمد أبا الحويل ومحمد بن دخيل وعياله أحمد وموسى وعبد الله وموسى بن محمد وقاسم ومانع وعيسى بن نوح وعلي بن نوح وسعد بن نوح وأخوه موسى وعبد الرحمن بن جندل وموسى بن زياد وابنه محمد وعبد الرحمن بن سويدان وسليمان بن سحيم وسليمان بن حمد بن صالح وراشد بن نفيسة وعلي بن نفيسة وإبراهيم بن نفيسة وسليمان بن نفيسة وموسى أبا الحويل وعبد الرحمن أبا الحويل، ثم هاجر جميع من ذكرنا من منفوحة إلى الدرعية لما ثبت أسباب الردة من ابن فارس.

ثم هاجر معهم من مشاهير أهل منفوحة: حسين بن عثمان وعثمان بن حسين وسليمان بن حسين ومحمد بن حمد بن حسين وسلطان بن عبد الله ومحمد ابنة وإبراهيم بن سلطان وسليمان بن حسين وإخوته ناصر وسلامة وموسى والمخاضيب عبد الرحمن وعياله عبد الله وحمد وعيسى وعيال محمد وعلي يحيى وموسى وعلي بن مزروع وعبد الله وحسن والسحوم دهمش وعمر وحمد ومطلق ومن الزمامات يحيى وموسى وآل نديان ثلاثة محمد والمغليلث وراشد وعلي ومنصور بن قاسم وسويلم بن قرأش وعثمان بن مجلي وعرييد وعثمان العلبوي ومحمد بن طفل ومبارك بن مرجان وغيث بن سحيم وولده ومحمد بن هلال وأخوه حمد وثالثهم علي وراشد التخيفي وعثمان التخيفي وسليمان الشعبي وعبد الله بن نفيسة وعبد القادر وعيسى بن سرحان وعبد الله بن رشيدان ومفرج بن رشيدان ومفرج بن جلال وعيسى بن سعدون وولده محمد.

وفيهما اجتمع دهام وابن فارس وأهل الوشم وأهل سدبر وأهل نادق وجلوية حريملا، فغزوا حريملا وحزّبوا عليها، وساروا جميعاً، فوصلوها وسلطان الليل قائم، والكرى على الأجفان حاكم، وغالب الأحراس نائم، فدخلوا في حلة تسمى الجسيان^(١)، ولم يشعر بهم من البلد إنسان، حتى ملكوا تلك البساتين والحلة، واستعد كل منهم للقتال وملك محله، فأخبر بذلك الشأن مبارك بن عدوان، فنهض عليهم مع جماعة معه في الليل، فرجعوا ولم يخرجوهم من النخيل، فلما أصبح الصباح، اغتدى للحرب وراح، واجتمع مبارك مع قومه، وانتقى معهم صبح يومه، وحمي بينهم القتال، وأخرجوا طائفة من تيك الجبال، وبقي طائفة من الرجال، وغالبهم من أهل حريملا من الجلوية محتصرين في البيوت خوف الاغتيال، ومكثوا نحو خمسة أيام، في أشر مقام، وفي مدة هذه الإقامة، كل يشد للرمي سهامه، وقَتَلُوا من أهل البلد، نحو ثمانية عشر من العدد، ثم بعد ذلك تسوّ المسلمون عليهم الدور، وحاق عليهم المكر والفجور، وحن عليهم القضاء المحتّم المسطور، فَقَتَلُوا قِتْلَةً رجل واحد، وكان دهام على مقتلهم واجد، وأخذوا ما معهم من سلاح، وغدا دهام بالخزي وراح، وكان جملة المقتولين من الأحزاب ستين، وقد دعا مبارك أناساً من أهل حرمة محصورين، وأعطاهم ذمة المسلمين، فخرج منهم على الأسر عشرة، فخان بهم وقتل منهم ستة قضى بهم وطره، ولم يشعر بذلك الشيخ وابن سعود، ولما جاءهم الخبر نعموا عليه بما صدر، كيف وفي الحديث «ثلاثة أنا خصمهم» وذكر رجلاً أعطى بي فغدر^(٢) فأخذ منهما الغضب غابته، وبلغ حده ونهايته.

(١) من أحياء حريملاء.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٧).

ثم دخلت السنة التاسعة والستون.

وفيها تقشع عن أهل القويعة غمام الشرك والشر والأذى، وزال عن أبصار بصائرهم القذى، واستشفوا من عَرَفِ الحق شذاً، ودخل أُنْدَتَهُم من التوحيد شائبة، وهبت لهم من ذلك سائبة، فصارت قلوبهم للدخول فيه طالبة، ولالتزام أحكام الإسلام راغبة، فأقبلوا على الشيخ والأمير محمد، حين أرادوا ذلك الطريق الأحمد، وقدم محروس الدرعية، كبار أهل القويعة، فبايعوا على الإسلام، والتزموا جميع الأحكام، ولقد صدقوا في تلك البيعة، ووفوا وأقاموا متجملين بجمال ذلك اللباس، فما خلعه ولا نفوا، وكان أول من صار إلى التوفيق وداعيه، ودَعَتْهُ منه أذن واعيه، ناصر بن جمار العريفي وسعود بن حمد، فكل منهما سارع إلى ذلك الشأن ونهد، وبادر إلى الوفود فوفد، وهاجروا إلى ديار الإسلام، فقالوا الفوز والمرام.

وفيها سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، متع الله تعالى به المسلمين، في رفعة وتمكين، إلى منفوحة والرياض، فَعَدَّوْا على منفوحة، ودخلوا نخيل الصبيخة^(١)، وأخذوا دواباً كثيرة، إبلاً وبقراً وحميراً، ثم خرج عليهم الأفراع، فهزمهم المسلمون بالقتل والدفاع، وقتل منهم علي أبا الماسح وغيره، ثم جاءهم بعد ذلك أهل الرياض بالمدد، واستحَرَّ بينهم وبين المسلمين القتال والجَلْد، وكلٌّ شَمَّرَ للجَلَاد واجتهد، حتى صاح بأحزاب الضلال، منادي الهوان والإذلال، فولَّوْا مدبرين، ولبدهم طالبين، ورجعوا بالخية والحسرة، وكم لهم مثلها من مرة، وكان دهام في تلك الأيام بادياً على أهل سدير والوشم، في تدبير الحرب والانتظام، والسياسة والمواعدة على المسلمين

(١) موضع مشهور يقع جنوب منفوحة.

والإسلام، وكان عند عبد العزيز بذلك خبر، قبل أن يرحل إلى منفوحة وبعد ما صدر، فلما رجع إلى الدرعية، وتحقق القضية، خرج مسرعاً يريد له الرصد، فكمن له قرب ضرما فإذا هو قد وفد، ولكنه شعر بالمسلمين، فولى مع من معه مدبرين، فطلبه المسلمون أشد الطلب، ولكنه جدّ في الفرار والهرب، ورمى عن الركاب كل ثقل، وترك من المضي كل ظهر لا يسرع في الغارة والزميل، وأخذ المسلمون ما طرحه وترك، ولحق ببلده عبد العزيز وانفرك^(١)، ثم إن عبد العزيز، حرسه الله تعالى، استأذن الغزاة في إعطاء جميع الغنيمة للمهاجرين، فطابت بذلك نفوسهم أجمعين، فأذنوا له في ذلك.

ثم دخلت السنة السبعون بعد المائة والألف.

وفيهما وقعة تسمى وقعة الرشا^(٢)، عند من ترعرع في ذلك الوطن ونشأ، وكانت على أهل منفوحة، لأن المسلمين نقضوا البناء المعدّ لحجر السيل على النخيل المسمى عند أهل البلد بذلك، ودخل المسلمون عليهم البيوت والدور، ثم إن دهاماً أتاه الخبر المصور، فنهض من ساعته، مع مقاتلة جماعته، بعدما قال لمن جاءه بذلك المقال: اثبتوا لهم ساعة؛ فإني أدهمهم مع الجماعة. فأقبل ابن دواس على المسلمين، وقد صاروا بهدم أساس الرشا مشتغلين، فقاتل من المسلمين من عند ذلك الأساس، حتى هزمهم مقاتلة أهل الرياض مع ابن دواس، وتصادم دهام في ذلك الظلام، مع واحد من فرسانه وحفدته وأعوانه، وتصادف الفرسان عند ذلك الطعان، وسقطا كل منهما على الأرض، وأخذ المسلمون على هيئة واجتماع، وخرج الذين دخلوا وسط الدور، بعد قتال

(١) انفرك: انصرف عن قصده.

(٢) قال ابن بشر (١ / ٣٣): «وهو حاجز للسيل عند بلد منفوحة».

مشهور، قُتِلَ فيه عبد الوهاب بن مشرف، وخرجوا عنها بعد ما قارب كل منهم الجِمام وأشرف، وصادفوا بعد أن خرجوا من تلك البلاد، دهام بن دواس ومن معه من الأجناد، فلم يعرفوهم وظنّوهم من أهل الدور أمداد، وقد عرف المسلمون دهامًا وقومه، وظنّ كلّ منهم أنه ملاق جِمامه ويومه، فحقن الله تعالى دماهم، وأنجح سولهم ومناهم، إلا أنهم قتلوا ثلاثة رجال، من أهل الرياض ذوي الضلال، قد عرفوهم بالرؤوس، فجرّعوهم من الجِمام مرّ الكؤوس، ورجع المسلمون إلى بلادهم، وقد استشهد منهم عشرة في تعدادهم.

وفيها أيضًا حَزَبَ أهل الوشم وأهل سدير على شقرا، وراموا بذلك من الهتك أمرًا، فساروا وقد ملئت قلوبهم بالحقن والضغائن، فنزلوا بأجمعهم في قرية القرابين، وأقاموا بها من الأيام ثلاثة، وكل يوم يناوشون أهل شقرا الحرب من غير توان ولا رثاء، ويقع بينهم في قتال وطعان ومجال، حتى أراد الكبير المتعال الخذلان لأهل الضلال، فجاء محمد بن سعود الخير، وتيقنه خبرًا فجرد صارم العزم للمسير، وأخبر بذلك أهل شقرا، وعين لهم الزمن المعلوم، وبين لهم يوم القدوم، الذي أجرى الله فيه القضاء المحتوم، على من هو لاستئصال المسلمين يروم، فلما جاء ذلك اليوم، وحان الذل بالقوم، خرج إليهم أهل شقرا، لبشغلوهم بالحرب قسرًا، خشية أن ينهزموا إن نالوا من مجيء المسلمين خبرًا، فلما نشب القتال وحمي، طلع عليهم عبد العزيز الكمي^(١)، فلم يجدوا غير الهزيمة ملاذًا، ولا سوى قرية القرابين معاذًا، فولّوا إليها مدبرين، وثقوا بها منحصرين، وولي المسلمون أكتافهم في الهزيمة، ولولا قرب القرية لكانت المقتلة عظيمة، وقُتل المسلمون منهم نحو خمسة عشر، وكان منهم من هو

(١) أي: الشجاع.

مشتهر، منهم حمد المَعْنَى وسويد بن زايد وغيرهما، وأخذوا ركابًا وسلاحًا وفرسًا، ثم حصروهم في القرائن وأطالوا لهم مجسًا، وأقاموا قريبًا من عشرين يومًا في الحصار، في غاية الضنك والضيق حتى أيقنوا بالدمار، ولكن الله لما أراد لهم السلامة، أقبل ابن سويط وقومه ففهموا أخباره وأعلامه، فخرجوا ليلاً مختفين، وللنجاة طالبين.

وفيها قتل غزو بن فايز^(١) في مكان يقال له الحسي^(٢)، وذلك أن المسلمين جاءهم عنه الخبر، فجرد له عبد العزيز ونفر، وكمن له في الحسي ورصد، حتى جاء إليه ووفد، فاستأصل المسلمون شأفته، وقتلوا جماعته، وأضحى ابن فايز في أيديهم أسيرًا، حتى بذل في فداء نفسه مالًا كثيرًا، وكان جملة ما أعطى وأظهر، خمسمائة أحر^(٣).

وفيها أيضًا وقعة باب القبلى، وذلك أن عبد العزيز، حرسه الله تعالى، شمر ساعده للحرب والانتهاض، وسار بالمسلمين حتى نازل الرياض، وأعد في الليل الكمين والكمين، قبل أن يفلق عمود الصبح ويستبين، فلما انجلى من الليل ظلامه، ونُشرت من الصبح أعلامه، وانتشر في الطريق الأنام، ظهرت غارة المسلمين والإسلام، فأسرع أهل الرياض إليهم، وشرعوا الأسنة عليهم، وأطلقوا الأعنة لديهم، فلم يكن غير لحظة أو ساعة، حتى كان الهروب طريق تلك الجماعة، وسبب ذلك حين عاينوا الموت في الكمين، وتيقنوا أن الله تعالى لهم معين، فعمدوا إلى الباب من الهرب، وكلُّ أراد الدخول قبل الآخر

(١) قال ابن بشر (١ / ٣٤): «ابن فايز المليحي السبيعي».

(٢) قال ابن بشر (١ / ٣٤): «قرب بلد حريملا والصفرة».

(٣) نقد يُعامل به في زمنهم.

وطلب، وتضايقوا عند الباب، وتكسرت في الدخول الحراب، وقُتِلَ منهم ثمانية رجال. دنت منيتهم بلا إمهال، منهم كنعان الفريد وصالح وابن نعران ورطبيان وغيرهم، وقتل من المسلمين عبد الله بن نوح.

وفيها سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، إلى الرياض، ونزل البنية، وخرَّب جميع زروع الشمسية.

وفيها غزا المسلمون الوشم، وأميرهم إذ ذاك محمد بن عبد الله أمير ضرما، فوافق المسلمين في طريقهم ذلك غزو للصمدة^(١)، أكثر من المسلمين هنالك، ففر المسلمون منهم، وجدوا في الفوار عنهم، وأسروا منهم بعض الناس، ففدوا أنفسهم من الأحباس.

وفيها غزا المسلمون وشيقر، وأميرهم عبد العزيز، فلما وصلوا إلى تلك البلاد، وكنموا لهم في تلك الوهاد، وخرج المقاتلة للجلاد، واشتد الحرب، وكثر بينهم الطعن والضرب، طلع عليهم ذلك الدفين، وأقبلوا إلى المعركة مسرعين، فلم يثبت أهل البلاد، بعد شدة ذلك الجلاذ، أن ولَّوا على أعقابهم مديرين، وقُتِلَ منهم أربعة رجال محققين.

وفيها غزا المسلمون أهل ثادق، وأميرهم عبد العزيز، سلك الله تعالى به أحسن الطرائق، فلما وصلوا إلى حلتها، نزلوا قريب نخلها ومحلتها، فناوش المسلمين الحرب أهلها، وكان الحائل بينهم نخلها، فتراموا الرصاص بينهم من بعيد، وكان ذلك الرامي يصيب ويفيد، وقطع المسلمون عليهم نخلاً، وعرفوا أن هذا شأن المسلمين فعلاً، وقُتِلَ منهم ثمانية رجال، وأقاموا محصرين يديرون الفكرة والاحتياال، فلم يكن لهم سوى الإقبال على الإسلام من إمهال،

(١) من الظفير.

وطلبوا ذلك من عبد العزيز فأعطاهم، وحقق لهم مطلوبهم ومناهم، وقدموا مع الغزو إلى الشيخ في الدرعية، وأخبروه بحاصل القضية، وأمر عليهم دخيل بن سويلم، وأرسل معهم أحمد بن سويلم، يعلمهم التوحيد والأحكام، ويحكم لهم الشرائع غاية الأحكام، وقد قُتِلَ من المسلمين ثمانية رجال، منهم محمد بن دغيش ومحمد بن مانع وغيرهما.

وفيها غزا المسلمون أهل جلاجل، وعبد العزيز، حرسه الله تعالى، أميرهم الذي يرجع إليه سياستهم وتديبرهم، فسار بالمسلمين ممن معه وساعده وتبعه، فنازل أهل جلاجل، وكان لإعداد الكمين فاعل، فلما خرج إليه منهم كل مقاتل، ونشب القتال وكان كل قزم لقرنه خاتل، هزم الله تعالى أهل جلاجل، فولوا مدبرين على الأعقاب، ودخلوا البلد وغلقوا دونهم الأبواب، ونهب المسلمون من بيوت البلد ما استطرف، ثم رجع عبد العزيز بمن معه وانكف، وأقبل معه من مطاوعة سدير: حمد بن غنام وإبراهيم المنقور وابن عضيبة وذلك لما طلبهم عبد العزيز، وقصده قدومهم على الشيخ وموافاتهم له وقراءتهم عليه وأخذهم عنه، وأقبل معه أيضًا بابن سعدون وابن حماد، مخافة أن يُزَيَّنَا لأهل العودة الارتداد، ولما قدم عبد العزيز الدرعية، ومن معه من تلك الجلوية، أتاه أمير العودة عبد الله بن سلطان، وطلب منه المنة والإحسان، على ابن حماد وابن سعدون، واختار حرسه الله تعالى طريق الموافقة والهون، وإلا فهو قد تفرس فيهما أن أسباب الردة منهما تكون، فأطلقهما لأجل وجاهته، ولم يدر ما يصدر عليه من جماعته، فلما وصلوا البلاد، أخذوا للردة في الاستعداد، فلما هياؤا أسبابها على المراد، لم يجدوا ما تطيب به النفس، ويتم لهم به السرور والإنس، سوى قتل من غمرهم بذلك الجميل، ومقابله بالصنع الويل، فقتلوا عبد الله بن سلطان، مقابلة لذلك الإحسان، وهذا شأن من وضع

المعروف في غير محله، وصرفه إلى غير أهله، يجازيه بقبيح فعله، كما قالت العرب في أمثالها: سَمُّ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ. وقال الشاعر:

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاقي الذي لاقى مجر أم عامر
وقال المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى في موضع السيف بالعلل مضر كوضع السيف في موضع الندى
وفيها غزا المسلمون الرياض، وأميرهم عبد العزيز، وقصدهم يرصدون دهام
إذا خرج إلى منفوحة يوم العيد، وكان عاداته يوم العيد يخرج للسلام على ابن
زامل، وأقاموا بين البلدين يرصدون، ولم يكونوا بما نوا يظفرون، إلا أنهم في
تلك الإقامة، خرج زيد الصمعر فوافقه فجرعه جمامة، ثم رجع عبد العزيز
ومن معه من المسلمين إلى بلادهم سالمين.

ثم دخلت السنة الحادية والسبعون.

وفيها غزا المسلمون ثرمدا، وأميرهم عبد العزيز، أعزه الله بالطاعة، ونصره
وأتباعه، فساروا إلى ثرمدا، وجرت وقعة تسمى وقعة النقيب، وذلك أن
المسلمين لما اشتد غسق الدياجي، لم يكن لهم دون دخول البلد من مفاجي،
وقد جعلوا لهم خارج البلد كمينين للرصد، فلما زال سواد الظلام، وذهب ذلك
الإظلام، وسعى العباد خارج البلاد، وقد أخبروا بالمسلمين، وما هم عليه
مجتمعين، وعرفوا أن المسلمين دخلوا حائطا نقبوا لهم نقبا في جداره، وأقاموا
فيه متوارين بين نخيله وأشجاره، والكمين الثاني خارج البلد، لم يشعر به أحد،
فاجتمع أهل تلك البلاد والحلة، على من عرفوا في النخل مكانه ومحلّه، وبقوا
ساعة بقربه وحياه، ينتظرون من يخرج من ذلك النقب ورجاله، فلما أراد من فيه

الخروج، لم يكن لهم عن ذلك النقب من عروج، فقاموا يخرجون منه واحدًا واحدًا، ولم يكن أحد منهم لغيره فاقداً، واستمروا على ذلك يخرجون منه أرسالاً، ولا يفهمون لمن يخرج منه حالاً، حتى اسود النقب وأظلم، وسد ضوءه بعد أن أعلم، فتيقنوا مصاب أصحابهم، وتحققوا مصارعهم في انقلابهم، فلما تبين للمسلمين ذلك، خرج جميع من هنالك، ووقعت معركة بينهم عظيمة، وحقق الله تعالى على تلك البلاد الهزيمة، وقُتلَ منهم اثنا عشر، منهم عبد المحسن بن إبراهيم رئيس ثرمدا، ومنهم بشر بن بلّاع، واستشهد من المسلمين في تلك الغزو قريب من عشرين، منهم عيسى بن ذهلان ومحمد بن عبد الرحمن بن موسى ومفرج بن جلال.

وفيها غزا مبارك بن عدوان بركب معه من أهل حريملا، فوافق عبد الله بن سليمان معه أسير، ثم بعد وصوله حريملا منّ عليه وأطلقه من غير قليل من المال ولا كثير، ولم يستشر في ذلك الشيخ ولا محمد بن سعود، فنقموا عليه بذلك الفعل غير المحمود.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم عبد العزيز وساروا إلى سدير؛ فاستولوا على الحوطة والجنوبية، وذلك لأن أهل البلادين أرسلوا للأمير يريدون منه القدوم واليسير، ومرادهم الدخول في الإسلام، والاستمرار تحت الذمام، فأسفّعهم بالمقصد والمأمول، وأسرع إليهم المحيي والوصول، فلما دخلها عبد العزيز ومن معه فزع عليهم أهل سدير ولم يفوزوا بمرام، ثم رجع عبد العزيز بعد أن نصب لهم في كل بلدة أميرًا وإمامًا.

وفيها خرب المسلمون زروع متفوحة.

وفيها غزا المسلمون جلاجل أيضًا، وأميرهم عبد العزيز، فأخذوا منها سوارح الغنم، ثم لحقهم الطلب، فاقتتل مع المسلمين ثم بعد ذلك ولى وانهمز،

وملك المسلمون أعتابهم، ولم يكن سوى البيوت مأبهم، وقُتِلَ منهم ستة رجال، في تلك الساعة والحال.

وفيهما أتى المسلمين الخبر، أن عريعر^(١) كبير الحسا يريد التخريب على الإسلام وأهله، وقد صرَّح بذلك في قوله لا فعله، وأخذ المسلمون للحرب في الاستعداد وتحصين البلاد.

وفيهما في شهر رمضان سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، إلى الرياض، وجرت وقعة عظيمة على أهل الرياض، تسمى وقعة أم العصافير^(٢)، وذلك أن المسلمين قدموها ليلاً، وجعلوا لهم رجالاً وخيلاً، أعدوا لهم رجالاً في مكان يقال له القبة^(٣)، كميناً، فلما أصبح الصباح وخرج إليهم أهل البلاد كان الله للمسلمين معيناً، فاستمر بينهم القتال، وضاق في المعترك المجال، حتى كشف الله تعالى جميع أفزاع الضلال^(٤)، وقُتِلَ منهم تركي بن دواس وابن فريان والجبري وحمود بن ماجد، ولم يُقتل من المسلمين غير واحد، ثم انقلب المسلمون إلى بلادهم، بعد تحصيل مراهم.

وفيهما سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز حرس الله مهجته، إلى الرياض، فنزلوا البنية وملكوها، وتلاحقت عليهم الأفزاع، من متفوحة والرياض فاقتتلوا

(١) عريعر بن دجين (ت ١١٨٨هـ). قال الأستاذ عبدالكريم الوهبي في كتابه «بنو خالد وعلاقتهم بنجد» (ص ٣٥٩): «بلغ شخصه حدًا من الشهرة حتى أُطلق لقب آل عريعر على معظم زعماء آل حميد؛ سواء كانوا من خلفه أو من أسلافه».

(٢) مكان قديم يقع وسط مدينة الرياض.

(٣) بناء قديم يقع وسط مدينة الرياض. قال في «معجم مدينة الرياض» (ص ٦٥): «أحدثها رجل مبتدع اسمه تاج بن شمسان».

(٤) الأفزاع: الجماعة يفزعون للنصرة والمدد.

في تلك الأراضي والبقاع، وكان القتال من بعيد بالبنادق، والكل من الطائفتين غير مقارب ولا موافق، وقُتِلَ بالرمي ذلك اليوم، ومن أولئك القوم، ثيان بن مبيريك عبد الزرعات، وآخر يقال له الدفين، واستشهد من المسلمين راشد بن غانم وحמיד بن قاسم وغيرهم نحو ثلاثة، ثم ثَوَّرَ الأمير عبد العزيز من تلك الأماكن، فأناخ بالعدوانة^(١) في ذلك الباطن، فأمر المسلمين جزاء الله تعالى خيراً، وأعظم له أجراً، أن يبنوا في ذلك الباطن قصراً، يكون للمسلمين حصناً وثغراً، فأقاموا سبعة أيام في ذلك البناء والإحكام، ثم بعد الفراغ منه والتمام، أُرخص لمن أراد من الغزاة أهله والقدوم عليهم من المشاة على الأقدام، وبقي هو مع الجيش بعض أيام.

وفيها جرت ردة مبيريك^(٢) بن عدوان، وأتباعه منهج الشيطان، وذلك أنه لما رجع من غزو البنية، وبناء القصر إلى الدرعية، عزله الشيخ ومحمد بن سعود الأمير، عن الإمارة في حريملا والتدير، وأمر أحمد بن ناصر بن عدوان، وأرسلا معه مفرج بن شعلان، وذلك لأنهما تخوفاً على المسلمين منه، لأمر صدرت نسبت عنه، فاسترخص مبيريك الشيخ ومحمد الأمير، أنه يريد العينية ثم يُسرِعَ إليهما بالمسير، فأرخصا له في ذلك، فلما خرج موزّياً بالسير إلى هنالك، اجتمع في ذلك الطريق مع أناس من أهل حريملا، فعادوهم على الردة، فلقى له منهم فريق، ثم سار يريد حريملا مع من وافقه من جماعته، فلم يصل إليها إلا بعد ما ملك حمد بن ناصر ومن معه قصر إمارته، فدعا مبيريك أهل البلد لنصره ومعونته، فلم يجبه أحد إلا بخذلانه ومهونته، فحين تحقق الأمر وعاقبته، وعرف

(١) قال ابن بشر (١ / ٤٠): «موضع معروف غربي الرياض».

(٢) تصغير: مبارك.

من جماعته المعادة والمباينة، ولى على وجهه مذبراً، وبقي على فعله نادماً متحسراً، وصارت منيخ^(١) له وجهه، فولى حريماً دُبْرَه، ومنح تيك وجهه، وقُتِلَ ممن ساعده على الردة رجال، وفر الباقون باستعجال، ولما أتى الشيخ ومحمد الأمير، بما رامه مبيريك من التدبير، أرسلوا إلى عبد العزيز وأخبراه بذلك، فجمع من عنده من الغزاة هنالك، فأخبرهم بالواقع والحادث، وأن ابن عدوان للعهد ناكث، وطلب منهم تجديد العهد والمباينة، على الموت والمتابعة، فلما صدقوا في النية، وأخلصوا لله الطوية، وساروا يريدونه ودخلوا في طريقهم الدرعية، لقضاء بعض الحوائج والأغراض، فلما عزموا على النهوض والانتهاض، وراحوا سائرين إلى النعمية^(٢)، فإذا البشير يفاجئهم بحصول الأمانة، فرجع عبد العزيز من فوره إلى الدرعية، ليشر الشيخ ووالده بالقصة والقضية، فحمدا الله تعالى وشكراه، وسبحاه وكبراه، ثم سار بعد ذلك عبد العزيز إلى حريماً تركيذاً للبلاد، وتطبيياً لقلوب أولئك العباد.

وفيها حَزَبَ مبيريك بن عدوان وجمع من أهل سدير والوشم والمجمعة، من كل مريد شيطان، وقصده بذلك حريماً ليشفي منها الفؤاد، ويفوز منها بالظفر والمراد، فأتى الأمير محمد والشيخ الخبر، بما جرى وصدر، فأرسلوا عبد العزيز والمسلمين إلى تلك البلاد، ليساعدوا أهلها ويحفظوها عن ذوي الفساد، فجاء الخبر مبيريك بن عدوان، فلم يقدر على وصول ذلك المكان، ولكنه سار مع أصحابه، وجملة أعوانه وأحزابه، فأناخ على البلدة، المسماة رغبة، فقاتلهم، ثم طلب من أناس من أهلها الخيانة له، فوافقه على ما أراده وطلبه،

(١) جبل في المجمعة، يُطلق اسمه قديماً على: المجمعة وحرمة.

(٢) شمال الدرعية.

وأدخل بعض السيوت والدور، ثم أخرج منها بعد الحرب والقتال مكسور، إلا أن أمير رغبة وابنه راضي قُتل، وولى مبيريك بمن معه خاسراً لمأموله لم ينل، ثم قدم عبد العزيز رغبة ومن معه من المسلمين، وأجلى من وافق مبيريك أجمعين، وأمر يهدم السور، خشية وقوع مثل ذلك الأمر المحظور.

ثم دخلت السنة الثانية والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها أتى الخبر الشيخ ومحمد الأمير، أن عريعر يريد الخروج على نجد والتسيير، فأمرُوا جميع بلدان المسلمين، بالبناء والاستعداد والتحصين، وقام عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالجد والاجتهاد، وشمر ساعده في البناء والاستعداد، فبنى على الدرعية سورين منضودين بالبروج، خشية التسور والعروج، ثم خرج بعد ذلك عريعر مع أهل الحسا وكافة بني خالد وأهل سدير والوشم والرياض والخرج، وكل منكر للحق جاحد، وعلى الباطل معين مساعد، وللضلال مؤيد معاضد، فأناخ أهل سدير والوشم والمحمل، ورئيسهم مبيريك بن عدوان، على أهل حريملا، وأقاموا يقاتلونهم ثلاثة أيام، فلم يكن لهم سبيل على أهل الإيمان، بل قُتل منهم رجال في أيام ذلك القتال، ثم رحلوا عنها وثُورُوا منها، وطلبوا من عريعر المدد والإمداد، ومساعدتهم بالجيوش والأجناد، فأمدهم بآل عبيد الله من بني خالد، وفرقان من عنزة كبيرهم ابن هذال، فأناخ الجميع على تلك البلدة، والكل منهم قد بذل جده وجهده، وأرهب سنانه، ونخا أصحابه وأعوانه، فأحاطوا بالبلاد، ودخلها منهم ثلاث جنادب^(١) للجلاد، فانتدب إليهم أهل تلك المحلة، وأخرجوهم مهزومين من النخيل والمحلة، وأركبوهم ولله الحمد غارب الهوان والذلة، وكفى بذلك عاراً

(١) هكذا. ولعله قالها إما لتحقيرهم، أو لتكثيرهم بأنهم كالجراد.

ومذلة، وقتلوا منهم رجالاً عشرة، والجرح أكثر من أن نعدّه ونحصّره، ثم خرج أهل البلاد بعد ذلك النصر والناموس، وصدور ذلك الفعل المانوس، وساروا جملة مسرعين، إلى مناخ تلك الأحزاب المجتمعين، فحين عاينوا ذلك الإقبال، ووجوه الرجال، ولوا على أعقابهم مدبرين، وانهزموا راجعين، وأخذوا أهل البلاد كثيراً من الأمتعة والزياد، ثم اجتمع ما ذكرناه آنفاً، بمن هو للتوحيد محارباً مجانفاً، وحصل التوافق مع عريعر ومن معه، واتفق رأيه مع من ساعده وتبعه، أنهم يُلقون عصا التسيار، بالجيلة محلة الصحب الأخيار، وينزلون تلك الفيافي والقفار، ويقاتلون أهلها إذا أسفر النهار، فعند ذلك ساروا جميعاً إليها، ونزلوا بأجمعهم عليها، وطَبَّبوْا تلك الخيام، على ذلك المقام، وأثبتوا العمد والأطناب، على رفيع تلك الهضاب، وراموا تغيير منهج الحق والصواب، بما جاؤوا به من الباطل والضلال والإعجاب، إن ربك لسريع العقاب، فأمدّهم المسلمون برجال، وبقوا أياماً في أشد الجلال والقتال، ثم إن أهل الباطل والضلال عَدَّوْا على القلعة وحاولوا الدخول، فلم يكن لهم إليه سبيل ولا وصول، وجاءهم وهم في ذلك المكان، من ورائهم أناس من أهل الإيمان، فلم يَلَوْ منهم أحد على أحد، بل كلٌّ منهم امتطى قدميه وشرّد، وقُتِلَ منهم في أيام القتال، ستون من الرجال، وقُتِلَ من المسلمين نحو العشرة، ثم ولت تلك الأحزاب منهزمة منكسرة.

وفيها طلب أهل المحمل^(١) من الشيخ ومحمد بن سعود الدخول في

(١) المحمل: إقليم من أقاليم نجد، وهو مجموعة من الأودية الصغيرة المنحدرة على السفح الغربي لجبل طويق (العارض)، ما بين سدير والوشم إلى الشمال من شعيب حريملا، وأهم بلدانه: ثادق ورغبة والبير والبرّة والعويند. ومعظم ما كان يُعرف بالمحمل يقع حالياً ضمن حدود محافظة ثادق.

الإسلام، فأعطوا ذلك المرام، وطلب عليهم نصف الزرع وربع الثمرة؛ فالتزموا بتلك الأمور المقدرة.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين، فساروا ونزل بالقصب، وجعل له كمينًا خارج البلد، يشد أعقاب من بادر إلى ذوي الغارة وطلب، فلما تبين الفجر وانجلي، وارتفع ضياؤه وعلا، وتبينت لأهل البلاد حال المسلمين، خرجوا إلى القتال أجمعين، فلما استمر بينهم القتال، خرج عليهم الكمين باستعجال، فولّوا مدبرين، وبقوا ببلدهم منحصرين، وقُتِلَ منهم سيف بن ثقبه، ثم بعد ذلك طلبوا من عبد العزيز الدخول في الإسلام، وأن تجري عليهم تلك الشرائع والأحكام، فوافقهم على ذلك المرام، وصالحهم على النخيل بثلاثمائة أحرر، فقبلوا ذلك المقرر.

ثم دخلت السنة الثالثة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز، أعزه الله تعالى، على الأعداء وأعلى به منار الهدى، فسار بأهل التوحيد، وغلب العنق على التوحيد^(١)، فلم تطب له راحة في ذلك المسير، حتى أصبح على المجمععة مغير، وعدا على تلك البلد، وقتل فيها من وجد، فقتل في ذلك اليوم علي بن دحان وأربعة من أولئك القوم، وعقروا كثيرًا من الدواب، ثم انصرف إلى بلاده بحسن مآب.

وفيها غزا عبد العزيز بلدان الخرج، فسار إلى الدلم ودخلها ليلاً، وهجم وقتل من أهلها ثمانية رجال، وأخذ من دكاكين كثير أموال، ثم خرج منها وانصرف عنها، وعدا على قرية نعجان، فظهر عليهم أهلها فكسروهم بلا توان، وقتلوا منهم عودة بن علي، ثم رجعوا سالمين.

(١) العنق: السير بين الإبطاء والإسراع. والتوحيد: السير السريع.

وفيهما أيضًا سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، إلى ثرمدا، فنازلوها بعد أن استنار الصباح وبدا، وكنوا لأهلها على العادة، طلبًا للإفادة، فلما خرج أهلها إليهم، وأسرعوا إلى الفرع عليهم، وجرى بينهم القتال، انكسر أهلها بعد ظهور الكمين بلا إمهال، فقتل المسلمون منهم نحو أربعة رجال، وأصيب مبارك بن مزروع من المسلمين في ذلك المجال، ثم بعد ذلك أرخص عبد العزيز لمن معه من الرجال، أن يعمدوا إلى أهلهم، وسار هو بالجيش إلى الخرج وأجمع رأيهم عليه وحاله، فشرّ على أهل الدلم الغارة، وقد سبقه عليهم النذارة، فلما أغار عليهم خرجوا مسرعين، فاقتتلوا أشد القتال مع المسلمين، ثم شدّ المسلمون عليهم، وعمدوا بالصدق إليهم، فأنكشفوا مسرعين إلى الديار، وتحصنوا بذلك الجدار، وقتل المسلمون منهم سبعة، وأخذوا إبلا مجتمعة. ثم بعدما صدر من الدلم، جمع رأيهم وعزم، أن يغزو الوشم، فسار على وجهته، وتصمم عزمه وهمته، فأناخ على وشيقر ليلاً وهياً الكمين، فشعر أهل البلاد بالمسلمين، فخرجوا جميعاً إليهم، وأقبلوا للقتال عليهم، والكل قد صدق الطعان، في ذلك الوقت والزمان، حتى غشيتهم حملة الكمين، وخالطتهم أسنة الدفين، فولّوا على أعقابهم مدبرين، وقُتل نحو العشرين، ثم انقلب عبد العزيز بمن معه إلى بلادهم راجعين.

وفيهما عزل الأمير محمد والشيخ مشاري بن معمر عن إمارة العيينة؛ لأمور كثيرة ثبتت عنه شينه، وقدم الشيخ العيينة تلك الأيام، وأمر سلطان بن محسن المعامره على من بها من سائر الأنام، وأمر بهدم قصر آل معمر، فهدم ذلك القصر، لما حقق عليه الشيخ الأمر.

وفيهما غزا المسلمون منفوحة وحرقوا الزروع، ثم كان منهم إلى بلدانهم العودة والرجوع.

وفيها جرت وقعة آل ريس في بلد الرياض، فقتلوا من آل ريس أربعة بلا ارتياض، منهم علي، وقتل معهم غيرهم.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم عبد العزيز، حرسه الله تعالى، آل عسكر من آل ظفير، وكانوا على الثرمانية^(١)، فصباحهم عبد العزيز بالغازة الشعوائية، فوقع بينهم القتال، واحتك القضا في المجال، حتى قُتل رئيس أولئك الأبطال، وكان يقال له فوزان الذبيحة من روس آل عسكر، فانكسر ذلك الفريق وأدبر، وقتل منهم عشرة رجال، وأخذ المسلمون منهم عظيم الأموال، ثم انقلبوا إلى بلادهم راجعين.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم عبد العزيز، فسار إلى الوشم، وحقق عليهم العزم، فوافق في طريقه خمسة عشر رجلاً من أهل ثرمدا، فشن عليهم الغازة وعدا، فزبنوا بلداً يقال لها الحريق^(٢)، فنازلها المسلمون، وطلبوا منهم أولئك القوم يخرجون، فأبى عن الموافقة والطاعة، من بالبلد من الجماعة، وقالوا هذه بش السناعة، فلما ألح عليهم عبد العزيز، وعرفوا أنه ليس دونهم أو الفدا من تجويز، افتدوهم منه بألف وخمسمائة زر^(٣)، فقبل ذلك منهم وتركهم وصدر.

ثم دخلت السنة الرابعة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز، أدام الله تعالى فوزه، وكثر من الخير حوزة، فسار بأهل الدين يريد سدير، وحث لأجل ذلك السير، فلم يصل إليهم حتى سبقه

(١) قال ابن بشر (١ / ٤٣): «ماء معروف قرب بلد رغبة».

(٢) بلدة تقع في منطقة الوشم، تبعد عن شقراء ٣٠ كم.

(٣) عند ابن بشر (١ / ٤٣): «وافتدوهم منه بألف أحمر، وخمسمائة أحمر». وهو نقد

يُعامل به قديماً.

الذير عليهم، فتأهبوا لإقباله واستعدوا لقتاله، ولم يكن معه من الركاب سوى ثمانين من غير ارتياب، فأغار على بلدة يقال لها الروضة^(١)، وجرى بينهم قتال، وصار عن قتل شهيل بن سحيم الانفصال، ولم يقتل سواه من المسلمين، ثم أقبل عبد العزيز بمن معه راجعين.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين سدير، فصارت على الروضة منهم الغارة، فخرج أهلها وابتدروا الحرب أعظم ابتدرة، وشدوا للقتال إزاره، فلما اشتد القتال وأججوا استعاره، ظهر عليهم الكمين فانكسروا أي انكساره، وقتل منهم نحو الستة حين أعطى كل واحد منهم المسلمين أسنّه، ثم رجع المسلمون إلى بلادهم، بعد نيل مرادهم.

وفي تلك الغزوة أغار المسلمون على الزلفي فجوة، فأخذوا سارح الأغنام ثم أدركهم فرع الأقوام، فتركوا ما معهم من الغنم، وصمموا على قتال من قصدهم ودهم، وجرى بينهم القتال ساعة، ثم كل إلى محله ارتجاعه.

وفيها سار عبد العزيز، أعز الله تعالى به المسلمين، وأدام له التأييد والتمكين، فنزل على الرياض بالمسلمين، وأعد في مظلم الديجور ما شاء من الكمين، فلما قارب الفجر في الانبلاج، تبين حال المسلمين ووقع في البلد الارتجاج، وخرج أهلها ووقع القتال بينهم، وعجل الله لأهل الباطل حينهم، فبعدما حمى الحرب واستعر، وشد لها تلك الأفزاع الأزر، ظهر عليهم من المسلمين الكمين، فلم يكن لهم عون ولا عوين، فولّوا سراغا مدبرين، وقد كسرت رجل رئيسهم فheid بن دواس، ولم يكن بعد كسرهما لهم صبر ولا احتباس، وعاش فheid نحو أربعين يوما بعد كسره، ثم حواه لحد قبره، وقتل

(١) روضة سدير، تقع على بعد ١٦٠ كم تقريبا شمال غرب مدينة الرياض.

منهم ثمانية رجال، واستشهد من المسلمين ستة في ذلك المجال.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين، فنزل منفوحة بالمريقات^(١)، وأقام فيها بقية ليلته وبات، فلما انبلج من الفجر الضياء، وتشعشع نوره وأضاء، وقد أعدّ الكمين في دياجر الليل، وكان للمسلمين إلى تخريب زروع منفوحة الميل، فلما تحقق أهل منفوحة ذلك الشأن، وتبين لهم في العيان، لم يكن لهم عن اللقاء من توان، فلما خرجوا إليه مسرعين، وأقبلوا عليه مهطعين، وناوشوا القتال المسلمين، ظهر عليهم الكمين المذكور، وحان بينهم القضاء المسطور، فأضحى أهل منفوحة وأفزاع الرياض، كل منهم منهزماً مكسور، وقُبل من جميع تلك الأفزاع سبعة رجال بلا نزاع.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز المذكور، ضاعف الله تعالى له الأجور، فصبح مساعد بن فياض مع قومه بالعتش^(٢) في تلك الفياض، فلما طلعت عليه المسلمون، بقوا مدة يقتتلون، وراموا حماته ذلك الفريق، فلم يكن لهم إليها طريق، فشد المسلمون عليهم الحملة، فلم يكن لهم دون الهزيمة مهلة، فاستولى المسلمون بعد الهزيمة، على جميع أموالهم فكانت غنيمة، واستاقوا جميع الأغنام والآبال، واحتوا على الأمتعة والأسلحة والأموال، وقتلوا منهم عشرة رجال، منهم سعد القروى وأولاده، وقُتل من المسلمين ابن عراز كما بان تعداده، ثم رجع المسلمون إلى بلادهم.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين إلى قصر الغدوانة^(٣)، يريد زيادة بنائه

(١) قال في «معجم مدينة الرياض» (ص ٧٤): «المريقت: اسم حي شهير وسط الرياض.. كان في الأصل قلعة حربية».

(٢) قال ابن بشر (١ / ٤٤): «بين سدير والمحمل».

(٣) شعيب يقع في حافة وادي حنيفة في غرب الرياض.

وتحصينه، ثم يرجع بعد حينه، ولكن إذا أراد الله تعالى أمرًا فلا بد من إنفاذه وتكوينه، فلما أراد الله ﷻ أن يبرز للخلق ما سبق في الأزل، ويبلو الناس بما فعل، ويهيئ الأسباب لمن دنا له الأجل، همَّ عبد العزيز، بلغ الله به الأمل، أن يهجم على الرياض ليلة العيد، ويبت أهلها ويبيد، فسار بعدما أظلم الليل وأغلس، والصبح لم يتنفس، فدخل البلد من المسلمين عدوة، فرآهم رجائيل لابن دواس صادرين من نادٍ أو ندوة، فعمجلوا إليه بالأخبار، فلم يكن له دون ركوب الخيل من بدار، فخرج بخيله ورجاله ودولته، يريد ركن المسلمين مع جماعته، فبادر إلى الركن المعد قبالة البلد، فلم يدرك منهم أحد، ثم ظهرت العدو التي دخلت البلاد، وقُطعت ساقه ابن دواس ومن معه من الأجناد، وشن المسلمون عليهم الغارة بالخيل والجيش، والتهبت نار الحرب وزاغت الأبواب من الجزع والطيش، ثم انهزم دهام مع دولته بعد إذلاله وكسر حدته، وقد قُتل كثير من رجاله ومشاهير فرسانه وأبطاله، منهم حمد بن سودا وعبد الرحمن الحرثي وأبا المجير، واستشهد من المسلمين خزام ابن عبيد وعثمان بن مجلي.

ثم دخلت السنة الخامسة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين إلى متفوحة ليلاً، وقد أعد الكمين، فلما أخذ الصبح في الضياء والتبين، تبينت لأهل البلاد غارة المسلمين، فنهضوا إلى اللقاء، وبادروا من غير بقاء، فاقتتل الفريقان، وحمي بينهم الطعان، فلما ظهر عليهم الكمين، أدبروا منهزمين، وقتل منهم سعد بن محمد بن فارس وشبيب الصنان، ولم يقتل من المسلمين إنسان.

وفيها سار المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، إلى الخرج وكمن لأهل نعجان، ولم يفتن بذلك من أهلها إنسان، فلما تبين الصبح وأنار، خرج أهلها للقتال

على البدار، فاستعجل كمين المسلمين بالظهور، وذلك لما قدره الله من الأمور، واشتد بينهم القتال ثم انكسروا على استعجال، وقُتِلَ المسلمون منهم سبعة رجال، وحصروهم في تلك القرية أيامًا وليالي، وقطعوا من تلك النخيل العوالي.

ثم سار عبد العزيز بمن معه إلى الوشم، ودخل ضرما لأجل تزهب الأزواد، ثم ساروا ولم يكن لهم دون مرات من مراد، فلما وصل في الليل إليها، وقدم في الظلام عليها، هيأ للحرب كمينه، وأمرهم بالصدق وإخلاص النية، فلما تبين الفجر وانكشف، وولَّى مُدْلِهِمُ الليل وانحرف، تبين لأهل مرات الحال، فلم يكن لهم دون اللقاء من مجال، فخرجوا للحرب مستعدين وللموت مستوطنين، فلم يلبثوا غير ساعة بعد ظهور الكمين، ثم ولَّوْا على أعقابهم مدبرين، وقُتِلَ المسلمون منهم قريب عشرين، وقُتِلَ من المسلمين رجالان، ثم انقلب المسلمون إلى البلدان.

وفيهما أيضًا سار عبد العزيز ومن معه إلى الوشم، ونزل بأهل الفرعة، وأناخ عليها في الليل جيشه وجمعه، فلما خرج أهلها لقتال المسلمين، واستمروا على القتال مجتمعين، خرج عليهم بعد ذلك الكمين، فولَّوْا مسرعين، وقُتِلَ منهم سبعة رجال، ولم يقتل أحد من المسلمين في ذلك المجال، ثم بعد ذلك بأيام طلب أهل الفرعة من أهل شقرا الدخول معهم في الإسلام، فأجابوهم إلى ذلك المرام.

وفيهما أيضًا غزا عبد العزيز بالمسلمين يريد ثرمدا، وقد جد لأجل ذلك المسير، فسبقه إليهم النذير، فلما أغار عليهم لم يدرك المراد، لتحصن أهل البلاد، وجري الرمي من بعيد، ولكنه لا يجري ولا يفيد، ولم يقتل من أهل البلد سوى شخص في العدد، ثم سار في وجهته وطريقه ذلك وغزوته، ونزل بين

الفرعة ووشيقر، وبني هنالك قصرًا يكون للمسلمين ثغرًا، ويضيق على وشيقر وأهله، وهذا من شديد رأيه وفعله، وأعد فيه للحرب والقتال شُرذمة من الرجال، ولم يزل ذلك القصر مأهولًا، وبالمسلمين موصولًا، جامعًا لأسباب العمارة والنظام، حتى دخل أهل وشيقر الإسلام.

وفي تلك الغزوة أيضًا وضع عبد العزيز في شقرا خيلًا ورجالًا، زيادة على من فيها ليحسبوا بذلك حالًا، ويزيد أهل الباطل بهم ذلة ووبالًا.

وفيهما غزا جدعان بن قعية بأهل عشر ركاب من المسلمين، فوافقهم ابن فياض مع غزو معه فناروا عنه مجتمعين^(١)، وتزبنوا قارة في ذلك المكان، ثم دعاهم شخص من عرينة بالأمان، فلما أقبلوا إليهم نذ العهد وخان، ولا غرابة في هذا فقد وقع نظيره في سابق الزمان، وقُتل في تلك الغزاة عبد الله بن براك ومعين بن ذباح وجدعان بن قعية وغيرهم نحو العشرة.

وفيهما عدا المسلمون على ضرب مقرر في الرياض، فاقتتلوا معهم، وقُتل من أهل الرياض ثلاثة، وأصيب شعلان بن دواس، واستشهد من المسلمين عبد الرحمن المشهوري وحمد بن سليمان القاضي.

وفيهما أكل الدبى والجراد جميع زروع نجد وأشجاره، وحمل الله أثماره.

ثم دخلت السنة السادسة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيهما غزا عبد العزيز فسار بالمسلمين يريد الرياض والهجوم عليها، فجد السير حتى نزل حوالها، وعبأ كمينه وعدوته، وهباً في ليله سطوته، فدخل البلدة العادون وأقاموا بها يرتادون، حتى لمع بريق الفجر، فعلم ذلك الشأن

(١) ناروا: هربوا.

والأمر، وأقبل أهل الرياض، في أشد عزيمة وانتهاض، فتجالدوا مع العادين، وكانوا لهم مبادين، واستمر ذلك القتال في ذلك المجال، بين أولئك الرجال، فقتل أربعة من أهل البلد، فولّوا مدبرين، وقتل دهمش بن سحيم من المسلمين. وفيها أيضًا سار عبد العزيز بالمسلمين، وكانوا لأهل الرياض منتدبين، فأسرعوا لذلك الشأن، حين تحكّم الرقاد في الأجفان، فوصل إلى تلك البلاد، فعبأ للعدوة من أراد، وكانوا نحو المائتين من غير شك ولا ميم، فدخلوا البلد واختفوا منها فيما اطمئن، وعندهم أن أهل البلد لم يكن لهم فطن، وظنوا أن عبونهم قد حكم عليها الوسن، وقد أراد الله تعالى أن يعلم دهام بما دبروه حالًا، فأتاه من أصدقائه مقالًا، فعند ذلك شمر هو ومن معه عجالًا، وأتاهم في مكانهم فرسانًا ورجالًا، وأراد أن يقتطعهم دون الجيش الذي أبدى عن البلد اعتزالًا، فبادره المسلمون حملة واحتمالًا، وشمروا له جلاذًا وقاتلًا، وأقبل بعد ذلك الجيش مشمرًا للجلاد أذيالًا، فاقتلوا ساعة ثم انهزم دهام، وقد قُتل من قومه ستة رجال، وثلاث من الخيل، ونال ولله الحمد هوانًا موالًا، وقُتل من المسلمين شريان، ورجعوا بعد ذلك بالأجر والإحسان.

وفيها عدا دهام بن دواس، وأبدى غاية الكيد والإبلاس، ورام بالمسلمين قاصمة الظهر، ولم يدرك أن الله تعالى يريد لهم التمكين والظهور، فأعد لباطل ذلك الكيد عدة، وأعد لذلك الأمر أهل النجدة، واختار ذوي البأس والشدة، ولم يكن عند المسلمين توهم ولا يقين، مما دبر من حاله وقبيح أفعاله، حتى جاء المسلمين التنذير، يخبرهم بوصوله واستعجاله، فتفاوض المسلمون في الرأي والتنذير، ومن أين يكون الخروج للعدو والمس-ير، فأش-ار عبد العزيز على والده محمد برأي مبارك رشيد، وتدبير ميمون سديد، وذلك أن المسلمين يخرجون من القرى لكونه ظامنًا خفي، وأرسلوا لها سبرًا يحقّقه خبرًا، فلم

يَرْغُهُمْ إِلَّا الرمي وصوته، فبادروا إليه قبل فوته، فالتقى الخيل مسرعة، وأطلقوا أعنتها فتبعه، حتى فجأوا دواسًا ومن تبعه، فاشتد بينهم القتال، ثم تلاحق الجيش والأبطال، وحمي الحرب واستعر، ولم يكن لأحد دون الذب عن عمره من مفر، حتى أن الله تعالى جَلَّتْ حكمته وعمت رحمته أيد المسلمين ونصر، ورزقهم على عدوهم الظفر، فقتلوا من أهل الرياض خمسة وعشرين، ثم ولّوا بعد ذلك مدبرين، وغنموا أربعًا من الخيل، وأخذوا جميع الركاب، ولم يكن لهم غير بلدهم من طلاب.

وقد كان عبد العزيز قبل قدوم هذا الخبر يشتهي من ألم الحمى بعض الضرر، فلما جاءته بذلك الأخبار لم يبال بما معه من الأضرار، بل شمر ساعده وشد الإزار، للقاء الأعداء والنजार، وقام في ذلك الأمر وقعد، وجد فيه طاقته واجتهده، حتى أنجح الله تعالى له ما قصد، وحقق له في أعدائه سؤله، وبلغه في أهل الباطل مأموله، وحمده في تلك الأفعال أهل الإيمان والكمال، وقتل من مشاهير خيالة أهل الرياض: علي القروى وسعد المراجع ومانع بن مشوط وميريك بن مبارك، فشفى الله تعالى بذلك قلب عبد العزيز والمؤمنين، وأذهب غيظ قلوبهم أجمعين.

وفيهما غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، الحسا، فأزال الله تعالى بذلك الغزو عن قلوب المسلمين الهم والأسى، وكانت خيل المسلمين قريبًا في العدد من ثلاثين، فوصل إلى تلك الديار، بعدما أخذ النهار في الإدبار، وذهب ضوء شفق النهار، فأناخ قريب البلاد، وأرسل عينه إلى المطيرفي^(١) ليرتاد، فألفاهم وقد أخذ الرقاد من أجفانهم المراد، وحكم عليهم الكرى بالاهجداد، فأخذ في

(١) من قرى الأحساء، تقع على بعد ١٠ كم شمال مدينة المبرز.

أهبة دخول البلاد، بالتهيئة والاستعداد، فلما انجلت من الليل غياهبه، وبدت من الصبح سوافره ومذاهبه، هجم عليهم المسلمون فيها، وجالوا في قاصيها ودانيها، واستداروا في بيوت تلك البلد، يقتلون من يشاهدونه من أحد، فلم يسلم إلا من اختفى أو شرد، فقتلوا السبعين من أولئك المشركين، وأخذوا من الأمتعة والسلاح والدواب ما لا يحصره العد والحساب، وحسن للمسلمين في ذلك المآب.

فلما أرادوا إلى نجد الرجوع والانقلاب، أغاروا على أهل المبرز في ذلك الصباح، وقتلوا أيضاً في طريق تلك النخيل من أهل الفلاحة بعض الرجاجيل، ثم انقلب المسلمون راجعين، فلما أتوا العرمة^(١) وافقوا أناساً مجتمعين من أهل الرياض وحرمة، فقتلوا أهل الرياض وأخذوا أموالهم، وتركوا أهل حرمة وحالهم، لأنهم إذ ذاك مهادنون، وفي السلم داخلون.

ولما وصل المسلمون إلى الرياض في هذه الغزوة، أغاروا على أهلها فجوة، وأخذوا لأهل منفوحة أغنام، ورجع كل إلى بلاده بالسلامة والأغنام، وقسمت تلك الغنائم في الدرعية، بين الغزاة بالسوية.

وفيها وقعت الردة من أهل وثيثة، وذلك أن أهل وثيثة، لما أرادوا أن ينبذوا الإسلام ويبدو للعهد نكثاً، أرسلوا إلى إبراهيم بن سليمان أمير ثرمدا يخبرونه بما عزموا عليه من الشأن، ويستنجدونه على القدوم ويحثونه على الوصول إليهم والهجوم، فقال: ذلك ما كنا نريد، وهذا هو الرأي السديد. فَقَتَلُوا عِنْدَ ذَلِكَ عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنَ زَامِلٍ، ودخلوا مع إبراهيم في طريقه وعيده، وانتظموا في سلكه وعقده.

(١) العرمة: منطقة جبلية تكون على يمين المنجى شمالاً مع طريق الرياض القصيم السريع، وتمتد حتى منطقة سدِير.

وفيها غزا عبد العزيز، حرس الله مهجته، بالمسلمين وآل كثير، يريد سبع، لما نقضوا العهد، فجعد في المسير، وأخذ سائرًا في الجنوب يريد سرعة الوصول، فوافقتهم على سيح الدبول^(١)، فأغارت عليهم من المسلمين الخيول، ولحققتهم الجيوش مثل السيول، فوقع بينهم المصادمة والقتال، ثم كان عن قتل مائق بن شلية الانفصال، وأخذ المسلمون منهم نحو المائتين من الإبل، ثم رجعوا إلى بلادهم وقد أدركوا الأمل.

وفيها غزا المسلمون سدير، وقصدهم بذلك بعض العربان، فلم يوافقوا أحدًا في ذلك الزمان.

ثم دخلت السنة السابعة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها كاتب دهام بن دواس الشيخ والأمير محمد بن سعود، على أنه يريد الدخول في المنهج المحمود، ويلتزم القيام بجميع شرائع الإسلام، ويحافظ على الوفاء بالعقود، ويقسم أعظم الأقسام أنه يوفي بالعهود، فوافقوه على ما طلب وأراد، مع علمهم بأنه لا يوفي بوعده ولا ميعاده، ولكن لا يسعهم أن يصدوا عن طريق الحق والرشاد، من أراد الدخول فيه من العباد، وطلب الدلالة والإرشاد، ولكن طلبوا عليه على سبيل التوبيخ له والتنكيل، وطريق التأديب عن التغيير والتبديل، ألقي زر معجلة وأموال المهاجرين، يرد كل لمن هو له، فالتزم بذلك الصدق والقيام، وأظهر غاية الانقياد والالتزام، وأرسل إلى الشيخ والأمير، ما شرط عليه من النقد في التقدير.

وفيها سار المسلمون وأميرهم عبد العزيز، حرسه تعالى وأفاض عليه بره ووالى، إلى سدير، لملاقاة ذلك العدو الكثير، فلما وصل إلى جلاجل،

(١) غرب الأفلاج.

والظلام قد أخذ في التراجع، وأقام يهبي التدبير لملاقاة العدو الكثير، فلم ينبج من الصبح عموده، حتى استعدت أحزابه وجنوده، وكمن في موضعه الكمين، وعرف أهل الغارة من المسلمين، فلما استتار بياض الصباح، وخرجوا للقاء والكفاح، فلم يلبثوا للقتال إلا سيرا، ثم صار ذلك الفزع ينهرم مكسورا، ولم يكن لهم عن دخول القرية من براح، وفي الحقيقة ليس عليهم في ذلك من جناح؛ إذ لا طاقة لهم ولا لغيرهم بالمسلمين في الكفاح. وقُتِل من أهل البلاد عشرة رجال في التعداد، وقطع المسلمون عليهم بعض النخيل، ثم انصرفوا راجعين بالتأميل، وقُتِل من المسلمين فرحان التمامي وصالح بن محمد بن صالح.

فلما وصل المسلمون إلى رغبة، فإذا غزو من أهل اليمن قد أخذوا فريقا من سبع في الذمة ونهبه، واستولى على مال ذلك الفريق وسلبه، فأخبر ذلك الفريق عبد العزيز في أثناء الطريق، فشر ساعد الجند والعزم، ورفع إزار الهمة والحزم، وسار في يومه ذلك عن ساعته، مع من معه من أحزابه وجماعته، وحث على ذلك الجياد، ولم يُثَبِّه حرسه الله البعد والبعد، ولا خوف ملاقات الأعداء، وسأل الله تعالى أن يعينه على ذلك المرام والمُراد، ويبلغه ما أمّله من أهل الفساد، وأخذ سائرا في آثارهم متطلبا لأخبارهم، حتى وصل إلى فيفاء سهلة، تسمى إذ ذاك قَذلة^(١)، فإذا غزو اليمن قد ألقى بها رحله، وطرح فيها ثقبه وثقله، فلم يكن لهم دون لقائهم ساعة ولا مهلة، حتى تلاحمت الخيول والأبطال، وتلاحقت بالجيوش والرجال، وطال بينهم الطعان في ذلك المجال، وصدق المسلمون النية لمولاهم، فأنجح قصدهم ومناهم، فشذوا

(١) قال ابن بشر (١ / ٤٧): «بين بلد القويعة والنفود».

على أهل الشرك والضلال، ولم يكن لهم دون هزيمتهم من إمهال، فقتلوا منهم نحو الخمسين، وأسروا مائتين وأربعين، وأخذوا ما معهم من الخيل والركاب، ولم ينل المسلمون من مصاب، وكانت ركائب المسلمين فوق المائة على التحقيق لا التخمين، وخيلهم نحو الأربعين، وانقلب المسلمون إلى أهلهم راجعين، وكانت هذه الواقعة العظيمة والمنة الجسيمة في شهر رمضان، فحصل السرور والتهان.

ثم دخلت السنة الثامنة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها غزوة تسمى غزوة المديهم، وكانت في صفر، وذلك أن عبد العزيز، أعزه الله تعالى بالإسلام، وأنجح له السؤل والمّرام، غزا بالمسلمين ومعهم في تلك الغزوة دواس بن دهام مع قومه، فسار عبد العزيز مُجِدًّا في يومه، ولم يزل في السير مُجِدًّا يبذل فيه جدًّا، يؤثر الوُخْد فيه على الذميل^(١)، ولا ينيخ فيه إلا القليل، وقصده بذلك الغزو والمسير فرقان من آل ظنير، يسمون مديهم، وقد كانوا على جراب ماءٍ بنجد مقيم، فنزل بمن معه قريب ظلمة الليل البهيم، وأرسل عينه إليهم، فنظروهم وأشرف عليهم، فإذا هم على التحقيق فريقان، ولقاؤهم لا يطاق ولا يدان، وليس لأحد به يدان، فلم يكن لعبد العزيز سوى طلب المعونة والانتصار، من الملك القهار، على أولئك الأشرار، وبذل الجِد والاجتهاد في قتال ذوي البغي والفساد.

وتفاوض المسلمون بينهم في صفة القتال والتلاق؛ لأن الفريقين كانوا في المنزل على افتراق، فتخوف المسلمون منهم أنهم إذا صَبَحُوا فريق غشيم الفريق الثاني بالتطيق، وكان المسلمون إذ ذاك ليسوا بالكثير، وركابهم لا تزيد

(١) الوُخْد: السير السريع. والذميل: سيرٌ أبطأ من الوُخْد.

على مائة وثلاثين بالتقدير، فأشار عليهم المبارك الميمون، برأي به النجاح يكون، وذلك أنهم يجتمعون ويحملون على فريق رجالاً، فإذا انكسروا انقلبوا إلى ركبهم فركبوا عجالاً، فيحملون بعد ذلك كافة مجتمعين، فيهزمونه أجمعين، فلما أضاء الصبح ونور، أخذ المسلمون في ذلك الرأي المدبر، فلم يفاجئ تلك الأعراب إلا أسنة المسلمين الأحباب، فبقوا معهم ساعة في جلال وبذل وجد واجتهاد، حتى عابوا ما ليس لهم به قبل، فولّوا سراعاً على عجل، وقُتلَ منهم نحو الثلاثين، وأخذوا أموالهم أجمعين، وقُتلَ من المسلمين المغيلث، ورجعوا إلى بلادهم بتلك الغنائم، ولم يقع لهم مثلها في المقاسم.

وفيهما في ربيع الثاني جرت على المسلمين وقعة الحائر^(١)، ذات اللقب المشهور والاسم الظاهر، وذلك لما اقتضته الحكمة الربانية والقدرة الصمدانية، من وقوع أسباب المحن وفتح أبواب الشر والفتنة، وابتلاء أهل التوحيد والإيمان بذوي الضلال والعصيان، وتسويل أولياء الشيطان لكل ضعيف اليقين والإيقان، أحوال الردة والافتتان، وتمييز أهل الباطل والفجور والضلال من ذوي التوحيد والكمال، حتى يتميز ذلك لدى الناس، ويظهر الطيب المبرء من الأدناس، من الخبيث المتضخ بالأرجاس، ويشاهد حاله ويستبين ﴿وَلَسَلَوْكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ وَنَكْوَ وَالْمَصْدِرِينَ﴾.

فكان سبب تلك الواقعة والنازلة الجامعة، أن أهل اليمن لما أخذوا وأُسروا، وقتلوا في قذلة وقُهرُوا، شمروا للثأر أطراف الذيل، وجدوا في السير للنهار والليل، فلم يخطئوا عن الوصول والقدوم، والمسير إلى نجران والهجوم،

(١) قال ابن بشر (١ / ٤٧): «المعروف بحاير سبيع، بين الخرج والرياض». يبعد عن

الرياض جنوباً بحوالي ١٧ كم.

فشكوا لهم الحال وما عابنوا من الويال، وشرحوا لهم على التحقيق ما صدر عليهم بذلك الطريق، وأن أصحابهم في الأسر والأغلال يعذبون كل يوم على التوال، ودَعَوْهُمْ إلى المسير والسيار، والأخذ لهم بالثأر، وانتدب لهم بالمراد تلك الجماعة، والكلُّ منهم مدٌّ للشر باعه.

وكان الداعية في ذلك الشأن رئيس نجران، واسمه الحسن بن هبة الله، قبحه الله وأخزاه، فجمع جميع أهل نجران من الحضرة والبدوان، والتأم معه قبائل اليمنان، فأقبلوا سائرين على عجل، حتى اجتمعت تلك القبائل والدول، ووطئوا بلاد المسلمين، فجاءهم خبرهم اليقين على التفصيل والتعيين، فجمع عبد العزيز، رحمه الله تعالى، مقاتلة المسلمين والإسلام، ممن بلغ سن الاحتلام، وأمرهم بالتأهب والقتال، والاستعداد للقاء ذوي الضلال، وسار بهم جميعاً يريد قرية الحائر، وكانت من بلاد المسلمين، وقد أرسل لهم قبله مدداً يكون عوناً وناصراً، فلما وصل إليها وأشرف عليها، وقد كان رئيس نجران بها نازل، ولأركانها حافل، وبقي بها مدة أيام وليال، كل يوم يقع بينه وبين أهلها قتال.

وقد كان المسلمون في مسيرهم إلى الحائر، الذي نزل به ذلك العدو والجائر، والجند المارق الفاجر، يتكلمون في مسيرهم إلى العدو والذهاب، بدلائل الخيلاء والإعجاب، الذي يكون غالباً به المعاقبة والعقاب، ويصير سبباً إلى الابتلاء من رب الأرباب، فحين التقى المسلمون بأولئك الأحزاب، وقد وطلنوا أنفسهم في ذلك الموقف على ابتغاء الثواب، وبذل غالي الرقاب، حمي بينهم الوطيس، ولم يحصل بين الأبطال تنفيس، وبقي فرسان الإسلام تجول، ورجالتهم تسأل الله النصر وتصول، حتى قاربوا أن يكشفوا أولئك الأعداء، ويلبسوهم ثياب الردى، ولكن أراد الله تكملة أوليائه، وخذلان أعدائه، وتبين

حزب المؤمنين ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فكتب على المسلمين الهزيمة في ذلك اليوم، وتبع ساقتهم أولئك القوم، وحق عليهم الهزيمة، وقُتل منهم مقتلة عظيمة، تقارب على التحقيق واليقين، أربعاً من عقود المئين، فصارت هذه الحادثة والنازلة الكارثة طهرة وتمحيصاً للمؤمنين، ومحققاً للضلال والمعتدين، ورفع درجات للمستشهدين، وعبرة للمعتبرين.

وأقام رئيس نجران أياماً بذلك المكان، ثم ارتحل بالغدوانة، فكان ذلك الباطن مكانه، ولما نزل بذلك الموضع المذكور، خرج أهل ذلك القصر المشهور، إلى إبل له نحو عشرين، وأخذوها وانقلبوا راجعين، ثم تحصنوا في مكانهم، وقتلوا من جماعته ثلاثة أشخاص من ساعته، ثم بدا عليه دهام بن دواس، وأهدى عليه هدايا لقصد الإيناس، ورغبة مما في قلبه من الشر والإفلاس، أن يمشيه ويسير به على بقية المسلمين والناس، ووعد على ذلك كثيراً من الأموال، وأنتك إن جردت سيف الجهاد والقتال، في هؤلاء الذين اعتدوا في الفعال، وفتحت بلدانهم، وقتلت أعوانهم، فزت بالسؤدد والمحامد، وألقت إليك نجد بالمقالد، وصرت رأسها ورئيسها، وغرتها ونفيسها، وغدوت حاكمها وواليها، تنفذ التدبير في أسافلها وأعاليتها، فهش الخبيث عند زخرف ذلك المقال، وبش حين ما وعى ما موه عليه من الأقوال، ولم يدر حاله، ولم يختبر أفعاله، بل بدا له أنه ناصح أمين، يريد له الظهور والتمكين، وما عرف أنه خائن أفاك، ومعتد سفاك، وحنه على التأخر والإقامة، وأظهر حشيمته وإكرامه.

ثم أرسل أيضاً دهام إلى عريعر بالخبر والإعلام، ويحثه على الظهور إلى نجد، ويقرب له المرام والقصد، ويستجيشه في ذلك العام، ويخبره أن أهل نجد في غير نظام، وأن كلمتهم متفرقة، وأحوالهم مشتتة متمزقة.

وفي إقامة رئيس نجران تلك المدة كاتب المسلمين، في القوم الذين كانوا

عندهم مأسورين، فقبلوا ذلك الحال، وكان الشرط بينهم في المقال، أن يُطلق ما عنده من أسرى المسلمين، ويطلقوا من عندهم أجمعين، وقد كان الرئيس المذكور عنده من أهل الإسلام ما هو مأسور، نحو الثلاث من المئين، فأطلقهم جميعاً مكرمين، وقد مكث في ذلك المكان نحو خمسة عشر يوماً من الزمان، وقدم عليه أيضاً في ذلك المكان ذو الضلال والطغيان، زيد بن زامل^(١) وفصل بن سويط^(٢)، وأثنوا عليه في تلك الأفعال، وحمدوه في ذلك القتل والقتال، والتزموا له إن بقي جزيل الأموال، فلم يلق إليهم بال، ولم يرع لباطل ذلك المقال، وأرسل عريعر إليه يندبه أن يقيم بمكانه، حتى يقدم عليه، وأرسل إليه بالصحف والمكاتيب، وزخارف الأباطيل والأكاذيب، ومموهات الرسائل والأرقام الموعود فيها بنفائس الأموال، والحطام وأجاويد الخيل الكرام، إن بقيت في ذلك المقام حتى أقدم عليك بالجيوش العظام، ويمتية منكراً وزوراً، ويعده باطلاً وفجوراً ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ أَلَّا غُرُورًا﴾ فلم تُجد تلك الوعود فيه، ولم يجنح إلى ما يعده ويمينه، ولم ترض للإقامة شكيمته، ولم ترض بباطل الوعود شيمته، ولم تركز لما زخرفوه همته، ولم تُضغ لها عزمته، ولم تكن نفسه آية عن الأطماع، بل تطمع في المال غاية الأطماع، وتنزع إلى حبه أشد النزاع، ولكن لما قذفه الله تعالى في قلبه من الرعب والإفزع، والخوف والأجزع، لم يقم غير ما ذكرنا في تلك البقاع، وأزاله الله تعالى عنها، وطرده وقذفه في هوة الذل وأبعده، ولم يحسن له بعد تلك الأفعال له شأن ولا حال، بل كتب عليه الهوان والإذلال، وأصيب بالنتمة من الكبير المتعال.

(١) أمير الدلم.

(٢) شيخ الظفير.

وقال المصنف في ذلك الحال:

عين جودي بواكف هتان واسكي عبرة من الأجفان
وأفيضي على الحدود دموغاً تحكي صوب الغمام في الهملان
وامجري لذة الكرى في الدياجي قد كفى ما جرى من الأحزان
واذكرني معشراً وابكي مصاباً ما جرى مثله بماضي الزمان
لحف نفسي على فراق صحاب قد تنالوا بطاعة الديان
فهدوا للجهاد صدقاً وباعوا غالي النفس في رضا الرحمن
أسرعوا في امثال أمر إله إذ دعاهم إلى قصور الجنان
صدقوا بيعة عليه وأوفوا ومضوا مسرعين للغفران
فأنيلوا الحياة مع مشتهى الجنات والخور في رفيع المكان
وانقضى راجعاً بخزي وذل من أتى غازياً مع النجران

وفيها خرج عريعر إلى الدرعية، مع بني خالد كافة وأهل الحسا وسائر الرعية، فلم تصل جيوشه وأجناده وعساكره وأمداده إلى رمال الدهنا، حتى اختلج رئيس نجران ذهنًا، ومزج الخوف له، وملأ الله بالرعب قلبه، فلم يلبث بعده إلا قليلاً، ثم جد السير إلى بلاده وخدا ودميلاً، وآثر الليل هادياً ودليلاً، فلما وصل عريعر إلى فياض الحسا، وارتوى من تلك الحياض القعساء، طاب كثير من أهل البلدان نفساً، ولما استقر به القرار، في معمر تلك الديار، وانتشرت جنوده في فسيح ذلك الوهاد، وملئت تلك الفيافي والمهاد، تبين من أهل نجد الارتداد، ونجم الضلال والنفاق، وقام الباطل على ساق، ودعا فلبت بسرعة له أعوانه، وأجابته على الفور أخذانه، وسارعت إلى دعوته شياطينه وإخوانه.

وأول من أجاب لداعيه، ولبى الصوت مناديه، وبادر إليه عجلًا، وسار له

هرولة ورملاً، ورام بأن يبلغ بذلك الباطل أملاً، وشهر راية الفتنة والإبلاس، دهام بن دواس، فكان مما رام بها على خيبة وإفلاس، وأهل منفوحة سلكوا معه في ذلك العرين، وتتابع نجد من ذوي الإسلام والعهد أجمعين ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

ثم إن عريعر استشار من أهل نجد ذوي المعرفة والشأن، في المنزل الذي ينزله من الدرعية مع تلك العربان، ويسع الحضر والبدو من أهل الحسا وسائر البلدان، فاستقرت الفكر والأذهان، على أنه ينزل بين قريي القصير وقريي عمران^(١)، كما هو معروف بذلك إلى الآن، فوجلت قلوب أهل البلاد، مما جاء به وكاد، وما جره عليهم وقاد، وملئت قلوبهم مخافة ومهابة، حين ضرب خيامه ومدّ أظنابه، ودهشوا من ذلك الكيد بالإرعاب، وأزعجهم ما رأوا من الأجناد والخيلاء والإعجاب، وما شاهدوا من عظيم تلك الأسباب، وبهرت قلوبهم تلك المدافع، التي ليس أحد دونها بممانع.

ولم يكن للمسلمين غير الله دافع، ولا سواه من معين ولا مدافع، فأنابوا إلى الله واستسلموا، ولجأوا إليه في كشف ما به دُهِمُوا، وتحققوا أنهم على الدين المنصور وجزموا، وجردوا سيوف الهمّة على القتال وعزموا، وعلموا أنهم يرحمون فأعينوا ورجموا، وكلّ صدق النية لله وأنان، وأخلص في الإيمان والاحتساب، رجاء من الله في جزيل الثواب، وتأميلاً من المولى أن يحسن لهم المآب.

(١) بجوار الدرعية. والقري (وتصغيره: قُريّ): اسم لكل مجرى سيل يغطيه، وهو يُشبه الروضة، غير أنه غالباً لا يستقر به الماء. «معجم اليمامة» (٢ / ٢٨٣ - ٢٨٤).

فلما أناخ بذلك المكان الفسيح، أقام ذلك اليوم ولم يبد حرباً ليستريح، فلما بدا اليوم الثاني نهض مسرعاً من غير توان، حين أكملت الطلوع شمس، مشمراً للقتال طيبة نفسه، وقرب المدافع والآلات، وتلك الجيوش المزعجات، إلى قريب من الجدارات، وأقام يرمي بها رميات، يريد أن يهدّ تلك اللبنات، ويقض تلك البروج المستكينات، وأخذ يحث الرماة ويزجر، ويرد عليهم ويصدر، فلم ينل ولله الحمد المراد، وصدر وما أفاد، ولم ترم مدافعه لبنة من جدار، فكان للمسلمين ذلك اليوم أعظم اعتبار، وزيادة يقين في دينهم واستبصار، وقوة رجاء في الإعانة والانتصار، فكأنما والله قد نُشطوا من عقال، أو خرجوا من حبس واعتقال، بل كان الخوف لم يخطر لهم على بال، ولا ريب أن هذا تثبت من الكبير المتعال، وتأيد من ذي العزة والجلال، وإلا فقلوب البشر لا تطيق بعض ما صدر، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَلَيَرْبِطَنَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيَتَّيَنَ بِهِ الْأَقْدَامُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ولما كان آخر النهار قبل وقت الإعصار من ذلك اليوم المذكور، خرج المسلمون للعرضة خارج السور، وكان ذلك بأمر عبد العزيز، حرسه الله تعالى من جميع الشرور، وفرح بذلك أولئك الجنود، وقالوا هذا المنى والمقصود، فأسرع عليهم الأقوام، وكانوا على تهيئة في الانقسام، فأطلقت الفرسان على من خلف السور كان، وأسرعت الدول تسير على عجل، تريد من علو الباطن الدخول، حتى يفوزوا بالمأمول، فدخل عند ذلك عبد العزيز ومن معه من أهل النجدة، وكان علو الباطن مراده وقصده، فسابقهم إليه قبل الدخول، ولم يكن لهم إلى التمكين فيه وصول، فلم يكونوا من مأمولهم على حصول، وأخرجهم المسلمون منه قسراً، ونَحَّوهم عنه قهراً، وقتلوا منهم رجال، وأخذوا فرس ديوان، وكان لعريعر خيال، وقُتِل من المسلمين سلطان بن عدوان، وهويدي بن

نعران، وبَنَى عبد العزيز في ذلك ما هُدم، وأحْكَم بناءه وردم.

وأقاموا على ذلك أيامًا قلائل، كل يوم ينصبون للحرب الجبائل، ويعملون الآراء والفكر، فيما يقع بالمسلمين الأضرار والضرر، وقد أقاموا من الأيام مدة في أعظم ضيق وحرَج وشدة، وقد بلغ الضرر منهم حده، والكل منهم يتحسر ويتندم على مجيئه الذي تقدم، ويسوّف ترياق الأسف والحسرة، ويعص أنامله من الندم، حيث أجمع على المسلمين أمره، وأضحى غريب ذلك الجبان مما شاهده وعايته، وصار يدعو بالخيبة والعتار والويل والدمار، على من عليه أشار بذلك المسير والتسيار، فكانوا في المنزل في غاية الذل، يقاسون من الظم والعطش شدائد، لبعدهم عن المياه والموارد، وكل يوم تغيب شمس وتطلع، تغلب نفسه الهروب وتتنزع، ويروم الرحيل والترحال، لما وقع به من الوبال، وتأتيه شياطين أولئك الأعوان، وتبطله على الإقامة بذلك المكان، مثل دهام بن دواس وزيد بن زامل، وأمثال هؤلاء الذين كل منهم لغرضه محاول، ولقمع الدين وأهله أمل، فيلين لهم بعض اللين، وينخون أيضًا بني عمه عليه، فيأتونه للراضة^(١) ويستكين، حتى نفخ الله تعالى سحره وطاش، وأراد العجلة والانشياش^(٢)، فأتوا إليه وتَلَبَّوه، وحاولوه بطنًا وظهْرًا وقَلْبُوهُ، فلم يروا فيه وُجْدًا، ولم يجدوا به وِرْدًا، ولكنهم أدركوا منه تسييرًا ومعدًا، وحَدُّوا له في ذلك حدًّا، وذلك بعدما أتوا إليه عتاة أهل الحريق، وزينوا له الإقامة وقالوا نحن نعرف المسبأ والطريق، ونحن لك القادة، وسترى منا لك الإفادة، فراض إلى قولهم، وقصد معرفة فعلهم، فلما توثقوا من راضته، شرعوا في الرأي وإفاضته،

(١) أي: الهرب.

(٢) أي: الهرب.

واستقرت المشاورة والمعاودة على أن غداً تكون بيننا وبينهم المناهدة، ونصدقهم الحرب والمجاهدة، وتتفرق عليهم ثلاث فرق، ونظموا رأيهم ذلك حين انتظم سواد الغسق، وأخذ الرأي جهده من الحدق.

فوعت ذلك الترتيب آذان واعية من قريب، فأسرع بذلك من وعاه، وهو سالم بن جمهور، أثابه الله خيرًا وجزاه، ونقله إلى عبد العزيز ونماه، فلم تستر بالضياء جهات الأرض، حتى قضى عبد العزيز من الاستعداد للقائهم الغرض، فلما ارتفع سناء النهار سارت تلك الأجناد الكبار، تروم الحصن والجدار، وأخذت القنبرة^(١) والمدافع في لفتح الشرار، واستعظم الأمر واستطار، وزاغت القلوب والأبصار، وأخلصت أهل التوحيد السرائر لعالم الضمائر، فصارت المهاشير^(٢) ومن معهم على الزلازل^(٣)، وكافة بني خالد وأهل الحسا ذوي الضلال، نحر جدران سمحان^(٤)، وأهل الحريق وابن دواس وابن فارس وأهل سدير والوشم وبقية العدوان، قصدوا قري قصير، وصار قصدهم في ذلك السير، واكتنفوا جميع البلدة، والكل قد بذل جهده وأرهدف من ماضيه حده، وراموا في ذلك أمرًا إذا، وكل قد حارب ربه وتعدى، فلم ينل كل منهم رشدًا، ولا حاز مفخرًا وسعدًا، ولا نال من مراده مطلوبًا، ولا حصل من سؤله مرأنا ولا مرغوبًا، بل رجع كل منهم خائبًا مرهوبًا، خائفًا وجلًا مرعوبًا، وقُتِلَ منهم نحو الخمسين، وهربوا عن المدافع مدبرين، فلم يَلَوْ أحد منهم إليها، ولا عرجوا تلك الساعة عليها، لما عاينوا من الإرعاب، وصب عليهم ربك سوط

(١) القنبرة: قنبلة المدفع. جمعها: قنابر.

(٢) بطن كبير من بني خالد.

(٣) بالدرعية، شمال حي الطريف، ومجاور لسمحان.

(٤) من أحياء الدرعية.

عذاب، وكان عيد بن تركي في المقتولين، وكان والده يديم عليه البكاء والحنين، ويتفجع عليه في كل ساعة وحين، وانهزم رئيس المدافع بعدما قطع الله يمناه، وتنحّت يده قدر ميل في الفلاة، ولم يحصل له بعض ما تمناه، ثم لما ولى عنهم الارتياح، كروا على مدافعهم بالارتجاع، فلم يجرّد بعد هذه المرة ومذاقتهم لتيك المُرّة، ومقاساتهم تلك الأهوال الممرّة، قواضب قتال، ولم تسدّد للرمي سهام ولا نصال، بل باؤوا بالخزي والوبال، وشتات الشأن والحال، وهموا في غدهم بالمسير والارتحال، وكان جملة من قتل من المسلمين ستة رجال محققين، قال المصنف:

نفوس الورى إلا القليل ركوئها إلى الغي لا يلقي لدين حينها
فسل ربك التثبيت أي موحد فأنت على السمحاء باد يقينها
وغيرك في بيد الضلالة سائر وليس له إلا القبور يدينها
وأنت بمنهاج الشريعة سالك وسنة خير المرسلين تبينها
فكن صابراً إن حلّ أو جلّ حادث فعاقبة الصبر الفنى يسترينها
وياك أن تبدي لخطب غافة ولا جزعاً من حادثات تشينها
وإن شمت من سحب الحوادث بارقاً فلا تحش لو يزجي إليك هتينها
فكم فرجت من شدة إثر شدة وكم محنة مرت فسرّت سنينها
وكيف نفوس المخلصين ينالها هموم وخلاق البرايا عوينها
فقد سارت الأحزاب يوم عريع محزبة غتّ الورى وسمينها
وجاءوا بأسباب من الكيد مزعج مدافعهم يزجي الوحوش رنينها
وأبدوا أموراً يذهب اللب عندها ويسقط من بطن الرداح جنينها
وأقبل قادات الضلالة والردى وساداتها تبغي الهداة تهينها
وتبغى لأهل الدين في الأرض وقعة يغني بها في كل قطر مهينها

وهتك حى البطحات ومن حل سمحها
وراموا أصول الحق والدين والهدى
وهدم دعامات المحجة بعد ما
وتغيير منهاج تألق نوره
ولكنهم حادوا عن الرشد وابتغوا
ومن يعش عن ذكر الإله تضله
فخانت لهم نجد لما قد أتوا به
وهز ذوو الإسلام أعظم هزة
لقد زاغت الأبصار وساعة أقبلت
ولكن مولى النصر ثبت أهلها
فقام بها عبد العزيز مشمراً
فأبت قلوب الناس من بعد طيشها
فأضوا وقد راضوا بقيتاً وجردوا
وقد وطنوا للموت والله أنفساً
وليس لها إلا التصبر واللقا
فنالوا عظيم الفوز والعز والمضى
وآبت جيوش الفسق بالخزي والردى
أبى الله أن تعلقو على الدين راية
وأن يطاء الفساق في ذلك الحما
فلا زالت البيضاء يسمو منارها
بحكم إمام المسلمين وعدله
ولا برح المولى معزاً وناصرًا
وسلب غوان ما تبدل عينها
يريدون أن يجتث منها متينها
أشيد ذراها واستقر رصينها
فأبصره غرب النواحي وصينها
مناهج آباء تغير دينها
شياطين لا ينفك عنها قرينها
ولم يبق في الإسلام إلا أمينها
على الدين بالبلوى فبان كمينها
بنو خالد أطعائها وظعينها
كما هو في دفع الأعادي يعينها
وساعده في الحرب متينها
وقرت عيون واستسر حزينها
قواضب غضب ليس ينبو سنينها
لنيل الرضا والعز هان ثمينها
من الله جيش والثبات كمينها
وما نال هذا بالنفوس ظنينها
وليس لها إلا الشنار رهينها
فتربو ضلالات ويسمو مهينها
ويبتك من تلك العوالي حصينها
ويرزو محياها ويصفو معينها
تحاط نواحيها ويحمى عرينها
سعود الذي يهوى العلا ويزينها

وفيها طلب دهام بن دواس الهدنة من الشيخ والأمير محمد، فأجابه إلى ذلك المقصد، واتفق على ذلك منهما الرأي والنظر، وكان ذلك من أدق الفكر، فهوْدُنْ مَجَانًا، وأقام في الهدنة زمانًا، يقصر عن السنة عدده، بل نحو عشرة أشهر أمده.

وفيها في ذي القعدة قُتِلَ محمد بن فارس وولَّده عبد المحسن، وذلك أن أولاد عامل الحية وأناسًا من جماعته تحققوا الردة منه وفيه، فأرسلوا إلى الشيخ والأمير يخبرونهم بذلك الأمر الخطير، ويعاودونهم على قتله وولده قبل أن يقع ذلك منه ويصير، فنَهَوْهُمْ عن ذلك وأبوا، ولم يسعفهم على ما طلبوا، بل زجروهم غاية الزجر عن ذلك المرام، وأنَّ عقد الهدنة قويَّ الإحكام، فلم يُجِدْ فيهم ذلك التهديد، ولم يبالوا بذلك الوعيد، ولا أثر فيهم ذلك الكلام، بل أئخنوهما بالكلام، وسددوا لهما من الردى مصيب السهام، وأوردوه وابنه حياض الجمام، في مجلسه الذي لا يرام، وأسرع إلى ابن دواس تلك الأخبار، فنهض من ساعته في المبادرة والابتدار، إلى منفوحة مع جماعته، وقد وصل الخبر بذلك إلى الدرعية في ساعته، فأخذ عبد العزيز وكافة المسلمين في السير إلى منفوحة مسرعين، مخافة أن يُسرع إليها دهام بمن معه من المبطلين، وقد تقدم أمامه كتاب من الشيخ إلى ابن دواس، يخبره أن هؤلاء الجماعة الذين فعلوا تلك الأفعال، طلبوا ذلك منا وعالجونا عليه قبل لما تحققوا من ابن فارس الاختلاف والاختلال، فزجرناهم عن ذلك وأغلظنا عليهم المقال، إلا أنا ذكرنا لهم أنا لا ننفيكم بل نذب عنكم ونؤويكم، فإن كنتَ تريد على الهدنة البقاء، فأياك أن تسلك سبيل الهلاك والشقاء، وإن كنتَ تريد النكت والحراية، فاسلك منهجه وأسبابه، وجاء الرسول، وقد قرب به إلى منفوحة الوصول، وجرى بينهم من القتال فصول، وقُتِلَ من أهلها رجالان تلك الساعة، وقتلوا منه واحدًا حين مدَّ

لدخولها باعه، فلما قدم عليه الرسول بالكتاب، وعرف فحوى الخطاب، بادر إلى بلده بالانقلاب، فلم يصل عبد العزيز إليها ومن معه إلا وقد آب، ثم إن عبد العزيز بعدما خرج من منفوحة، سار إلى قصر الغدوانة، وأقام فيه أيامًا يصلح شأنه، ثم خرج منه وقصد مكانه.

ثم دخلت السنة التاسعة والسبعون بعد المائة والألف.

وفيها في ربيع الأول اعتدى دهام بن دواس، وأبدى الخيانة والإبلاس، فجمع زيد بن زامل وغيرهم، فعدا على الصبيخات^(١) وأخذ منها طرشًا كثيرًا، وخرج أهل منفوحة فاقتتلوا معه، وقُتل منهم ستة أو سبعة، وقتلوا منه نحو ذلك، وكان لهم عنه أقوى منعة، وثارَت بينه وبين المسلمين بعدها الحاربة، وهو الذي فتح من الشر باب، ودعا إلى ذلك أعوانه وأحزابه، وفي ذلك من السر المصون، والغيب المكنون، ما لا تحيط به الأفهام، ولا تدركه أفكار الأنام، بل تقع التقادير والأقدار، وتصدر إرادة الجبار، على غير ما يجول في الخلد والأفكار، وما لا يتخيله المتفكرون، ولا ينتجه المتفلسون، ليتذكر أولو الألباب، ويقفوا بالتسليم والاحتساب، لما دبره رب الأرباب، ويحصل لهم الأجر والثواب، إذ كانوا لأحكامه وإبرامه يَسْلَمُونَ ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكانت هذه القضية، وصدور هذه الخيانة الرديّة، سببًا لخروجه عن بلده بالكلية، ومبدأً لذهابه، وأنموذجًا على عذابه.

وفي منسلخ ربيع الأول توفي الأمير محمد بن سعود، رفعه الله إلى جنات الخلود، وآمنه يوم الفزع والورود، وسقاه من حوض محمد المورود.

(١) جنوب منفوحة.

وفيها بايع عبد العزيز أهل الإسلام، وأعطوه على الإمامة عقد الإحكام، وأقبل على المبايعة والمعاهدة والمتابعة جميع الخاص والعام، من سائر الأنعام، وقدم لذلك المسلمون من البلدان القاصي منهم والدان، وتنايع على ذلك الحضر والبدوان.

والشيخ، رحمه الله تعالى، هو رأس ذلك النظام، والمحكم للعقد بالإبرام، وكان يتلو عليهم أحكاماً وموعظة وتعليماً ﴿فَمَنْ تَكَفَّ فَإِنَّمَا يَكُفُّ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتُهُ إِجْرًا عَظِيمًا﴾ وأسقط، حرسه الله تعالى، جميع المظالم، وأبطل كافة المغارم، وارتفع عمود الحق واستقام، وانتظم أعظم انتظام، وتأود^(١) غصن المحجة البيضاء، وأقبلت الدنيا على رعيته فيضاء، وملئت قلوب العداً مما شاهدوا من سيرة الهدى، حسرة وغيظاً، وشهرت رايات الإسلام في الأقطار، وسارت بالفتوح الركبان في سائر الأمصار، وطارت قلوب أهل الضلال أي مطار، وزاد أهل الإيمان بذلك يقيناً وتسليماً، ووجدوا في الدين والتوحيد تفهماً وتفهماً ﴿وَيَتَذَكَّرُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم عبد العزيز الرياض، وذلك أنه، حرسه الله تعالى، سار بمن معه إليها ليلاً، وملك بروج حصان^(٢) وأدرك منها نيلاً، فلما تبين الصبح وانتشر الناس، بلغ الخبر دهام بن دواس، فأرسل سريعاً في الحال رجلاً من جماعته خيال، إلى سبيع وكانوا قريباً منه فعاجلوا بالمجيء والإقبال، وبادر في سرعة الامتثال، فلم يشعر المسلمون إلا بخيلهم في اقتبال، ثم خرج

(١) أي: تننى.

(٢) لم يذكره الأستاذ خالد السليمان في «معجم مدينة الرياض»، وأفاد الأستاذ راشد بن عساكر أنه يقع في شمال غرب الرياض.

ابن دواس مع جماعته، لما علم مجيء سبيع من ساعته، وقصده الخديعة والمكر بالمسلمين ﴿وَيَمَكُرُونَ وَبَكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَخَيَّرَ الْمَكْرِينَ﴾^(١) فحينئذ أمر عبد العزيز على المسلمين بالظهور والخروج، والنزول عن تلك البروج.

ثم إن دهام بن دواس خرج مسرعاً إليهم، يريد يناوشهم الحرب ويشغلهم، حتى تقدم سبيع عليهم، فعند ذلك سدد الله تعالى عبد العزيز وثبته وحماه، من ذلك المكر وجماعته، وصارت بينهم جولة قتال، قتل فيها من المسلمين عدة رجال، وأقبلت خيل أولئك البدوان، فابتدروهم من المسلمين فرسان، وحمي بينهم الطعان، ثم بعد ذلك انفصل الفريقان، وكلٌ قصد له مكان، ولم يدرك دهام من المسلمين ما رام.

وفيها غزا المسلمون العودة^(٢)، وأميرهم عبد الله بن محمد، فلم يعجز بينهم قتال، ثم رجع إلى حريملاء، فغزا إلى شلية من سبيع، وهم بالعرمة، فصبحهم وأخذ يلبهم وخيلهم، وما معهم من الغنم والأمتعة.

وفيها أتى برد عظيم لم يُعهد مثله، فمات الزرع والعشب.

وفيها جرت وقعة تسمى (وقعة العدو)، وذلك أن المسلمين عدا منهم على الرياض ستون رجلاً، فخرج ولد زيد بن سليمان عجلاً مرتدّاً من الدرعية، فأخبر أهل الرياض بالقضية، فلم تأتهم تلك العدو إلا وهم مجتمعون لها في ندوة، فعَدَوْا على صباح، فارتفع عند ذلك الصباح، ووقع بينهم الكفاح، ثم انهزم المسلمون، والخيل لهم وراءهم متبعون، فقتلوا منهم ثمانية رجال، وخمسة أسروا في الاعتقال.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، فساروا إلى الرياض، وأعدوا في

(١) في إقليم سدير.

الليل الكمين، فلما انتشر ضوء الصبح شعروا بالمسلمين، فبادروا إلى القتال، ولم يكن لهم عنه بد ولا احتيال، فلما حميت نار الحرب، واستقر الطعن والضرب، وظهر عليهم كمين المسلمين، انهزموا جميعاً مدبرين، وقُتل منهم ستة رجال، وانقلب المسلمون راجعين.

وفيها هم دهام بن دواس بأهل منفوحة، فوصل المسلمين الخبر، فأسرعوا إليهم بالنفر، فلم يستقر دهام في تلك النخيل، حتى جاءه مجيء المسلمين بالتعجيل، فولى على عقبه هارباً، ولبده دائماً طالباً.

ثم دخلت السنة الثمانين بعد المائة والألف.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، ثرمدا، وأتاها بعد أن هدا الأثام، فكمن حتى استكملت الخروج للمرعى جميع ما بها من الأغنام، فاستاقها ذوو الإسلام، وفزع من في البلد من الأقوام، حتى وقع الاختلاط والالتحام، وجرى بينهم القتال وضاق المجال، وخرج الكمين، فشدت عليهم فرسان المسلمين، فعند ذلك ولّوا مدبرين، وقُتل منهم نحو العشرين، منهم محمد بن عید وحمد بن راشد ابنا إبراهيم بن سليمان، وقُتل من المسلمين فواز التهامي وابن غدیر، وتسمى هذه الغزوة (غزوة الصحن)^(١)، عند أهل ذلك الوطن؛ لأن القتال وقع في مكان يقال له ذلك، ثم انصرف المسلمون راجعين، وتوجه عبد العزيز بالجيوش إلى منفوحة، وفي أثناء ذلك الطريق وافق ركباً لابن دواس، فقتلهم، منهم محسن بن قاري المغمومي على التحقيق، ثم دخل عبد العزيز منفوحة بالسرور والابتهاج، لإرادة عقد الدخول ببنت زامل الزواج.

وفيها في الفصل الأول سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالمسلمين، فنزل

(١) قال ابن بشر (١ / ٥٠): «موضع معروف خارج بلد ثرمدا».

بالبنية من الرياض، فخرج أهلها للقتال من غير ارتياض، فقتل منهم المسلمون أربعة رجال، ولم يبرزوا للطعان في مجال، وقُتل من المسلمين مرشد بن حصين.

ثم دخلت السنة الحادية والثمانون بعد المائة والألف.

وفيهما ارتفع الأسعار والأثمان، ونفق الزاد في جميع البلدان، وبقي الناس في مقاسات البأس، وبلغ الأنعام من غلاء الطعام همَّ وظنَّ وحزن وعنا، حتى بلغ الصاع جديدة ونصف، ووزنة ونصف بجديدة^(١).

وفيهما غزا المسلمون العربان، فلما سار المسلمون إليهم سبق النذير عليهم، فلم يصل إليهم من المسلمين فرسان، إلا بعدما أخذوا الأهبة للطعان، وكانت خيولهم تزيد على ست من عقود المئين، ورام المسلمون أنهم يجدونهم مغفلين، فلما شنت خيل الإسلام الغارة على أولئك الأقوام، وأخذوا بعض الإبل السوام، أطبقت عليهم خيل المطران، وفرسان أولئك العربان، فاشتد بينهم الطعان، ولم يكن إلى الفرار من إمكان، فثبت الله أهل الإيمان، وتخلصوا من شر ذوي الطغيان، وقُتل بينهم بعض رجال من المسلمين؛ دوخي الصيخي وابن ربيع، ورجعوا على اعتجال.

وفيهما غزا المسلمون، وأميرهم هذلول بن فيصل، ومعه سعود بن عبد العزيز، وهذه أول غزوة غزاها، فساروا يريدون العودة، فأتوا تلك البلاد، وقد هجع العباد، وقد حكم على المُقَلِّ الكَرَى، وما أشعر أحد بدخولهم وما درى، وقد أعدوا لهم في مكان كمينًا من الشجعان، وأوصوهم أنهم إذا استكمل أهل البلد

(١) الجديدة: نوع من العملة، كان يُستعمل قديمًا. والوزنة: مقدار عندهم، بمثابة الكيلو عندنا. وتبلغ الوزنة كيلو غرامًا ونصف.

الفرع والظهور، يعقبونهم على تلك القلعة والدور، فلما تبين ضياء النور، وأدبر الظلام الديجور، أغار المسلمون على أطراف البلدة، وكل من جيشه وكمينه عرف قصده، فبدرهم بالقتال من أهل البلد ذو النجدة، فلم يأخذ المجال حذً، حتى دخل الكمين البلاد، فقتلوا فوراً ابن سعدون وأناساً من أهل الفساد، فلما علم بما جرى وصدر من خرج من أهل البلاد وظهر، رجعوا للقلعة، فإذا هي عنهم في منعة، وقتل المسلمون منهم رجال، ونودي بالأمان بعد انقضاء ذلك الحال، وصار ابن حماد فيها هو الأمير، ولم يغير عليه فيها بتغيير، حتى صدر على المسلمين منه ما يضير، ثم رجع المسلمون.

وفيها سار عبد العزيز، حرس الله تعالى ذاته، بالمسلمين إلى الرياض، فنزل بالمشيقي^(١)، وأقبل فرع أهل البلد إليهم، وصدقوا الحملة عليهم، ولكن الله من على المسلمين بالثبات، ولم يكن لهم إلى الفرار الثقات، فقتل من أهل الرياض ستة من الأشرار، وقُتل من المسلمين ناصر بن عبد الله ومحمد بن حسن الهاللي، ورجع المسلمون إلى بلادهم.

وفيها كاتب أهل الوشم عبد العزيز على مجيئهم ودخولهم في الإسلام، فأجابوهم بحصول ذلك المرام، فأقبل أهل الوشم بلده وقراه، ولم يبق منهم أحد حتى أهل مرات، فدخلوا في الدائرة الحصينة، والكل منهم رفض دينه، وبايعوا أهل الإسلام، واستمرت عليهم تلك الأحكام.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، فوطئ جلاجل، وطلب من سويد النكال؛ لكونه مرتدًا قبل ذلك الحال، فأعطاه عن ذلك من الخيل خمساً، فطاب بها عبد العزيز نفساً، لكونها خيلاً بالجودة معروفة وبالنَّجب مشهورة موصوفة،

(١) حي يقع جنوب الشميسي بالرياض.

ثم سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، في طريقه ذلك مُجَدًّا، وكان فريق من اليمن على المربّع له قصداً، فصَبَحَ الفريق بالغارة، وأخذ عليهم إبلاً، ثم طلب آثاره، ورجع إلى بلده سالمًا، وللمال غانمًا.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين إلى الرياض، وجرت بينهم وقعة تسمى (وقعة المجوز)؛ لكون الوقعة بمكان يسمى بذلك، وكان القتال بينهم من بعيد بالبنادق هنالك، ولم يقع بينهم للقتال مقاربة، ولكن كلٌّ أدرك بالرمي مطالبه، فقتل المسلمون من أهل الرياض خمسة رجال، ومن الخيل أربعًا، وقُتِلَ من المسلمين نحو عشرة، صارت لهم الجنة مرتعًا، منهم مبارك بن سبيت وزيد بن سعيد وابن رشيدان، وأقام عبد العزيز بقصر الغدوانة، أيامًا يغير على الرياض ويرجع مكانه.

ثم دخلت السنة الثانية والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها استمر غلاء الزاد، وبرح كافة العباد من المعيشة في مكابدة ونكاد، وتسمى هذه (سنة سُوقَة)؛ لأن السعر بلغ حده وطوقه.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، وهو أول غزو تأمر فيه، فأغار على الزلفي، وقتل ثلاثة رجال، ثم رجع بلا إهمال.

وفيها سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالمسلمين إلى سبيع، وكانوا حينئذ على الحائر، فلم يزل يجد السير إليهم، حتى قارب الهجوم عليهم، فسبقه عليهم التنذير؛ لما اقتضته الإلهية الأزلية من التدبير، فلم تقبل عليهم المسلمون، إلا وهم للقائه مستعدون، فحين طلعت عليهم طلائع الخيل كان منهم إليها أسرع ميل، فالتحم الفرسان، وحمي بينهم الطعان، والتزم الثبات كل من الأقران، حتى نصر الله تعالى المسلمين وأعان، فشد عليهم المسلمون الحملة، فلم يكن دون هزيمتهم مهلة، فانهزموا جميعًا وعمدوا إلى قصر الحائر سريعًا، فأقاموا به

محتمين، وكان أهله إذ ذاك مرتدين، وأخذ المسلمون ما معهم من الأمتعة والخيول والإبل، ورجعوا فائزين بغاية الأمل.

وفيها غزا المسلمون وأميرهم سعود، بلغه الله تعالى المقصود، فأغار على فريق من اليمن، بعدما قاربهم واستكن، فلما صبتحتهم منه الغارة، لم يشبثوا غير ساعة، فلزموا الانكسار وتبعتهم إلى بيوتهم الخيول، ولم يكن لهم سواها وصول، وقُتل منهم رجال، ولكن الله أراد لهم السلامة، ولم يشعر غزو المسلمين لاشتغاله بمن أمامه، إلا بالثام بعض العربان عليهم، وإقبالهم إليهم، واستحرّ الطعن في أعقابهم، ورجعوا من حيث مآبهم، وأقبلت بعد ذلك العرب المكسورة، واجتمعوا على المسلمين، فكانت بينهم وقعة مشهورة، فاحتّمى المسلمون وسلموا، وقُتل منهم سبعة، غفر الله لهم ورجعوا، منهم ناصر بن عثمان وفوزان بن ناصر، ورجع المسلمون إلى بلادهم.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، وركابهم نحو المائة على التخمين، فأغاروا على عنيزة، وخرج أهلها مجتمعين، وكانوا ذوي عدد من المشين، فوقع بينهم وبين المسلمين القتال، وأبدى المسلمون في ذلك اليوم المجال، من النجدة والإقدام، وفرط البأس والالتزام، ما بهر عقول أولئك الأقوام، وأدهش أذهانهم والأفهام، حين رأوا فعلهم بعد المخالطة والالتحام، فلم يكن حينئذ لأهل البلد عزم ولا اهتمام، سوى الفرار إلى البيوت على الأقدام، وقتل المسلمون نحو العشرة، وكل من أهل الإسلام حمد ربه وشكره، وقُتل من المسلمين ثلاثة رجال، ثم رجعوا إلى بلادهم من غير إهمال.

ثم دخلت السنة الثالثة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالمسلمين يريد الرياض، فوافق في ساعة خروجه من غير ارتياض، خيلاً كثيرة لدهام على الدرعية عادية، وقد

أخذت إبلا كثيرة لسبيع البادية، فأطبقت عليهم خيل المسلمين مُبادية، واستقر بينهم المجال ساعة، ثم أدبرت خيل ابن دواس خجلة مرتاعة، وقد قُتل منهم المسلمون أربعة يُعرفون، مطرود الفريد وابن المراح وحسن الجعفري ودوخي بن مروان، ورجع عبد العزيز فلم يسر إلى ذلك المكان.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين من أهل الدرعية وقراها، فلما وصل إلى حريملا، حرسه الله تعالى، وحماها، أمر مَنْ هناك من بلدان المسلمين أن يخرجوا له الدول مجتمعين، فأخرج أهل سدبر وأهل المحمل جمعا كثيرا من الدول، وقصد ما يريد من محل، فأناخ بالمسلمين على المجمع، وكانت المسلمون عليها مجتمعة، وجرى بينهم وبين أهلها القتال، ودخل قلوب أهلها من المسلمين الأوجال، وقتلوا منهم تلك الساعة عدة رجال، منهم عبد الله وقوفل ابنا عثمان، وهما أخوا حمد رئيس المجمع.

ثم إن عبد العزيز أمر بالرجوع على مَنْ مشى معه من الدول، وتبعه حين فرغ من أمر المجمع، وغزا بالجيش من ذلك المكان، وكان ذلك في أثناء شهر رمضان، فجذ سائرا في ذلك الزمان، حتى وصل إلى قرية الهلالية^(١)، وقد هجعت البرية، وكانت من قرى القصيم، فأناخ عندها في ظلمة الليل البهيم، ورتب كمينه وحاله، قبل أن يزيل النور من الظلام أوجاله، فلما أغار بعد انتشار النهار وخرج أهلها إلى القتال، وبذلوا في ذلك غاية الحال، ولكن الله الكبير المتعال سلط عليهم الرعب والإذلال، فانكسروا والمسلمون يقتلون في أثرهم باستعجال، وهتك المسلمون البلد في ذلك المجال، ودخلوها في تلك الحال، وأخذوا جميع ما بها من الأموال، ثم نودي فيها بالأمان بعدما قتل من أهلها رجال.

(١) من مدن القصيم، تبعد عن مدينة بريدة حوالي ٥٠ كم.

وأقام بها عبد العزيز بعض ليال، فذل أهل القصيم كافة، وغشبهم أمر عظيم من المخافة، فرغبوا في الدخول في الإسلام، والانقياد لمنير تلك الأحكام، ورفض ما يعبد من الأوثان والأصنام، وأقبلوا على عبد العزيز في تلك الأيام، فأخذ عليهم عقد الإبرام، ووضع عندهم معلمين للتوحيد والشرائع والأحكام، ثم رجع عبد العزيز يريد الدرعية؛ ليقسم الغنيمة فيها بالسوية، وفي أثناء ذلك عثر على أثر غزو لبني خالد كبيرهم بطين هنالك، فعرفوا أنه غزو المسلمين فقالوا: لا طاقة لنا بأهل الدين. وكان هذا من رأيهم أجمعين، فتركوا المسلمين ومنازلتهم، بعدما حققوا مشاورتهم، وكفى الله المؤمنين القتال، وكتب على أولئك الغزو والمذلة والإذلال، وذلك أنهم أغاروا على عدة فرقان، من سبيع بأرض ضرما مقيمين في ذلك المكان، فجرى بينهم قتال وطعان، وحمي الحرب بين الفرسان، وساعد أهل البلد من الحضرة أولئك العربان، وشمروا للقتال مع تلك البدوان، فهزم الله تعالى أهل الطغيان، وقتل منهم تلك الفرسان، وأخذ المسلمون منهم أموالاً كثيرة، وخيلاً نحو ست شهيرة.

وفيها غزا للمسلمين ركبٌ فصادف الشريف منصور، فأخذ مع ركب معه وأتي به بأسور، فمن عليه عبد العزيز بالإطلاق دون الفداء، فرجع بعد ذلك برخصة من شريف مكة في الحج لذوي الهدى، فاعتنم لذلك من المسلمين طائفة، وسارت للحج آمنة غير خائفة، وقضت ركن الإسلام، وأدت المناسك على التمام، في ذلك العام، ورجعت بالحشيمة والإكرام.

ثم دخلت السنة الرابعة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين يريد آل ظفير، فأغار على المحمرة^(١) منهم

(١) من فروع الظفير.

في ذلك المسير، وكانوا قبل مجيئه على حذر لسبق النذير، ولكن أخذوا عليهم إبلاً كثيرة، وصارت بينهم مقاتلة شهيرة، قُتل منهم بعض رجال، وانصرف المسلمون بتلك الآبال.

وفيها غزا عبد العزيز بالمسلمين، وأقاموا في الحائر مجتمعين، ولم يخرج إليه من أهلها أحد، فشرع في قطع النخل واجتهد، فلما عابوا ذلك أهل البلاد، طار منهم اللب والفؤاد، وحين شاهدوا هذه القضية، عظمت عليهم الرزية، وأحاطت بهم البلية، فلم يجدوا سوى الاستسلام منهجاً، وإظهار الانقياد والإسلام معاذاً وملتجأ، فطلبوا من عبد العزيز في الإسلام الدخول، فأجابهم إلى ذلك السؤل، وأسعفهم بالمأمول، فبايعوه على الإسلام، والتزموا في الأحكام بالقيام، ورجع عبد العزيز بمن معه.

١١٢

ثم دخلت السنة الخامسة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها غزا سعود، حرسه الله تعالى، يريد منيخ^(١)، فلما وصل حريملاء بمن معه من المسلمين، دُكر له غزو آل ظفير مجتمعين، وكان رؤوس ذلك الغزو آل ضويحي ووهق بن فياض، فجعد في ساعته في الانتهاض، وحث السير في آثارهم بعد تحقق أخبارهم، فأدركهم في أرض غيانة، وأسرعت إليهم بها فرسانه، فلما عرفه آل ظفير وعلموا شأنه، كل منهم انهزم يريد أهله ومكانه، فعضّ المسلمون عليهم الساقة، وأسروا بعض أولئك الرفاقة، وقتلوا منهم رجالاً، منهم وهق بن فياض، وشتوهم حالاً، فلم يسلم من القتل والأسارى إلا من طلب الفرار، ثم رجع المسلمون.

وفيها أرسل الشيخ وعبد العزيز إلى والي مكة أحمد بن سعيد الشريف هدايا،

(١) يُطلق على المجعة وحرمة - كما سبق -.

وكان قد كاتبهم وراسلهم، وطلب منهم أن يرسلوا فقيهاً وعالمًا من جماعتهم، يبين لهم حقيقة ما يدعون إليه من الدين، ويحضر عند علماء مكة، فأرسل إليه الشيخ وعبد العزيز الشيخ عبد العزيز الحصين، وكتب معه إلى الشريف رسالة، وهذه نسختها، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم، المعروض لديك أدام الله فضل نعمه عليك، حضرة الشريف أحمد بن الشريف سعيد، أعزه الله تعالى في الدارين، وأعز به دين جده سيد الثقلين، أن الكتاب لما وصل إلى الخادم، وتأمل ما فيه من الكلام الحسن، رفع يديه بالدعاء إلى الله بتأييد الشريف؛ لما كان قصده نصر الشريعة المحمدية ومن تبعها، وعداوة من خرج عنها، وهذا هو الواجب على ولاية الأمور، ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علم، امتثلنا الأمر، وهو واصل إليكم، ويحضر في مجلس الشريف، أعزه الله تعالى، هو وعلماء مكة، فإن اجتمعوا فالحمد لله على ذلك، وإن اختلفوا أحضر الشريف كتبهم وكتب الحنابلة، والواجب على كل منا ومنهم أن يقصد بعلمه وجه الله ونصر رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ آلِ نَحْتِ﴾ إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فإذا كان الله سبحانه قد أخذ الميثاق على الأنبياء إن أدركوا محمدًا ﷺ على الإيمان به ونصرته، فكيف بنا يا أمته؟ فلا بد من الإيمان به، ولا بد من نصرته، لا يكفي أحدهما عن الآخر، وأحق الناس بذلك وأولاهم أهل البيت، الذين بعثه الله منهم، وشرفهم على أهل الأرض، وأحق أهل البيت بذلك من كان من ذريته ﷺ وغير ذلك يعلم الشريف، أعزه الله، أن غلمانك من جملة الخدام، ثم أنتم في حفظ الله وحسن رعايته.

فلما وصل إليهم عبد العزيز المذكور، نزل على الشريف الملقب بالفقر، واجتمع هو وبعض علماء مكة عنده، وهم: يحيى بن صالح الحنفي وعبد الوهاب بن حسن التركي مفتي السلطان وعبد الغني بن هلال، وتفاوضوا في

ثلاث مسائل وقعت المناظرة فيها:

الأولى: ما نُسب إلينا من التكفير بالعموم.

والثانية: هدم القباب التي على القبور.

والثالثة: إنكار دعوة الصالحين للشقاغة.

فذكر لهم الشيخ عبد العزيز أن نسبة التكفير بالعموم إلينا زور وبهتان علينا، وأما هدم القباب فهو الحق والصواب، كما هو مسطور في غير كتاب، وليس لدى العلماء فيه شك ولا ارتياب، وأما دعوة الصالحين وطلب الشقاغة منهم والاستغاثة بهم في النوازل، فقد نصَّ عليه الأئمة الفواضل، وقرروه من الشرك الذي فعله الأوائل، ولا يجادل في جوازه إلا كل ملحد جاهل، فأحضروا من كتب الحنابلة (الإقناع) فأروا عبارته في الوسائط وحكايته الإجماع، فصار لهم بتلك العبارة اقتناع، ولهم إلى الإقرار إسراع، وتفهوا بأن هذا دين الله، وانتشر فيما بينهم وشاع، وقالوا: هذا مذهب الإمام المعظم، وانصرف عنهم عبد العزيز مبجلًا مكرم.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين يريد الرياض، فعَدَّوا منها على معكال^(١)، وخرج أهلها فجرى بينهم قتال، فلما استقر جلادهم للمسلمين، خرج عليهم الكمين، فلم يلبثوا غير ساعة، ثم كان منهم إلى البلد ارتجاعه، وقتل المسلمون منهم ستة رجال، منهم عتيق بن زايد، ثم هَمَّ المسلمون بالارتجال، فلما وصل المسلمون إلى بعض بلدانهم، انقلبوا راجعين يريدون الرياض لشأنهم، فكان من القضاء والقدر أن دهام بن دواس قد سار وظهر عادياً على أهل عرقة^(٢)، وليس عند المسلمين منه خبر، فلما خرجوا في ذلك الشأن التقوا جميعاً قريباً من ذلك

(١) أصبح من أحياء الرياض حالياً، وكان قديماً بلدة مستقلة.

(٢) أصبحت داخل نطاق مدينة الرياض من جهة الشمال الغربي.

المكان، فأطبقت عليهم من المسلمين فرسان، فلم يلبثوا ساعة للطعان، بل انهزموا إلى تلك البلدان، فكان أول قتل منهم دواس بن دهام، ثم جدّ في أثرهم أهل الإسلام، وهم فيهم يقتلون، حتى قتل منهم عشرون، وآخرهم ابن لدهام، واسمه سعدون، وكان الذي باشر قتل دواس عبد العزيز أمير الناس، صرف الله عنه كل بأس، فرجع دهام بأعظم البأس، مرتدياً من الذل والخزي أضفى لباس، متجرعاً من الهم أصفى كأس، فلم تزل له بعد هذه عين قويرة، ولا حالة من المعاش سريرة، بل كلما غنت العيون أبدى من الأسف المكنون، ما لا يعرف ولا يقاس، لا سيما على مفارقة سعدون ودواس، فنودي عليه بلسان الحال من بعيد ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمَ الْعَبِيدَ﴾.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين حتى نزل الرياض، وخرج أهلها مسرعين، ولم يكونوا عن القتال متشين، وطال القتال بينهم، فجعل الله لبعض أهل الباطل حينهم، وشد عليهم المسلمون، فأسرعوا يجهدون، وقد قتل منهم أربعة رجال، منهم ابن رومي الذي في ذلك المجال.

ثم دخلت السنة السادسة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها غزا عبد العزيز بن محمد بالمسلمين، فلم يبرحوا في ذلك السير مُجِدِّين يريدون آل حبش^(١)، وكانوا نازلين بأرض صبحا، فلما قاربوهم كمنوا حتى يحققوا أمرهم مرأماً ونجاحاً، ويستعدوا لملاقاة أولئك الفرسان طعاناً وكفاحاً، فلما انجلى الديجور، وعم ضياء النور، وفرغوا من الصلاة صُبحاً، شنت عليهم عاديات المسلمين صُبحاً^(٢)، فأخذوا عليهم أبال، وفزع أهلها للقتال، وراموا

(١) قال ابن بشر (١ / ٥٩): «من بوادي العجمان».

(٢) مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَالْمَرْيَتِ صُبحاً﴾ أي: الخيل العاديات التي يخرج منها صوت من صدرها ليس بصوتها المعتاد من صهيل أو همهمة.

لها فكاك، ولم يكن لهم إلى ذلك إدراك، بل وقعوا في هوة الأدراك، وقتل منهم أناس، ورجع المسلمون بيّناش.

وفيها غزا سعود، حرسه الله، بالمسلمين يريد من الرياض الإبل والغنم السارحة، فلم تزل همته على الجدد في السير بارحة، حتى وصل إليها بعد الهجود، فكمّن كمينه هناك سعود، فلما خرجت السوائم للرعاية، بدت غارة المسلمين إليها بداية، فالتجّت إلى البلد الإبل، وخرج الفزع إليها بالعجل، فتقابل كلٌّ من الفريقين، واقتتل حتى صدقتهم فرسان المسلمين، فانهزموا مدبرين، وقد قتل منهم سبعة، منهم مرخان بن فريان وعبد الله الساري.

وفيها غزا عبد العزيز، فسار بأهل الدين يريد أهل الرياض المسرفين، فوصل لذلك قريب السحر، ف قضى قبل الصبح من التعبية الوطر، فلما بدا الصبح مسفرًا منيرًا، وقضى الصلاة تبدّى مغيرًا، وارتفعت الأصوات في البلاد، وخرج بعد الاستعداد، من يريد القتال والجلاد، فلما عاينوا أهل الإسلام، جلّ لهم الرعب والإحجام، فلم يحصل لهم بعد الالتحام فرط إقدام، بل مكثوا في القتال زمان، مرتدين ثياب الهوان، فلما شدّ عليهم أهل الإيمان، انهزموا من غير توان، وقُتل منهم مرزوق المطيري ومحمد بن فايز، وقُتل من المسلمين علي بن محمد الأمير^(١).

وفيها مات الشيخ أحمد بن مانع، رحمه الله تعالى، في رمضان، وفي آخره مات ثيان بن سعود، أسكنهما الله تعالى دار الخلود، وكان لهما بهذا الدين المنهج المحمود.

(١) قال ابن بشر (١ / ٥٩): «أمير ضرما».

ثم دخلت السنة السابعة والثمانون بعد المائة والألف.

وفها سار عبد العزيز بالمسلمين، متع الله تعالى به سنين، فنزل بالرياض وألقى رحلته في تلك الفياض، ونازل أهلها مدة من الليال، وكل يوم يجري بينهم قتال، واستولى المسلمون على بروج وجدران، فأسرعوا إلى تهديم ذلك البنيان، وهدموا ذلك المرقب الشامخ، فصار الدمار لارتفاعه ناسخ، وقُتل من أهل البلد رجال، ويات أهلها في غاية الأوجال، يسامرون في الدياجي الشهي، مما حل بهم ونزل بساحتهم وذمى، وقد عرتهم الذلة والدهشة، وغشيتهم الرجفة والرعدة، لا تهدأ لهم قلوب ولا عيون، وقد أيسوا من أنفسهم وخابت منهم الظنون، وقد قارب أن يفتحها إذ ذاك المسلمون، لما بان لهم من الانتصار وما ظهر على أهلها من الرعب والإنذعار، ولكن إرادة المولى غالبية على العباد، وليس يجري إلا ما اختاره وأراد، فانصرف عنهم جميع المسلمين، وأخر الفتح إلى حين، وقد قُتل من المسلمين اثنا عشر رجلاً، نالوا من الشهادة أملاً، منهم عقيل بن نصير وسلطان بن حفيّان.

وكانت هذه الواقعة في صفر، ولم يشرق بعدها لدهام عز ولا سفر، بل هم بالرحلة والسفر، والجلء عن ذلك الوطن، الذي ثوى فيه وقطن، وحلّ به وسكن، فأخذ في تدبير النقلة والارتحال، مما داخله من الرعب والأوجال، وخاظم قلبه من الخوف والإذلال، فبقي أياماً وليال، لا يحسن له حال، ولا ينشرح له بال، مخافة على أهله والعيال، وأسفاً على ذهاب تلك الأموال، وأسفاً على فراق الحلة، والبعد عن تلك المحلة، ومعاناة الجلاء والنقلة، والأرض به واجفة، وريح الهروب عليه عاصفة، وهو يُصبر نفسه ويتصبر، ويتجرع مرارة الأسف ويتحسر، وينادي بالويل على نفسه كل ساعة، وهي إلى الفرار نزاعه، ولا تروض إلى البقاء والاستقرار، ولا تميل إلى المكث في

هاتيك الديار، حتى نادى عليه منادي الذل والصغار: إلى كم متى التصبر والاصطبار، والحلول والقرار، وحتى متى تقدّم في ذلك رجلاً وتؤخر الأخرى، والجلاء هو الأولى لك والأخرى! وصاح به قلاع الحصون: إلى متى هنا السكون؟ فقد آذن ليل الباطل بالزوال، وأعلمت سحب الشرك بالارتحال، وتقتشع غياهب الزيف والضلال، ولاح نور الهدى والهداية، وانجلت دياجي الضلالة والغواية، وتألأ عمود الصباح، وأشرق لأهل الإسلام السعد ولاح، وغدا البلاء على الباطل وراح، وأعلن عليهم لسان الفتح وهم يسمعون: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

فلما حان من شمس الباطل غروبها، وأن لأهلها جلاؤها وهروبها، وأن تثبت في روضة الرياض قواعد الدين، وتمحق دولة المفسدين، ويظهر لأهل الإسلام النصر والظفر والتمكين، وتعلو كلمة الحق على المبطلين، وتمحى آثار ذوي المكر والمعتدين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كُنْتَ عَاقِبَةُ مُّكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، جمع جميع أعيان بلده، وأخبر بحقيقة عزمه ومقصده، وأنه يريد الهروب والجلاء، وأن فؤاده ملئ رعباً ووجلاً، فصاحوا كلهم عليه، وأقبلوا بأجمعهم إليه، وقالوا: ما حملك على هذه الأفعال؟ وما الموجب لها من الأحوال؟ أهذا لنا مكر وخداع، حتى تعرف منا الصدق بإجماع، أم حدث بك من الجن انتزاع؟ فاستعذ بالله من الشيطان، فلن تُراع! فقال: دعوا عني هذا الهذيان، فليست الرياض لي بأوطان، وليس عيالي فيها بسكان، وما شاء الله كان. ولم يرعو من ذلك المقال والمحاولة عن الارتحال، ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً، ولا وجد من قلبه عليه دليلاً، بل انتفخ سحره ولَّبه، وطاش فؤاده وقلبه، وتعاضل منه في الحشا ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فانفضوا من حوله سراعاً، وعرفوا أنهم لا يدركون به دفاعاً، فازدادوا ذعراً

وارتياغا، وتحققوا أنهم منها مخرجون، وأنهم له متبعون ﴿وَيَدَّا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فتردوا وراء القنوط والإياس، وكل ساعة ينتظرون حلول النعمة والبأس ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْحُوجِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

فلما انتصف ربيع الثاني خرج عبد العزيز، حرسه الله تعالى، بالمسلمين، يريد الرياض وحرثها وتدميرها وخرابها، وقد جرد أهل الإسلام لذلك صوارم الاعتزام، ونهضوا كافة وليس لهم دونها مرام، وقد ارتجوا الفتح من الملك العلام، ووطنوا نفوسهم على حصارها ليالي وأيام، ولم يكونوا بما في الغيب مشعرين ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَمٍ ؕ أَمِينٍ﴾ فلما وصل، حرس الله تعالى مهجته، وأبد عزه ودولته، في مسيره ذلك إلى قريب عرقة، انبلج له عمود الأنس والسرور، وانسلخ مدلهم ذلك الديجور، وطلع له طالع السعد، وبرق له بارق الفجر والمجد، وتبدى له في أفق ذلك الطريق، لوامع المسرة واللطف والتوفيق، وكان بذلك جديراً وحقيق، وناداه لسان المبشر والبشير: إلى من تسعى وتسير وجميع عداك في تدمير، وإلى كل بلد في مطير؟ فأرخ ذبول الهنا، فقد جاءك القصد والمنى، وزال عنك النصب والعنا، فسعيك إن شاء الله مشكور، وأنت على ذلك مأثور، وقد ضوعفت لك في هذه المدة الأجور، وصارت لك العتبي على ذوي الفجور، والغلبة والنصرة على أهل الفساد والشرور، فقد خلت لك القصور، وتأهبت إلى لفائف الصدور، وقد فطرت تلك الدور، ممن كان بها يتعدى ويجور، وقد حقت كلمة العذاب على الفاسقين، وجاء وعد الله لحزبه الفاترين ﴿وَرَبُّهُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَيُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَعْمَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، فحمد الله تعالى على هذه الأنعام، وشكره على هذه المواهب الجسام، والعطايا الوافرة العظام، وقال وهو خاضع لربه مستكين، حامداً لله رب العالمين: ﴿رَبِّ أَوْعَيْتْ أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَقَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَتِي وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذِنَ لِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْمَكِينِينَ﴾.

فسار يريد ما هياً الله تعالى له من مكان، وما خوله من تلك الأوطان، وشيئعه في ذلك الطريق الأمن والأمان، وحقه فيه الأنس والتهان، ووصل إليها قبل غروب الشمس، بأكمل فرح وأنس، وطيب قلب ونفس، فدخل تلك البلد، فإذا دهام قد ولى منها وشرده، وذلك أن دهام بن دواس، لما حاق به من ربه البأس، وقرب أن يسقي كؤوس الأحزان، ويلقى المذلة والهوان، وتكون الدائرة عليه لأهل الإيمان، جمع كافة ما له من أعوان، وما أراد من الشأن، فكل بقي متحسراً حيران، يعرض أنامله ندمان، فخرج هو وأولاده وأعوانه، وغالب أهل البلد شأنهم شأنه، ولم يبق في البلاد إلا القليل، مخافة من فعلهم الويل، وقصدوا جميعاً الدلم، ونوى سكناها، وعزم وجد في الطريق ومن معه، ومات نحو أربعمائة من الخلق ممن تبعه، لأن جلاءهم كان في القيظ، فزادوا حرارة مع ما بقلوبهم من حرارة الغيظ، فصلَّتْهم لواعج القيظ وحموته، وحرقتهم عواصفه وحدته.

هذا، والمسلمون قد جدوا في أثرهم المسير، يتقذون بالماء كل ضعيف وفقير، ويقتلون كل شيطان مريد، وكل ذي بأس شديد، حتى وصلوا إلى الدلم المعروفة، وقطعوا تلك المناور المخوفة، ونادى عبد العزيز فيها بالأمان، إلا من كان مشهور بالسوء بإعلان، فعند ذلك ظهر من كان مختفياً وبان، ولم يقتل إلا عبد المحسن بن شاخص وصالح المهشوري ويراك بن حميدان ومحمد بن سليمان، ولم يُقتلْ غيرهم إنسان، وأرسل عبد العزيز إلى أهلها الذين ناروا^(١)، وخرجوا مع دهام وساروا، يدعوهم إلى الرجوع، فلم يكن أحدٌ عنه بمنوع، إلا من تميز بالشر والفساد، وتوغل في طريق العناد، وتسربل بالبغي والافساد،

ففاؤرا إليها وآبوا، وقد ربحوا في ذلك وما خابوا، وسكنوا بها فطابوا، وكانت جميع تلك الأموال، والنخيل ذوات الإغلال، فيئا من الله ذي الجلال، لكونها لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، فكانت لبيت المال من غير ارتياب، وحسن تملكه لها وطاب، وأقام بها عبد العزيز أياما، ونصب فيها أميرًا وإمامًا.

وكتب الشيخ لعبد العزيز في تلك الأيام رسالة أرسلها إليه، فقدمت في الرياض عليه، وقال فيها:

أُجِبُّ لكَ مَا أُجِبُّ لِنَفْسِي، وقد أراك الله في عدوك ما لم تؤمل، فالذي أراه لك أن تُكَيِّرَ من قول الحسن البصري، كان إذا ابتدأ حديثه يقول: اللهم لك الحمد بما خَلَقْتَنَا وَرَزَقْتَنَا وَهَدَيْتَنَا وَفَرَّجْتَ عَنَا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافة، كَبَّتْ عَدُونَا، وَبَسَطْتَ رِزْقَنَا، وَأَظْهَرْتَ أَمْنَنَا، وَأَحْسَنْتَ مَعَافَاتَنَا، وَمِنْ كُلِّ مَا سَأَلْنَاكَ رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا، فلك الحمد على ذلك حمدا كثيرا طيبا حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

خاتمة: يحتاج لها كل طالب، ويتشوق إليها نفس كل راغب، ويرتدع لها كل عدو محارب، ويتعظ بها كل خائف من الله مراقب، ومَن نال من التوحيد رفيع المراتب، وهي أن الله القادر الحكيم، والأخذ الشديد الأليم، أقام دهام بن دواس يصادم أجناد الدين، ويذل جده في حرب ثلاثين من السنين والأعوام، لا يكاد يهنا له طعام، ولا تستغرق عينونه في دجى الظلام بلذيد المنام، إلا أنه أظهر الاستعانة، وأبدى الاستكانة، في ثلاث سنين للدخول مع المسلمين، وأقام في بلده الأحكام والشعائر، ولكنه يتربص بأهل الدين الدوائر، فكان إذا أتاه من الدرعة أحد قام في توقيره وإكرامه وقعد، وأظهر له في الإسلام الغبطة والرغبة، وإن كان قد ملئ من بغضه قلبه، وإذا رأى أحدًا من جماعته مبديا التوحيد والديانة، أخفى له الذلة والإهانة، وكانت هذه الثلاث سنين متفرقة من

السنين في عشرين، والذي قتل من الفريقين في هذه المدة أربعة آلاف في الحساب والعدة، ألف وسبعمئة من المسلمين نالوا الكرامة، وألفان وثلاثمائة من الضلال صارت عقابهم الندامة.

قال المصنف:

كشف الحق ظلمة الإغلاس وعما الدين جملة الأرجاس
وأزال الصباح ديجور ليل طالما ساعد الأسى في احتباس
فظلام الضلال والشرك ولى وضياء الرشاد والرشد راسي
وتجلت غياهب البني لما آذن الزيف والردى بانتكاس
ورباح القبول والنصر هبت فالأعادي قلوبهم في ارتجاس
ومنادى السرور أضحى ينادي بالهنا والمنى بغير التباس
وليالي الهموم ولت سريعاً وتقصّت بلا قنوط وباسي
زانها الصبر في اللقا فاستنارت بضياء السعود من غير بأس
وطيور الأفراح بالفتح غنت فوق أفنان غصنه المياس
حين أمّ الإمام بالفتح ساع خبر عن جلا بني دواس
فاستزاد الإسلام حورًا وفورًا وسرورًا وعاد باستيناس
ومضى الهم والعنا وتجلي يوم أخلى الرياض ذو الإيلاس
كم بدى من أبي سعود سعود وفتوح ومفخر لأناس
قد علت رتبة الشريعة لما شاد أركانها بأقوى أساس
ومضى منهج المحجة سمكًا واستبانة معالم في اندراس
وتبدى الهدى فأضحى سنه ساطع النور لامع النبراس
وأضاءت بذلك بلدان نجد ومضوا بعده بغير احتراس

وأتت بعد ذا الفتوح وأضحى طالب الدين في مزيد التماس
 فاستقرت قواعد الدين فيها واستمرت سكانها في اقتباس
 وأق التوحيد يتلو جهازاً سورة الفتح لانتصار الناس
 وبدا الدين وجهه مستيراً حين ميطت براقع الأذناس
 خلد الله في النعيم إماماً أظهر الدين بعد طول ارتكاس
 وغدا معلناً بدعوة حق والورى في مناهج الخناس
 أوضح السبل للأنام وأحيا ميئاً غيبوه في الأرماس
 وجلال الوقر عن سامع قوم والعمى عن بصائر في انطماس
 ساعدته عصاة الحق حتى لبسوا للحروب أقوى لباس
 عصبة لا تهاب هول المنايا كلهم في اللقاء صعب المراس
 عزروا الدين بالقنا والقواضي وأزالوا عنه قذى الأنجاس
 بذلوا للجهاد فيه نفوساً روضوها للموت بعد شماس
 كم تجلت لهم خطوب شمس فجلوها بكل لدن وقاس
 أيد الله نصرهم وعلاهم ببقاء الإمام في إيناس
 وأدام الإله نصر سعود ناصر الدين لابني العباس
 وفيها وقع الطاعون في بغداد والبصرة وما بينهما من البلاد، وتزايد أمره
 وتفاقم، وجل الخطب وتعاضم، وكل يوم يموت من البشر ويُدفن في تلك الحفر
 مئات من الأنام، وطال ذلك عليهم ليالي وأيام، حتى فني أكثر أهل البصرة ومن
 والاه من قرى المجرة^(١). ويُذكر أنه مات في ذلك الطاعون مئات الألوف من
 جميع البلدان متفرقون.

(١) بجوار مدينة سوق الشيوخ «جنوب العراق».

وفيها أرسل عبد العزيز، حرسه الله تعالى، إلى زيد بن زامل رئيس الدلم، بنذ العهد والأمان، وليس هنا إلا الدخول في دائرة أهل الإسلام والإيمان، فلم يثن إلى ذلك الشأن منه عنان، ولا التفت إليه مختالاً بما لديه، وسعى في حشد الناس والأحزاب، لما أراد الله تعالى عليه تعجيل العذاب، وأرسل إلى رئيس نجران يستجيشه ويستدعيه، ويعدّه على مجيئه الأموال ويمنيه، ويضعف أمر هذا الدين ويوهيه، فلم يرعو إلى ذلك المقال، وقصده زيادة الشرط في المال، والتوثق قبل الشروع في الحال.

ثم دخلت السنة الثامنة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها أيضًا أرسل زيد بن زامل إلى رئيس نجران يدعوه إلى ذلك الشأن، ويحثه على القدوم في ذلك الزمان، وتعجيله قبل طوارق الحداث، فلان إلى ذلك فؤاده؛ لأن طلب المال هواه ومراده، وغارت لنيل المال عينه، وحارت في ذلك أوهامه وظنونه، وصارت أنامل يده ينادمها عُثُونُهُ^(١)، فتأمل ساعة وفكر، ثم أجمع عزمه ودبر، وحرر مقصوده وقدر، وحقق مطلوبه وقرر، فأرجع إليه الرسول يريد أن يبين له المبذول، ويُعرفه بالعائد والموصول وفائدة المحصول، حتى يكون بعد ذلك الحصول، وينجح السير والوصول، ويُنجز لكم المرام والرسول، فأرجع إليه بما راض جأشه عليه، وأن ذلك يتمثل لديه، فوقع بينهما المشاركة، وانبرام العقد والمرابطة، وحصل التقارير بعد المعاودة والمفاوضة، على قريب من ثلاثين ألف زر تُعجل بها المقابضة، وطلب زيد بن زامل من رئيس نجران أن يُرسل إليه أرهان، حتى يُرسل إليه الذي استقر واستبان، فأرسل إليه الرئيس رهناً من جماعته، وأعيان قومه وخاصته، وعجل

(١) العُثُونُ من اللحية: مانبت على الدَّقْن وتحتة بيئلاً. (لسان العرب).

بهم له في ذلك العام، رغبة في تعجيل الحطام، وأداء ذلك الشرط والالتزام. فلما قدموا على زيد أولئك الأقوام، جَدَّ في تحصيل ذلك المال، واستيفائه من الرعية بالإذلال، وأقاموا على ذلك ليلي وأيامًا، لا تذوق عيونهم في الدجى منامًا، ويعانون من ذلك جهدًا وسقامًا، وضيقًا وإلزامًا، ويرتجون لهم مآبًا ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، فلما نص له ذلك المال، أرسل به في الحال، لقصد نجح المرام بقدم أولئك الطغام.

وفيهما نزل عريعر مع بني خالد وعنزة على بريدة، وأعمل فيها مكروه وكيده، وأقام بها بعض أيام، وهو يحاول في أهلها بالخديعة والإبرام، وتلين الجناح لهم في الكلام، فجاشت إلى ذلك قلوبهم، وحاطت بهم ذنوبهم، فاستدعى عريعر أميرها عبد الله بن حسن للخروج إليه والمواجهة، حتى يكون الخطاب مشافهة، فاغتر بذلك وظهر، وسار إليه وابتدر؛ فعند ذلك حجر عليه وأسر، فدخلت المدينة على حين غفلة من أهلها، وما أقبحها من خصلة، فجالت في البيوت أولئك الأعراب، وكسروا تلك الأبواب، فلم يجد أهلها من ذلك مهربًا، ولا ألقوا للنجاة مطلبًا، وشمر راشد الدريبي لذلك إزاره، وقصد في ساعته قصر الإمارة، وكان قبل ذلك منه جاليًا، وذلك البلد منه خاليًا.

وفر من يخاف من المسلمين على نفسه من المبطلين، وتفرقوا في البلدان، حتى جاءهم من ربههم الصلة والإحسان، فكاتب عبد العزيز أهلها الذين خرجوا منها، ونفروا هاربين عنها، وهم آل عليان، على أنهم يُقبلون عليه، ويقيمون عنده أحسن الله قصده، فأسرعوا إليه المجيء والإقدام، وقابلهم بغاية الإكرام، ورعى لهم تلك الذمام، وأقاموا في نهاية الاحتشام.

وأقام عريعر في ذلك المكان بعض أيام وليال، ثم شمر في المسير والارتحال، فسار منها وظعن عنها، ومعه عبد الله بن حسن ذلك الأمير، ولم

يزل عنده في حكم الأسير، حتى جاءه قضاء العظيم الكبير، وحن أن يُسقي ذلك الكأس المرير، وينفذ فيه الإرادة والتقدير، ويتجرع كأس الجِمام بعد ذلك العز التام، فنزل به في أرض الخابية السام، فخر من ذلك الن مقام السام، وضمه ضيق اللحد، وصار أكلةً للددود، بعد ذلك القنا والقنابل، ومسايرة الجيوش والجحافل، وهذه سُنَّة الله في جميع المخلوقات والعبيد، ومفاجأة الجِمام بغتة لذوي البأس العتيد، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ طَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾.

وفيها غزا سعود، حرمه الله، بالمسلمين يريد الدلم، والسعد قد قارنه وألم؛ فسار حتى قرب إليها، وشارف الهجوم عليها، فأناخ على حين غفلة من الناس، وقد جمع أهل الأندية والأحراس، فعبأ عند ذلك من الكمين ما أراد، وهياً أهل الغارة من أولئك الأجناد، فلم تستقر الشمس طالعة، حتى صارت خيول المسلمين إلى الغارة نازعة، فوافت كثير أغنام، فاستاقها على التمام، وخرج بعد ذلك من أهل البلد من فيه نجدة، وكان استرداد تلك الأغنام قصده، فناوشهم المسلمون القتال، والكل قد بذل فيه طاقة الحال، حتى ظهر الكمين عليهم وبدا، فصاح بهم صائح الذل والردى، فانكسروا ولكن بعدما جهدوا وجدوا، فانهزموا مدبرين، وما لَوُوا على الساقة وما ردوا، وقُتل المسلمون عشرة من رجالهم، ودخلوا بلدهم بكسافة بالهم، وتشتت حالهم، وقُتل من المسلمين رجالان: عوض بن ذئب وراشد بن مطيع.

ثم بعد ذلك ارتحل سعود، فلما وصل إلى الحائر جهز سرية من المسلمين، وأمر عدامة بن سويري عليهم أجمعين، وأمره أن يقصد الزلفي، ويأخذ ما يجده هناك ويلقي، فسار من ساعته ومن معه عدامة، فوافاه ركب من أهل الزلفي أمامه، فشن عليهم الغارة، ولم ينبج أحد منهم بنياره، ولا آواه حين شمر فيه

إزاره، فكلّ منهم تجرع حمّاه، وكان الموت غايته ومرامه، وكانوا نحو العشرين، فقتلوا أجمعين.

وفيها وفد أهل حرمة والمجموعة على الشيخ وعبد العزيز يريدون الإسلام، فعاهدوا على ذلك والتزموا القيام بجميع الوظائف والشعائر والأحكام، غير أنهم طلبوا منهما عدم المطالبة بالجهاد، حتى يتوفر أهل تلك البلاد، وكان مرادهم الإمهال ستين، ثم يسمروا بعد ذلك من غير مئّن، فلما عرفا منهما الحقيقة والرغبة، ساعدهم على الموافقة والطلبّة، ثم كانت إلى بلادهم الرجعة والأوبة، بعدما أدرك كلّ مطلوبه.

وفيها وفد محمد بن رشيد الهزاني وأعيان أهل الحريق، يريدون الإسلام الذي هو أسهل طريق، فقدموا على الشيخ وعبد العزيز، سلك الله بهما مسلك التوفيق. فبايعوا على الإسلام، والتزموا القيام بجميع الأحكام، ثم بعد ذلك رجعوا إلى بلادهم بعد حصول مرادهم.

ثم دخلت السنة التاسعة والثمانون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين يريد الخرج، فجد المسير، حتى إذا قارب الضيعة^(١) بعد الهجوع، أناخ يهئى الجموع، ويعبئ أهل الغارة والكمين، فلم ينجل الظلام ويضمحل الإظلام، إلا وقد أخذ من التعبئة أحسن نظام، فعند ذلك شن الغارة أهلها، وأخذوا من الأغنام، فخرج عند ذلك أهل البلاد، وناوشوا المسلمين الجلّاد، حتى بدت لهم من الكمين أسنة، فأطلقوا للفرار أعتة، وولّوا جميعاً مدبرين، وأقاموا في البلاد محتصرين، وقد قُتل منهم تلك الساعة اثنا عشر رجلاً، ورجع المسلمون على أعقابهم وقد أدركوا أملاً. ثم إن المسلمين

(١) مدينة زراعية في محافظة الخرج.

أخذوا في قطع الأشجار والنخيل، فقطعوا من ذلك ما ليس بالقليل، وذلك جميع نخل الشدى.

ثم ارتحل عبد العزيز بالمسلمين ونزل بالدملم، ونوى حصار أهل زميقة^(١) وعزم، فأقام عليها للحصار، وأشرف أهلها على الدمار، وخرب من نخلها وزروعها، وقطع من أصلها وفروعها، ثم انصرف راجعاً إلى بلاده بعد نيل مراده، واستأذن الغزاة في إعطاء تلك الغنيمة آل عليان، فأجابوه بطيب لسان وجنان، وقد استشهد من المسلمين ثمانية رجال، منهم فهد بن سلمان، رحمهم الله تعالى.

وفيهما سار رئيس نجران يريد أهل الإيمان، ومحاصرتهم كافة في البلدان، فأقبل معه من سائر الأعراب ما لا يقدر على عدّه حُساب، ولا تحصره الأبواب، وقد انضم إليه والتأم كل جلف وظعّام، وأشخاص كالأنعام، بل هم أضل منها في الأفهام، وكل من بلغه ذلك المسير والتسيار، سارع إلى المسارعة والبدار، خصوصاً سكان القيافي والقفار، فأقبلت معه وبعده، خيّب الله قصده، أصناف قبائل البادية، كلها على أهل الحق عادية، وجدّوا لأهل التهينة سبباً ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَلَأُوا حَيْثًا﴾ وساعده في ذلك الأمر والشأن، كل رئيس وحاكم شيطان، من أهل نجد وغيرهم من الحضرة والبدوان، وأعانوه على طمس هذا النور، وإطفاء مصباحه المضيء في الديجور، جميع أهل المعاصي والفجور، بأنواع كثيرة من الأموال، وأمدوه من النقود بما لا يخطر على البال، ولا يحصره لسان المقال، وبارزوا في ذلك الكبير المتعال، وحاربوا ذا العزة والجلال، فلم تنجح لهم آمال، ولم يحصلوا من القول على حال.

(١) بلدة تقع جنوب مدينة الدلم.

وأرسل له بطين بن عريعر من النقود، ما ناف عنده على المقصود، فذكر أنه أرسل له بما يزيد على ستة آلاف شخص^(١)، وأظهر له من أحمال الطعام من الحسا وأشخص، فقدم عليه من الحسا ثلاثمائة من الزاد، فزال عنه الجوع والهم والأسى، وتلاحقت عليه الأمداد من الجموع والزاد، وهو مقيم على الحائر من تلك البلاد، وكل يوم يجري بينه وبين أهلها القتال والجلاد، وقد قتلوا منه في تلك المدة قريباً من أربعين رجلاً في العدة، فزال ولله الحمد عن أهل تلك البلدة كل رعب وخوف وشدة، وذُيعرت من معه من أجلاف الأعراب، وعرفوا أنه من مقصوده خسر وخاب، وما أطمعهم في المجيء معه والإقدام، إلا ما صدر عنه قبل ذلك العام، وما عرفوا ما في ضمن تلك المرة للمسلمين من العز والمصرة، وما انطوت عليه من الحكم والأسرار، ما لا تحيط به الأفهام والأفكار، بل يحسبون أن ذلك لعقّة غسل، فرجعوا بخيبة الأمل، وظنوا أن المسلمين أكلة جزور، فأبوا بالثبور والعتور.

وكان عبد العزيز، حرسه الله تعالى، في تلك المدة والإقامة، قد أهدف حده واعتزامه، وصقل جده واهتمامه، في تجهيز الجيوش والإمداد، إلى كل قرية وبلاد، فأرسل إلى الرياض مدداً، فأقاموا بها أمداً، وخرج سعود، بلغه الله المقصود، بالمسلمين فعمد إلى ضمها وأقام في نواحيها، وغاراته تراوح الأعادي وتغاديها، وتباغت البوادي العادية وتفاجيها، فأغار هو وجنده المنصور، على اليمن ذوي الكفر والفجور، وكانوا بأرض العرمة^(٢) يسيمون، وفي شعابها تلك الأيام يقيمون، فلم يرتفع بعض الأيام للشمس سناً، ويجلو

(١) عملة نقدية كانت تستعمل في زمنهم.

(٢) شرق مدينة الرياض - كما سبق -.

تلك الأعراب الباغية من عيونهم وسنًا، إلا وهو قد أشرف عليهم ودنا، ويحل لهم الكرب والعنًا، فشنت عليهم فرسان المسلمين الغارة، وكُلَّ شَمْرٌ للقتال إزاره، وجرى بينهم ذلك اليوم طعان، وقُتِلَ من كل الفريقين فرسان.

ثم رجع سعود بمن معه إلى ضرما، وانهزم أولئك اليمنان عن رعي ذلك المكان، فاجتمعوا مع رئيس تجران على الحائر، وأقاموا مع ذلك العدو الجائر، حتى وقع بينه وبين أهلها الصلح، فسار عنها ولم يحصل مما رام على نجح، وقصده هو ومن معه، وساعده من الحضر والبدو وتبعه، بلدة ضرما، وكان سعود قد سار عنها وطمعن منها، فلم تأت تلك الأقوام وهو في ذلك المقام، بل وضع في البلاد من الرجال عددًا، يكون لأهلها عونًا ومددًا، ويزدادون بهم همة وجلدًا، فلم تنزل بهم أولئك الجيوش الرعاع، وتحف بتلك البروج الرفاع، وتملأ فحاج تيك البقاع، إلا والمسلمون قد استعدوا للدفاع، وأخذوا من الأهبة شأنها، وحصنوا تلك البلد بروجها وحيطانها، فجد ذلك الرئيس الشيطان، وأتى من الحرب ب بكر وعوان، ولم يُقَيَّ جَهْدًا مِن نفسه وَمَن معه من الأعوان، فنهض في ثاني يوم نزوله عليها، وقرب جميع أجناده إليها، وأبرزوا من الاجتهاد، وطلائع الصبر في الجلال، وسيما النجدة والقوة والشجاعة والفتوة، ما ظنوا أنه يرهب أهل البلد، ويرعب ذوي البأس والجلد، ولكن الأحد الصمد ثبت أقدام أهلها، حين شد القوم في حملها، وتوغلوا بين أشجارها ونخلها، فأنزل الله عليهم السكينة والثبات، فلم يكن لهم، ولله الحمد، إلى الذل التفات، بل صدقوا لعالم الخفيات، وخالق البريات والسرائر والنبات، فرموا أولئك الأشرار بمصيب البنادق بين النخل والأشجار، فكانت شهب الرصاص كأنها عليهم مرسله، أو من فوقهم منزلة، فخرجوا هاربين سراعًا، ولم يدركوا نفعًا ولا انتفاعًا، ولم يستطيعوا حيتنًا دفاعًا، وقتل

المسلمون منهم خلقًا كثيرة، وأوقعوا بهم جراحات غزيرة، وأسقَوْهُمْ من الأسف كأسًا مريرة، فانهزموا عنهم وارتحلوا منهم بحالة ضريبة، وذلة واضحة شهيرة، فلم تكن بعد تيك لجميع الأعداء عين قريرة، ورجعوا كلهم خائبين، قد أسفوا على ما قدموا أجمعين، وأصبح أهل الإعانة مختبرين، وعلى بذل المال متدمنين، وودوا لو أُخْرُوا إلى حين، وصاروا ممن خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

ثم بعد تمرُّق هذه العساكر المجرورة، وتشتت هذه الجيوش المرعوبة المكسورة، وتفرق تلك الأجناد المذعورة، قصد كُلُّ قَبِيلٍ قَبِيلَهُ، ونحا كل ذي جيل جيله، وعمد كل ذي وطن إلى وطنه، وحن كل ذي سكن إلى سكنه، فنقلوا قبائل العجمان، وحملوا معهم على سريره رئيس نجران، وقد أرققه المرض والأسقام، وأضنت جسمه مواد الآلام، وكان ذلك الرئيس في الشر قرين إبليس، وقد فتن أولئك الهمج من الناس، مما يبدي لهم من حساب الرمل والتخمين والأحداش، وافتن أولئك البوادي، وساروا له بالأموال الروائح والأغادي، فلم يشك أحد من جميع تلك الطوائف، أن ذلك الرمال لأسرار الغيب حافظ عارف، وعلى ما يحدث من المكونات محيط واقف، فكانوا إذا أرادوا القتال حملوه على سريره في المجال، وقصدهم بذلك الاستنصار، ورفع ما يحفظهم من الآصار، فمات في أثناء انصرافه، وشاهد جزاء سعيه وإسرافه، تحسَّى عليه مرارة الحزن جميعُ أصهاره وأسلافه، وفقد تلك الكهانة والتنجيم كافة خلائه وألأفه، وفاجأه وارد الحمام قبل وصول بلده، وما فاز بمرامه.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، فأغار على الضبيعة، ولم يخرجوا إلى قتال، فكان الرمي بينهم من بعيد، وقتل من الكل بعض رجال، فُقُتِل من المسلمين موسى بن حماد وعبد الله بن غانم، ثم انصرف المسلمون منهم ورجعوا عنهم.

وفيهما مات مشاري بن سعود، وكان له في الجهاد مقام محمود.

وفيهما أيضًا غزا سعود، متع الله تعالى به المسلمين، فسار يريد بريدة ومعه آل عليان الذين خرجوا منها هاربين، فجد إليهم المسير، فلما وصل إلى قرب البلد، ولم يشعر به من أهلها أحد، لكونه نزل ليلاً بساحتهم، وكان وقت هجعتهم وراحتهم، فلم يستقر به القرار في أرض تلك الديار، حتى عبأ جيشه وكمينه، وقام ينتظر الصباح وحينه، فحين أسفر له منير ذلك الضيا، وفرغ من صلاة الصبح وقضى، نهض في إنجاز ما دبره ومضى، وكان ولله الحمد له في ذلك السعي رضا، وذلك أنه شن الغارة عليهم صباحًا، فلم يخرجوا إليه كفاخًا، ولم يجدوا دون الحصار في البلد صلاحًا، ولا ألقوا دونه مراحًا، مع أنهم لم ينالوا من ذلك فوزًا ولا نجاحًا، فأقام المسلمون على البلد أيامًا، وكل يوم يقع بينهم قتال ومرامي.

فلما أعيأ المسلمون أمرها، وجهد أهل البلد حصارها وحصرها، ولم ينالوا بما نالوا من الضرر والأضرار، ومنازلة تلك الجموع والحصار، اقتضى رأي سعود أن يبني تجاههم للمسلمين حصنًا، يكون لهم ثغرا وأمنًا، فأمر ببناؤه، فبنى تلك الأيام وزيد في بناؤه بجودة الأحكام، ووضع فيه عدة من أهل الإسلام، أميرهم عبد الله بن حسن^(١)، ثم رجع سعود ومن معه إلى الوطن، وأقام أهل ذلك القصر فيه، وكل يوم يشنون الغارة على أمير بريدة وتؤذيه، وبقوا أيامًا لا تسرح لهم سائمة، ولا تبقى لهم عين نائمة، وبوادر الحرب كل يوم عليهم قائمة، وفرسان ذلك الثغر لاستيلائهم رائمة.

فلم يجد أميرها راشد الدريبي من الأسباب، إلا بعثه إلى جديع^(٢) بكتاب

(١) قال ابن بشر (١ / ٦٤): «من رؤساء آل ابن عليان أهل بريدة».

(٢) قال ابن بشر (١ / ٧٤): «رئيس آل حبلان من عنزة»، فارس مشهور.

يستعينه ويستنجده، فلم يكن إلى ما يريده يسعده، فرجع منه الرسول بخيبة المأمول، فلما جد به الحصار والضيق، وضافت عليه مناهج التسديد والتوفيق، لم يجد إلى سلامة عمره منهجاً، ولا طريق سوى أخذ الأمان على عمره، وحاق به شؤم غدره ومكره، فأرسل إلى عبد الله بن حسن يطلب لنفسه خاصة الأمان، وخروجه من تلك الأوطان، فأعطاه عبدالله ذلك بإعلان، وبأدر إلى مواجهة عبد الله بذلة وهوان، ودخل عبد الله بن حسن وجماعته البلد، فقتل من قوم الدريبي كل من عثر عليه ووجد، فقتل في ذلك اليوم والحين من أولئك الجماعة نحو الخمسين، واستولوا على جميع ما فيها من الأموال، وتأمر عليها عبد الله بعد الفراغ من تلك الحال، وصارت تلك القضية وصدور هذه الموهبة السنية، إنقاذاً لأهل القصيم وما فيها من البرية، من غمرة الضلال اللوية الرديّة، فأظهروا الإسلام، ودانوا بجميع الأحكام.

ثم بعد مضي ذلك بأيام وليال، وفد عبد الله بن حسن مع رجال من وجوه أهل القصيم، على الشيخ وعبد العزيز لأجل المعاهدة والتسليم، فتلّقوا بأنهم إقبال وقبول، وفازوا بأعمّ مطلوب وسول، وعاهدوا على الإسلام والقيام بالأحكام على التمام، وأقر عبد العزيز كل أمير بلد في بلده أميراً، وزادهم حشمة وتوقيراً، وأمر عبد الله بن حسن على جميع بلدان ذلك الوطن، لا يعارضه منهم أحد فيما أراه وقصد، واستمروا على حالة مرضيّة سنين، ثم تغيروا وانقلب كثير منهم لأجل فتنة يأتي ذكرها بعد حين.

وفيها غزا محمد بن جمار مع جماعة من أهل الوشم، فوافاهم بطين بن عريعر بأرض النبقية^(١)، فقتل غالب أهل تلك السرية، ونار^(٢) باقيهم وسلم،

(١) من قرى القصيم، تبعد عن بريدة حوالي ٤٥ كم.

(٢) نار: هرب.

ووهى عز بطين بعد تلك القضية وهُدم، وتضعضع أمره وحاله، وتشتت عزمه وباله، ونقم عليه لقبح أفعاله إخوانه ورجاله، وأخذ سلطانه في الضعة والانحطاط، وحق به أمر الله وحاط.

وفيها قدم زيد بن زامل على عبد العزيز في الدرعية، فجاءت من غير إشعار ولا إخبار القضية، ولا معاودة ولا أخذ أمان، ولا مفاوضة ولا روية، فلم يشعر عبد العزيز إلا بقدمه ومفاجأته له وهجومه، مع أناس من أعيان قومه، فبايعوا على الإسلام، فتراضت تلك النفوس التي نشأت في التكبر والإعظام، وألفت في ذلك منهج آبائهم القدم، فدانوا بشريف تلك الأحكام، والتزموا بجميعها القيام، وطلب عليهم كثير من أنواع السلاح، وعدة من الخيل المطلمة الملاح، فلم يلقوا بذلك نجاح ولا جناح، ولا رأوا به حوبًا ولا بأسًا، ولا رفعوا للإبانة والامتناع رأسًا، فأتوا سريعًا بما طُلب، وأرسلوا بجميع ما أريد وكتب، وحقق عليهم وحسب، فلما وصل إلى عبد العزيز جميع المطلوب، وأحضر لديه المقرر المكتوب، أخذ منه جزاءه الله خيرًا بعضًا، وبعض تركه لهم رفضًا، مسامحة لقلوبهم وتطيينًا، وتوليغًا لأولئك الأشرار وترغيبًا.

ثم دخلت سنة التسعين بعد المائة والألف.

وفيها قتل زيد بن زامل فواز بن محمد من أهل الحوطة، وذلك أنه أتى ابن زامل في بلاده، لما أراد الله كرامته واستشهاده، فطلب منه المحاكمة للشرع وسرعة انقياده لمشاجرة بينهم سابقة، فلم يُنقذ له ولا وافقه، بل نذر عنه ولا طابقه، وأنهى على ذلك الكلام وقال: أنقاد في بلادي إلى الأحكام، ويُنقذ عليّ في الشرع النقض والإبرام، وأنا رئيس من في هذه البلدة من الأنام، فكيف أُهان وأسام ويُلوّى عنتي وأضام؟ فجرّد عليه صارمًا غير كهام^(١)، وجرّعه كأس

(١) أي: غير كليل.

الجمام، وارتدى برداء الغدر، وتسربل بالخزي والذل والإهانة، فلم يحصل له ولله الحمد الإعانة، بل مذكه الله تعالى وأعوانه، ومَلَك الله تعالى المسلمين تراثه ومكانه، واستولوا ساحته وأوطانه، واحتَووا رعيته وحيطانه، فسبحان من لا يعجزه شيء، ولا يفوته حي، سبحانه.

فلما صدر عنه هذا الغدر والفتك، وظهر منه هذا المكر والهتك، وبلغ ذلك على الجزم واليقين عبد العزيز إمام المسلمين، أمر بغزو المسلمين عليه، وإرسال الجند إليه، فجَدَّ المسلمون إليه في الوصول، فلم يلبث إلا قليلاً حتى أحاطت به الجيوش في النزول، ونزل بساحته الجحافل والخيول، فلم يستقر بهم هناك القرار، بل لم يقيموا بها شطر نهار، حتى شَمَّر للجلاء الساعد والإزار، وحاق به ما اقترف من الآثام والأوزار، وما صنع من العلو والاستكاف والاستكبار، فهرب على ظهر فرسه مع ولده وبعض خواصه الأشرار، فدخل عبد العزيز وحزبه البلد، فلم يُعْزَ منها على أحد، بل أعطى أولئك الأمان، إلا أصهار من تعدى وخان، وما له من خاصة وأعوان، فأمر على جميع أولئك القوم والملا بالخروج عن تلك البلد والجلاء، وأمر عليهم سليمان بن عفيصان، واستمروا على ذلك شطر زمان، وعليهم سيمة الإسلام والإيمان، حتى أراد الله الرحيم الرحمن، أن ينحطوا إلى حضيض الذل والهوان، وينخرطوا في سلك أهل الضلال والخذلان.

وفيهما قدم أهل منيخ وأهل الزلفى على الشيخ وعبد العزيز لأداء السلام، وتجديداً لعهد الإسلام، ووفد معهم سليمان بن عبد الوهاب، ولم يكن له إلى منيخ رجوع وانقلاب، بل حسن له في الدرعية السكنى والمآب، فقبلوا بالقبول والإكرام والبشاشة، وكان من الشيخ إلى أخيه سليمان أعظم تحنن واهتشاشة، فدر حاله حيثئذ وأراشه، ووسَّع عليه قوته ومعاشه، وكان هذا

شأنه مع غيره^(١)، طيب الله في ضريحه مهاده وفراشه، فكان ذلك سبباً لإنقاذ سليمان، وصدقه مع أهل الإيمان، وتحققه بهذا الشأن، فقام في هذا الدين بتحقيق جزم ويقين، وأقر على نفسه واعترف بما قدمه قبل وأسلف، ووفى بما عاهد عليه وما أخلف، ومات، والله الحمد، على حالة رضا، بعدما جرى منه وما مضى، فلم يوافقه القضا إلا بعدما رفض ما كان عليه وانقضى.

وفيها وفد أهل اليمامة، وأميرهم البجادي حسن، فقدموا على الشيخ وعبد العزيز في ذلك الوطن، جددوا للإسلام عهداً، وأرسل معهم معلماً في ذلك المبدأ، وهو حمد العريني، فسار معهم لأجل نشر التوحيد والتعليم، ومكث عندهم حتى صدر منهم ذلك الأمر العظيم والخطب الجسيم، وذلك أن أهل تلك القرية شرعوا ينسجون أردية الغدر والفرية، وينظمون أحوال الخيانة والردة بلا مرية، يدبرون فيها مظالم الآراء، ويدبرون أسباب التعدي والاجترار، ويحاولون الفتك بمن عندهم من أهل الدين، حتى اجتمعوا عليه بيقين، وتعاهدوا عليه مجتمعين، وتجاهروا به غير مخفتين، فلما تحقق منهم ذلك حمد العريني وابن داعج، وعرفوا أنهم من غير شك يريدون الردة، وأنهم يبغيونهم بالقتل غداً أو بعده، خرجا منهم هاربين، وكانا للسلمية طالبين.

ثم بعد ذلك أسرعوا إلى عبد العزيز بذلك الخبر، فأمر المسلمين فوراً بالتجهيز للغزو، فخرج سعود بهم وظهر، وجد السير إليهم ليلاً ونهاراً، لا ينيخ إلا وقت الراحة اضطراباً، أو جنوح الشمس اصفراراً، حتى وصل إلى السلمية^(٢)، فألقى الرحال ووضع فيها من المسلمين عدة رجال، وأرسل إلى الدلم والضبيعة

(١) رحمه الله، وهذا من حكمته في تأليف من يقبل على الحق، سواء من أقاربه أو من غيرهم.

(٢) من مدن محافظة الخرج.

ونعجان^(١) مرابطة كثيرة من أهل الإيمان، خشية معالجة الردة والافتتان، وبقي أياماً كثيرة يكتب أهل الإمامة من جهة تلك القضية، ويحث حسن البجادي على إخراج أهل الشر من بلاده والأعادي، الذين صدرت منهم تلك السعاية، واجتمعوا على المسلمين بالفتك والنكاية، فوعده الامتثال والإخراج، وليس دون ذلك من إرتاج^(٢)، ولا عن جلائهم من إفراج، ولكن بعدما ترحل عن هذه البلدة - يعني السلمية -، وتحط الأثقال في الدرعية، وكان هذا منه خديعة ومكرًا، وقد حاق به شؤم فعله قسرًا، وما أغنى كيده وما نوى، بل حطه في قعر الإذلال والخزي فتوى.

وذلك أن سعودًا لما جاءه منه الوعود، بأن ينفي عن بلده الإمامة كل من لا يحسن له بها الإقامة، ولا يعرف أهل التوحيد قبل ذلك إسلامه، ولا تبينت له قبل صلاحية واستقامة، وبعدهما تشرع في الارتحال، تكون منا الطاعة والامتثال، رضي بذلك منه وما جال في خلد ما صدر عنه، وما شعر أن وراءه من الغدر نسيجه، وأن بارتحاله تبدو له النتيجة، فحينما أخذ سعود في الارتحال والمسير، شرع حسن مع جماعته لأسباب الردة في تدبير، فلم تنخ له في البطحاء الركاب، وتحط الأثقال أولئك الأصحاب، إلا والردة قد أحكمت لها الأسباب، وولج إليها من كل باب، وأظل أهلها مدلبهم العقوبة والعذاب.

وحاصل ما صدر وتحقيق ما جرى وظهر، أنه خرج مع أهل النجدة من أصحابه وكافة رجاله وأحزابه، يريد من في السلمية من المسلمين، وكانوا بذلك الأمر مشعرين، ولقدومهم مستعدين، وللقائهم متأهين، فلم ينور الصبح

(١) من مدن محافظة الخرج.

(٢) أي: إغلاق.

بالإسفار، حتى هجم أولئك الأشرار، وكان لهم إلى حلل النخل البدار، وراموا أن يسابقوا المسلمين على القلعة المسورة، فلم يكن ولله الحمد لهم عليها مقدرة، فبذل دونها أهل التوحيد المعذرة، وأرخصوا ذلك اليوم الأعمار، وكان لهم فيه الغاية من الثبات والاصطبار، وطال بينهم القتال، والكل شمر الساعد والأذبال، وأنف من المعرفة والإذلال، وبذل في ذلك جده وجهده، وتبين فيه أهل البأس والنجدة، وأنجز الله تعالى للمسلمين وعده، فحمى الله تعالى عباده المؤمنين، وصرف عنهم كيد المعتدين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فرجعوا على أعقابهم من حيث جاؤوا، وانقلبوا بالعار والخزي إلى مكانهم وفاؤوا، وقُتل من المسلمين اثنان، ورجع أعداؤهم بالهوان.

وفيها صاح إبليس بأهل الخرج وتنفس، وسول لهم الخروج عن الحق ووسوس، وزين في الارتداد منهاجه، وحث على إغوائهم أعوانه وأفواجه، وأقبل عليهم بخيله ورجله ركضاً، فقاموا بذلك وأسرعوا إليه نهضاً، وفتح لهم اللعين ذلك الباب، وطرح بهم في مفازة الهلاك والعذاب، وجمع عليهم من أنواع الدل أسباب، ثم نادى فيهم بالخراب والذهاب، فتلك ليس لي إليكم رجوع ولا إياب، فقد صارت عقباكم الندامة، وليس لكم عليّ ملامة.

وحاصل ما جرى منهم من قبيح الأفعال، وما وقع بهم من الإهانة والإذلال، أنهم لما حسنت لهم الردة، وحقق كل منهم فيها قصده، لم يجدوا قِيَمًا ورئيس، سوى قرين إبليس، وهو زيد بن زامل، وكان إذ ذاك عن الأمر غافل، وبما دبره وراموه جاهل، وليس للرنامة حينئذ بآمل، فأرسلوا إليه بالقدوم، فقد جاءك ما تريد وتروم، فأسرع إلينا بالإياب، فالمنى أذاك بغير ارتياب، فلم يرعو إلى ذلك الباطل والأذى، وقال من رام هذا فقد وسوس وهذى، ولا أقدم عليكم إلا إذا، ولكن أرسل إليكم ابني، وهو نائب فيكم عني، ويقف على حقيقة الحال، وما

صار إليه المال، فخرج ابنه يريد الدلم، ونوى ذلك وعزم، فلم يرعهم حتى قدم عليهم وهجم، فأرسلوا عند ذلك إلى آل مرة، وكانوا قريباً منهم ليقتضي الله فيهم أمره، وأعلم بذلك أيضاً أهل الإمامة، فعجل كل منهم مجيئه وإقدامه، واجتمعوا يريدون المسلمين الذين في البلاد، وليس عندهم خبر بمن نواهم وكاد، بل هجموا عليهم من غير تأهب ولا استعداد، ووقع معهم في جوف البلاد المقاتلة والمقابلة والجلاد، فقتل من المسلمين نحو عشرة رجال، ونازل^(١) غالب المسلمين من غير إمهال، وتفرقوا في بلدان المسلمين، وبقي أهل الباطل في الدلم مجتمعين.

ولما جاء زيد بن زامل ذلك الخبر، وتحقق من أهل بلده ما جرى وصدر، أسرع إليهم المسير والارتحال، وقدم عليهم بعد مضي أيام وليال، وما تصور في ذهنه أنه يخرج منها بهوان وإذلال، ويعجل له الإخراج منها والجلاء والانتقال، وحين وصل خبر ذلك الأمر الصادر والفعل القبيح الهادر، إلى إمام المسلمين، متع الله تعالى به في تمكين، جهز إليهم سعوذاً وأصحابهم، وعجله في المسير وأحزابه، فجد السير إليهم حتى قدم هو ومن معه عليهم، فأناخ في بلد السلمية لأجل إخراج من فيها من رعية، فأقام فيها نحو يومين، حتى تجهز للارتحال، وتهيأ منها للجلاء والانتقال، جميع أهل التوحيد، بسكينة وتأيد، ثم سار مرتحلاً، بعدما نال منها أملاً، وخرج معه من غير المرابطة، حمائل كثيرة من أهل السلمية، بجميع ما لهم من أهل وحيوان وأثاث، من غير تلبث ولا ارتثاث، ولا مبالاة بذلك الوطن ولا اكتراث، بل هم لما عند الله محتسبون ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وفيهما غزا المسلمون، وأميرهم عبد العزيز، حرسه الله تعالى، وأفاض عليه جوده ووالى، يريد الخروج وآل مرة الذين فيها، ومن ساعد على تلك الردة ومقويها، فجد، حرسه الله تعالى، في ذلك، يريد جميع من هنالك، وقد اجتمعوا في تلك الأراضي، جميع من له في الردة ارتياض، وعن له إلى بعثها انتهاض، وقد ملا تلك الفيافي الفجاج، من له في الباطل والزيف انتهاز، واحتسبوا في ذلك للقتال والمقاومة، وتأهبوا للجلاد والطامة، بل هم كل ساعة إليها في انتظار، وليس لهم عنها بد ولا اضطبار، فتقرب إمام المسلمين إلى الله رب العالمين، بالدعاء بالنصر على المبطلين، وحث إليهم النجائب، وأعمل في النص الركائب، حتى قاربهم حين الهجود، وكانوا غفاة رقود، فعند ذلك عبأ أهل الغارة والكمين، حتى أخذ الفجر يبدو ويستبين، فلما انكشف غيب الدجى وزال، وجد الضوء في الاشتعال، وفرغ من سُبحة الصبح، شرع فيما كان له السرور والنجح، فأمر أهل الغارة وغاروا، فربحوا في سعيهم وما باروا، وبادروا إلى أمره وما حاروا، فاستاقوا جميع الآبال، وما كان دونها إهمال، فلما أشعرت قبائل العرب والبادية، أقبلت جميعها عليهم عادية، فاختلطت الفرسان والأبطال، وكان بينهم أعظم مجال.

وكان المسلمون قد وطئهم في مضيق شعب من الشباب، فلما نهضت إليهم أولئك الأعراب، وعاجلهم بالفرع والانتداب، فأمسكوا من الشعب المضيق، ولم يكن للمسلمين فيه فسيح طريق، فرمى من المسلمين بعض الناس، وكان سبباً لحصول الضرر والبأس، فانكشف أهل الدين، وجد في ساقطهم فرسان المبطلين، وأخذوا يجاهدونهم ساقه، والكل قد بذل فيه الطاقة، واحتوى أهل الإسلام في ذلك المكان والمقام، وصبروا على مصادمة أولئك الفرسان الأجلاف، وثبتوا لطعانهم في حالة الانكشاف، غير أن المسلمين قُتل منهم نحو

الأربعين، على سبيل الحدس والتخمين، وفك أهل الباطل غالب الإبل، واستاق المسلمون على عجل، ورجع المسلمون إلى بلادهم، وأكرم الله تعالى من تقدم باستشهادهم.

ولما وصل عبد العزيز إلى الحائر جهز سرية إلى اليمامة ثمانين راكبًا، فعقروا فيها إبلًا، ثم رجع كل إلى أهله آتيا، وقُتل من المسلمين المشهورين عبد الله بن حسن أمير القصيم وهذلول بن نصير.

ثم دخلت السنة الحادية والتسعون بعد المائة والألف.

وفيهما غزا المسلمون، وأميرهم سعود يريد الخرج، فذكر لأهل تلك البلاد أن هنا غزو للمسلمين، فتأهبوا في الاستعداد. ونفر منهم كل جريء الفؤاد، ومن مارس الحرب والجلاد، فخرجوا إلى لقائه، قبل غارته واعتدائه، فتوافق الفريقان، وتصادف الجمعان في أرض السهيا، والكل منهم قد روض على الصبر قلبا، ورام لعدوه استيلاء وسلْبًا، وقوى جأشه حتى ينال غنيمة ونهبًا، ويفك نفسه مما أحاط به واهيه وكربًا، فطال بينهم المجال، واستحضر القتل والقتال، وقتل من الكل رجال، ثم حصل بعد أن جهد كل منهم الانفصال، ورجع كل إلى بلاده، ولم يحصل على نيل مراده.

وفيهما عُثر على أهل سدير ومنبج بنسج أردية الردة وبرود، وسعاية في فتح بابها المرتج المسدود، وتبين من أناس فيه قيام وقعود، وأتى الشيخ وعبد العزيز الأمير من حقق له ذلك النسج والتدبير، وحق له أن ينشد على لسان التحذير:

أرى خلل الرماد وميض جر ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

فلما أعلم الشيخ وعبد العزيز عثمان بن عبد الله بمن قام فيها وقعد، جهز عبد

الله بن محمد في المسير إلى تلك البلد، فسار في يومه ذلك ونهض، فلما وصل

عبد الله ومن معه من المسلمين إلى بلدان سدير ومنيخ، أمر علي الحسيني ومحمد بن إبراهيم وحمد بن عبد الله من أهل حرمة، ومن أهل سدير صعب بن مهديب رئيس الحوطة ومنصور بن حماد رئيس العودة وعياله، بالجلء عن ذلك الوطن، الذي نَوّوا به إيقاع الفتن، لكون تلك الأمور المسطورة والأحوال المشهورة المزبورة، جميعها منسوبة لهؤلاء الجماعة المذكورة، فأتى بهم إلى الدرعية لأجل نسخ تلك القضية، فلم تقم أولئك الغزاة في الأوطان، بل بادروا الخروج إلى الخرج بإعلان، فجَدَّ عبد الله بن محمد بمن معه من المسلمين في ذلك المقصد، ففاز بالمكان الأسعد، وذلك أنه صَبَحَ الدلم بالغارة، وأشعل فيهم ناره، فقتل ستة رجال، وعقر عليهم كثيرًا من البقر والآبال.

وفيهما ثارت للردة في حرمة نائرة، وأضرمت للحرب نائرة، وذلك أن ذوي القلوب الشريرة الفاسدة، والأفئدة المغلولة الحاقدة، والنفوس التي هي للمسلمين في الحقيقة حاسدة، وللحق منكرا جاحدة، حصل بينهم توافق وتوافق، وتساعد وتطابق، على إشعال نار الردى، وإطفاء مصباح الهدى، فصارت منهم الأيمان والمعاهدة، والحلف والمعاقدة، ورئيسهم في ذلك الغدر وناسج أودية الخيانة والمكر جويسر الحسيني، فوطئاً لقلوب رؤساء سدير، وهم سويد بن محمد وآل ماضي وحمد بن عثمان، على الغدر بأهل الإيمان، وأن أهل كل بلد تقتل من المسلمين مَنْ بها قام وقعد، فأعظوه على ذلك ما أراد، وطاعوا له بالمراد، فلم يكن لهم ولله الحمد عون ولا إسعاد، ولا ظفروا برشاد، وخابوا وآبوا بسخط رب العباد.

فلما أرادوا أن يبادروا بالإنجاز، ويعالجوا الفرصة بالانتهاز، أرسلوا إلى كبار المسلمين الذين في المجمع، أن يأتوا إلى حرمة يُعلمون فيها متعلمون ومستمعة، وقد انتظم العقد والإبرام، وأتقن مرادهم بالإحكام، على قتل أولئك

الأقوام، ولكن أراد الله تعالى إذلال أولئك العتاة اللثام، فلم يَجِْ أهل الدين والإسلام، ولم يحصل منهم إلى حرمة إقدام، فجاء أهل الدين والإسلام إلى حرمة، وهم محمد بن شبانة وعثمان الثميري وكنعان بن عيسى وغيرهم، فلما كان لهم المجيء والإقدام، أرسل جويسر ومن معه من الأقوام، إلى أميرهم عثمان بن عبد الله، وكان في نخل له، يُعلمونه بقدوم تلك الجماعة، ويودون تعجيله وإسراعه، وقد أعدوا له ستة رجال لقتله ساعة المجيء والإقبال، منهم أخوه خضير وابن عمه عثمان، فتكفلوا لهم بذلك الشأن، فلما قدم يريد البلاد، وكان أولئك له في طريقه بمرصاد، ولقتله في تأهب واستعداد، قاموا عليه فقتلوه، ونال جويسر وقومه منهم ما أثلوه، ثم بادروا إلى حبس من عندهم ومن استدعوه ومن قصدهم، وهم محمد بن شبانة وكافة إخوانه، وشمروا إلى المجمع الأذبال، وخرجوا يريدونها بلا إمهال، وغايتهم قتل من بها من المسلمين، وإمساك قلعتها للتحصن والتحصين، فلم يصلوا إلى فنائها بالإقدام، حتى كان لأهل الدين ممن في البلد إلى القلعة سرعة وإقدام، فأقاموا مدة يحاولون الولوج فيها والدخول، فلم يكن لهم إلى ساحتها وصول، فرجعوا منها بخيبة السؤل.

وأرسل أهل المجمع بعد انقضاء القضية، إلى عبد العزيز رسولاً على مطية، يخبره بما صار، فعجل إليه التسيار، حتى وصل إليه الخبر عن الوقعة ثاني نهار، فأمر سعوداً والمسلمين بالتجهيز مجتمعين، فجَدَّ سعود لئيل المقصود، وبادر في الأهبة في الحال، وخرج على غاية الاستعجال، فلم يلق عصا الاستراحة حتى كانت حرمة مناخة ومُراحه، فطَنَب على تلك الهضاب رفيع تلك الخيام والقباب، وبقي عليها أياماً مقيماً، وكل يوم ينالون من القتال أمراً عظيماً، لا ينكفون عنه ليلاً ولا نهار، والكل يبدي على ذلك الجلد والاصطبار، وقُتِل بينهم

من الرجال ذو عدد، في تلك المصابرة والأمد، فلما جهد الحصار أهل البلاد، وأضناهم القتال والجلاء، تحققوا أن سعودًا لا يكاد ينصرف عنهم بغير المقصود، وآيسوا من باطل الوسوس والآمال، وجزموا أنهم لا يحصلون على طائل ولا حال، طلبوا من سعود الدخول في الإسلام والإقبال، وأبدوا له الندم والأسف والإذلال، فأسقط عنهم النكال، وتلقاهم بالقبول، وكان لهم إلى مرامهم وصول، واشترط عليهم أن ينفوا جميع الأشرار، وهو جويسر الحسيني، فأسرعوا في البدار، فبايعوه على الإسلام، والتزموا له جميع الأحكام، وأمر عليهم ناصر بن إبراهيم، وأطلقوا محمد بن شبانة وإخوانه الذين معه.

ثم لما عزم سعود على المسير والإقبال، عزل رئيس المجمع فأمره وأهله بالارتحال، لما صار منه من تلك الأفعال، ثم لما وصل إلى جلاجل عزل سويد بن محمد عنها، فأمره وأهله بالانتقال منها، وأمر في المجمع عثمان بن عثمان، وفي جلاجل ضويحي بن سويد، وسار رئيس المجمع إلى القصب وأقام فيها، وقصد سويد شقرا، ورجع سعود بمن معه من المسلمين، ثم أمر عبد العزيز على حمد بن عثمان وسويد بالمجيء إلى الدرعية، فكانت لهم سكن، والكل ثوى فيها حتى مات فظعن.

وفيهما سارت للمسلمين فرسان يريدون الغارة على الدلم، ففضى الله تعالى وحكم، أن أهل الخرج يوافونهم قبل الأراكة^(١)، فلم يسع المسلمون الانصراف والانفراكة^(٢)، بل كل أمل من عدوه مرامه وإدراكه، فجالت تلك الفرسان وجرى بينهم الطعان، وقتل من المسلمين منيف بن نصير وابن شهبى، وأصيب من الخرج عدة رجال، ورجع المسلمون بعد ذلك الحال.

(١) نخيل بجوار الخرج. «معجم اليمامة» (١ / ٧١ - ٧٢).

(٢) أي: الهرب.

ثم دخلت السنة الثانية والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها سار المسلمون وأميرهم عبد العزيز، حرسه الله تعالى، يريد الدلم، وقد صمم على حصارها وعزم، فجدا السير إليها، حتى أناخ عليها، وكان وقت لذة الكرى، فما أبصره أحد ولا درى، فتوهل بعض الحلل، ونال منها المراد والأمل، وبقي ينتظر الصباح، حتى يحصل له من مراده النجاح، فلما أسفر ضوءه ولاح، وفرغ من صلاة الإصباح، نهض إلى الحرب، وأشعل حجرة الطعن والضرب، وأحاط المسلمون بجميع تلك الحلل، وأحكموا الأسباب لأخذ الآراء والعمل، وما يشعرون أن أهلها ممتعون إلى حين ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِيَّ كَيْدِي مَتَيْنٌ﴾ فجعدوا إلى تحصيل المطلوب، وإدراك المنى والمرغوب، ولم يحيطوا علمًا بأن ذلك غير مقدر لهم ولا مكتوب، فأرجف أهل البلاد، وآيسوا من أنفسهم في مصابرة الجلاد، وطمع أهل الإسلام في الفتح، لما عاينوا من علامات النصر والنجاح، وذلك أن أهلها لما خرجوا لقتال المسلمين، ونهضوا إليهم ضحوة مجتمعين، والتقوا معهم في تلك الحلل، فكسرهم الله تعالى وهزمهم على عجل، فولّوا سراعًا على غير مهل، فعند ذلك داخل أهلها الذل والخلل، وملأ قلوبهم الرعب والوجل، حتى إن بعض أهل تلك الأوطان، طلب لنفسه الأمان، ولكن أمر الله غالب، ولا يفوته سبحانه هارب.

وكان من قضاء الله تعالى المقدر، وحكمه النافذ المراد المدبر، أن زيد بن زامل ذلك اليوم في اليمامة عند أولئك القوم، فلما سمعوا الرمي في تلك البلاد، فزع هو ومن فيها من العباد، ونهضوا إلى ذلك سريعًا وأقبلوا جميعًا، وكان غالب مقاتلة المسلمين بأهل تلك البلد محيطين، وبحللهم محدقين، وعلى أخذهم مشرفين، فانصبّ زيد ومن معه على محطة الجيش المجتمعة، من غير فكرة ولا خبرة ولا اختبار ولا تدبر ولا استبصار، بل قضاء الملك القهار،

وقدر ميسر من الأقدار، وذلك أنه عدل من المحلة التي يسمع بها اللغظ والأصوات، وعليها المقاتلة والرماة، ورام أن يدخل البلد من الباب، يظن أن ليس هنالك أحد، فإذا الجيش بعذائه نازل بقربه وفنائه، ولم يشعروا إلا بالجلبة والصياح، وتشريع أسنة الرماح، وإطلاق أعنة الجياد الملاح، فاندعر الجيش وطاش، واندesh حيرة وارتعاش، وأخذ زيد من ركاب الجيش نحو الخمسين، وقُتل حينئذ بعض المسلمين، ثم اجتمع المسلمون وتراجعوا سريعاً، وتلاحقت مقاتلتهم جميعاً، وقربوا إلى البلاد كافة، وخرج أهلها للقتال بعد الذلة والمخافة، فوقع بينهم في تلك الساعة قتال، وقتل بينهم رجال، ثم بعد ذلك وقع التفرق والانفصال.

وسار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، ومن معه من المسلمين، فأناخوا على نجان أجمعين، وبقوا أياماً لها محاصرين، حتى فتح الله تعالى على المسلمين منها ببعض الحلل، فأخذوها وفر أهلها على عجل، وقُتل فيها رجال، وفاز المسلمون بكثير أموال، ورجع المسلمون إلى بلادهم، وقد أكرم الله نحو العشرين من المسلمين في تلك الغزوة باستشهادهم، وقُتل من جميع أهل الخرج فيها قريب من ذلك.

وفيها نزل سعدون بن عريعر^(١) الخرج، وأرسل لعبد العزيز يطلب الصحبة، فوافقه على ذلك وشرط عليه ألا يقرب البلدان، قصده مكر وخديعة، يزين لأهل البلد الردة، ثم بعد ذلك نزل مبايض^(٢) فبان قصده، فنبذ إليه عبد العزيز عهده، فأقام مدة، ثم خاف من المسلمين فارتحل في القبط، وتوعر في مظامة الدهناء

(١) تولى الأحساء بعد مقتل أخيه «دجين» عام ١١٨٩هـ.

(٢) تبعد عن مدينة الرياض قرابة ١٦٠ كم شمالاً، أصبحت فيما بعد هجرة لقيلة مطير.

والصَّيَّان^(١)، وتوسط فيها ذلك الزمان، فناله وقومه أعظم النصب، وتعبوا أشد التعب، ومات ما عندهم من الأغنام، وكابدوا طلائع الجَمَام، وأوهن الله تعالى كيده وما رام.

ثم دخلت السنة الثالثة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها عزم أهل حرمة على الردة، ونَوَّوا وخلعوا ملابس الدين، وظَوَّوا ونشروا للخيانة والردى علماً، وسَعَوْا إليها أُمَمًا، وهَيَّأُوا لأسبابها وفتح بابها أمرًا مُحَكَّمًا، وعَقَدَا رَصِيئًا في زعيمهم الفاسد مبرمًا، وذلك أنهم أرسلوا إلى سعدون، رئيس بني خالد، بما دبروه، فكان على ذلك الشأن واجد، وعلى القيام فيه والنصرة له مُجَدِّ مساعد، فاستدعوا أيضًا أهل الزلفي، فكان كل منهم على ذلك مستلَفِي، ولإنجازه كل حين منتظر مشفي، فلما لبَّاهم أولئك الأقوام، وأجابوهم على المساعدة في ذلك المَرَام، وأوعدوهم على يوم من الأيام، ينفذ فيه ذلك الإبرام، ويصدر فيه العقد والإحكام، وتُرَاق فيه دماء ذوي الدين والإسلام، فلما قرب سعدون من البلاد، وتحققوا إنجاز المراد، وعرفوا أنه يُصَبِّحهم غَدًا، عند أهل الباطل والردى، فالبسوا أناسًا منهم ثياب النساء الغواني، وأمروهم أن يسيروا إلى المجمع من غير تواني، ويصعدوا إلى بروج القلعة، حتى يدهموا المسلمين في البلد ثم تكون لهم فيها متعة، فلما بادروا إلى ذلك الأمر، وعجلوا النيل ذلك القصر، وصعدوا إلى تلك البروج، فأمسكوها حتى بدا من جماعتهم المعجي والخروج، فتنبه أهل الدين لكيد المعتدين، فسددهم الله تعالى وأعانهم، وخذل تلك الطائفة وأهانهم، فلم يظفروا بمرام، ونقض الله تعالى حبل ذلك الإبرام، وأقبل سعدون بن عريعر وبنو خالد وأهل

(١) المظامة: الأرض الواسعة التي ليس فيها موارد للمياه، يظمًا فيها الإنسان.

الزلفي وأهل حرمة، فأناخوا على المجمعۃ أياّمًا، وحاصروها وراموا بها من الفتك مرآّمًا.

وكان تلك الأيام حسن بن مشاري مقيمًا في جلاجل مع جماعة من المسلمين، فلما حاصر أهل المجمعۃ أحزاب المبطلين، نهض هو ومن معه إلى المجمعۃ ليلاً، فكانوا لأهلها مددًا، ونالوا بهم نيلاً، وأقامت أولئك القبائل والأحزاب، في حصار للبلد وإضرار وخراب، وعمدوا إلى قطع النخيل والأشجار، رجاء أن يدين أهلها إلى السلم والنزولة والانحدار، إذا شاهدوا هذا الإضرار، ولا يكون لهم على ذلك صبر ولا قرار، فثبت الله تعالى المسلمين، وأوهن كيد المعتدين، وكان أعظم مَن امتحنَ في ذلك الأمر قبل وبعد، فبذل في ذلك غاية الصبر والجهد، وأوذي فيه وابتلّي، وصدر عنه في القيام ذلك الأمر الجلي، أحمّد التوبجري، رحمه الله تعالى.

ولما وصل عبد العزيز الخبر عن ذلك الحال، وما دبره أهل الباطل والضلال، وما اجتمعوا عليه من الردى، أمر بالتفير والمسير على ذوي الهدى، فخرجوا بعد الاستعداد والأهبة، ولم تكن لهم سوى الأحزاب مراد ولا طلبّة، وأمّر عليهم عبد الله بن محمد، فأسرع إلى ذلك الأمر وأنجد، فلما وصل الخبر إلى تلك الأحزاب، أن المسلمين في قدوم وإياب، وليس لهم غيركم طَلاب، عاجلوا بالارتحال وبادروا للمسير باستعجال، وشمروا في الرجعة والانقلاب، ولم يظفروا مما راموا بحسب مآب، فلما وصل عبد الله بن محمد ومن معه من المسلمين إلى حرمة، وكانوا إذ ذاك نائمين، فعبّا الجيش والكمين، فلم يسفر بضوئه الفجر، وتقصّى صلاته ذات القدر، حتى أخذ كل حزب مكانه، وثبت على القتال جَنّانه، فلما شعر أهل البلاد بما دهم ساحتهم من العباد، وما حاط بهم من الهلاك والهم والأنكاد، اندعرت قلوب ذوي الشر والفساد، وارتعش

منهم اللب والفؤاد، وتمنوا أنهم لم يكونوا لما قدموا فاعلين ﴿وَلَا يَرْؤُا بَأْسَهُ عَنِ
الْأَعْيُنِ الْمُجَرِّبِينَ﴾ فأحاطوا بهم من كل ناحية، وجزموا عند ذلك بنزول الداهية،
فأقام المسلمون لها محاصرين، ولفتحها آمليين، كل يوم ينهدون إلى القتال
والقتل، ويجذون في تقطيع الأشجار والنخل، فقطعوا نخل المويس جملة، ولم
يكن قُطع بغير أناة ولا مهلة، فأيس من الإعمار، مَنْ في البلد من الأشرار،
ونزل بهم الجهد والحصار، وأزعجهم ذلك التخريب والدمار.

وآخر يوم القتال هجم عليهم المسلمون فيها من بعض الأقطار، ووقع بينهم
الجلاد والجلد والاصطبار، وبدل المسلمون عند ذلك النفوس الغالية، وآثروا
الباقية على الفائية، وقُتل من الأشرار مَنْ مَنِيَتْهُ دانية، وهم عشرة رجال، كُلُّ بالغ
حده في الشر والضلال، منهم مدلج المعبي ومحمد بن إبراهيم، ثم رجع
المسلمون إلى بلادهم، وأبقى عبد الله بن محمد رجالاً من المسلمين وخيلاً في
المجموعة، حتى ينالوا أهلها بذلك عزاً وتحصناً ومنفعة، وليضيقوا على أهل
حرمة المعاش، فلا يكون لهم إليه سبب ولا انتعاش.

وفيها في رجب غزا عبد العزيز يريد السلمية، فلما قاربها شعر به مَنْ بها من
البرية، وانصرف راجعاً، بعدما كان بها طامعاً، ولم يصدر منه على أهلها منازلة
ولا غارة، لأمر اقتضاه رأيه واختاره، ونهض في ساعته في ذلك الطريق، لإرادة
الله له بالتوفيق، فجد السير والسير، يريد فرقاناً في أرض عَرُوى نجد^(١) من
مطير، فصبحتهم فرسان المسلمين والإسلام، واستقبلهم مقاتلة أولئك الأقوام،
وحمي بينهم الطعان، وثبت الله أهل الإيمان، فشدوا عليهم، وصمموا الحملة
إليهم، فولَّوْا هارين، وأخذوا تلك الأسلاف أجمعين^(٢)، وحازوا من الآبال

(١) جنوب الدوادمي.

(٢) الأسلاف: الجماعات.

فوق المراد والآمال، ثم رجعوا إلى بلادهم من غير إمهال، وقُتل من المسلمين ثلاثة رجال، منهم عدامة بن سويري.

وفيها غزا سعود، أسعده الله تعالى وأفاض عليه برة ووالى، فسار بالمسلمين يريد حرمة، ويرجو الله أن ينزل بهم البأس والنقمة، فجد السير إليها ليلاً ونهاراً، فلم يجد دونها قراراً، حتى أناخت تلك الجموع المؤيدة المنصورة، بساحة تلك الطوائف المكسورة، وأقام أياماً عليها، كل يوم ينهض للقتال إليها، ويقع بينهم جلاذ و قتال، وتقتل بينهم رجال، في كل جولة ومجال، فصابرهم على ذلك أياماً وليال، وهم في غاية من الذل والإذلال، واستولى المسلمون على النخل وحللها، فأيس أهل البلد من رجائها وأملها، وضيق عليهم بعد ذلك أهل الإسلام، واحتنك عليهم قضاء ذلك المقام، وحق بهم قضاء الملك العلام، وتحققوا أن البلد يدخل عليها من أقطارها، وقد ذل جميع حمايتها وأنصارها، فلم يجدوا منهجاً ينتهجونه، ولا عوناً يرتقبونه ويرتجونه، سوى النزول على الإسلام، وحقن دماء أولئك الأقوام، وإزالة ما يخشى على أهل الدين ويحذر، فدانوا بذلك وثبت الله الأمر وتقرر، فنزلوا وعاهدوا، واشتروا من سعود جميع ما في البيوت من الأموال والطعام وتعافدوا، فأمر بهدم جميع القصور، وإزالة ما فيها من الدور، وبجلاء آل مدلج كافة، فطاروا إلى البلد من المخافة، فأضحوا على ما أسلفوا من الأعمال وهم متندمين، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسْكَنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

ثم دخلت السنة الرابعة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، زاده الله تعالى نصراً وتمكين، فحث الأعوجية^(١)

(١) في (لسان العرب): «وأعوج: فرس سابق رُكب صغيراً فاعوجت قوائمه، والأعوجية منسوبة إليه».

والجباد، وقصده الزلني لأجل ما جرى منهم من الفساد، فشمّر إليهم المسير، وفاجأهم قبله النذير، فلم تصل إليهم تلك الجيوش والأجناد، إلا وهم في غاية من الأهبة والاستعداد، فشمروا الإزار والذبل، للخروج إلى لقاء غارة الخيل، فانتهزوا لذلك وانتدبوا، وأسرعوا إلى مطاعتها وطلبوا، فالتحمت الفرسان، واستمر بينهم الطعان، وقُتِلَ بينهم رجال في ذلك المعركة والمجال، ثم وقع منهم الانفصال، ورجع سعود ومن معه من المسلمين إلى بلدانهم أجمعين.

وفيها غزا المسلمون، وأميرهم عبد الله بن محمد، فسار بالمسلمين إلى الزلني وقصده، فأعجل الركائب في نيل ما هو طالب، فلم يصل لذلك المحل، حتى سبقه النذير على عجل، فكانوا متأهبين للقدوم، وكل يوم ينتظرون الهجوم، فلما أغار على تلك البلاد، لم يحصل له منها مراد، فانصرف عبد الله راجعاً، فلما وصل إلى رغبة رجع مع أهل العارض، ورجع أهل سدير وأهل الوشم يريدون بلدانهم، وإذا سعدون بن عريعر مع جموع بني خالد لهم مؤاف مُعارض، فأطبقت عليهم تلك الجيوش والجموع، ولم يكن أحد منهم مسلّم ممنوع، فحالوا على جميع ذلك الجيش، وسلم الله تعالى من له بقية من العيش، ونارت^(١) خيول المسلمين، وولي الباقي فرسان المبطلين، وقُتِلَ من المسلمين نحو من الثلاثين، منهم حسين بن سعيد أمير العودة وعبد الله بن سدحان من كبار أهل شقرا.

وفي ذلك اليوم أغارت خيل لبني خالد على فريق من المسلمين سبعان، فإذا عندهم ناس من أهل ضرما منصرفون من غزو عبد الله ركائب وفرسان، فحين

(١) نارت: هربت.

غارت خيول بني خالد، خرج إليهم كل شهم شجاع مجالد، فجالدوهم ساعة وزمانًا، وأسّر المسلمون منهم فرسانًا، منهم سعدون بن خالد، وفدى نفسه بثلاثة آلاف زر^(١) أضحي لغالبها ناقد.

وفيها سار سعود بالمسلمين يريد الحوطة، فجَدَّ السير إلى تلك البلاد، وأعمل في ذلك غاية الاجتهاد، فأناخ وسط الليل حولها، ولم يشعروا بذلك أهلها، فرتب أصحاب الكمين، وأهل الجيش أجمعين، فلم يضيئ الفجر إسفار، ويخرج أهل الحاجة للانتشار، إلا والغارة غادية، وغرر الجياد عليهم بادية، والأصوات عالية بعدما كانت هادئة، فأسرعوا الخروج أولئك الأقوام، وكان لهم إلى اللقاء إقدام، فطال بينهم المجادلة والالحام، وكل ارتدى برداء الصبر والاعتزام، وقُتِل من أهل البلد في ذلك المجال خمسة عشر من الرجال، وقُتِل من المسلمين بطي المطيري، ورجع المسلمون إلى بلادهم.

ثم دخلت السنة الخامسة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها سار المسلمون وأميرهم سعود، بلغه الله تعالى المنى والمقصود، فحث على السير جياده وركابه، وكانت الدلم مراده وطلابه، فتوغل في تلك الأراضي، وقد هدأت بلدة الإغماض، فعند ذلك قام في أداء أكيد الافتراض، من التهيئة والتعبئة عند إرادة الانتهاض، فلم يكن له عن ذلك صدود ولا إغراض، ولا انحراف ولا ميل إلى الراحة، حتى أشعل الفجر مصباحه، وركض الصبح على الدجى، وبدره بعموده وفجا، فعند ذلك أذن للمكتوبة، وسأل الله تعالى فيها أن ينيله مطلوبه، فلما فرغ من صلاته، نهض إلى تعبته، وأخذ الكمين مكانه، وحرص على الصبر جماعته وإخوانه، فلما أخذت الشمس في

الإسفار، كان له إلى الغارة البدار، وقبض جميع من في الدلم من المقاتلة، ورموا الجلاذ والمقابلة، فأورت فيهم أهل التوحيد والإيمان شعل النيران، وأرووا من نحورهم أسنان الثمران^(١)، فطاشت لذلك قلوبهم وزاغت أبصارهم، ورعبت كماتهم وأنصارهم، فولّوا عند ذلك الأدبار، ولم يكن لهم على ذلك الهول اضطبار، وانهمزوا على أعقابهم مدبرين، وبرحوا في بلدهم متحصنين. وأقام المسلمون أيامًا في قتالهم، وحصارهم مجتهدين في حربهم ودمارهم، كل يوم يصباحون قطع نخيلهم وأشجارهم، فقطعوا خضر بن عشان في ذلك الزمان، فعرتهم الذلة والهوان، وعلتهم هموم وأحزان، وقُتل منهم في ذلك الوقت والأمد، رجال من غير حصر عدد.

ثم إن سعودًا، حرسه الله تعالى، نوى بناء قصر في ذلك المكان، ويجعل فيه من أهل الدين والإيمان، من يضيق على أهل تلك الأوطان، وصمم على ذلك الرأي والبناء، فبال بذلك الرفعة والثناء، وقد كان بذلك الرأي والده مشير، وهو مبارك المشورة مسدد التدبير، فرفع قواعد بدع الحق الشامخ العال، فكان ولله الحمد سببًا لهدم بدع الغي والزيف والضلال، فلما فرغ من بنائه وإتمامه، وقضى من تشييده وإحكامه، وضع فيه من الإبطال عذّة، وجعل فيه خيلًا ومن آلة الحرب عذّة، وكان جميع من فيه ذوي بأس في اللقاء وشدة، وصبر عند الأقدام ونجدة، وأمر عليهم محمد بن غشيان، وكان ذا شجاعة وحده، ثم انصرف سعود راجعًا، وفي بلده راغبًا طامعًا.

وفيهما غارت من المسلمين خيل من قصر البدع، فتوافقت مع خيل لأهل اليمامة، فجالوا معهم ساعة، فقتل المسلمون فرحان بن راشد البجادي وجرعوه جماعه.

(١) أي: الرماح.

وفيها ارتد جديع بن هذال^(١)، بعدما ادعى الإسلام وعاهد وكان عليه من إقبال، فولى هارباً، وفي الضلال راغباً، ولنهجه طالباً، فأراد الله أن يوافقه مطير في ذلك السير، فتأوخه أولئك العربان، وقُتل جديع وأخوه وثلاثة معهما فباءوا بالخسران.

وفيها حَزَب أهل البغي والعدوان، وذوي التعدي والطغيان، على قصر البدع الذي فيه ابن غشيان، وذلك أن هذا القصر لما أُسِّس وبُنِيَ، واهتم بأمره واعتُني، واختير من الرجال حماته وفرسانه، والمرابطون فيه وسكانه، فكانوا أولي بأس شديد وإقدام، ليس في اللقاء عليه مزيد ومصابرة في الطعان والإقدام، وعدم الخوف من الحمام، ولم يتبين من أحد منهم في اللقاء إحجام، وكانوا في غالب الليالي والأيام، يُعَدُّون على أهل الخرج وينالون منهم المرام، ويتعدون لهم المراصد، ويأخذون كل قادم وقاصد، من الأقارب فضلاً عن الأبعاد، ويقتلون كل صادر ووارد، واستمر عليهم ذلك الحال، وتجرعوا منهم غصص الوبال، وأقاموا في أكسف بال، لا يطعمون لذة المنام في دياجى الظلام، قد حاربوا الرقاد وصالحوا السهاد، والحرب توقد عليهم غاية الانتقاد، فلما ستمت منهم الأجسام، وضاق عليهم في بلادهم المقام، وحالت وجوههم ذلك الزمان، وتغيرت منهم الألوان، وضوت منهم الأبدان، وعميت عليهم مناهج الحيل، وسددت عليهم مناهج جميع السبل، ولم يلقوا في إزالة ذلك القصر سبب، واستعانوا في ذلك أفكار العجم والعرب، حتى جاءهم شخص من تلك النواحي ممن تسمى بالمعرفة وانتسب، فشكوا له حالهم ومصابهم وما نزل بساحتهم وأصابهم، فقال: تكلكم الأمهات، وعدمتم الترفهات، معشر

(١) قال ابن بشر (١ / ٧٤): «رئيس آل حبلان من عترة».

الحق والسفاحات، وأرباب الجهل والترهات، لم تلدكم النساء للحروب، ومكافحات الخطوب، وإنسا ولدتم للغى والهوى والمبطله، فلستم مساعير الحرب ولا رجاله، أعزّتكم من هذا القصر أحزان، حتى ذهب منكم اللب والجنان، أغشيتكم منه الذلة والهوان، وتشبهتم بالغواني ذوات الأخدان، وتلفعتم بمروط النسوان؟ فقالوا: سبحان الله، يا أبا العريان، كيف ينطق بالتأنيب منك لسان، وتسرع إلينا بهذا الإغلاظ والهذيان، ونحن الكُماة الشجعان، ولكن قد التقت حلقتنا البطان^(١)، واحتنكت علينا الأوطان، فعسى أن يكون للراحة منك يدان! فقال:

بشراكم بالفرج فما بكم من حرج سوف أريكم فكرة ليس بها من عوج
تبصرة وهمة تلقى العدا في رهج إذا راوها ذهبت قلوب تلك الهمج
أبدى من العز لكم فخراً رفيع الدرج ففكرني منقاد وقادة كالسرج
فقد تولى عنكم غيب خطب مزعج وجاءكم مرادكم فاصبحوا في بهج
فقالوا: دعنا وهذه الغممة، وتركنا وهذه الجمجمة، فبين لنا بالإفصاح، حتى نفوز بالأرباح. فقال: اتوني بأقوى الأخشاب، حتى أصنع لكم ما بقي من الرصاص من الأبواب، وأجعلها مثل الصندوق، وأعلاه مطبق، والرجال فيه مداريع، وبأيديهم المفاتيح والمصاريع، ويحمل ذلك الصندوق على عجل، وأهله فيه قعود على مهل، ويدفعونه أولئك القعود، فيسير بالدراريج غير مردود، فإذا وصل إلى السور يفتح، ويحصل المراد وينجح، فيهدم السور وينقض، ويوهي أساسه وينقض، وترمى أحجاره، وتقتل بعد ذلك أنصاره، وتدخل فيه الأجناد، ولا يبقى فيه أحد من أولئك العباد.

(١) البطان: الجزام الذي يُجعل تحت بطن البعير، وفيه حلقتان، فإذا التقتا فقد بلغ الشد غايته. يُضرب مثلاً للأمر الذي بلغ غايته. (مجمع الأمثال).

فلما أخبرهم بتلك الحيلة وفاء، أقبل منهم كل يقبل فاه ﴿قَالَ إِنَّكَ أَيُّومَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، فاحكم بما تريد من أموالنا وتستكين. فقال: ذلك بعدما يتم المراد، ويحصل لكم الإسعاد، فعملوا لي بالأخشاب والأعواد. فأسرعوا في الاستعداد، وآتوه بما طلب وأراد، وشرعت الصناعات تصنع في الحديد، وأقاموا على ذلك أياماً بلا تعديد، وهم في تعب شديد، حتى فرغ من أمره ذلك الشيطان، وأبرز كيده من غير توان، وقعد فيه أناس متدرون عتاة مرده، وأخذوا يدفعونه ويعطي مِقْوَدَه، وهَيَّوْهُ إِلَى السُّور ومرصده، فلما توسط في الطريق عند القصر ومشهده، أبى إلا الوقوف، وكأنه عن المسير مصروف، فجعل الله لكثير من فيه الحتوف، وحاولوا في ذلك أعظم حيلة، فلم يكن إلى ما راموه وسيلة، وقالوا: قد زال الفرخ وجاء الترح، إن بقي هذا العجل في هذا المكان والمحل، هبط من في القصر ونزل، فقادوه علينا، وأوصلوه إلينا، فكنا كمن ألقى نفسه في الهلاك، ووضع لإتلافها حبال وأشراك.

وكان القوم الذين فيه لا يقدر على رده، ومن جاء من الأحزاب قُتِلَ قبل أن يصل إلى حده، فحاروا وخاروا وخسروا وباروا، يوم تعدوا وجاروا، وبقوا ساعة وزماناً، يعانون هما وأحزاناً، وقد تسربلوا بلباس الإحجام، وأبت أن تسير إلى رده الأقدام، حتى جرى بينهم عتاب وملام، وتنادب وبكاء بدموع سجام، فانتدب له رجال، وناداه بعض منهم وقادوه قريب الحال، ثم بعد ذلك شبوا عليه النار، وقالوا: لا تستطيع تشاهده منا الأبصار. فلما غربت الشمس ذلك اليوم وأقبل الإظلام، اجتمع أهل الحريق والحوطة وأهل الخرج بالتمام، وساروا يريدون الهجوم على القصر والصعود، وقد تعاقدوا على ذلك بالآيمان والعقود، فوصلوا إليه بالمحامل، والكل للصعود آمل، فشرعوا في الرقي والصعود، وقتل منهم جمع غير محصور ولا معدود، وبذلوا جد الاجتهاد فلم

يشتفوا بمراد، ورجعوا وقد قُتِلَ منهم خمسة وعشرون، وباؤوا بالخزي والهون. ثم لما أعياهم ذلك القصر وعناهم، ونكد عليهم معاشهم وديناهم، وحراروا في أفصاهم وأذناهم، ولم يحصل لهم فيه مناهم، حذر^(١) منهم جماعة من آل زامل وآل بجاد، إلى سعدون بن عريعر في تلك البلاد، وطلبوا منه المساعدة والإسعاد، فأجابهم إلى ذلك المراد، فتواعدوا على الخروج معه، فخرج بعد ذلك هو والبدوان ممن تبعه، ونزل على البدع مع تلك العربان، ثم بعد ذلك أقبل جميع أهل البلدان، وهم أهل الحريق واليمامة والحوطة وأهل الخرج، فاجتمعوا على سعدون، وهم لهدم ذلك القصر دائمون، ومع سعدون المدافع، فاشتعلت بينهم نار الحرب والكل دون عمره يدافع، وبقوا يرمون بالمدافع السور، فلم يقع فيه من الرمي محذور، وكان عن الهدم مَوْقَى محذور، حتى تبين لهم البأس، وعرفوا أن الله تعالى قد نصر أولئك الناس، وأنهم عن الوصول إليهم لا يقدرون، فعند ذلك عزم على الرحيل سعدون، وقالوا: هذا لا يكون، فبعدك يقع علينا عذاب الهون. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، اختاروا منهجاً فيه تسلكون، فليست بعد ذلك تلامون. فظعن وارتحل، وكلُّ قصد ما له من محل، وتفرقت ولله الحمد تلك الدول، وبقي سعدون بمدافعه مهتماً، وعلى إتيانه بها نادماً مغتماً، لا يدري كيف يفعل ويصنع، وهو إلى الهروب قد أسرع، وعلى الانهزام قد عزم وأزمع، فهو يجتد فيه ويربع، فاقضى رأيه الشنيع، أن يتركها في اليمامة على سبيل التوديع، فسار وتركها في اليمامة، فأخذها أهل الإسلام حين كان للدين بها إقامة.

وفيها غزا عبد الله بن محمد بالمسلمين، فسار يريد اليمامة، وأرسل عيونه

(١) أي: ذهب.

أمامه، وطلّاعه قدامه، حتى أناخ عند البلد وسط الليل، وكان له على تعبئة جيشه مِيل، فرتب الكمين، فلما أخذ الضوء ينير ويستبين، أغار الجيش على البلاد، فخرج أهل الجلال، وتطاعنوا قليلاً، وصبر أهل الدين صبراً جميلاً، حتى ظهر كمين الموحدين، فأسرع أهل الباطل مُؤَلِّين، وعلى أعقابهم منهزمين، وقُتِل من أهل البلد دون العشرين، منهم أحمد بن رشيد وعبد الله البجادي، ثم بعد ذلك انص-رف عبد الله بن محمد ومن معه من المسلمين، فأغاروا على الحريق، فألفاهم بحشون مجتمعين، وكان لهم جماعة معهم مجتنبين، فناوشوا القتال ثم انهزموا بانجفال، وقُتِل منهم عشرون من الرجال، ورجع أهل الإسلام بأحسن حال.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، زاده الله تعالى عزّاً وتمكين، يريد أسلاًفاً مجتمعة من قبائل العربان، من آل ظفير وعنزّة مقيمين على ماء مبايض^(١) في ذلك الزمان، فانقضى^(٢) سنان الهمة والعزم، وجرد صارم الجد والحزم، إلى ذلك الأمر والشأن، حتى وصل إليهم بعد آن، فشنت عليهم الغارة الفرسان، وكانوا على أهبة واستعداد للقاء الشجعان، فجال معهم المسلمون، وهم على العزم والصبر ثابتون، ولأنفسهم على الموت مُؤَطَّنون، فلم يدرك منهم أهل الدين وأهل الإسلام، في ذلك اليوم غاية ولا مرام، وانصرفوا عنهم بسلام، وكان هذا أمر من النملك العلام، ليرى خواص الأنام، ما خفي في الغيب من الأسرار والحكم والأحكام، فارتحل سعود عنهم ونزل بأرض تميم^(٣)، ثم أرسل إلى مدد من أهل سدير، فأقبلوا سراعاً إليه، وقدموا فوراً عليه، فظعن بعد

(١) في سدير.

(٢) أي: سلّ.

(٣) مدينة تقع في منطقة سدير، على بعد ١٤٠ كم شمال غرب مدينة الرياض.

ذلك وارتحل، وجدّ يريد تلك العربان الأول، فأسرع النزول مع أولئك الدول، فلم يعد إليهم بعد ذلك اليوم، إلا وقد جاء الإمداد من العربان أولئك القوم، فحين رأوا أهل الإسلام قادمين، فرحوا بذلك لأنهم كانوا على انصرافهم نادمين، فأبدوا بالمسلمين الاستهزاء والاستخفاف، ولم يدخل قلوبهم منهم مخافة ولا إرجاف، بل جزموا أنهم لهم غنيمة، وأنهم مهما شدوا عليهم شتموا للهزيمة، فكان البلاء موكلًا بالمنطق، فصير الله عليهم ذلك وحقق، فحين حمل عليهم المسلمون، طاعنهم ساعة ثم جدوا في الفرار لا يلوون، فتولى المسلمون أكتافهم، حين حقق الله تعالى انكشافهم، وقد قُتل منهم في ذلك الحال فوق المائة من الرجال، وغنم المسلمون ما معهم من أمتعة وأثاث وأموال، وجميع السلاح والأغنام والآبال، وكان دهام أبا ذراع^(١) ممن كان لروحه في ذلك الحين انتزاع.

ثم دخلت السنة السادسة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها سار عبد العزيز، حرسه الله تعالى، من كل مكروه وبلغه ما يرجوه، بالمسلمين يريد الحوطة، فحث السير إليهم حتى قدم إليهم، وكان وقت القدوم والإقدام، حين عسّس الظلام، واستقام غيبب الإظلام، فلما أناخ وأقام، لم يسرع إلى لذة الراحة والمنام، بل أخذ في التدبير والاستعداد لمقاتلة أهل تلك البلاد، فلما قضى من ذلك المراد والغرض، وأدى من الدعاء ما أوجبه الله وافترض، بادر إلى القتال وانتفض، فأغارَت الفرسان على طارفة البلد، فلما عاينوا ذلك لم يتخلف عن الخروج منهم أحد، فالتقوا أهل الدين، وكانوا من الصبر على يقين، إلا أن الله تعالى ليس لأمره رادّ، ولا يقاومه سبحانه أحد من

(١) شيخ الصمدة من الظفير.

العباد، فحين صمم المسلمون عليهم بادوا، وقصدوا البلد وناروا^(١)، وقتل منهم في ذلك الوقت والمجال، خمسة عشر من الرجال، وأقاموا في بلادهم في جهد وضيق، لا يتيسر لهم إلى الخروج طريق، والمسلمون في تلك المدة، قد بذل كل منهم في التخريب وقطع النخل جهده، فقطع جميع نخل الرحيل، ثم كان للمسلمين إلى نَعْجان ميل، فساروا إليها وأقاموا حواليتها، وقطعوا شيئاً من النخل ثم انصرفوا إلى أهلهم راجعين.

وفيها جرى ذلك الأمر العظيم والخطب المدلهم الجسيم، وهو ارتداد أهل القصيم، فقدّر المولى الرحيم أن يرتعوا في ذلك المرتع الوبيء الوخيم، وذلك أن كافة أهل القصيم، إلا بريدة والرس والتنومة^(٢)، لما أراد الله تعالى عليهم المسكنة والذلة، وقضى عليهم في سابق الأزل بالهوان والمذلة، وأن يلبسوا ثياب الخزي والعار، ويتدفعوا بمدارع أهل النار، ويتحلوا بحلية الأشقياء الفجار، ويسلكوا مسالك الأشرار ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَالِ تِلْكَ﴾ من شر من أراد بهم الفجور والإضرار، ونوى بهم قاصمة الظهر وأصروا على ذلك غاية الإصرار، فرجع آيئاً بالخيبة والأوزار - اجتمعوا على الغدر بأهل الدين، وقتل من عندهم من أهل التوحيد وخصوصاً المعلمين، فحضر كافة رؤسائهم وكبرائهم وقدمائهم، في ذلك الوقت والزمان، يوم الجمعة في خفي مكان، فتفاوضوا الأمر وأبرموه، وشدوا عقده وأحكموه، وتعاطوا بينهم الأيمان والعهود، وحققوا الوفاء بالعقد، على قتل أهل كل بلد من عندهم من المسلمين موجود، في يوم معين عندهم معدود، وزمن مؤجل معروف وقته مشهود، فحين

(١) ناروا: هربوا.

(٢) من مدن محافظة الأسياح بالقصيم.

ثم ذلك الأمر وانقضى، انصرف كل إلى بلده ومضى، ولم يكن عند المسلمين من ذلك خبر، إلا أنهم على ما يصدر عليهم في حالة يقين ورضا، فأرسل أهل تلك الأوطان إلى سعدون بن عريعر، يخبرونه بذلك الحال والشأن، حتى يقدم ومن معه من البدوان، فكان قدوم ذلك الرسول عنده هو المنى والسؤل، فبادره بإعطاء البشارة بعدما أعلمه بالمأمول، وأنه سريع الحصول، فبادر إلى الأمر في الحال، وأذن في جميع البوادي بالارتحال، فأقبل بنو خالد كافة وعززة وجدوا في السير والإقبال، تعجباً لذلك المرام الذي لم يخطر له على بال، وقد داخله من السرور والاستئناس، ما لا يُعرف حدّه ولا يقاس، وقال: الآن حان للزمان أن يفي، فنتهز الفرصة ونشتفي، وقد قرب أن يطلع لي بأفق نجد، نجم العز والفخر والمجد، وينتشر صوت صيتي في الأقطار، فأكون حامل راية الشرف والافتخار، فتتحطّ لهييتي رقاب الملوك، فلا يروم أحد لمتنجي سلوك، ولم يختلج في لبه أن شمس عزه قد أذنت للغروب بدلوك، وأن جيشه مقدر عليه أنه موتور به مقتوك، وأنه يرجع من حيث جاء معثورًا مقروحًا منهوك، فسار بمن معه من الحماة والكمأة والأنصار، يريد أهل تلك الديار، حتى ينجز منهم ما دبر وصار، ولسان الحال يتلو عليه ولكن لا تأمل ولا اعتبار ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وحين قارب أن يلقي عصا السير والترحال، ويحط عن الظهر الأثقال، في أرض تلك البلدان، أسرع أهل الشر والعدوان، وشرعوا الأسنة على أهل الإيمان، فقتل أهل الخبراء^(١) إمامهم في الصلاة منصور أبا الخيل يوم الجمعة، وهو للصلاة مريد، فقطعوا منه الوريد، وقتل ثنيان

(١) من مدن القصيم.

أبا الخيل، وقتل آل جناح رجلاً من أهل الدين مكفوف البصر، وصلبوه بعصبة رجله، وفيه رمق من الحياة، وقتل آل شماس أميرهم علي بن حوشان، وفعل بقية أهل البلدان مثل ذلك الفعل والشأن.

ومن لطف الله تعالى بأهل بريدة، وسلامتهم من الشيطان وكيدته، وتوفيق الله لهم وكرامته، وحفظه لهم وعنايته، أن سليمان الحجيلاني وابن حصين وغيرهم عزموا على الردة، وثبت ذلك عند حجيلان، فلما أقبلت تلك العربان بادر حجيلان إلى قتلهم، فقتلوا ولم يدركوا ما أملوا، ثم أرسل إليه أهل عنيزة على سبيل السلام والإكرام، وإظهار المبادرة في الامتثال والاعتزام، من عندهم من معلمة الأحكام، ومفهمة التوحيد الذي خلقت لأجله الأنام، وهما عبد الله القاضي وناصر الشبلي، وقالوا: هؤلاء إليك قربة، ومن تقرب إلى الله تعالى بهم كفر ذنبه، وهم منا إليك هدية، وليس في قتلهم علينا ولا عليك عار ولا إزر ولا خطية، ولا مسبة عند الناس ولا رزية. فجرد عليهم صارمه وبأسه، وأسقى كلًا من صرّف الحماهم كأسه، فلبس من الخزي لباسه، فقتلهم حين جاؤوه صبرًا، فنال من مولاه حربًا وإزرًا، وحقق الله تعالى لأهل الدين شهادة وأجرًا.

فلما استقر في تلك الفجاج الفسيحة الوسيعة، مع تلك الجيوش والأسلاف^(١) الهائلة المنيعه، لبس أهل الشر والفساد، وأهل الشقاق والنفاق والعناد، من أهل تلك الأوطان والبلاد، ملابس السرور والفرح، وزال عنهم ما كان في قلوبهم من الهم والأسى والترح، وجاءت منهم جموع وأجناد، وأنصار وأمداد، كيف لا وهم الذين فدحوا في ذلك الزناد، وأورؤوا جمرة الفتنة أعظم

(١) الأسلاف: الجماعات.

الإبراء والإيقاد، وأرووا شبا المواضي^(١) من ثغور أولئك العباد، ﴿لَا يَغْرَتُكَ
ثَقْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلَدِ﴾ مَنَعَ قَلِيلٌ لَّمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ إِلَهُادَهُمْ.

ولما نزل بذلك المحلّ، عجل الله لأناس من جماعته الأجل، فبادروا إلى
بريدة في الإسراع، وراموا ههنا حصول الأطماع، فلم يؤب إليه منهم إلا
الأقماع، فداخله الرعب والارتياح، حين أرسل إلى بريدة يريد الخيانة، فأرسلوا
إليه تلك الرؤوس، وقالوا هذه ضيافته وحشيمة الإقامة والجلوس، فتبسط غيضا
وغضبا، وآلى إن ظفر بأهلها أن يقطعهم إربا إربا، ويوقع فيهم من الفتك والهتك
أمرا عجباً، وشمر إلى أهلها في المنازلة، وكانت منه إليها معاجلة، ولم يحسب
أنها تبقى إلى أمد بعيد، فضلاً عن كونه يرجع عنها ولا يفيد، بل جزم أنها
مفتوحة عن قريب، وأن سعيه لا يضيع ولا يخيب، فأب أول يوم المنازلة بالخيبة
والحرمان، والقتل والذل والهوان، وقُتل جماعة من قومه، في ساعته تلك لا
يومه، ثم عاد الحملة يوماً آخر على السور، فرجع منقوصاً موتور، وقُتل من
أولئك الحمر السود، كل من رام الهدم للسور أو الصعود، وبقيت قتلاهم لا
تنتقل، ولا ترفع للدفن ولا تُحمل، بل بقي غالبهم ملقى مهمل، غير أنهم صاروا
للعدايات مائدة، فهي إليهم تلك الأيام كل حين قاصدة، وصادرة وعائدة، فبقي
أياماً حائراً متندماً، ثم أجمع رأيه وعزمه محققاً مصمماً، أنه يسوق عليهم جميع
الآلات والخلق مزدحمًا، ويلجئها بعد هدم بروجها وأسوارها مقتحمًا، وأنه
يعاقب من الجيوش من لم يره متقدماً، فنهض إلى إنجاز ذلك العزم، وإنفاذ تلك
الهمة والحزم، وبادره على تودة من الصباح، متميماً بالكور في النجاح،

(١) الشبا: جمع شبة، والمراد بها شبة السيف، وهو حده القاطع. والمواضي: السيوف
القاطعة؛ سميت بذلك لكونها تمضي في جسم الإنسان إذا ضرب بها.

وحصول الأرباح، كما يروى في الأحاديث غير الصحاح: «بورك لأمتي في بكورها»^(١) وليس على راويه من جناح.

فأقبل بكيد عظيم مهول، يحق للألباب عند رؤيته الإزالة والذهول، فصبر أهل الدين وصابروا، وجَدَّ أهل الباطل وكابروا، وراموا اقتحام البروج والصور، وهدم تلك الحصون والقصور، والهجوم على أهل تلك الدور، فثبت الله لأهل الحق القلوب، ولم يكن أحد منهم بمذعور ولا مرهوب، فرجع ولله الحمد مذعورًا مرعوب، مهزومًا مغلوب، وما أغنى عنه ذلك الكيد شيئًا، وكانت له الذلة والمقتلة فيئًا، ثم بعدما صدر منه ما صدر، وجرى منه ما تبين وظهر، عض من الغيظ الأنملة، حيث لم يرجع بما كان أَثْلَه، وبقي على أفعاله السالفة، وقضاياه التي هي للشرع مخالفة، متحسرًا متأسفًا، متندمًا متحيرًا متحسفًا، فتفاوض مع أولئك الرؤساء، الذين هم لا يزالون عنده جلساء، في ما يدفع عنه الهم والحزن والأسى، واتفق الرأي الشديد الجامع، والأمر الذي هو للمراد قاطع، وللعُدو مذلة قانع، وللمقاتلة مزعج رادع، أنك نصبت لأجل هدم السور مدافع، ويأتي لها بحكم ومدافع، فلا يبقى لأهل البلد عن ذلك دافع، ويصير لك معاند ومشاقق متابع، ولحكمتك متقادًا طائع، فأجابهم أن هذا هو الرأي الشديد، وسينجز هذا قريبًا غير بعيد، فشرع في أسباب ما كان لهم به مجيب، وإنجاز ذلك الأمر الذي هو في زعمهم صائب مصيب، وجمع له أهل تلك الأوطان من جميع البلدان، من أنواع الصفر جملة، وأنجزوا له في قريب مدة ومهلة، فلم تمض من الأيام مدة، حتى اتفق عنده من ذلك عدة، وشرع في

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٥٤) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٢٨٤١) وأخرجه أبو داود (٢٦٠٨) والترمذي (١٢١٢) وابن ماجه (٢٢٣٦) بلفظ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمِّي فِي بُكُورِهَا» وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ١٣٠٠).

صَبَّهَا الصَّانِعَ ، فَكَانَ فِي إِحْكَامِ هَيْئَتِهَا طَامِعٌ ، وَأَقَامَ يَعَاجِجَهَا فِي إِحْكَامِهَا أَبَامًا ، فَلَمْ يَنْلِ مِنْ ذَلِكَ مَرَامًا ، بَلْ حَازَ ذِلَّةً وَخِيبَةً وَأَثَامًا ، وَأَطَالَ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ مَكْنًا وَمَقَامًا ، وَكَلِمَا صَبَّهَا أَبَتْ ، وَكَلِمَا أَفْرَغَهَا فِي الْقَالِبِ خَبَتْ ، فَلَمْ يَتِمَّ لَهَا حَالٌ وَلَا اسْتِقَامَةٌ ، وَلَمْ يَدْرِكْ مِنْهَا مَقْصُودُهُ وَلَا مَرَامُهُ ، وَعَرَفَ فِي بَاطِنِهِ أَنَّ لِهَذِهِ شَأْنَ ، وَإِنْ لَمْ يَفِي بِذَلِكَ لِسَانٌ ، وَكُلَّ يَوْمٍ أَوْ غَالِبَ الْأَيَّامِ ، يَجْرِي قِتَالٌ وَجَلَادٌ مَعَ أَوْلَئِكَ الْأَقْوَامِ .

وَأَهْلَ الدِّينِ وَالْهَدَى ، لَمْ يَبَالُوا بِمَقَامِ أَهْلِ الرَّدَى ، بَلْ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْحَزَمِ فِي مَزِيدٍ ، وَمِنَ الْبَأْسِ وَالنَّصْرَةِ فِي تَجْدِيدٍ ، وَمِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِعَانَةٍ وَتَأْيِيدٍ ، فَكَانَ حَالُهُمْ عِبْرَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبِيدِ ، وَآيَةٌ يَسْتَفِيدُهَا قَلْبُ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

وَفِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْإِقَامَةِ ، بَنِيَ قَصْرًا وَأَنْجَزَ إِتْمَامَهُ ، وَجَعَلَ فِيهِ عِدَّةً مِنَ الرِّجَالِ ، وَذَوِي الْبَأْسِ فِي الْمَجَالِ ، وَكَانَ مَوْضِعُ ذَلِكَ لَيْسَ إِلَى الْحِلَّةِ إِلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ ، فَانْتَدَبَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِ لَيْلًا ، فَنَالُوا مِنْ مَرَادِهِمْ نَيْلًا ، وَقَدْ أَعْلَمَهُمْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ ، أَنَّهُمْ يَرِيدُونَهُمْ جَنَحَ الظَّلَامِ ، فَعَجَلُوا لَهُمُ بِالْإِعْلَامِ ، وَبَادَرُوهُمْ فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ ، فَهَلُمُّ وَأُزِيلُ ، وَبَقِيَ كُلُّ مَنْ فِيهِ مَجْنَدٌ لَا قَتِيلَ ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ سِوَى وَاحِدٍ ، وَكَانَ بِالْخَبَرِ عَنْ قَوْمِهِ وَارِدَ .

وَفِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْمُدَّةِ ، أَغَارَ سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرُ الرِّسِّ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى سَارِحَةِ أَوْلَئِكَ الْأَعْرَابِ ، فَأَخَذُوا غَنَمَ سَعْدُونَ ، وَكَانُوا نَحْوَ أَرْبَعِمِائَةٍ فِي الْحِسَابِ ، تَسْمَى تِلْكَ الْغَنَمُ الدَّغِيمَوَاتُ ، كَثِيرٌ مِنْ غَنَمِ تِلْكَ الْبَرِيَّاتِ .

وَفِي أَثْنَائِهَا أَيْضًا عَدَا أَهْلَ بَرِيدَةِ عَلَى بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ ، جَعَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَشِيدٍ لِلْحَرْبِ مِنَ التَّيِّهِ وَالْبَطْرِ ، وَكَانَ فَوْقَ النَّهْرِ^(١) مَشْهُورًا ، وَفِيهِ آلَاتٌ لِلْحَرْبِ

(١) بئر ويستان نخل جنوب بريدة .

وزهبة^(١) فأضحى لديهم مجرورًا، وقتلوا فيه أربعة رجال، ورجعوا في ضحوتهم في أحسن حال، فلما مضت من الشهور مدة، نحو خمسة في العدة، وتحقق له من مراده الحرمان والخيبة، وأراد لأهله الانصراف والأوبة، عزم على اقتحام البلاد، والدخول على أولئك العباد، وقد صنع متريسا^(٢) من الخشب، يسمى عَجَلًا عند أولئك العرب^(٣)، يرد الرصاص عمن فيه، فلا يضره ولا يؤذيه، فلما ساقوه إلى مرقب البلد، وكان في ذلك المرقب عشرة من العدد، تكلموا مع أهل المرقب، وذلك أن عثمان آل أحمد استفتح وهو مع ساقفة العجل، وجدَّ في الدعاء واجتهد، ورفع صوته وقال يفصيح اللسان والمقال: اللهم انصر من هو مِنَّا على الحق. فأمن على دعائه أولئك الخلق، وصار أهل المرقب عند سماعه من المؤمنين، فكانوا هم أهل الحق، فلذا صاروا من سطوتهم مُؤمِّنين، وحاولوا فيهم نكاية، فلم يحصلوا على غاية، واجتهدوا أن يدركوا إليهم وصولًا، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وردَّ كُلُّ منهم خاسرًا خائبًا ذليلاً، وتُرك أكثرهم ذليلاً. ثم بعد ذلك حمل على البلد حملة هائلة، وأصبحت تلك الأمم عليها صائلة، وعلى جميع أركانها جائلة، وإلى تسور الأسوار مائلة، يساقون بالسيف من أعقابهم، في مسيرتهم وذهابهم، فازدحموا عند السور والبروج، فلم يفوزوا منها بصعود ولا عروج، بل قطعت عندها الحناجر، وأعان الله تعالى من بها من محاصر، وكان له عونًا وناصر، فطار عند ذلك الاقتحام، وهول ذلك الازدحام، كثير من الروس والهام، من تلك الأقوام، وانقلبوا بخيبة المقصود

(١) الفشك والرصاص.

(٢) المتريس: ما يتترس به الرجال المحاربون في الحرب، فيكونون خلفه ليقبهم رصاص البنادق أو الرماح. وهو الترس.

(٣) العجل هنا: صندوق من الخشب، يسير على عجلات.

والمرام، من ذلك البأس والإقدام، فلم تسر إليها بعد ذلك أقدام، ورجع أهل الحق بالفوز والأجر الجسيم، والعناية والقبول من الله الكريم، كما قال سبحانه في الذكر الحكيم: ﴿فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾، وارتحلت قبائل أولئك الأحزاب والعربان، عن ذلك الموضوع والمكان، بأمر عظيم من الخزي والهوان.

ولما سارت تلك العشائر، خرج حجيلان ومن معه مسارعاً مبادر، ففاجأ بريدة آل شماس، وقتل من وجد بها من أولئك الناس، فأوقع بها النقمة والبأس، وخرج غالب أهلها نافرين، مع تلك الجيوش السائرين، وعرفوا أنها ليست لهم بدار مقام، فهربوا مع أولئك الأقوام، وشدوا في الانهزام.

ثم بعد صدور تلك القضية، وانصراف العساكر بالرزية، ضاق وسيع الفعجاج، على من ساعد ذلك المنهاج، وانزعجت قلوبهم أشد الانزعاج، فلم يجدوا عن الدخول في حوزة الإسلام بُدّاً، ولم يبصروا سواه قصداً، فأقبلوا على حجيلان يريدون الإسلام والإيمان، وأعطاهم الأمان، وأجابهم إلى ذلك الشأن، بعدما شرط عليهم النكال، فكلُّ بذلك دان، وأقبلوا إليه مسرعين، وحادثاً ومجتمعين، ووفدوا بلداً بلداً، ولم يبق إلا أهل عنيزة بُعداً.

وفيها غزا ركب لأهل بريدة في أثر سعدون، يطلبون الاختلاس من تلك البوادي ويريدون، فوافقوا ظهرة مع التفثي بأرض المستوي^(١)، فكان ذلك الركب لجميع الظهرة محتوي، وقتلوا جميع الرجال، وأخذوا ما معهم من الأموال، وقد كان مع تلك الظهرة لأناس من أهل المدينة مال كثير، فأمر بأدائه

(١) مفازة واسعة تقع إلى الجنوب الشرقي من القصيم. «المعجم الجغرافي - بلاد القصيم»؛ للعبودي (ص ٢٢٥٦).

عبد العزيز الجليل منه والحقير، فأدي تأمًا من غير نقص ولا تغيير، لأنها كانت أوقافًا وأحباس، فلم يرد أخذها لأولئك الناس، وإن لم يكن فيه معرفة ولا بأس. وفيها ارتداد أهل الروضة، لما كان من سعدون إليهم أوضة^(١)، وأقبل إليهم بالعساكر والأجناد، عجلوا بالردى والارتداد، وخلعوا ذلك العهد، فخابوا وخسروا ولم يفوزوا بقصد، فلما ظهر منهم ذلك الحال والشأن، بادر أهل التوحيد والإيمان، إلى قلعة البلد، فشمروا كل ساعده فيها واجتهدوا وتحصنوا فيها، وأقبل سعدون وجموعه، فطاف بها هو وربوعه، وجدَّ تلك الأجناد مع أهل البلاد، في محاصرة أولئك العباد، وأقاموا على ذلك أيام، حتى حاول في قطع مائهم أولئك الأقوام، فلما شعروا بذلك فزعوا، وخافوا على أنفسهم وجزعوا، فطلبوا على أنفسهم الأمان، وخرجوا بعد الاستئمان، واستولى سعدون وآل ماضي البلاد، ثم نهضوا بعد ذلك إلى أهل الداخلة^(٢)، وكان فيها محمد بن غشيان، وأناس من أهل النجدة الفرسان، فحاولوا إليهم الوصول، فلم يكن لهم إلى ذلك حصول، ونالوا من أولئك الحماة، ورصاص المجيدين الرماة، ما أذهل منهم الأبواب، وردهم على الأعقاب، فلم يكن لهم على الإقامة مصابرة، ولا على تلك العصابة مكابرة، فانصرفوا بالخيبة والحرمان، وقد قُتل منهم أشخاص غالبيتهم من الأعيان، وثبت بلدان سدير على الدين والإسلام، بعدما كان من سعدون القدوم والإقدام، والأمور الهائلة العظام.

وكان إذ ذاك حسن بن مشاري رحمته الله، في جلال مقيم، فصانهم الرحمن الرحيم، عن تعاظم أسباب الجحيم.

(١) أي: عودة.

(٢) من بلدان سدير.

ولما بلغ عبد العزيز، حرسه الله، ما صدر من أهل الروضة وجرى، وعلم به يقيناً ودرى، أمر سعوداً أن يتجهز والمسلمين، حتى ينقذوا أولئك المحصورين، فبادروا في الأهبة والجهاز، وكان ذلك سريع الحصول والإنجاز، فظهر سعود يريد التعجيل إليهم والانتهاز، وحين وصل إلى ثادق نزل حتى يتلاحق الجموع والدول، ثم يسير بتمام أهبة على عجل، فيدرك عند ذلك الأمن، فلما بلغ سعدون ظهور العصاة المنصورة، وأن ألوية العز عليهم خافقة منشورة، ورايات الإمداد مرفوعة، على رؤوسهم مشهورة، حصل له الرعب والإرجاف، فلم يكن له عند ذلك صبر ولا ائتلاف، بل أخذته الذلة والارتعاش، ولم يحصل لأهل البلد منه بعد ذلك انتعاش، بل ولى مديراً وانحاش^(١).

فلما ارتحل وشرع في السير، انتدب أهل الإيمان من قرى سدير، ما معهم من الإمداد، مثل حسن بن مشاري وابن غشيان وقومهما من الأنجاد، فبادروا أهل الروضة بالقتال والجلاد، فخرج إليهم أهل الشر والفساد، وطال بينهم القتال في ذلك المجال، وقُتل منهم عدة رجال، منهم أميرهم عون بن ماضي، ثم ولوا مديرين، وأقاموا بعد ذلك منحصرين، ثم أقبل سعود بجيوش المسلمين، فنزل على أولئك القوم المحصورين، فأخذ جميع الحلل التي كانت في النخل، ومكث أهل البلد في حلتهم، متحصنين في محللتهم، وفي قلعة البلد أناس من آل ماضي ورجايل لسعدون بن عريعر، فطال عليهم الحصار، وشرع سعود في قطع النخل والأشجار، فلما تحققوا بهم نزول النقرة والباس من رب الناس، وغلبهم القنوط والياس، طلبوا من سعود الأمان، واللاحق بأهل الإيمان، فأجاب طلبتهم، ولى دعوتهم، ونزلوا على حكمه، وما اقتضاه منير

(١) أي: هرب.

فهمه، فعاهدوه على الإسلام، والتزموا بجميع الأحكام، واعتذروا من سوء ذلك القيم وقبح ذلك المرام، واشتروا منه جميع ما في البلد من الأموال بدراهم نقدوها له في الحال، وأمر بجلاء آل ماضي ومن ساعدتهم من الرجال، فخرج عنها جميع أهل الشر والفساد، وأمر عبد الله بن عمر على تلك البلاد، وانصرف سعود راجعاً.

ثم دخلت السنة السابعة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها سار سعود بالمسلمين يريد أهل الخرج، ذوي الفساد والهرج، فلما وصل إلى قرية الحائر، أخبر في أثناء طريقه وهو سائر، أن آل مرة هنالك، فأمر على الدول بالرجوع وانصرف عن قصده ذلك، وسار بالجيش يريد فريقاً من مطير يدعون الصهبة، فعمد إلى ذلك الفريق وطلبه، وحث الجياد في السير؛ لئلا ينتذر فريق مطير، وكانوا على المستجدة^(١)، فبذل في التعجيل جهده، فلم ينجوهم إلا غارة الخيل، وكانوا في سرعة اللقاء كالسيل، وشدوا للارتحال في الأظعان، والحروب عن ذلك المكان، وبقيت حماة الفرسان، مشمرة للذب عنهم في الطعان، حتى أعياهم الأمر وعالهم، وغشيه من مرارة المران ما هالهم وكدر بالهم، فمزق الله تعالى رجالهم، وشتت حالهم، فأخذوا بذلك السكان عن قريب، ولم يكن لهم في السلامة نصيب، وقُتل منهم رجال كثيرة وشجعان شهيرة، مثل خلف الفغم ودخيل الله بن جاسر، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال، وانصرفوا في أحسن حال.

وفيها غلا الزاد جدّاً، وبلغ في الغلاء حدّاً، وأخذ الناس من ذلك الجهد والبلا، وكان سبباً للفناء والبلا، وطال ذلك على أهل نجد وسكانها، ولم يروا

(١) قال ابن بشر (١ / ٧٧): «المزوع المعروف». وهو يبعد عن حائل ١٢٥ كم جنوباً.

مثله في أزمانها، وعم ذلك جميع بلدانها، فسقموا من الجوع، وليس إلا إلى الله الرجوع، واستمر ذلك سنين، وبقوا تلك المدة مُسْتَيْتِينَ، وقد حالت عليهم السنين والأحوال، وشاهدوا أشد الأهوال، ومات من ذلك كثير من النساء والرجال، فضلاً عن البهائم والأطفال، فكان كثير إذا شرع في الصلاة خَرَّ وسقط، حتى يظن رائيه أنه من الجن قد اختبط، ووسوس في عقله واختلط، فالتجأوا إلى مولاهم في كشف ما هَمَّ، ودفع ما نزل بهم ودهم، فأجاب جل وعلا دعاء ذلك الملا، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وينجح أمله ورجاه، فأنزل الله تعالى في قلب عبد العزيز الرأفة والرحمة والتحنن بضعفاء تلك الأمة، فأمر جميع البلدان في تلك السنين والأزمان، أن أهل كل بلد ومكان، يُخْصُون ما عندهم من المساكين والضعاف، ويقيتونهم من الطعام ما به قوام وكفاف، فامتثلوا أمره وقوله، وانتهجوا عمله وفعله، وقام، حرسه الله، في الناس حين حلول البأس أعظم قيام، فأفاض من الإنعام على أولئك الأنعام، خصوصاً أهل الحاجة والأرامل والأيتام، وشَمَّرَ بالإحسان منتدباً، وجد في المعروف والبر محتسباً، وكان لأجره من الله مرتقباً، ولم يزل على تلك الحالة مستمراً، حتى كشف الله تعالى عن الخلق ضرراً، فقال بذلك ثواباً وأجرًا، وحاز مجداً وفخراً.

وفيهما مقتل زيد بن زامل، وذلك أنه أغار على أهل سبيع، وهم إذ ذاك على الرياض، فأخذ عليهم إبلاً ثم انصرف من ساعته من غير ارتياض، ففرج على أثره سليمان بن عفيفان، وليس معه إلا جماعة يسيرة من أهل الإيمان، فجد السير في طلبه، وحث المطي في عقبه، فأدرك ابن زامل مع قومه، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة راكب بأرض يقال لها الحَنِيَّة^(١) من نجد، فشن عليهم

الغارة، فقال بذلك أعظم قصد، وقتل زيد بن زامل، وانهزم جميع من معه من القبائل، وأخذ بعضًا من ركايبهم، وفك الإبل وولّوا على أعقابهم، ورجع سليمان ومن معه بالنصر والأمان.

وفيها أهدى عبد العزيز، حرسه الله تعالى، إلى سرور والي مكة المشرفة خيلًا وركابًا، وكرمه بذلك وشرفه، وقصده بذلك التشريف والإكرام، وإهدائه ذلك النفيس الذي هو أجل الحطام، الرخصة لأهل الدين والإسلام، في أداء واجب الافتراض والالتزام، خامس أركان هذا الدين، على التحقيق والجزم واليقين، الذي مُنِعوه من سنين، وكانوا على قضائه متوجدين، فجاء الأمر منه في ذلك بالرخصة، فشر المسلمون وانهزوا الفرصة، فحجوا ذلك العام، وكانوا نحو ثلاثمائة من الأنام.

ثم دخلت السنة الثامنة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها عدا براك بن زامل وأهل اليمامة، على منفوحة فسبق النذير أمامه، فلم يردوا أهل البلد، حتى تأهب كل منهم واستعد، فحين أغاروا عليهم بادروا في الخروج إليهم، فاعتنقوهم سراعًا، وأرهبوهم بأسًا ووقاعًا، وجالدوهم فجلدوهم، وفرقوا جمعهم وبدروهم، وقتلوا من القوم المعتدين، نحو خمسة عشر وفيهم أناس من المرتدين، فأتي سعود بذلك الخبر، فجرد عزمه لطلابهم، وظهر وجد في أثرهم، فلم يدرهم فرجع وصدر.

وفيها غزا سعود، حرسه الله تعالى، بالمسلمين يريد الحسا، فأعمل في ذلك العيس، وجد في السير والسرى فلم ينخ ما سوى المكتوبة والتغليس، حتى هجم من ذلك الوطن وقرايا تلك السكن، على قرية يقال لها العيون^(١)، فألقاهم

(١) من قرى الأحساء، يُنسب لها «العبرونيون» الذين أزالوا حكم القرامطة.

وقد استولى الكرى على العيون، فدبر أحواله وشؤونه، وأهل القرية لم يأتهم عنه خبر ولا يظنونه، فلما أن نسخ حالك الديجور شعاع الضياء والنور، وفرغ في صبحته من دعائه وشبحته، نهض إلى ما هياه وأراد، ووطئ ما خرج عن الحصن من مساكن تلك العباد، وأخذ جميع ما في تلك الدور والبيوت، من الحيوانات والأمتعة والقوت، وبقي ابن مهتئ وجماعته في الحصن متحصنين، وناوشهم المسلمون القتال وكانوا من الخوف على أعمارهم مجتهدين، فلم يدركوا منهم مرامًا، ولم يطيّلوا عندهم مقامًا، وانصرف المسلمون عنهم، ورجعوا منهم، وقد قُتل ناصر بن عبد الله وعبد العزيز ديان.

ولما أقبل سعود، بلغه الله تعالى المقصود، من الأحسا راجعًا، ولأمله طامعًا، اقتضى رأيه السديد، وفكره المصيب الرشيد، أن يعبر على اليمامة، فألفاهم وقد خرجوا جميعهم أمامه، وساقهم القضاء والتقدير، ونفوذ حكم الإرادة والتدبير، لما أراد الله عزه ونصره وإكرامه، وأن يحل بأعداء هذا الدين بأسه وانتقامه، ويسقى كلاً من أهل الشر كأسه وسهامه وجمامه، فاشتاقت نفوسهم إلى الخروج للتنزه والابتهاج، ومطالعة أزهار الرياض في تلك الفجاج، فلم يستقروا في تلك الرياض، حتى وردوا من المنايا الحياض، فدهمهم الفرسان من أهل الدين والإيمان، في ذلك الموضع والمكان، فراموا عند ذلك الشجاعة، ومد كل إليها باعه، وحسبوا أن لهم بها استطاعة، فلم يكن لهم ذلك ولم يُقدر، ودنا لهم أجلهم المحتم المقدّر، فحالت عليهم الخيول، وهب للمسلمين عليهم الضبا والقبول، فشمروا عند ذلك للهزيمة الذبول، وولّوا على أعقابهم مدبرين، وقصدوا بلادهم متمزقين، وقد قُتل المسلمون منهم نحو الثمانين، على التحقيق لا التخمين.

وفيهما غزا سعود، حرسه الله تعالى، بالمسلمين وقصد عزيزة من بلدان

القصيم، وحث السير في ذلك مشمراً لا ينيخ إلا في الضرورة ولا يقيم، فلما وطئ في جنح الدجى من تلك البلد أرضها، وقضى من صلاة الصبح سننها وفرضها، أغارت على طارفة البلد فرسانه، وطافت بفنائها شجعانه، فخرج إليها من أهلها كل ذي بأس شديد، واستمروا مع المسلمين في تصدير وتوريد، وبذلوا من الشجاعة ما ليس فوقه مزيد، وقُتِلَ بينهم في ذلك المجال بعض من الرجال، منهم من المسلمين ثيان بن زويد^(١) وغيره، وجرى بينهم مع سعود كلام في الصلح فلم يتم المقصود، ثم بعد ذلك انصرف عنهم وارتحل منهم.

ثم دخلت السنة التاسعة والتسعون بعد المائة والألف.

وفيها غزا سعود فأخذ إبلاً معاويد^(٢) لأهل الحريق، كانت مودعة عند سبيع فأخذها من ذلك الفريق.

وفيها غزا سعود بالمسلمين يريد أرض أهل الجنوب، وكانت فرقان اليمن له المطلوب، فالتحّ السير إليهم حتى قدم عليهم، فألفاهم في أرض الروضة^(٣) يرعون، فألفى رئيسهم في قصر الروضة، فأخذه وقتله وقرب الله له أجله، ثم غارت خيوله ورجاله على أولئك الأعراب، وغشيه من عظم العذاب أعظم سحاب، فلم يكن لهم على المقابلة قدرة، ولم يكن لهم في الرجاء حيلة ولا فكرة، فولّوا مدبرين على الأعقاب، وشمروا في الهزيمة والانقلاب، ولكن الله تعالى قضى أمراً وقدر، واختاره ودبر، وذلك أن المسلمين لما كشفوا ذلك الفريق، وراموا أخذهم على التحقيق، أقبلت عليهم من فرقان السهول كراديس

(١) قال ابن بشر (١ / ٧٨): «الشجاع المذكور».

(٢) الإبل المعاويد: التي ترفع الماء من البئر العميقة.

(٣) تبعد عن مدينة الرياض ٢٤٠ كم غرباً.

من الخيول^(١)، فرجع عنهم حيثئذ المسلمون، لأنهم إذ ذاك لم يكونوا لهم يعرفون، وفك الله أولئك الأقوام بعد ذلك الانهزام، ولم يعرف السهول جيش المسلمين إلا بعدما ألفوهم مديرين، وكانوا معهم داخلين ولحكمهم تابعين، فكانوا على تلك القضية نادمين.

وفيها قتل براك بن زيد آل زامل بنو عمه زويمل^(٢)، ومعهم عبد الله بن محمد بن راشد، وظنوا أنهم يدركون حكم الدلم والرياسة فسدت عليهم تلك المقاصد، ولم ينل كل منهم ما هو قاصد، وطردوهم أهل البلاد، وكانوا ذوي بغي وفساد، فقصدوا الدرعية، وطلبوا خطة الدين السوية، ولم يكن يرد عن دخولها أحد من البرية، ثم بعد ذلك الحين هربوا إلى الحسا مرتدين.

وفيها غزا سعود، يسر الله تعالى له المقصود، فشرع مع المسلمين يريد الخرج، فذكر له وهو في أثناء ذلك النهج، أن هنا ظهرة كبيرة وأمم من أهل الخرج والفرع كثيرة، ومعهم من الأموال وأصناف الأحمال ما لا يخطر على البال، فأقام سعود ومن معه على الثلث^(٣) يرصد تلك الخلق المجتمعة، حتى أقبلوا يريدون الماء، وكانوا إذ ذاك على ظمأ، فشن الغارة عليهم المسلمون، فأخذوا السابق الذين هم للماء مسرعون، وقتلوهم قتلة رجل واحد، ثم أناخت الظهيرة ورام كلُّ منهم أن يُجالد، فاستمروا معهم ساعة في جلال، ووقع المصايبة والاجتهاد، حتى تبين لهم أنهم لا يظفرون من السلامة بمراد، فعندها طلبوا من سعود السلامة على الرقاب، فأعطاهم ذلك وأجاب، ومنح الله تعالى عباده المؤمنين السلامة والنصر والتمكين، وغنموا تلك الأموال، وفازوا بالأجر

(١) الكرديوس: الخيل العظيمة.

(٢) تصغير زامل.

(٣) قال ابن بشر (١ / ٧٩): «الماء المعروف قرب الخرج».

والإقبال، وقُتِل في ذلك المجال نحو سبعين من الرجال، منهم ابن زيد زامل وابن زيد الهزاني وسان بن شاهين، وغيرهم مشاهير، وقُتِل من المسلمين نحو ثلاثة رجال.

وفيها قدم ربيع وبن ابنا زيد، وهما رئيسا المخاريم^(١)، وجماعة من قومهما، على الشيخ وعبد العزيز راغبين في الإسلام، طالبين منهج الأمن والاستسلام، فعاهدوا على ذلك الطريق، وكان لهم في القيام بذلك هداية وتوفيق، فقد هدى الله تعالى بهم أناسًا من أهل الشرك وفريق، وصاروا ردماً في الوادي لا يروم رأس الباطل هدم الحق فيه ولا يطبق.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، متعهم الله تعالى بنصره سنين، فجد السير يريد الدلم من الخروج، وسأل الله تعالى أن يسهل له ذلك النهج، فناداه منادي الإقبال بلسان الحال، وهو ينصّ في تيك البيد الفساح: سر فليس عليك جناح، وقد قُدر لك الخير والصلاح، وأعدّ لك الريح والأرباح، وتقدمك النصر والفلاح، وهبئ لك في فتح البلد مفتاح، فاطو القفار في الدجى، فعندك من حسن الرجاء ضياء ومصباح. فسار لذلك وشمر، وحث الجياد الضمّر، فلم يطل لركابه إراحة الجران، ولم يلق لخليله رَسَن ولا عَنان، حتى استقر في تلك البلدان، ورأت بالعيان ملتف تلك الجنان، فحينئذ ذاق طعم الكرى المُقْل والأجفان، بعد تعبته الكماة والشجعان، وتدير جميع ما له من شأن، فلم يضمحل سواد الظلام وينتشر سرعان الأنام، إلا وفرسانه عادية مغيرة، وسنابكها للثير مشيرة، فكانت لمن صافقته مردية مبيرة، غير مؤمنة ولا محيرة، فعند ذلك علت في البلاد ضجة العباد، وغشيتهم أصوات الفزع والارتباغ، والحزن والالتباغ، فأقبل جميع من

(١) من الدواسر.

في البلد من المقاتلة والأفزع، وراموا عن خلل النخل مجالدة ودفاع، فلم يجدوا إليه من سبيل، ولم يلغوا لهم به كفيل، فرجع كل منهم خاسئاً ذليل، وقتل رجال من أولئك القبيل، واستولى سعود جميع النخل وحلها، فالت نفوسهم سُؤلها وأملها، ومكث أهل البلاد كافة محاصرين في القلعة، من المخافة وسحائب الذلة عليهم مظلة، ونواب الجلاء بهم مظلة، وشجعانهم من الرعب مستذلة، وأقدامهم إلى الهروب مستقلة، لا يجدون ساعة من الراحة، وحزب الدين مشمر في الحرب صباحه ورواحه، وقد أظهروا للتجلد علامة، وظنوا أنه يخفف مقامه، وحسبوا أنه يكون وسيلة للسامة والتضجر، ولا يزالون يعللون النفوس بالمحال منه والمأيوس، تغل المسجون بالآمال والمحبوس، حتى انقطع منهم الأمل والرجاء، وعراهم الخطب وفجى، وشاهدوا منه مدلهم الدجى، وناء عليهم بكلكله وسجى.

وذلك أن سعوداً لما رأى ما هم به من الحصار، وأنهم لا يطول لهم مكث ولا قرار، اقتضى رأيه وفكرته، واستجمع نظره ومشورته، أن يبنى قصرًا للمسلمين بين النخل وتلك الحلل، ويجيد بناءه عن الخلل، حتى ينقطع من أهل القرية الأمل، وينزلوا إلينا على عجل، فلما فرغ بناؤه وتم، ونوى سعود المسير وترك أناساً فيه وعزم، خرج جميع من في القلعة إليه، وعزموا على البيعة عليه، فحملوا حملة رجل واحد، وتقدم كل من هو في الحرب يجالده، ومن هو على الثبات والصبر يساعد، فتلقاهم المسلمون بعزم باتر، وبأس مُجدٍ غير فاتر، حتى أدار الله تعالى عليهم الدوائر، وكان لأهل الدين معيناً وناصر، ولأولئك الفجار مُذِلَّ كاسر، فرجع كل منهم على عقبه خائباً خاسر، وتمنى أنه لم يكن للقتال بارزاً ظاهر، وقُتل منهم رجال كثيرة، منهم تركي بن زيد ورجال غير شهيرة، يزيدون على العشرين، وأقاموا في القلعة محتصرين، وهموا بعد ذلك

اليوم أن ينزل على سعود جميع القوم، ولكن أسر إليهم بعض آل زامل ممن كان مع المسلمين نازل، فقال: اثبتوا مكانكم، والزموا أوطانكم، فأنا آخذ لكم الأمان، وأحكم لكم عقد الاستئمان. فكان بينهم وبين سعود واسطة، وإلحاحكم العهد رابطة، فأخذ لهم من الأمان عقدًا، وتمم لهم عهدًا، واشتروا منه ما في تلك البيوت والدور، من الحيوانات والأمتعة والسلاح والطعام ما ليس بمحصور، واستقر بينهم الأمان، فانتقدوها بذلك المكان، ودخلوا في حصن الأمن والأمان، وفي دائرة أهل الإيمان، وأمر عليهم سليمان بن عفيصان، وكانت كافة نخلها بيت مال، فاء الله تعالى به ذو الجلال، وأجلى عن البلاد كل من جد في الفتنة واجتهد، ومن كان قبل ذلك بالسبابة لهذا الدين معروفًا، وبالبعض له مشهورًا موصوفًا.

وفيها تبين ذلك الحال واشتهر، وشاع بين الناس وانتشر، رجفت قلوب أهل الجنوب، وحلّ من البأس والكروب وغياهب الخطوب، ما لم يدعّ لهم قلبًا، ولم يثبت لهم ثبًا، فكلّ منهم أرسل إلى سعود بالطاعة ولّبي، فأقبل أهل الحوطة وأهل الحريق وأهل اليمامة والسلمية وكافة الخرج، على سعود، فأحكموا للإسلام العهود، واشترط عليهم في النكال ما شاء من النقود، فكان جميع ذلك لديه محضراً منقود، ثم انصرف بذلة لمولاه واستكانة، مكثراً لحمد مولاه وشكره سبحانه، وقصد أهله ومكانه، ثم بعد انقضاء هذه الأمور، وصدور ما هو مزبور، وفدوا راغبين في الإسلام أهل الأفلاج، فأتوا الشيخ وعبد العزيز طلباً لسلوك ذلك المنهاج، فعاهدوا على الإسلام، والتزام جميع الأحكام، فحسن منهم ذلك القيام.

ثم دخلت السنة التي هي للمائة ختام، وبها يكون الثاني عشر للقرون تمام، ويتم بها العقد والانتظام.

وفيهما دبت بين بني خالد الفتن، واستحكمت في قلوبهم الشحنة والاحن، وسَعَوْا في أسباب الحوادث والمحن، وَجَدُوا في أسباب القطيعة بما قدروا عليه من الأمور الشنيعة، فأضاعوا شَجَنَةَ الأرحام، وقام فيها ذور الأحلام، فأراقوا بينهم الدما، وسلبوا البيض الدما، وغدا بعضهم للبعض سالبًا، ولهلاكه مريدًا وطالبًا، فأصبحت الأرض من أفعالهم تعج، والخلق تجار إلى الله وَتَضَيَّجُ، وتدعو الله عليهم بالإذلال وتعجيل الوبال، ولسان حال القضاء ينادي على أولئك الضَّالُّونَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾.

وفيهما جرت وقعة جضعة بين بني خالد^(١)، وسميت بذلك؛ لأن المهاشير وآل صبيح خانوا لعبد المحسن والمتفق ورئيسهم ثويني، فأخذوا مَنْ يليهم من العربان، ف وقعت بينهم النبهة، وبدأ كل منهم في الآخر الرغبة، فنار^(٢) سعدون وجماعته على ظهور الخيل وقصد المسلمين، وترأس عبد المحسن ودويحس في بني خالد والحسا، فصار ذلك لعز الإسلام، ولإعلاء كلمة الحكيم العلامة، أعظم مقدمة وطلية، ولاستيطان التوحيد فيها ذريعة، فلم تكن بعد ذلك قوة تلك الأسباب عن ذلك مانعة ولا منيعة، وبشارة بالفتح معجلة، ونصرة للدين لوقتها موجلة، فأقبل سعدون وقومه، وأرسل لعبد العزيز يطلب منه الأمان، فنهاه عن المجيء إلى البلد حتى يقف على ما عند ثويني من الخبر باستيقان، ويتحقق حقيقة الأمر والشأن، لأن بينه وبين ثويني قبل ذلك مهادنة ومصاحبة، فأراد أن يسد من ذلك أبواب المطالبة، فلم يبال سعدون لما ناله من الذلة

(١) يُنظر لمعرفة ما جرى بينهم: رسالة «بنو خالد وعلاقتهم بنجد»؛ للأستاذ عبدالكريم الوهبي.

(٢) نار: حرب.

والهون، بما نهاه عبد العزيز عنه فصار ذلك الإقبال منه، فتلقيه بعد ذلك عبد العزيز، فلم يشعر عبد العزيز إلا بقدمه، وسرعة دخوله البلد وهجومه، وكان لصلاته الجمعة خارجاً، ولسنة التبكير لها ناهجاً، فالتقى مع سعدون عند باب القصر، فرجع معه إليه، وأمر بتعجيل النزول عليه، وهبى له ما أراد، ثم رجع إلى طاعة رب العباد، وقد حصل له من الكرب ما ناء بالفؤاد، وحصل له غاية المساءة والإنكاد، حين رأى قدوم أولئك العباد، ولكنه لما أتم الصلاة، وحصل له إن شاء الله من ربه الصلاة، أسر بذلك الخبر، وأعلن للشيخ الذي هو للتوحيد أسنً وأتقن وشرح له الحال، وبين له أن ذلك كدر عليه البال، فجلا عنه الإمام جميع الشبه والأوهام، وتلا عليه ما جلا الرئين عن الأوهام، من الآيات المحكمات العظام، كما يفهمه كل قلب سليم ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فلم يفرغ من قراءتها بالإكمال، حتى سري عن عبد العزيز ذلك الحال، وانجلي عن قلبه الكدر، حين تبين له المعنى وظهر، فلما بلغ ذلك ثويني تعاضم وتجبّر، وصعّر خده وتكبر، وأرسل إليه عبد العزيز بالطف كلام، يستعطفه في قبول ذلك الأنام، وبين له أنني لم أنقض للهدنة عهداً، ولا أقتل لحبلها عقدًا، ولكن لا أجد عن قبول هؤلاء مندوحة ولا بداً، وأنا لك بما تريد منهم كفيل، فلا تخش منهم أحدًا لا عزيزًا ولا ذليل، فلم يجنح إلى ذلك الكلام، وأنف من الاستعجاب والاستعظام، وجذ في الحرب وشمر، وأجمع رأيه عليه ودبر، فأرسل إلى البلدان يستعين على ذلك الشأن، وشرع في أحكام الأسباب والآلات، وتهيئه عددها المحكمات، وبارز في ذلك رب البريات، ونال من ذلك أعظم الرزيات، وأقبح الخزي والعقوبات.

وفيها غزا سعود، ونال من مطلوبه كل مقصود، فسار بالمسلمين ومعه بنو

خالد وآل ظفير مجتمعين، فحث السير ليلاً ونهاراً لأجل تعجيل المطلوب، وإنجاز المراد له والمرغوب، وقصده أسلاف قحطان^(١)، وكانوا مقيمين بأرض الجنوب، فأعقن النسيار إليهم، ونص اليعملات^(٢) عليهم، حتى طوى بأيديهم صحف القيافي والفقار، ولم يجد دونها تلافي ولا اضطبار، وسهل له سهلها وحزنها، وحاط بأولئك همها وحزنها، وعجلت إليهم الإنذار بما قد كان وصار، فأخذوا في تعداد وأهبة، وكان لهم إلى لقاء المسلمين رغبة، ففرحوا بذلك وطربوا، وودوا قدومهم وطلبوا، وقالوا: لظى الخطوب، ونار الوغى والحروب، لنا معشر أهل الجنوب، والهيحاء هي المراد والمنى، ونحن لها وهي لنا، أيقظن سعود أننا مثل من لقي من الجنود، ومن مارس من البوادي القروء! نحن الشُّمُ العَرَائِنُ الكُمَاة، وذوو البأس والنجدة في الوطيس والحماة، وسيعلم ذلك وبعين، ويدري حينئذ على من هو كائن، ويتحقق ويشاهد ما لم يكن معه يعاود. ونفض كلَّ منهم مذرويه^(٣)، وكان شؤم ذلك القول راجع عليه، فلما صبحتهم تلك الجنود والأجناد، أظهروا من البأس ما يذهل الفؤاد، وتدرعوا مدارع النجدة في الجلال، فشاهدوا فرسان الإسلام منهم أسنة حداد، وأحساماً صلاباً صلاب، وقلوباً قوية شداد، فحف الله تعالى المسلمين باللطف والإمداد، وأعاد عليهم عادته في أهل الفساد، فشد عليهم الحملة أهل الدين والتوحيد، وأيدهم الله تعالى بالنصر والإعانة والتسديد، وأنفذ في أعدائه الوعيد، فشرَّدوا أعظم تشريد، وبذَّروا أقبح التبديد، وصاروا بين طعين وشريد، ومقطوع منه الوريد، ومزَّقوا كلَّ مُمَرَّق، وأجرى عليهم عادته وحقق، وغنم

(١) الأسلاف: الجماعات.

(٢) جمع يعمل؛ وهي الناقة النجيبة.

(٣) يقال: جاء فلان ينفض مذرويه: إذا جاء باغياً يُهدد الآخرين. والمذروان طرفا الشيء.

المسلمون غنيمة عظيمة، وانهزم الأعداء أخزى هزيمة، واستولى أهل الدين والإسلام، جميع الأمتعة والأثاث والآبال والأسلحة والأغنام.

وفيها غزا حجيلان بأهل القصيم، ومعه من عنزة فِرْقَان، فذَكَرَ له أن هناك ظهرة عظيمة خارجة من البصرة وسوق الشيوخ حضر وبدوان، فأَمَّ لهم منار الطريق، وكان من خبرهم على يقين وتحقيق، فأسرع بمن معه وتبعه حتى وصل إلى بقعا^(١)، وأقام ينتظرهم حتى قدموا بعد ذلك عليه، ووصلوا بما معهم من الأموال والأحمال إليه، فتلقاهم بغارة مزعجة مرهقة، وأسنة ماضية للأرواح مزهقة، فطاعنوا ساعة وحيناً، ثم انكشفوا بعد ذلك انكشافاً وهيئاً، وكان كل منهم للذلة موثقاً رهيناً، فغنم المسلمون تلك الأموال، واستاقوا جميع الأعمال، وقتلوا عدداً من الرجال.

ثم دخلت السنة الحادية فوق المائتين والألف.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، فنزل أرض ملهم^(٢) وأقام ينتظر إجماع المسلمين، فأثاه رؤساء الروسة^(٣) من اليمامة، وأخبروه أن آل بجادي يريدون الارتداد، وقد دبروا إحكامه، وأجادوا على أهل التوحيد إبرامه، فشر من ذلك الحين لإنقاذ المسلمين، وحقق دماء الموحدين، فوصلها ليلاً، وأدرك من التمكن منها نيلاً، فلما أصبحوا وتحققوه، هموا بلباس الإسلام أن يمزقوه، فجالوا نظرهم فيه، فنظر كل منهم أن ذلك لا يفكه ولا ينجيه، فرموا جميعاً بأنفسهم إلى سعود، وقدموا إليه النساء لكي يوافق بالمقصود، فأناهم شطر

(١) مدينة تبعد عن حائل حوالي ٩٥ كم.

(٢) مدينة تبعد عن الرياض حوالي ٧٠ كم شمالاً. وهي إحدى بلدان إقليم الشعيب.

(٣) نسبهم الجاسر في «جمهرة أنساب الأسر» (١/ ٣٢٦) إلى خثعم.

البغية، وأدركوا بعض المنية، وألزم عليهم الشيخ وعبد العزيز في البداية، وأجلى عنهم أهل الفساد والإذابة، ثم بعد ذلك يرجعون إلى بلادهم، وأظهروا لسعود الامتثال، وشرعوا في المسير إلى عبد العزيز والارتحال، فلما توسطوا في قلب القلعة، كان في قلوبهم أعظم هناة، ولَوَّوا إلى الحسا الأعناق، وجدوا في الوُخْد إليها والإعناق^(١)، وصمموا البعد عن اليمامة والفراق، فأمر عبد العزيز بهدم حلتهم التي تسمى البتّة، وقد كانت باللهو مرتّة، فهُدِّمت ديارهم، وحُقق دمارهم، وأمر سعود عبد الله الرويس في البلاد، وبنى حصناً فيها وجعل فيه آلة الحرب والاستعداد، وأمر في الحصن محمد بن غشيان، وأقام فيه مدة الزمان.

وفيها جرّ ثويني تلك الجرائر، وقاد على المسلمين تلك الجموع والعساكر، وتجاوز في ذلك المسير طوق البشر في التدبير، ورام أن يغالب الحكيم الخبير المدبر القدير، فتناول في خروجه وتمطى، وبغى فيه وتخطى، ودبر من الكيد والأسباب والشؤون، ما لا يقدر على مثله ولا يكون، بل يعجز عن تحصيله الآخرون، وجزم أهل المعرفة بزعمهم، ومَن يدعي العلم بفهمهم، أن جيوشه لأهل الدين يغلبون، وأعرضوا عن وعد الله للذين هم يؤمنون، ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فسار بتلك الجحافل الجمعة الغزار، والجيوش التي لا يحصي عدتها إلا عالم الأسرار، ولا يحيط بها إلا الجبار، حافة بتلك المدافع والقنابر الكبار، التي لا يقوم عندها حصن ولا جدار، ولا يثبت عند رؤيتها قلوب الصغار والكبار، فلم يزل يحدّ إلى نجد السير والمسير، ويستدعي في ذلك آراء الرأي والتدبير، من كل رئيس بالحرب خير، وجليس

(١) الرُخْد: السير السريع، والإعناق: السير بين الإبطاء والإسراع.

سبى البطانة شرير، يجلل له دماء أهل التوحيد، ويحثه على ذلك ويشير، ويدعي مع ذلك أنه من العلم والمعرفة بالمكان الكبير، ولم يدِرْ أنه قاصر الباع، قليل الاطلاع، طافح الغور غير غزير، وأنه لا يملك من ملك الله فتيلًا ولا قطمير، وأن الله تعالى وعد أهل التوحيد والدين بالنصرة والظهور على المبطلين، وفتح البلاد لهم والتمكين، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فلم ينش لهم صارم عزم ولا همة، بل جد في ذلك الشأن وهمه، حتى أنزل في أرض التئومة^(١) جميع تلك الأمة، وأحاطت بهم تلك المهمة، وغطتهم تلك الخطوب المدلّهمة، وحلت بهم الكربة والشدة والغمة، والتجأوا إلى المفزع عند الشدائد، وطلبوا حسن تلك العوائد، والتحفوا القمص والأكفان، وقال كل منهم: الموت على الشهادة والإيمان، وسنة من لنا من السلف والإخوان، وبأبى الله أن نتضمخ بوضر الذلة والإذعان، ونبين عند الله والمؤمنين أننا غير صُبر في الطُّعان، ولا عند حلول الرزايا والامتحان، ونعوذ بالله من عاقبة الشرك والافتتان، وتسويل مكائد الشيطان، والاستسقاء من حوض الردى والذل والهوان، فليس هنا إلا التطلع إلى قصور الجنان، وما فيها من الحور والولدان.

ولما ثوى في ذلك المكان والمحل، واستقر به ونوى الإقامة ونزل، شرع في مجال القتال، وأحدثت بهم تلك الفرسان والأبطال، وأضرمت عليهم المدافع شرر النار، ولم يكن في قلوبهم منها اندعار، لما أفرغ الله تعالى عليهم النصر والاصطبار، وربط على قلوبهم فكان لهم من الثبوت أجلّ قرار، وحث أهل المدافع والرماة، وندب الشجعان والكمأة، وحرّض ذوي النجدة والحُمّاة، وجلب عليهم بخيله ورجله، ورام هدم التوحيد بأمله، فأبطل الله تعالى كيده

(١) من قرى القصيم - كما سبق - .

ومكره، وأظهر فيه وفي جنوده بأسه وقهره، فحاق به سوء عمله، فشرب حياض المرّ الهمّ بالأسف عللاً بعد نهله، ورأى عقوبة ذلك عاجلاً قبل موافاة أجله، واستمرت تلك الأحوال الشديدة من أولئك الجموع العديدة، يقاسون كل ساعة منهم حدة وبأساً، ولكن لا يرفعون إلى المذلة رأساً، ويقوا أياماً في ذلك المقام، كل يوم تحيط به خطوب الحَمَام، ويتجرعون مرارة السّام، ولكنهم صَبَرُوا تلك النفوس الكرام، عن معاطاة أسباب الآثام، وآثروا دار السلام، وما عند الملك العلام، على هذه الدار الفانية، واشتاقوا إلى دار قُطُوفها دانية.

فلما آيس ثويني من مصادمتهم، وتعب من مزاحمتهم، واكترب من مقامه هناك، واضطرب لبّه قليل ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾، مد أسباب الغدر، ونسج رداء الخيانة والمكر، فأرسل إليهم بالأمان، وزين لهم الاستئمان، والنزول عن ذلك المكان، والخروج إلى سائر الأوطان، وحاولهم في ذلك واجتهد، وكان الوسطة بينهم عثمان بن حمد، وكان هو من أولئك الجماعة، فظنوا أنه لا يروم بهم مكرًا ولا خداعة، وإن كان نفسه إلى الشر نزّاعة، فرضوا بذلك وراضوا، بعدما تحدثوا فيه وفاضوا، ولما استقر ذلك الأمان بينهم، دخلوا عليهم القلعة سريعاً فعجلوا للمسلمين حَيْثُهم، وقتلوا غالب مَنْ وُجِدَ، ولم ينج إلا من هرب وفُقِدَ، ونهبت تلك القرية، ونال ثويني من ذلك خزيه، وعجل الله تعالى له في الدنيا العقوبة، ولقي من قبيح صنعه وزره وحُوبه، ثم لما بدت منه هذه الخيانة وبدرت، وظهرت منه وصدرت، ظعن من ذلك الوطن، ونزل على بريدة واستكن، وناوش أهلها الحرب من بعيد، وهم أن يُنزل بهم بأسه الشديد، ويمكر بهم ويكيد، فأخذه الله ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَكْبَرُ شِدِيدٍ﴾، فأرجف قلبه وفؤاده، وأظهر له من الرعب ما حمله أن يؤم منهزمًا بلاده، وشنت شمله وجمعه

وأجناده، وأضاع هدرًا عليه من المال طريفه وتلاده^(١)، فولى خاسئًا مهزومًا، مشتتًا مبعدًا مرجومًا.

ولما عزم على المسير، خرج من أهل يريدة لنفوذ التقدير، نحو سبعة رجال، وراموا أن يوقعوا في آخر الجيش نكال، فعجلت إليهم من تلك الخيول فرسان، فاقتطعوه قبل وصول الجدران، وجد السير يريد البصرة، وقد أبدى الله تعالى فيه عبرة، وأراه شؤم تلك الأفعال، وجعل عاقبته تشتت الحال، فحين وصل البصرة وقدم إليها، رأى الخروج على الباشة والتغلب عليها، وساعده على ذلك المتسلم، وكان لأمره مطيعًا مسلم، وفي خدمته متقدم، ورُسمت باسمه الحُطْب، وأبدى من التجبر العجب، فحدر عليه الباشا سليمان، في ذلك الزمان، والتقوا عند سفوان^(٢)، مع تلك البدوان، فانهزم ثويني ونار^(٣)، وهدم الله عزه وبار، وفلَّ الله من له من أنصار، وعمد إلى الكويت وسار، وأقام فيها ذليلاً، بقاسي الهم زمانًا طويلاً، ثم جاء إلى الدرعية يريد الإسلام، فعاهد على الوفاء بالذمام، ثم نكث ذلك الإبرام.

ولما بلغ عبد العزيز، حرسه الله تعالى، وصول ثويني إلى نجد، جد في التأهب والاستعداد، وجمعه من الغزاة كل نجد، فجهز سعودًا عليهم أميرًا، حتى يكون لأهل البلد ظهرًا وظهيرًا، فلما انهزم ثويني وانصرف، وقصد بلاده وانحرف، جد سعود في أثره بالمسلمين، وكانت تلك الجيوش متهمزين، فلم يبرح، حرسه الله تعالى، يجهد في السير الركاب، ويجد في ذلك الطلاب،

(١) التليد: المال أو المكسب القديم. والطريف: الجديد.

(٢) من مدن محافظة البصرة بالعراق. يُعرف اليوم بصفوان.

(٣) نار: حرب.

حتى أدرك أسلافًا من شمر، فشن الغارة عليهم وشمر، ورئيس ذلك الفرقة وكبير تلك العربان، ابن جدي، فكان إليه مهتدي، فلما غطاهم من الغارة الغبار، ركب الفرسان الجياد والمهار^(١)، وأقبلوا لتلقي الأبطال كأنهم في قرن، وصمموا على بذل الأعمار دون الأموال والظعن، وبذلوا في ذلك مجهودهم، ولكن الله لم ينلهم مقصودهم، فغلبتهم كلمة الحق، فلما عاينوا من أهل الدين الصدق، انهزموا وفروا، وما ثبّوا ولا قروا، فقتل المسلمون منهم رجالاً كثيرة العُدَد، وأخذوا ما عندهم من العُدَد واستولّوا على جميع تلك الأموال من أثاث وأمتعة وزلال، وغنم وآبال، ورجعوا بأحسن الآمال.

وفي أثناء خروج سعود في ذلك الطلاب، ظهر عبد المحسن ودويحس وبنو خالد أهل الحسا، يظنون أن ثويني لهم في انتظار وارتقاب، وأن بلدان نجد قد عمها من ثويني الخراب، وأنه مقيم هناك مع الأحزاب، لأنهم قد ثبت عندهم بلا شك ولا ارتياب، ونقله إليهم عدول ليسوا بكذّاب، أن ثويني ألزم على أهل الزبير، ألا يخرج أحد إلا بامرأته وعياله في ذلك السير، فامثلوا أمره في الحال، وأظهروا معهم من الأموال للتجارة والابتاع، ولم يُجَلْ في حَلْدِهِمْ أنهم إليها يعجلون الارتجاع، لما يداخلهم من الذعر والرعب والارتياح، بل زعموا أنهم يقيمون أزماناً عديدة في تلك البقاع، ولا يرجعون عنها حتى يدعوها صفتاً قاع، فلذا ظهرت بعد ذلك بنو خالد، وكلّ على ذلك معين مساعد، فلم يُرْعَ بنو خالد وأهل الحسا، وهم إذ ذاك قد قطعوا الدهنا، يؤمنون نجداً ويؤمنون بها إقامة وسكنًا، إلا الخبر اليقين، والعلم المحقق المستبين، أن سعوداً قد جدّ في السير والتسيار، وأن ثويني قضى عليه العزيز القهار، بالذل والانكسار،

(١) المهاري: من كرائم الإبل. نسبة لبلدة المهرة باليمن.

وكتب عليه الهوان والذلة والعار، والخزي والدمار، فكان ذلك عندهم من أشنع الأخبار، وأفظع ما يطرق القلوب والأفكار، واضطربوا غاية الاضطراب، وشمروا منتهزمين في الانقلاب، وأرسل الله عليهم رجلاً من العذاب، فكانوا لا يلوي منهم أحد على أحد، والكل قد طار عقله وارتعد، وارتدى بأردية الموت واستعد، وقطعوا الدهنا في ذلك الصيف والصمان، والكل منهم صاّد ظمآن، فمات كثير من أهل الحسا، ونالوا مؤلم الهم والأسى، وتفرقوا في ذلك أيادي سبأ، وكانوا لمن بعدهم عبرة ونبأ.

وفيها غزا حجيلان بأهل القصيم ومن حوله من العربان، وقصد أهل الجبل فاستقر بذلك المكان، وأقام فيه مدة أيام وليال، وغالب أهل تلك البلاد إلى الدخول في الإسلام في إقبال، فقدم عليه في ذلك الزمن، كثير من بلدان ذلك الوطن، وعاهدوا على الإسلام، ورغبوا في الدخول والاستسلام، ومن أعرض عن ذلك وصد، تصدى حجيلان لحربه وقصد، وتأهب واستعد، وأقبل عليه بالحروب والحراية، حتى يدين بالإسلام ويفتح بابه، وأخذ على من امتنع أموال، في ذلك الوقت والحال، حتى طاعوا للتوحيد بالإجمال، فلم يشد حجيلان للسير عنهم الرحال، حتى تلقى جميعهم الإسلام بأحسن استقبال.

وفيها وفد هادي بن غانم المعروف بأمه قرملة، على عبد العزيز أناله الله تعالى في الدارين ما أمّله، وكان هادي إذ ذاك في الإسلام راغباً، وللدخول في الإيمان والتوحيد طالباً، قد انشرح له صدره، وتبين فيه حاله وأمره، وبرق له من الدين بارق، ولمع منه له ضوء شارق، قبل أن يعرف الحقائق، ويسلك في أبيض الطرائق، فجاء مرغماً لكل عدو منافق، ومشرك ضال زاهق، وهجر من كان محباً له مرافق، ومن كان على الباطل مصادق، ولم يكن ذلك الوقت والحين، في رئاسة فحطان من المعدودين، ولا من كبارهم المشهورين، ولكنه

ترأس بالدين، وصار له الإقبال من إمام المسلمين، لما صدق وتبين على المشركين، ونصح في جهاد المبطلين، فصار له تمكن عند المسلمين، فعاهد حين قدم على الإسلام، ولقد وثى العهد والذمام، وقام بوظائفه أحسن القيام، وبدا له فيه طالع حسن، وجاهد فيه مَنْ عَبَدَ الوثن، وأخلص لله في السر والعلن، وتنصل عن الضلال الذي ترعرع فيه ونشأ، الشرك الذي ملأ جميع الحشا، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

ثم دخلت السنة الثانية بعد المائتين والألف.

وفيها تظاهر كثير من أهل الوادي بالإسلام، ورغب فيه جماعة من تلك الأقوام، وسبب ذلك الإعلان والاشتهار، وتبين تلك الدعوة والانتشار، أن ربيع وأخاه بدن ابني زيد، رئيسي المخاريم^(١) في الشرف والأيد، لما وفدا مع أناس من قومهم على الشيخ وعبد العزيز، وعاهدوا على الإسلام ودخلوا في حصنه الحريز، والتزموا الوفاء بجميع الأحكام، والقيام بذلك أتم القيام، وكان وفودهم قبل ذلك العام، فنفخ الله تعالى به منهم خاضعا وعمام، فلما أرشده الله تعالى وكان له مرشدًا وهادي، وتبين بدعوة التوحيد على أهل ذلك الوادي، أصبح كثير من أهل الضلال، بل أغلبهم له مبغضًا ومعادي، ولرد قوله ومعارضته بالباطل مُمَارٍ مبادي، وأطلقوا عليه أَعْنَةُ الألسنة، وحاولوا البقاء على تلك السنن الباطلة المزمنة، والطرائق الخبيثة الضالة الممتنة، فعند ذلك الحال والأمر، بنى ربيع له ولأهل الدين قصرًا، وشرع في تهئية بنائه حتى أتمه وبناه، فلما فرغ من القصر والبناء، جهر بالدعوة مُجَدِّدًا معلنًا، وبادر بإزالة ما في ذلك الوطن من صنم ووثن، فأشعل في شجرة نار، وكانت معبدًا لأولئك الأشرار،

(١) من الدواسر - كما سبق - .

يزعمون أنها تجلب النفع وتدفع الأضرار، فلم يرُعُهُم إلا دخان تلك الشجرة، وقد قضى منها الإحراق وطره، فعند ذلك تأسفوا عليها وتحرقوا، وتجمعوا على الباطل بعدما تشتتوا وتفرقوا، وانتدبوا إلى عداوة من يتبين بالدين، ونهضوا ثاني يوم على ربيع في قصره مجتمعين، وساروا يريدونه، وهموا بأنهم يذلونه ويردونه، وينزلونه في قصره ويهدمونه، ويجرعونه الحِمَام ويسقونه، فحصرهم في القصر ثلاثة أيام، فصبر على ذلك أهل الإسلام، وقطعوا ما لهم من نخل، وبدا منهم قبيح فعل، وقتل المسلمون منهم رجالاً، ولم يدرك أهل الضلال منهم أملاً، فلما آيس أهل الباطل إليهم من الوصول، وعرفوا أنهم لا يدركون منهم مأمول، وأن المسلمين أكثروا فيهم الجراح، ولم يكن على أهل الدين من جناح، وتحققوا أن ليس في مقامهم لهم صلاح، وعزموا على المسير عنهم والرواح، أخذوا حملاً مذبوحاً، وجعلوه في ماء أهل القصر مطروحاً، وكان ماؤهم خارج القصر من قريب، إلى حد ما يجيد الرامي به ويصيب، فأنتن بعد ذلك عليهم الماء، ووجدوا لفقدة الماء، وقاسوا منه شدة وطماً، فبادروا إلى الحفير، فأظهر الله ماء عين غزير، فشربوا منه وارتؤوا، وتيقنوا النصر من ربههم وارتجأوا، وحكموا به لقوة رجائهم وقضوا، فنالوا بذلك الأجر والفوز وخووا، ولكنهم دفعوا بالتّي هي أحسن، فأعطوا فرساً من تظاهر بالشر وأعلن، فقبلوها منهم وانصرفوا، ورحلوا عنهم وانكفوا.

فأرسل ربيع بن زيد يخبر عبد العزيز بذلك الكيد، ويعلمه بما صدر وجرى، إذ لم يكن به درى، فأمدّه بكثير مال وزاد، وأعطاه سلاحاً وأهبة الاستعداد، وأرسل عبد العزيز إلى مبارك بن عبد الهادي، بأن يساعد ربيع ويقوم معه على أهل الوادي، فحين آتاه الرسول والمكتوب، بادروا إلى ذلك المطلوب، وسار حتى نزل ذلك القصر، وشد الله تعالى به لربيع الأزر، فحاول جماعة

الخطاطبة^(١) بناء قصر مشرف على ربيع، وكانت لذلك طالبة، وفي إخراجه من قصره راغبة، فنهاهم ربيع وحذرهم، وخوفهم وأنذرهم، فلم يتتهوا عن المراد، وشمروا في طرق الفساد، ونصبوا راية الحراية، وشمر كل منهم في البناء ثيابه، فحين شرعوا في البناء، زادهم الله وهنا، وقتل المسلمون ذلك البنا، فحين قُتل منهم بئاهم، ولم يدركوا من البناء مناهم، بعدما غرهم الشيطان ومناههم، ألب عليهم جميع أهل الوادي وتغلبوا، وراموا هلاك الموحدين وتطلبوا، وجمعوا لهم كثيرًا من الآلات، وسعوا إلى ذلك بأسباب وصناعات تسمى الزخافات، وكانت صناديق من خشب مطبقة، لم يُدرَك مَنْ بها ولم يُصب، وفيها من ذوي البأس رجال، وبأيديهم مفاتيح تلك الأقفال، وتسير محمولة على دراريح، يُسمونها العجل أهل ذلك المحل، يرومون إذا قربوا من السور هدمه بلا محذور، وكان به من الناس متحصنين بدروع البأس، وفي كل صندوق ثلاثون من الأبطال، فساروا يريدون السور من غير إمهال، فلما قارب الجدار، لم يكن لهم إليه تيار، ولا وصول ولا اقتدار، بل وقفت الزخافات دونه بعد انكسار أحدهما وانكشاف الأخرى، فتبين من فيها، فأخذ المسلمون يرمونه فقتلوا منهم تسعة، ولم يكن فيهم ولله الحمد منعة، وزحفت تلك الجموع، وتداعت إلى هدم السور تلك الربوع، فرجعوا بالحرمان والخذلان، ولم يفدهم ذلك الكيد والشأن، وأخذ أهل الإسلام منهم سلاحًا ودروع، ولم يكن أحد منهم بما شاهد من الكيد مروع، ولا جبانًا ولا جزوع.

ثم بعد مضي ليل وأيام، أراد الملك العلام على بعض البروج الانقضاض، فصار لأهل الباطل على أهل الإسلام ركضة وانتهاض، فبادروا في الحال بلا

إناءة ولا إمهال، وساروا على أهل القصر، وراموا بهم وقوع أمر، فحمى الله ﷺ المسلمين، وقتلوا ثلاثة من المشركين، ورجعوا ولله الحمد مجروحين مقروحين، ثم بعدما انتضى زمان وأمد، تجمع كل من أهل الباطل ونهذ، وحزب كل منهم وقصد، على أولئك الأقوام، وذلك حين وقع من السور بعض الانهدام، فوقع عند السور القتال والازدحام، وحمي الحرب وحان الجمام، وحقن الله دماء ذوي الإسلام، وقتل من ذوي الشرك والضلال، في ذلك الوقت والحال، أربعة من شجعان الرجال، ثم طلبوا من المسلمين النزول والخروج، فكان للمسلمين إلى ذلك ميل وعروج، فأخذوا منهم الأمان، بشرط ما أخذوا منهم من السلاح في ذلك الزمان، والخروج عن ذلك المكان، ونزل المسلمون منه، وخرجوا بعد ذلك عنه، وقصدوا مبارك بن هادي، فكان يكرامهم مبادي.

ثم بعد ذلك بأيام، قدموا على عبد العزيز الإمام، فأكرمهم جزاه الله ﷻ خيراً غاية الإكرام، وأمدهم جميعاً بكثير من الطعام، ورغدهم منه بجزيل من الحطام، فرجعوا من عنده بأعظم المتنام، وكان لهم في الدين أوفر قيام، فبنوا لهم قصر، وشاع لهم بذلك ذكر، وكان مقابلاً قرية تمر^(١)، فنفذ الله ﷻ بسببه في الوادي أمره، فأقاموا في ذلك القصر مدة شهور، وللدين منهم انتشار وظهور، وغارات أبداً لا تفارق ولا تبارح، بل تغاجى وتغادي وتراوح، جميع تلك القرى والقصور، فلم يكن لأهل ذاك القصر عن جهاد من حولهم تقصير ولا قصور.

ثم بعد ذلك تقضت أيام، وطال لهم فيه مقام، رغب جماعة كثيرة وفنام، في

(١) بلدة تقع في منطقة وادي الدواسر في نجد، تبعد عن السليل حوالي ٢٨ كم غرباً.

منهج الدين وتجريده، والقيام بنصره وتأيينه، وهم الحنابجة والعمور والولامين^(١)، فأرسلوا إلى ربيع ومبارك يريدون الدخول في الدين، ويطلبون منهم أنهم يأتون إليهم، ويقدمون عليهم، فأجابوهم إلى ما أرادوا وطلبوا، فأقبلوا فضيلة الإسلام وحُبُّوا لما أحبُّوه ورغبوا، وحاولوا كغيرهم في إطفائه سابقًا وتعبوا، فلم يحصلوا ما أمَّلوه بعد أن سئموا ونصبوا، فعاهدتهم على الحق والهدى، والتبيين في طمس منار الضلال والردى، وطلبوا من ربيع ومبارك النزول معهم حتى يجاهدوا معهم العدا، ويجالدوا من تعدى عن الحدود واعتدى، وراح في طرق الشرك واغتدى، فكان منهما إلى الدعوة ميل وإزماع، وإلى الإجابة لما أرادوا حث وإسراع، فخرج ربيع من القصر وسار، وكان له في الدراسة عند الحنابجة مقام وقرار، فأعلن عندهم لله تعالى بدعوة التوحيد، وكان للمدين فيهم تصدير وتوريد، ولأهل الضلال فيهم تنخيص وتنكيد، ورعب ليس وراءه مزيد، لا يطيب لهم في الوادي سكن، ولا تطعم عيونهم لذة الوسن^(٢)، ويدعون على مَنْ جَرَّ ذلك عليهم وسنَّ، وأرهف المواضي على إظهاره وسنَّ، وأحمى عليهم الغارة وسنَّ، فلما طال عليهم الأمد والزمان، وقاسوا منه مصائب وامتحان، ولم يجدوا لهم نفعًا مما كانوا يعبدون، ويستغيثون بهم في الشدة ويدعون، ويخافونهم أشد الخوف ويرهبون، ويؤثرونهم في المحبة على الحق ويرغبون، من يكشف عنهم هذا الخطب، ويُفرج لهم هذا الكرب، كلا، لقد خابوا وخسروا، وضل سعيهم وعثروا، وأشركوا بالله تعالى وكفروا، فلم يعانوا ولم يُنصَّروا، فعند ذلك اجتمع رؤساء ذلك الشأن، ومن تظاهر بالفسق والعصيان، وتفكروا في الحال والمصير،

(١) من فروع قبيلة الدواسر.

(٢) النعاس.

وشرعوا في إبرام حبل التدبير، وهيهات، قد نفذ القضاء فيهم والتقدير، ولكنه في إبانة وحينه يصير، فلم يلفوا لهم إلى المراد سبباً ولا ملاذاً، ولا مرتجى ولا ملجأ ولا معاذاً، إلا إلى الوصول إلى نجران، كي يستجيشوا من هناك من العربان، فاجتمع رأيهم على ذلك المتوال، وظنوا أنهم يُدركون من المسلمين به منال، ويطفؤون نور الله الذي ربا في الضياء والاشتعال، وأزال دياجر الإشراك والإضلال، فخرج رؤسائهم الفجار، وقوادهم الأشرار، وهما جماهر كبير الرجبان، وحويل كبير الوداعين ذوي العصيان، فعمدوا إلى رئيس نجران، وأخبروه بجميع ما كان، وبثوا ما جرى عليهم من أهل الإيمان، وشكوا عنده بث الهموم والأحزان، وندبوه على إغاثتهم سريعاً من غير توان، وأخبروه أنه إن لم يبادر إلى حسم هذه المادة، ويقطع السير والسلوك في هذه الجاذة، وتصير أسنة عزمه مشحوزة حادة، وأهل الدين من فرط حده وحدته نادة، فليس والله دون بلدانك، والهجوم عليك في أوطانك، لنا فئة مانعة رادة، ولا جنود لهم مصادرة صادرة، فاختر لنفسك قبل اتساع الخرق على الراقع، وراموا من عداوتهم وسخف عقولهم مدافعة النازل الواقع، والمقدّر في سابق الأزل فليس له من الله دافع، فتعالى وتقدس من لا تحيط بغيّه التّهي، وتقف إزعاناً لهيبته المخلصون فيما أمر ونهى.

فلما سمع الرئيس مقالهم الفظيع، وتخويفهم الشنيع، سرى إليه الرعب والوجل، ومزج شغاف قلبه ودخل، وغره الشيطان والنفس والأمل، وما رأى من الخول^(١)، ومن يسير معه حيث سار من الدول، فعز ربنا وجل، حيث لم يأخذ الظالم على عجل، ولا يدعه أيضاً همل، بل ينتقم منه على مهل، فيما قدر

له من الأجل، فنهض إلى تلك الإجابة، واستدعى للسير أصحابه، وأزمع على ذلك طلائه، فكان ولله الحمد الذل غايته ومآبه، فسار مُجَدًّا يريد سرعة الوصول حتى يفوز بالمأمول، فنزل على الرجبان والوداعين، الذين كانوا لمجيئه من الساعين، فاجتمع عنده خلق لا تعد ولا تحصى، ولا تحسب ولا تستقصى، فحين رأى تلك الأمم، سلك معهم ذلك الأمم، وارتحل بمن معه ممن نهج مناهجه، فسار حتى نزل على الحنابجة، فتراموا معه من بعيد، واقتتلوا قتالاً شديداً، فلم يئل منهم ما يريد، وأقام على هذه الحالة يسدد عليهم سهامه ونصاله، ويمد من أسباب المكر، ما ينتجه الرأي والفكر، وكل يوم تطلع شمسهِ وتغيب، ويجري ويصدر من القتال فيه بينهم أوفر نصيب، ولكنَّ القريب الممجب، ثبت أقدام أهل التوحيد، وكان لهم معيناً ورفيق، وربط على قلوبهم فلم يمازجها إرجاف ولا وجيب، بل كان صدر كل واحد منهم منشحاً رحيب، فلما بان له منهم الإفلاس، وكان من المراد على بأس، رأى أن ليس عليه في الارتحال بأس، فارتحل ولله الحمد رغماً على ذوي الإبلas، وأهل الضلال من الناس.

فلما ذهب رئيس نجران منصرفاً، وولّى ذليلاً منحرّفاً، ورجع إلى بلاده متأسفاً، رجف قلوب قرى الدواسر، فكان بعض منهم إلى طلب الإسلام مبادر، فطلب الرجبان من ربيع الدخول في الإسلام والإيمان، فأجابهم إلى ما طلبوا وأرادوا، وعاهدوا على ذلك فزادوا واستزادوا، وأقبل جميع الوداعين، وكانوا في الإسلام راغبين، وتتابع على ذلك كافة القرى، فأغناهم الله تعالى بعدما كانوا فقراً، ولكن نفوسهم لم تكن بذلك تطيب، ولم يكن لهم إذ ذاك من النور حظ ولا نصيب، ولكنهم يقولون: ما برحنا حرباً يُصاب منا ولا نصيب. فانقادوا مستسلمين، وأذعنوا للدين مكرهين، فلما صدر ذلك عنهم، وفد ربيع

وجماعة منهم، على الشيخ وعبد العزيز وأخبره بما صدر، فحمد الله تعالى وشكر، وقابلهم بالحشمة والإكرام، وأجزل عليهم الصلة والإنعام، وطلبوا منه معلمًا للتوحيد والأحكام، فأرسل معهم عبد الله بن فاضل، فكان لوظيفة التعليم فاعل، وبقوا على ذلك نحو ستة شهور، ثم كان لهم عن الدين إعراض ونفور، وللشرك ورْدٌ وصدور، وانشرحت لهم به صدور، واجتمع على ذلك الرجبان والوداعين، وخلعوا عرى التوحيد والدين، ودخلوا فيما كان لهم معتاد، وسنن الآباء والأجداد، وشربوا كؤوس الغي والفساد، وأقاموا على الضلال في استبداد.

وجاء الخبر عبد العزيز بذلك، فجهز لهم سليمان بن عفيصان مع جيش يجاهدكم هنالك، ويوردهم من الهلاك مسالك، ويقحمهم منه أعظم المهالك، فسار بمن معه ممتثلًا، وقدم عليهم عاجلاً، فصب عليهم من العذاب عارض سكوب، وشب فيهم لظى الخطوب، ودام فيهم القتل والقتال، حتى أنكا أهل الضلال، ونكد عليهم العيش والبال، وضاق عليهم الحال، وعانوا عقوبة الأفعال، عاجلاً من غير إمهال، فبعد ذلك رفضوا وهانوا، ورغبوا في الإسلام ودانوا، فطلبوا ذلك من سليمان، فأجابهم من غير توان، وشرط عليهم القдом على عبد العزيز معه في الحال، والرضا بما يريد من النكال، فقدموا معه إلى الدرعية، راضين بما يصدر عليهم من قضية، فعاهدوا عبد العزيز على الإسلام، وشرط عليهم في عقد الأحكام ألفين ريال، وألف اتفق أن تسلم في الحال، فالتزموا ذلك وتحملوه، ووفوا به وسلموه.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، أدام الله تعالى له النصر والتمكين، فحث سيرة ومسراه، وكان وصوله عنيزة هو الذي اقتضاه ورآه، وذلك أنه نما إليه صحيح الخبر، أن بعضاً من أهل عنيزة بحث عن أسباب الارتداد وحفر، وتحقق ذلك

عنه واشتهر، فعند ذلك أجمع على السير إليهم وظهر، فنزل عليهم بعد أيام وليال، ومكث عندهم يستبيري الحال، ويتحقق ذلك على يقين، لئلا يقدم على ما يريده بتخمين، فيخالف قول رب العالمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَائِزٌ يَأْتِيكُمْ فَحَبِّبُوا أَنْ تَكُونُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَاصْبِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، فلما لاحت له شمس التيقن والإيقان، من عدول أهل الإسلام والإيمان، من سكان ذلك المكان، وتحقق ذلك الأمر واستبان، وكان آل رشيد من ذلك النفر والملا، أمر عليهم بالجلا، وكل من لهم تابع، وفي أسباب الشر طامع، وأزال منها كل من يحذره ويخشاه، وأمر عليهم علي بن يحيى لاختياره ورضاه، ثم انصرف راجعاً.

وفيهما غزا سعود بالمسلمين يريد بني خالد، فأقام في الدهنا يريد أن يتحسس، ويتفحص الأخبار عنهم ويتجسس، فاستقر الخبر أنهم قد أشملوا وثبت عنده، فبدا له عنهم ورفض قصده، وانصرف.

وفيهما غزا سليمان بن عفيصان وجمع من الموحدين، وكانوا لأهل قطر في تلك الغزوة مريدين، فأسرع في سيره لأجل قضاء الوطر، فلم يلبث أن صبح الغارة آل أبي رميح من أهل قطر، فدهمهم في تلك الأرض على اغترار، فلم يتقدم قبله إنذار، وحصل منهم للحرب بدار، وجولان دون المال والأعمار، حتى أراد الله للمسلمين عليهم الانتصار، فانهزموا وولّوا الأدبار، وقتل منهم نحو الخمسين، وأخذ جميع ما عندهم من الغنم والسلاح والأمتعة والركاب، ورجع نبيل المطلوب وآب.

وفي تلك الغزوة صبح سليمان بن عفيصان بلد الجشة^(١) من الحساء، فلم

(١) تبعد عن مدينة الهفوف حوالي ٢١ كم.

يشعروا إلا بعد الحرب والهم والأسى، وقد ملك عليهم السور، وحاط بهم المكروه والمحظور، فانتدبوا للقتال، وتداعوا للمجال ولقاء الأبطال، وبذلوا الجذ في الجلال، مخافة الاستيلاء على البلاد، واستيصال العباد، وطال الحرب بينهم ذلك اليوم، وقتلت بعض رجال من أولئك القوم.

وفيها أمر شيخ الزمان، وعلامة الوقت والزمان، وحائز قصب السبق في الميدان، ذو الحجج التي بهرت حين ظهرت، والقواطع التي صدعت حين صدحت، والبراهين التي قمعت إذ لمعت، وسطت على الأعداء لما سطعت، المزيل عن التوحيد برقعه، المبين لذوي الألباب حسنه وموقعه، الجالي دجى الضلال، والقالبي للغواة الضلال، كاشف غيبه البدع والإشراك، القائم في ذلك حسب الطاقة والإشراك، وليس بمداهن فيه ولا تراك، ناهج منهج البيان والصواب، محمد بن عبد الوهاب المسلمین أن يبايعوا سعوداً على الإمارة بعد أبيه، أطال الله تعالى عمره، وصرف عنه سوء وأجاره، وكثر جنده وأنصاره، ومد في أجله طول الأمد، وأنجح له ما أرادته وقصد، فنهض إليه كافة الناس، وتناوبت البيعة أنواع وأجناس، وأعطوه الصفقة المحققة من غير التباس، فاتفح له نهجها واستبان، حتى بايع على ذلك كافة أهل التوحيد والإيمان، وتعاهدوا على التزام الطاعة بالإيمان، فتثبت له عند ذلك الإمارة واستمرت، وحقق له بعد والده واستقرت، وكانت بيعة معلومة مشهورة، متقنة بأحكام الشرع معدودة، مؤسسة دعائمها على القانون المطلوب الشرعي، والمنهج المرغوب المرعي، لا ينازعه أعاده الله من ذلك إلا شربير ظالم، ولا يقوم عليه إذ ذاك فيها قائم، إلا وهو متعدد غاشم، وصل الله تعالى بالائتلاف حبلمهم، وجمع على المحبة والاتفاق شملهم، وأجارهم عن ركوب خطر الاختلاف، وانتهاج منهج القطيعة والأجناف، وحماهم عن الوقوع فيما دمر أولئك

الجموع، وأخلا منهم المنازل والربوع، وطهر عن الشحاء قلوبهم، وأنالهم سؤلهم ومطلوبهم، وذبت عنهم ما دَبَّ في الأمم قبلهم، من الحسد، الذي أهلك الديار وأهلها فلم يبقَ منهم على أحد، وذلك بعدما عرف أبوه حاله ومسيره، وتحقق سيرته واختبره، فترجح عنده بيقين العلم والفهم، على التحقيق والعزم، ما شرف به من الدهاء والعزم، وما خول من السياسة والعزم، وما تلاً في غرته من طالع السعادة، وما لاح في جبينه من بارق السيادة، وما عاناه في رفع منار الهدى من مصادمة أهل الردى، حتى رفع الله تعالى به للملة الوسطى عموداً، وعاد معيها بعدما كان آجناً موروداً، وأورق به غصن الحق بعد ذبوله، وأسفر قمر التوحيد بعد أفوله، فرآه أهلاً للسياسة، وكفوا لمنصب الرئاسة، فحمل أعباءها كاهله، فكانت إليه آيلة أهلة.

وفيها غزا سعود بالمسلمين، فوافق البيعة أسلاًفاً من عزة مجتمعين، وكانوا إذ ذاك بأرض قني^(١) من نجد مقيمين، ولم يكونوا أولئك نتيجة سيره وقصده، ولكن عرضوا له في طريقه وجده، وغنمه الله تعالى لإسعاده وسعده، فلما رأتهم من المسلمين أولو التقدم والسبق، قالوا هؤلاء أتوك وفق، وعرفوهم على اليقين والتحقيق، وكان هذا الطريق أيمن طريق، فقد نالوا منه مرادهم من غير نصب ولا تعب ولا تعويق، فشن عليهم الغارة المسلمون، وأتوا من حيث لا يظنون، فتبادر من عندهم من فارس وشجاع، وانتدب إلى الأفراع، وتسربل للطعان والدفاع، وتلاحق من عندهم من العدد، ولم يبقَ منهم أحد، ومن-تهم أنفسهم الغرارة، أنهم يقيمون أهل الغارة، فظاعنوا زمناً يسير، ورأوا أن ذلك لا يجدي ولا يضير، وليس دون الفرار من مصير، ولقد صدقوا في العزم والأفعال، ولكن

(١) في عالية نجد.

عادة الله تعالى في أهل الضلال، سرعة الخذلان والإذلال، فانهزموا على الأعقاب، وليس لهم من دون الذلة والخزي من مأب، وقُتل منهم في ذلك المجال عدة من الرجال، وغنم المسلمون منهم غنيمة كثيرة من أنواع المال.

وفيها غزا سليمان بن عصفان مع جمع من قومه أهل الإيمان، وقد أمره عبد العزيز أن يغزو من الحسا العقير^(١). فحث لذلك القصد والمرام والسير، فأسرع في ذلك المنهاج، وطوى تلك الفجاج، حتى وصل إلى ماء حرض، فإذا عويس^(٢) بن غفيان^(٣) مع غزو أهل اليمامة خارجاً من الحسا قد عرض، وكانوا نحو الخمسين، وقد خرجوا من الحسا مغترين، ولبلدان المسلمين مريدين، فالتقى معهم أهل التوحيد، ونازلوهم منازل الأبطال الصناديد، فبذلوا دون أعمارهم الجهد الجهد، وأبدوا من الإقدام ما ليس وراءه مزيد. فأحانهم^(٤) القوي المتين، فقتلهم المسلمون أجمعين، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، فأخذوا ما معهم من ركاب وسلاح، ثم سار لقصده فرحاً مرتاح، فجد السير حتى صبح العقير، فأخذ ما في الخان من الأموال، وصعد القلعة من فيه من الرجال، فأقاموا فيها متحصنين، وأصبح بيوت الجريد به محرقين، أضرم في جميعها النيران، سليمان بن عفيصان.

ثم دخلت السنة الثالثة بعد المائتين والألف.

وفيها غزا سعود، بلغه الله تعالى المنصود، ومعه جموع كثيرة هائلة وجنود لا يحصى لها عدد ولا يحصرها أحد، وتوجه يريد بني خالد، وكان على لقائهم

(١) الميناء المعروف. يبعد عن الأحساء حوالي ١٢٠ كم.

(٢) تصغير «عيسى».

(٣) قال ابن بشر (١ / ٨٣): «العبد الفارس الشاعر المشهور».

(٤) أي: أصابهم بالحقن، وهو الهلاك.

جاهد، فجذَّ إلى مراده السير والسرى، وطرد عن عيونه في ذلك الكرى، حتى أراد الله تعالى أن يلتقي الجمعان، في أرض بني خالد بمكان، وكانت جموع بني خالد قليلة العدد، وأكثرهم متفرقون في أرض ذلك البلد، ووافى منهم من العربان والأسلاف، قوم دويحس وعبد المحسن من غير خلاف، فلما طلع عليهم سعود وجنوده، كان كل منهم الهروب مقصوده، ولم يعزموا على إقامة وبقاء، فضلاً عن مقاتلة ولقاء، ولكنهم يرجون تلك الساعة، يدبرون من الرأي فسيحه واتساعه، فأسرعت إليهم من تلك الجنود فرسان، وناوشوهم بعض الطعان، ولم يطل بينهم ميدان، ولم يتفق مجاورة طويلة بين الفرسان، وكان ذلك لموجب وشأن.

وذلك أن سعوداً، حرسه الله تعالى، أسرَّ له في ذلك اليوم أن بعض من عنده من القوم يريد الخيانة لبني خالد، وأنه على ذلك مواعد، وتحقق ذلك الأخبار، فلم يكن له إلى اللقاء اختيار، فسأل الله تعالى ودعاه واستخاره، فأرشده لخبرته وإرشاده، وهياه إلى إرادته وإسعاده، فانصرف راجعاً إلى بلاده، ومر ببلدان أهل القرى فأخذ ما عندهم لبني خالد من الزاد، وقتل عيوناً قبل الملاقاة لعبد المحسن.

ولما رجع سعود مع ما أتى معه من تلك الجنود، ولم يلتق مع تلك الشرذمة القليلة، كان ذلك إلى طغيانهم وعتوهم وسيلة، وعلى فئانهم وإذلالهم حيلة، وأي حيلة، ولكنها لم يحكم الرأي لها عقداً، ولم ينظم الفكر لها عقداً، ولا أحسن إبرامها التدبير، بل القضاء والتقدير.

وفيها غزا سعود، حرسه الله تعالى، بالمسلمين الحاضرة منهم والبادية، بعدما بعث إليهم بالجهاز مناديه، فأسرع كلُّ منهم إليه مباديه، وسار حتى نزل خفيسة الدجاني^(١)، ينتظر من قومه القاصي والداني، فلما اجتمعت الجيوش

(١) روضة بالصمان.

عنده، أرسل إلى والده يبين له قصده، ويشير عليه بما يشاء ويريد، لأن أباه مبارك الرأي رشيد، فأشار عليه إلى ثويني بالوصول، ففسى أن يحصل منه المأمول، فسار إلى ذلك المراد، يريد أولئك الشداد، وجاءته في أثناء طريقه عيونه، حتى تخبره بتوقيفه، فأعلموه أن جميع الأعداء، وأهل الزيف والردى، كلهم على حمض^(١) مجتمعون، فعجل إليهم لثلا يكونوا بمجيئه يعلمون، فلم يجتهر أحد قبل الغارة، فكانت لهم هي النذارة، فلما أقبلت عليهم فرسان الإسلام، كان لبني متفق إليها بأس وإقدام، وسرعة اختلاط والتحام، فانكسرت فرسان المسلمين، فأمر عليهم سعود أن ينيخوا أجمعين، وأخبر أهل الدين والإسلام، أن ليس هنا إلا الصبر على ما قدر العلام، وتجريد مواضي العزم والهزم، فعاقبة الفشل والفرار تدم، وبحصل بها لفاعله الندم، فوطنوا أنفسهم على الزحام، وعرفوا أنهم على أحد الحُسينين: الغنيمة أو دار السلام، فاصطفوا ميمنة وقلبًا وميسرة، وأقبلت تلك الجموع تصادم كل منهم، فلم يلفوا على المسلمين مقدرة، وقد بذلوا دون الهزيمة المعذرة، فلما لم يجدوا بُدًا إلى العز والسلامة، وعرفوا أنهم مهما أقاموا ذاق كل منهم حِمَامَه، فامتطوا الأقدام في الفرار والانزهاز، ولم يصبروا على الزحام، وكل من أولئك الشجعان رضي بالذل والهوان، وأرخصى له الأوسان^(٢)، وطاع بها قهراً من غير إذعان، فغنم أهل الدين والإسلام، ما معهم من جميع الحطام، على كثرة أجناسه وأصنافه، وفرط تباينه واختلافه، من بعض الخيل والأثاث والأمتعة والخيام، والصيوان^(٣) المشهور الأعلام.

(١) شمال قرية العليا، بالقرب من حدود الكويت.

(٢) الغنوة.

(٣) يُطلق على الخيمة الواسعة.

ولما حقق الله تعالى لسعود الإسعاد، وأناله من أعدائه المراد، وأراد الانصراف إلى البلد، ظن كافة غزاة المسلمين أنهم يصيرون لقرية واردين، بل جزموا بذلك وتحققوه على اليقين، لكن أراد أمراً فأراد الله ضده؛ ليخذل الباطل وجنده، ويظهر شرف من أراد عزه ومجده، فلما أناخ سعود للراحة في القائلة، كانت نفسه عن ورود ذلك الماء مصروفة مائلة، وبدا له عن ذلك الطريق، لما أراد مولاه له التوفيق، وأعرض عن ذلك المراد، فلم يكن له إليه إلمام، لما أراد الله له العز والإكرام، فلما استقلت به راحلته وثار، وصرف وجهها إلى غير قرية بهتت الغزاة وحارت، ووجلّت قلوبهم من ذلك وطارت، فبادر إليه صالح أبو العلا، وأخبره بتملل أولئك الملا، وكان أبو العلا هو الدليل، فأخذ يلاطف سعود ويستعطفه ويستميل، حتى أعلمه أنه يريد الشرب من الوفرا^(١)، ليقضي الله تعالى له أمراً، فلما علم الدليل ذلك الحال، واستولى منه صحيح المقال، أخذ يشدد ذلك عليه، ويعسر المسير إليه، وقال له وهو في ذلك صادق: تصل إلى بلادك في أحسن الطرائق، قبل أن تصل إلى ماء الوفرا، فاختر لنا ولنفسك الطريق الأخرى. فلم يُجِد فيه ذلك الكلام، فسار حتى ورد الماء تلك الأيام، فشرب من الوفرا، ونوى بعدها الحفر^(٢)، وجد في سيره يريد الورد والصدر، حتى إذا توسط وغارب البید، عنّ لهم أن على ماء الحفر طلباً رصيد، وحزباً يريدهم قعيد، فعلم الله حالهم؛ فلفظ بهم وأنالهم، وسقاهم من فيض السحاب شؤبوب، وأمطرهم من الرحمة عارض سكوب، فاستقوا من ذلك العذب الزلال، فطاب لهم الحال، لكن لم يعد خطتهم ذلك الوابل، بل

(١) مدينة صغيرة تقع في أقصى جنوب الكويت قرب الحدود السعودية، تابعة لمحافظة الأحمدية، وكانت جزءاً من المنطقة المحايدة.

(٢) حفر الباطن.

كان لإغاثتهم نازل، ولرثيهم هامل، فنزل عليه يريد جميع الغنيمة، فساق الله تعالى من أياديه الكريمة، وأهدى له من مواهبه الجسيمة، ركبًا من آل سحبان^(١)، كبيرهم ابن مغجل، فقتلوا أجمعين، وكانوا قريبًا من التسعين، ثم انصرف إلى بلاده مؤيدًا منصورًا، مأنوس القلب مسرورًا، ورايات الإقبال عليه خافقة، والألسنة بتوفيق الله له ناطقة.

وفيها غزا سعود، أناله الله تعالى مراتب السعود، فسار بالمسلمين يريد الأحساء، فحث السير لذلك المرام، والهجوم على أولئك الأنام، حتى أشرف على البلاد، وظهر له منها السواد والقتام، فأناخ على المبرز^(٢) حين غطى الضياء الظلام، واستحكم الكرى والمنام، في مقتل أولئك الأنام، فلم يتبين من النهار ضوءه وبياضه، ويبدو من الإظلام تقشعه وانتهاضه، حتى بدت خيله وحُماته، وشهرت أصوات البنادق رُماته، وقد كانوا قبل ذلك الوقت والأوان محيطين بفريق العتبان، فحينما نهضوا يريدون الأصوات، أجاد كثيرًا منهم أولئك الرماة، فلم يكن لهم سبيل إلى الخروج، بل كانوا إلى السطوح في عروج، فدافعوا عن الدخول والهجوم، فلم يكن للمسلمين عليهم إقدام بعد القدوم، ثم بعد ذلك اجتمع أهل المبرز فخرجوا إلى الفضاء، وجالوا مع المسلمين ساعة، ثم رأى سعود الانصراف عنهم وارتضى، وأحكمه فكره واقتضى، فانصرف عنهم ومر الهفوف، ولم يرد عندهم وقوف.

ثم مضى من ساعته يريد الوصول إلى قرية الفضول، فأناخ عليهم وسط النهار، وشمر للحرب معهم الإزار، وأحاطت أجناد الموحدين بأولئك القوم

(١) من بني خالد.

(٢) تبعد حوالي ٢ كم عن مدينة الهفوف بالأحساء.

المبطلين، وأحدقت الفرسان والرماة والأبطال، بقرية أهل الزبيغ والشرك والضلال، وغطاهم من فوقهم سحاب الهلاك، وحن لهم الاستئصال والإهلاك، وأمطروهم من غيم العذاب عارض، فكان لنفوسهم الخبيثة قارض، وراموا للمسلمين دفعا، وظنوا أن البلد تنال بهم امتناعا ومنعا، فجدوا واجتهدوا كافة، ودعوا آلهتهم كما هو عادتهم عند المخافة، ورفعوا أكف الدعاء والسؤال، وأخلصوا التضرع والابتهال، إلى من لم يفرج عن نفسه أدنى الكرب، فضلا عن كونه يدفع النوائب والخطوب.

فلما فرغ سعود من صلاة المساء، هب له نسيم الصبا، فزال عنه الأسى، ودعا ربه بحضور قلب وبإل، أن يحسن له العاقبة والحال، ويمكنه من هؤلاء الضالّ، فاستجاب له ربه دعوته، وعجل له طلبته، وأنجح له سؤله، وحقق له مأموله، فنهذ إليهم مسرعا ونهض، وحفنه النصر وأقبل عليه الإقبال وعرض، فشدوا على القرية الحملة، فانتدبوا إلى الفرار جملة، فلم يلقوا لهم هداية ولا توفيق، لكون المسلمين قد ملكوا عليهم كل فج وطريق، فعند ذلك كلهم راموا الاختفاء في البيوت والدور، فنزل بهم قضاء الله المحتم المقذور، وحل بهم الأمر المشهور، فدخل عليهم في تلك المنازل، فوردوا من الحمام أمر المناهل، وشربوا منه كأسا، وأنزل الله تعالى عليهم بأسا، فقتلوا قتل النعم، وسحبوا سحب البهم. وكان أكثر الرجال وجدهم المسلمون، وهم في بيت من البيوت مجتمعون، وكانوا ثلاثمائة نفس، فقتلوا جميعا من غير لبس، وقتل غيرهم ذلك اليوم، ممن اختفى من أولئك القوم، وأخذ المسلمون جميع ما في القرية مما ينقل من المال، وأنواع السلاح والحيوان والأمتعة والأواني وبعض الطعام شيء له بال، وانصرف سعود إلى بلاده راجعا، وقد كان عسكر الحسا ذلك اليوم مقيم، فلما برزوا أراد منهم المسير إلى الفضول مع جميع أهل

المبرز، فأبى كل منهم وما أحرز، بل أبدى الذل والرعب وأبرز، ونادى على نفسه بالجين والذلة، ورضي لها بالمذلة.

وفيهما توفي الشيخ عيسى بن قاسم، وكان بنشر الدين مُجِدًّا قائم، ولتعليم الناس ملازم، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت السنة الرابعة بعد المائتين والألف.

وفيهما وقعة غريميل^(١)، وذلك أن سعودًا، حرسه الله تعالى، وأسبغ عليه نواله ووالى، جمع المسلمين ومن لهم من البوادي والعربان، وسار معه بعض بني خالد الجلولية، مثل زيد بن عريعر، وقصد بني خالد وجد في ذلك الشأن، وجاءت إلى بني خالد بذلك الأخبار، وأسرعت قبله إليهم الأنداز، فأرسل عبد المحسن إلى أهل الحسا يريد منهم الدول، ويحثهم على ذلك فلم يُصْغِ قوله ولم يُمْتَثَل، وحاولهم أخوه ثواب وخوفهم، فلم يجد فيهم، فانصرف منهم على عجل، بخيبة القصد والأمل، فنزل بنو خالد بأرض غريميل المعروف، وكانوا حينئذ جماعة كثيرة وصفوف، يزيدون على آحاد الألوف، وأقبل سعود بأهل التوحيد، فنزل تجاههم بثؤدة وتأيد، فتقابلت تلك الصفوف، وتقاتلت تلك الألوف، وبرحوا أول النهار في تجلد واصطبار، وجولان بينهم وطراد، ومناوشة بعض وجلاد، حتى بان وقت العصر وحن، وأُذِيت فريضتها على سكيكة واطمئنان، ونشق أهل الدين نسيم الصبا، وسبق كل منهم إلى الجلال وصبا، وياعوا على الله ثمين الأعمار، آخر ذلك النهار، فصبر عند ذلك بنو خالد، ورام كل منهم أن يقاتل دون ماله ويساعد، فلم يكن المولى لهم مساعد، فزحزحهم المسلمون عن مصافهم العالية، وأمست رماثهم عن مواقفهم جالية،

(١) قال ابن بشر (١ / ٨٥): «جيل صغير تحته ماء قرب الأحساء».

وأمسى المسلمون لأعقابهم تالية، وانهمز جميع تلك الأمم، ولكن أقبح فرار ومُنْهَزَم، فأنحدرت الرماة من رفيع تلك الآكام، مشمرة في الفرار والانتهزام، وملك المسلمون محلهم، وشتت الله شملهم، ولم يبرحوا بعد ذلك النزول والانحدار، في تسمير الساعد والإزار، للانتهزام والفرار، وكانوا آخر نهارهم وبقية ليلهم إلى أسحارهم في هزيمة وانكسار، وضياح أموال ودمار، لا يلوي أحد على ماله وأهله، ولا يروم سوى نجاة عمره لقبح فعله، وحق للمسلمين ولله الحمد عادة الله ووعد، وعمهم فضله وإحسانه ورفده، وتفضل عليهم بتلك الغنيمة العظيمة، فحَوَّوا تلك الأموال الجسيمة.

ولكن سعود نهج معهم منهج الكرم المعدود، وأحسن فيهم السيرة، ولم يؤاخذهم بما سلف منهم من الأمور الكبيرة، وسابق تلك الجريرة، وما راموا من الأمور الضريرة، فما جار فيهم ولا قطع، بل أعطى ومنع، ووصل ورفد، ولم يُعاقب منهم أحد. وأسدى إليهم المعروف وتغَوَّل، وأبدى إحسانه عليهم وتفضل.

واختلف حال أولئك العربان، بعدما حق عليهم الذل والهوان، فبعض صار وجهه من ساعة الهزيمة الفرار إلى الأحسا، فازداد هواناً وتعساً، لم تزل فرسان الموحدين في أثرهم مظليين، ولاكثرهم مدركين، فلم ينجح بما عنده إلا القليل، مثل ابن جرذي وغيره، فما كان عليهم من سبيل. وبعض صار وجهه إلى سيف قطر، وذلك عبد المحسن وعيال عريعر الذين معه، وبعض من جماعتهم، فكلَّ قصد الزبارة وصدر، واختارها لنفسه بعد التأمل والنظر والفكر. وأكثر أهل البوادي والعربان، اختاروا الاستقرار في الحسا والاستيطان، فشمروا في طلب الأمان من سعود والدخول في حوزة أهل الإيمان، فأعطاهم ذلك وأنالهم، فأدركوا منالهم.

ولما انقضى شأن غريميل كما سَطُرَ وقيل، أراد سعود، حرسه الله تعالى، من زيد بن عريعر أن يسير معه إلى الحسا، حتى يقيم فيها علم التوحيد والدين، ويُزيل ما فيها من بدع المبطلين، ويحقق على أهلها العهد، في الدخول في الطريق المحمود، حتى يستمروا على سنة خير المرسلين، ويقلعوا عما كانوا عليه من سنة آبائهم الذين كانوا لهم مقلدين، وبآثارهم وآصارهم مقتدين، فأبى عن ذلك وتعلل، وتضجّر وتململ، فأراد سعود إليهم الحصول، حتى يتم المقصود والسؤل، فارتحل من ذلك المكان يريد ذلك الشأن، وفي أثناء ذلك الطريق عنّ في قلبه أمر وخطر، صرفه عما إليه بدر، فشمر للظهور إلى نجد فظهر.

وفيها غزا ربيع المسمى قاعد بجماعة من قومه، فشمر لعزمه الساعد، وسار بمن معه وساعده وتبعه، يريد بعض البدوان، ممن صدّ وأعرض عن الإيمان، فلما أشرف على بني هاجر^(١)، وكاد أن يكون عليهم غائر، ولجمعهم مشتتًا كاسر، سوّل الشيطان لأكثر من معه من البدوان وغزاة العربان، أن يخلعوا حلة الدين ويفتكوا بالمسلمين، فلما أغار على عرب بني هاجر، انخذل عنه أكثر من معه سائر، وصار غالب أهل البادية، على من بقي معه عادية، ولم يثبت مع جيش المسلمين سوى ابن قرملة وأحمد بن نجان، فكان لهما ثبات على الإيمان، فعند ذلك اشتد الكرب والبلاء، على المسلمين من ذلك الملا، ووقع بينهم القتال، وحمي بينهم المجال، واستمر الطعان والضرب، واشتد الخطب والكرب، من آخر النهار إلى هزيع من الليل، والأبطال تقحم في ذلك المعرك الخيل، فُقُتِلَ من المسلمين نحو العشرين، وأخذوا منهم مثلهم مأسورين،

(١) من قبائل قحطان.

وكانت تلك الوقعة تسمى (الليلى)، عند أولئك البرية، فبعد صدور تلك القضية، طمعت في الردة النفوس الشرية، وأهل الأفعال الردية، فارتد جماهير وحويل ومن معهم من الأقوام، وعدلوا عن مناهج الإسلام.

وفيها أرسل غالب الشريف إلى عبد العزيز، حرسه الله تعالى، كتاباً وذكر في أثنائه أنه يريد إنساناً عارفاً من أهل الدين، حتى يعرف حقيقة هذا الأمر الممين، ويكون فيه على بصيرة ويقين، فأرسل إليه عبد العزيز الحصين، كي يشرح له بلسان الخطاب، وجه الحق والصواب، ويزيل عن محياه النقاب، فيبدو عند ذلك لآل السنة، فيدعو حينئذ لمن أوضح هذا السيل وسنّه، وكتب معه الشيخ إليه رسالة، بين فيها دعوته ومقاله، ونصّها بعد البسملة:

من محمد بن عبد الوهاب، إلى العلماء الأعلام في البلد الحرام، نصر الله بهم سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وتابعي الأئمة الأعلام، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

جرى علينا من الفتنة ما بلغكم وبلغ غيركم، وسببه هدم بنيان في أرضنا على قبور الصالحين، ومع هذا نهيناهم عن دعوة الصالحين، وأمرناهم بإخلاص الدعاء لله، فلما أظهرنا هذه المسألة، مع ما ذكرنا من هدم البناء على القبور، كَبُرَ على العامة، وعاضدهم بعض من يدعي العلم لأسباب ما تخفى على مثلكم، أعظمها اتباع الهوى، مع أسباب آخر، فأشاعوا عنا أنا نسب الصالحين، وأنا على غير جادة العلماء، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب، وذكروا عنا أشياء يستحي انعاقل من ذكرها، وأنا أخبركم بما نحن عليه بسبب أن مثلكم ما يروج عليه الكذب، على أناس متظاهرين بمذهبيهم، عند الخاص والعام، فنحن ولله الحمد متبعون لا مبتدعون، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وتعلمون أعزكم الله أن المطاع في كثير من البلدان لو تبيين بالعمل

بهايتين المسألتين، أنها تكبر على العامة الذين درجوا هم وآباؤهم على ضد ذلك، وأنتم تعلمون، رحمكم الله، أن في ولاية الشريف أحمد بن سعيد وصل إليكم الشـيخ عبد العزيز بن عبد الله، وأشرفتم على ما عندنا، بعدما أحضروا كتب الحنابلة التي عندنا عنده، كالتحفة والنهاية عند الشافعية، فلما طلب منا الشريف غالب، أعزه الله ونصره، أمثلنا، وهو إليكم واصل، فإن كانت المسألة إجماعاً فلا كلام، وإن كانت مسألة اجتهد فمعلومكم أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد، فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا يُنكر عليه، وأنا أشهد الله وملائكته، وأشهدكم أنني على دين الله ورسوله، وأني متبع لأهل العلم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقدم عبد العزيز الحصين مكة المشرفة، فأكرمه غالب وشرفه، واجتمع معه مرات عديدة، وعرض عليه رسالة الشيخ المفيدة، فعرف ما بها من الحق والهدى، وما نفته من الباطل والردى، فأذعن بذلك وأقر، ثم بعد مدة أبى وكفر، وتمسك بقديم سته وأصر، وطلب منه عبد العزيز الحصين أن يحضر العلماء معه، فيقف على كلامهم ويسمعه، وبنظرهم في أصول التوحيد، فأبوا عن الحضور، وقالوا: هؤلاء الجماعة ليس عندهم بضاعة، إلا إزالة نهج آبائكم وأجدادكم، ورفع يدك عن معتادك، وجوائز بلادك. فطار له وارتعش قلبه.

ثم دخلت السنة الخامسة بعد المائتين والألف.

وفيها غزا سعود، أدام الله له السعود، فسار بالمسلمين، وجدوا السير مشمرين، وأنصوا الجياد والركاب، في ذلك التسيار والذهاب، ولم يزل يعنق وينص في ذلك السير، حتى قارب أن يشرف على عربان من مطير، كبيرهم الحميداني، وأسلاف آخرون في أرض الجريسية^(١) مجتمعون، وقد سبقت إليهم

(١) قرية من قرى محافظة مهد الذهب، تبعد عن المدينة حوالي ٢٥٠ كم جنوباً.

الأنذار، ولكن لا يرد الحذر الأقدار، فجعلت لهم قبله، وكانوا مع ذلك على مهلة، فرحلوا وهجوا، وجدوا فيه وعجوا، ونادوا بالويل وضجوا، فلم يكن لهم عن الأقدار من مطير ولا فرار، فحانهم^(١) بأرض الجريسية الجبار، وخانهم كما هو عادته الغرار، فصباحهم الجند الكرار، والحزب الذي هم ليسوا في اللقاء فرار، والعصاة التي هم للدين أنصار، وللتوحيد حماة وأعوان وأصهار، فحاولت تلك البوادي، أن يرد الفرسان العوادي، وجالوا معهم في الميدان، وصار بينهم قتال وقتل وطعان، حتى علامهم البأس الشديد، والهلاك الأكيد، من حماة التوحيد، فأخذوا غير بعيد، ونفذ فيهم الوعيد، فانهزموا أجمعين، واستولت أعقابهم خيل الموحدين، وقتلوا منهم نيفاً وخمسين، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال، من الأمتعة والأثاث والزاد والغنم والآبال، ورجع المسلمون بنيل الآمال.

وفيهما مات عبد العزيز بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحسن الله تعالى له المآب.

وفيهما أظهر الشريف غالب كيداً لم يظهره قبله محارب، ورام أنه لأمر الله غالب، فقاد من الجيوش والأحزاب، والحضر والعرب والأعراب، ما لا يكاد يحصر رقمه القلم في كتاب، وحشد البدوان من كل شعب وفج، وساقهم من كل واد ونهج، وجمعهم من كل ناحية وبلاذ، فأقبلوا يُهرعون إليه من كل واد، وجاءوا بأهبة واستعداد، وسارت له الرسل والركبان، إلى جميع القرى والبلدان، تطلب العون والنصرة، والكل ساعده وأنجح أمره، فلم يدع بلداً ولا قرية له أو حوله، ويظن منها الإعانة إلا أرسل إليها فوراً رسله وركبانه، ووصلوه

(١) أي: أصابهم الله بالحين، وهو الهلاك.

بما يصلح شأنه، ويقوي تجبره وتكبره وشيطانه، وتمالاً معه الخلق كافة، وما كان لهم من الله تعالى مخافة، بل جدوا معه وقاموا، وسهروا في منامهم الليلي وما ناموا، فيا خبيثهم وما طلبوا وما راموا! أَيَحَارِبُ رب العزة والجبروت، ومن بيده الملك والملكوت؟ أَيُنَادِي بالحراة أصل الإسلام؟ أَيُنَادِي على هدم أساسه جميع الأنام؟ أيسعى بالوهن إلى حمى التوحيد، ويتداعى على إزالته بعد التشديد؟ أينسلون إليه من كل حذب، وينسل له ذو الحاجة والأرب، ولا يهاب جناب الرب ويرتقب؟ كلا، لقد عميت الأبصار والبصائر، وانسد نهج الإنصاف فليس إليه عابر، وعُذِلَ عن منهج البيان فأضحى مجياه غابر، وتركت عين الشريعة فكاد نميرها أن يكون غائر، حاموا على سلف الجدود والأبوة، وبذلوا فيها النجدة والفتوة، وتمسكوا في الحقيقة بتلك السنة والطريقة، والتزموها أشد التزام، فلم ينفكوا عنها على الدوام، رَحُصَ عندهم في استقامتها نفس الحطام، وهان لديهم فيها البذل والتسليم والاستسلام، بل رَحُصَ عندهم ما هو أعظم وأجمل، وأفخم وأكمل، وأجل وأغلى، وأرفع قدرًا وأعلى، الأعمار وجواهرها، وأرادوا المناصب وظواهرها، فهانت عندهم الرقاب والأعمار، وركبوا لها ركاب الأخطار، وطرحوها في ميدان القمار، وألقوها في ذلك المضمار، فكانت عقابهم الخسران والدمار، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، وكلٌ يجازى بفعله.

فلما رأى ما اجتمع في فئائه ورحابه، وما نزل في أوديته وشعابه، وما ضمه إليه تطلاب ركابه، من أولئك المخلوق والجموع والأسباب والملا، الذي طبق وأوسع الفجاج والفلا، ركض برجله وتجبر وعلا، وشمخ بأنفه واعتلى، وزين له الشيطان أملا، وسعى إليه عجلا، وتحكم في قلبه أبو مرة، ونفذ فيه غيّه وأمره، وزخرف له مكره وغدره، وحقق له في مرامه سولا، وحثه على التسيار

وصولاً، وكان ذلك إلى تسويله حيلة، فأسرع إليه وحرص عليه قبيله، فبادروا إلى الخروج، وسعى إلى ذلك المنهج المنهوج، وأظهر سريعاً امثال الطاعة، لما رأى عنده من قوة الأسباب والاستطاعة، فكانت ولله الحمد بضاعته أخسر بضاعة، فلما آن أن يبدو لظهوره شمس، وحن أن يتبين في جيبته نحوس، ويخسف في أفقه نجم سعدة، ويكسف بدر توفيقه ورشده، ويقف الخلق على ما أملوه من مجده، وترجع أبصارهم خاسئة بعد مطالعتهم لبركته ويمنه وجده، ومشاهدتهم فلول صارم عزمه وحده، وأقول كوكب عزه ونصره وفقده، فقد جزموا وحكموا، وفهموا وعلموا، أنه يفتح نجداً بنجده، ويكسر حزب الموحدن بأسبابه ووجده، والأسرار التي وصلت إليه من جده، ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾، يشهد به كل ذي علم عليم، وقلب على الحق مستقيم.

جهز عبد العزيز الشريف مع كثير من تلك الأجناد والأمم، وعجله في المسير إلى نجد، فسار إليها وأم، وانثالت أيضاً إليه من الأعراب قبائل، وأصبح كل سوادهم إليه نائل، وقبلوا بأجمعهم إليه عاجل، وارتد كثير ممن أسلم لأجل ذلك التسيار والسير، منهم حسين الدويش وعربان من مطير، وتظاهر بأسباب الردة في كل بادية وبلدة خلق كثير، لا يحصون ولا يعدون ولا يستقصون، وبدا للشرك دخان وضرام، وعلا منه بالآفق قتام، وجنح إلى الضلال بعد الإسلام، من الناس فثام، وتبين العناد جهراً والشقاق، ونفق والله سوق النفاق، بل نجم وقام على ساق، ولكن ولله الحمد لم يحصل لأهل ذلك مراد ولا اتفاق، ولم يبدُ لشمس مطلوبهم إشراق، بل شاهدوا من الهم والغم على نصرة الدين وأهله ما أوصل أرواحهم إلى التراق، وأسقامهم من صرف الأسف والحسرة كأساً مريرة المذاق، فلم يبرحوا حتى الساعة في قيد من البلا وأعلاق، وأسر دائم وإفلاق، حتى يكون من الثرى تحت أطباق.

فسار عبد العزيز الشريف مع تلك العربان، وكافة الأعراب والبدوان، وأكثر الأسلاف إذ ذاك معه قحطان، فنزل سريعاً على قصر في السر يقال له قصر بسام^(١)، ولم يكن فيه إلا قريب العشرين من الأنام، فأناخت تلك الجموع حوله، وكان لهم عنده ضوضاء وعولة، وأصوات وزعقات، وجلبة هائلة وضجات، وحملوا على ذلك القصر أعظم حملات، وراموا الصعود إلى تلك الشرفات، وراموا الأسباب والسلالم، والكل على التسور عازم، فأبعدهم الله تعالى عنه وأزاحهم منه، فصارت تلك الحملات عليهم خزيًا ونقمات، وأعقتهم هوانًا ومذلات، فلم يُدرك منه فائدة، ولم يحصل على مراد ولا عائدة، فانصرف خاسئًا ذليلاً، وأقام في أرض السر زمانًا طويلاً، نحوًا من أربعة شهور، ينتظر من أخيه غالب الظهور.

وفي أثناء تلك المدة المذكورة، والإقامة المسطورة، عزم على الرجوع إلى ذلك القصر والعود، فرجع إليه فلم ينل ما أمل من الريح والفود، فلما نزل عليه وأناخ حوالبه، عزم وآلى وأقسم بالله تعالى، ألا يبرح عنه حتى يقتل أهله ويخرجهم منه، وعزم على ذلك الأمر وصمم على اليمين، فجزم جميع من معه أنهم يستولونهم على يقين، وينالون منهم التولي والتمكين، فدهموا بالسلام الجدار محتدين، ولبس الدروع من يريد الصعود لأجل التحصين، وآتوا ذلك اليوم بكيد أزعج أبواب أهل الدين، ورعبت قلوب الموحدين، ولكن أراد الله لهم النصرة والتمكين، وإعلاء كلمة المسلمين، ونجاة عباده المؤمنين، فظهرت حكمة رب العالمين، وبان خزي المبطلين، وتحقق حيثئذ أهل الإيمان والإسلام، أن جميع الأنام لا يقدرّون على إيجاد ذرة، فضلاً عن إيصال مضرة،

(١) في مدينة البرود، بناء بسام بن علي، جد آل ناهض، من حرب.

فزادهم إيماناً مع إيمانهم، وأقرهم في أوطانهم، وقد قُتِل من جماعة الشريف وقومه في المرة الأولى والثانية في يومه رجال كثيرة، وصارت حاله في الذل شهيرة.

وفي أثناء تلك الليالي والأيام، أمر عبد العزيز الإمام على أهل الإيمان والإسلام، أن يعجروا مواضي العزيمة، ويصدقوا النية في الجهاد لذي العطايا الجسيمة، فقد أقبلت إليكم الفتنة العظيمة، والمحنة التي أرجو أن تكون لكم منحة عميمة، وأرسل بهذا الإعلام والإخبار إلى المسلمين في جميع الديار، وحثهم على سرعة المجيء والتسيار، فأقبلوا بعد الجهاز إليه، وأمر سعود بالظهور فظهر ونزلوا عليه، وأقام سعود في أرض رمحين عند البلدان، حتى تلاحق به جميع أمداد أهل الإيمان، ثم بعد ذلك أمر حسن بن مشاري مع بعض البادية، أن يغزو تلك العربان العادية، التي هي بالشر مبادية، فنهضوا سراعاً، فلم يفاجأ بعض العربان التي مع الشريف إلا بالخييل العادية، فأخذوا بعض الإبل، ورجعوا بعد حصول الأمل.

وفي تلك الأيام أرسل سعود، حرس الله مجده وخلّد سعده، نعيمشاً مع جمع من المسلمين، إلى أهل الوادي لكون أكثرهم عن الإسلام مرتدين، وهم قوم حويل وجماهر، وقد أرسل إليهم غالب الشريف بعض العساكر، وأمر فيهم شريقاً يسمى شاكر، وكان أكبر تلك الأقوام بني هاجر، فسار نعيمش لذلك السبيل، ولم يكن له دون ربيع ومبارك من تأميل، ولا مرام ولا تحصيل، فأسرع بهم للحاق، وحصل بما له الاتفاق، واستضاءت بقدمه لأهل التوحيد تلك الآفاق، فلما قدم تلك البلاد، شمّر مع ربيع ومبارك ومن معهما للجهاد، فخرجوا إلى اللدام^(١) سائرين، ولأهل الباطل المجتمعين فيه قاصدين، وكان

(١) من مدن وادي الدواسر.

أهل الردة وجميع العسكر قد نزل حوله وعنده، فقصدهم أهل الإسلام في بعض الأيام، وجرى بينهم قتال والتحام، والتهبت نار الطعان، وثبت الله تعالى للمسلمين الجنان، فشدوا على أهل العصيان، فانهزموا ولم يبق منهم للجلاذ اثنان، وبادروا البلاد، وقتل منهم ذلك اليوم عشرون في التعداد، منهم من آل شري^(١) أربعة رجال، وقتل من المسلمين ثلاثة، ورجعوا بأحسن حال.

ثم بعد ذلك وصدوره بأمد، غزا سعود بمن معه ونهذ، وجرّد مرهف البأس على أولئك القوم وجرّد، فأوخذ وأعقّ بذلك السير، حتى صبح أسلاف مطير، عربان حسين الدويش، الذين هم للحرب تحذّ السنان ونريش، فلم يزغهم إلا رجفة الأرض من سنايك العرب، والأسنة تلمع في ضياء الشمس مثل ضوء الشهاب، والبواتر التي تبيض مثل البروق في خلل السحاب، أو لمعات النار في الالتهاب، فتلقتهم أولئك المطران، وأقبلوا عليهم مجتمعين في قران، كأنهم أجنحة النور والغريان، فراموا أولئك العريان أن يسقوا عطاش المُرّان^(٢)، من نحور أهل الإيمان، فأبى الله أن يدنّس واضح غرّهم هوان، أو ينال من ضررهم إنسان، أو يصل إلى تلك النحور التي هي ممر لألفاظ القرآن من أيدي الأعداء سنان، فأيدهم الله تعالى بعزه ونصره، وخذل العداة بقدرته وقهره، فقتل المسلمون منهم فوق العشرين، وأخذوا بعض الإبل ورجعوا سالمين.

ولما جرى على عبد العزيز الشريف وقومه ما جرى، من الذل والخزي بقي حائرًا متندّمًا متفكرًا، فلم يجد له الرأي ما ينتج له المراد، إلا الكذب على أخيه غالب حتى يخرج من مكة إلى تلك البلاد، فأرسل إليه الرسل أننا قد أدركنا

(١) من قحطان.

(٢) الرماح.

الأمل، وأنا أخذنا بلداناً فأتنا أنت والأمداد على عجل، فقد رُعب أهل ذلك الوطن والمحل، والكل قد جبن وذل، فلما جاء ذلك الخبر، بادر إلى ذلك وظهر، فرجع ولله الحمد بالذلة وصدر، وناوى المسلمين ونواهم بالقطيعة فما قدر، وبذل وسار بمدافعه وقنابره^(١) وجاء والله بالكُبر، وأتى معه من الأسباب والآلات ما لا يؤمله البشر، ولا تعبر تياره الفكر، وكانت حاله لكل مُعبر عبرة من العبر، وآية دالة على الوحداية، وصدق هذه الدعوة لكل من سمعها فضلاً عما شهدها وحضر، وبرهاناً لائحاً لأهل التوحيد من يأتي بعد ومن غير، ودليلاً فاضحاً لأهل الضلال والزيف والغير، فسبحان من حجب عقول من شاء، عما أبدى من الآيات وأنشأ، وطبع على القلوب الضالة عن إدراك المعرفة له، وقذفها في مهواة الدرك الأسفل من الدرك، وألقاها تعاني فيه ما أعدّه لها، وأودعها فيه وترك، وأخذ بمن أحب ذات اليمين فاختار كل منهم ذلك الطريق وسلك، اللهم لا تهلكننا فيمن هلك، واجعلنا ممن دان نفسه وقرنها وملك، واجعل لنا من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً وفلك.

وكان خروج غالب في شهر رمضان، الذي فيه تُغلق أبواب النيران، فلما خرج غالب طعن عبد العزيز ومن معه من أرض السر وارتحل، حتى وافى أخاه غالباً على الشعرا فاجتمع معه ونزل، واستقر بهم القرار في تلك الأرض، وكل يوم يصدر منهم إلى تلك القرية نهض، ويجري منهم بأس وشدة واصطلام وحدة، وسقط للأعمار وعرض، وقد عزموا على استئصال أولئك الآثام، وثلم الدين والإسلام، ولم يخشوا قبيح الآثام، يوم الوقوف والعرض، كيف لا وأكثر البوادي به لا يصدقون، ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾.

وأقام غالب وجموعه وجنوده، وكل يوم تزجي سحب العذاب على تلك القرية رعوته، ويهددهم بالاستئصال والإهلاك وعوده، وأسبابه وآلاته وكيدته، على مصداق قوله شهوده، ويقسم بالله العظيم الواجب وجوده، لا تفارق نجدًا حتى تدمرها عساكره وراياته وبنوده، ويتم له مراده وسؤله ومقصوده، فأبى الله إلا أن يدوم عليه حزنه ونكوده، ويشمت بهوانه وذله وخزيه عدوه وحسوده، ويتألم لما ناله محبه وودوده، فرجع ولله الحمد ذليلاً متندماً هو وقروده، وعادت سنابير أشباله وأسوده، وأرضت أرانب قفر وبغات نسوره وفهوده، فتبارك الذي بيده الآيات البيّنات، ويرفع الأعلام على انفراده بالألوهية والعبادات، ويأبى أهل الزيف والضلالات، إلا إصرار ونفوراً، صرف سبحانه الأحكام للناس وبين، وصرف قلوب أعدائه عن الهدى لما تبين، وأبدع الأرض وما فيها والسموات وحفظها وزين، ﴿فَلْيَنْزِلْ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

ولما انصرف الشريف غالب مرعوباً غير مدرك لما هو طالب، بل مقتول من جنوده كثير من الرجال، مشتت الفكر مكدر البال، وجاء الخبر سعوذاً عن رحيله وانصرافه، أمر محمد بن معيتل مع بعض من المسلمين، أن يتبع أثره ويغير عليه من خلافه، فبادر محمد لما أمر وجد في ذلك الأثر، فأغار على فريق من قحطان، فأخذ عليهم إبلاً كثيرة، فنزع عليهم منهم فرسان، وجالدوا لردّها فلم يقضه الله لهم فما كان، وأخذ من الأفزاع خمسة عشر فرساً نجية كريمة، ورجع بأوفر غنيمة.

وفيها غزا سعود، أدام الله تعالى له بالتمكين والسعود، فسار بالمسلمين وأدلى في ذلك السير، يريد شمر وعربان مطير، ولم يبرح يجد في مسيره ويتنضي فيه عزماً، ويجرد له همة وحزماً، حتى أدركهم عند جبل سلمى، ولم يفهموا عن مجيئه خبراً ولا علماً، فأناخ في ذلك المكان، عند ماء يقال له

العدوة^(١)، وكان عنده عربان يُدعون البراعصة والعبيات^(٢)، قد نزلوا حذوه، فلما قضى من الصلاة شأنه، ودعا الله أن يُنزل عليه نصره وسكينته ويثبت جنانه، وأن يذلّ ويهزم بحوله وقوته عدوانه، وصبح أولئك الأسلاف والعربان، وشنت خيله الغارة على البدوان، فعند ذلك نهض أولئك المردة العتاة الأباليس، وكلهم ما بين معلّم ومقلص وشاكي السلاح ملايس، ورئيسهم ذلك اليوم حصان إبليس^(٣)، فطاعنوا حتى وهنوا، وشاهدوا من الأهوال ما اختاروا عنده الذلّ وركنوا، وجدوا في الدفاع عن الأعمار والأموال والظعن، وبذلوا في ذلك من البأس ما لم يبذله أحد من الناس في سابق الزمن، حتى كتب الله تعالى عليهم ما كتبه على ذوي الضلال والفتن، وأجرى للموحدين عليهم ما أجرى على إخوانهم من ذلك السّتن، فشمروا في الانهزام والفرار، وجدوا في الإدبار والانكسار، وكان للموحدين عليهم الدولة والانتصار، فمنح الله تعالى المسلمين جميع أموال الكفار، واستولوا تلك الأمتعة والأثاث والغنم والإبل، وقُتل حصان إبليس وولده، ولكنه ركب غيره فما ذلّ ولا انخدل، بل أخذ يُركب العقول ويعلو قلوب الفحول، فضلاً عن صهوات الخيول، وقُتل أيضاً منهم أبو هلبة وغيرهم رجال، وانهزموا بأقبح حال، لما قطع الله تعالى وصلهم، وجذ حبلهم، وشنت شملهم، تفرقت تلك البوادي والفرسان، تندب من حولهم من العربان، وتخبرهم بما صدر وكان، وكانت تلك البوادي ترعى الغنم وتسيم البهيم، في فياض أراضي سلمى، وتحسب أنها تنال بذلك أمناً وسلاماً، وترد على رغم العدا زلال ذلك الماء، وقد أغراها الشيطان في نفسها وأغواها وزين لها، أن ليس أحد يرومها ويقواها، فضلاً عن كونه يود مصادمتها ويهاوها، حتى

(١) قال ابن بشر (١ / ٨٧): «قرب بلد حابل».

(٢) من مطير.

(٣) قال ابن بشر (١ / ٨٧) عنه: «مسعود الملقب حصان إبليس».

أوردها من الهلاك مهوآها، وحينئذ وقف عليهم ونادأها بدعواها، هذا جزء الغواة ومثواها، إنها تهلك النفوس بطغواها.

فلما جاءتهم الأخبار من أولئك الأشرار بشرح حال تلك الواقعة، جرعتهم كؤوس السم الناقعة، وكانت ألباهم منها نادة فاقعة، فتدأعوا إلى النصره أفواجا، وملأوا لها مهامها وفجأجا، وهأوا لها سببا ومنهاجا، وانضم إليه ممن حولهم كل ذي عمود، وكان إلى تلبية الداعي إجابة وعمود، ومبادرة للإغاثة ونهود، واجتماع على ذلك الباطل وشهود وعقود، وإحكام الثبات وعدم الفرار بأوثق العهود، فأقبل كل منهم يولي على عدم التولي وبذل المجهود، وجأؤوا بالنساء والأطفال، والمطافيل والآبال وجميع الغنم والأموال، حتى يصدقوا البأس ولا يكون عنها صدود، فأوردهم ذلك البغي الطريق المسدود، والذل الذي كان لهم إلى حياضه ورود، ونال المسلمون بذلك الأمر المحمود، فحين أقبلوا على المسلمين يزحفون، وهم على ذلك الساء أجمعون، تأهبت للقائهم الفرسان، واستعدت لطعانهم الشجعان، والكل صدق ذلك اليوم من أهل الإيمان، فلم يستتر بالذل والجبن منهم إنسان، سوى بعض فرسان من البدوان، وكان ورودهم على المسلمين مساء قبل الغروب، وقد أبرموا الحيلة فيه فقالوا ندهمهم قرب الليل، فإن كان منهم الهروب اشتفت منهم القلوب، وحصل لنا المنى والمطلوب، وإن كان الفرار منا كان الليل منجاة للمطلوب، فلا يدرك الطالب منه مرامه، ويجد السير والسرى والليل أمامه، وقد نشر على الساري أعلامه، ويعمى أثره وأعلامه، فحملوا على أهل التوحيد حملة ليس وراءها مزيد، وقد زين لهم إبليس، أن يجعلوا الإبل لهم عن الرصاص منتريس^(١).

(١) المنتريس: الخندق. والذي يُفهم من النص أنهم جعلوا الإبل حاجزا يتقون به رمي البنادق. وهذه عادة معروفة في الحرب. وهي نوع من أنواع المتاريس.

فساقوها أمامهم، وصبر المسلمون حتى قاربت خيامهم، فحملوا بعد ذلك على من ساق تلك البهائم، فهزموهم وصارت الإبل لهم غنائم، وقُتل من المشركين كثير في تلك الحملة، منهم ابن الجربا من غير مُهلة، وأبرزت فرسان الكفر والإشراك من التهور في الشجاعة ما لم يصل إلى أدناه دراك، ولم يذكر له نظير في العرب والأتراك، ولكن تلقتهم الحماة بالصدور، وسمحوا كما هو العادة بالأرواح والنحور، وصدّقوا في الاشتراء والابتياح، وقالوا: والله لا نُضِيع ولا نُضاع، فأمسى كل منهم ببذل العمر مطواع، وإلى الشهادة قلبه نَزاع، حتى حَفهم مولاهم بوعده، ونال منهم غاية قصده، وأنزل عليهم النصر والسكينة، وكانت قلوبهم على الثبات راسخة رصينة، وأجرى في أعدائه سنته، وأجزل على المؤمنين فضله ومته، فانهزم أهل الضلال بعدما أفرغوا الجهد والحال، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مَنَ اللَّهِ مِن رَّاقٍ﴾ وكان ظلام الليل في بدو وإقبال، وولّوا على أعقابهم في الأدبار، وكان ضوء النهار في إدبار، وكان ذلك من نتائج الأفكار، ولكن الله الكريم بفضله العميم، أنال المسلمين من أموالهم ما لا يخطر على البال، وأذاق الأعداء أليم الوبال، فشمر المسلمون في أثرهم الأذيال، بعد أداء المكتوبات من غير استعجال، وتناول بلغة من الزاد على إمهال، واستمر الطلب في أثرهم أياماً وليال، والمسلمون في إثرهم مجذّون، حتى تركوا أغلب الأموال وهربوا بالنفوس يسرعون، فراجع حينئذ المسلمون عنهم، وأجمعوا جميع ما حَوّوا منهم، من الخيل والأمتعة والغنم، ما لا يكاد يحصل مثله ويُغتنم، فالذي اجتمع عند المسلمين من الإبل يزيد على ستة آلاف، ومن الغنم فوق مائة الألف بلا منازعة ولا خلاف، ولا غلو في القول ولا إسراف، سوى ما مات في الفلاة، فلم يكن إليه التفات، ورجع المسلمون بالعز والإقبال، وباء أهل الضلال بالإذلال، وقُتل منهم بعض رجال، منهم مسلط بن مطلق الجربا، الذي زاد في الشر وأربى.

ثم دخلت السنة السادسة بعد المائتين والألف .

وفيهما غزا سعود، لا زال إلى المعالي في صعود، فسار بالمسلمين يريد القطيف وبلداتها، حين أراد الله تعالى ذلها وهوانها، وأن يدمر أهلها وسكانها، ويمزق منها أصنامها وأوثانها، ويخزي أربابها وأعوانها، فسار في ذلك مُجَدًّا، ولَبِغْتَهُمْ مُسْتَعِدًّا، فلم يستكمل الليل راحة وإناخة، حتى كان الخِطُّ^(١) مراحه ومناخه، فأُمِست رواحله به مُنَاخَةً، وحطت خيله وفرسانه فيه يمينًا ويسارًا، وخطرَ حُطْيَه^(٢) في فثائه تَبَخْتَرًا واقتحارًا، وسابق النصر الإقبال إليه وجارى، وألفى جميع تلك القرى بلا شك ولا امترا، قومًا فجارًا، قد خلعوا من أعناقهم شعار الحنيفية، وحملوها آصارًا وخرقوا الملة السنية، فنالوا به أوزارًا، وأطفأوا مصابيحها السنية، ورفعوا للرفض منارًا، وأقبلوا على عبادة آلهم ليلاً ونهارًا، وزادوا في ذلك غلًا وعلوًا واستكبارًا، ولقد جاءتهم النصائح فأعرضوا عنها ازورارًا، ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ وأصروا عليها إصرارًا، وبارزوا في ذلك إعلانًا وإصرارًا، من أحاط بالأشياء علمًا خفية وجهارًا، واستمرت جياده تجول وتبارى، حتى عرف قصده وحققه معرفة واختيارًا، فأحاطوا بسيئات بعدما تلاً الضوء وزاد إسفارًا، وكبروا في نواحيها إعظاما لله وإكبارًا، فملكت قلوب أهل الضلال حين شاهدوا ذلك الحال، ورأوا ذلك القتال مهابة وانذعارًا، وصبروا ساعة تجلدا واصطبارًا، وهموا أن يحفظوا جوانب البلد، فلا يهتك المسلمون منها دارًا، فأرغم الله تعالى أنوفهم وعجل لهم هلاكًا ودمارًا، فتسوروها المسلمون وهجموا فيها زمرًا وأقطارًا، وقتلوا من فيها فلم يجدوا لهم

(١) يُطلق على القطيف وما جاورها.

(٢) رمحه.

من آلهتهم أنصارًا، وأسقتهم قواضب الموحدين وأسنه المسلمين كؤوس الردى
فنالوا هوانًا وخسارًا، وشربوا منها عبيطًا يزيد احمرارًا، فقتل منهم ذلك اليوم
خمسة عشر مائة إقلالًا وإكثارًا، واستولوا على جميع ما فيها من الأموال، التي
لا تعد ولا توصف ولا تُحَدُّ استعظامًا واستكثارًا.

ثم قصد المسلمون القديح^(١) فقدحت فيه زنادهم فأورت نارًا، ودهمهم
المسلمون فأشعلوا فيها للموت نارًا، واستولوا على ما فيها من الأموال التي لا
تماثل ولا تبارى، فعند ذلك أبدت بلدان القطيف جفلة وهزيمة وانكسارًا،
فاستولى المسلمون العوامية^(٢) وعَنَك^(٣) وغيرهما لما أخرجوا أهلهم وعمدوا
إلى الفُرْضة^(٤) وراموا بها حصارًا، فأحاط بها المسلمون ودعوههم إلى الإسلام
فأبوا إلا كفورًا ونفارًا، وأقاموا أيامًا يقاسون ذلة وجهدًا واحتصارًا، حتى بذلوا
للمسلمين ثلاثة آلاف زر فقبلوا ذلك وعجلوا بها إحضارًا، ولما أزال المسلمون
ما فيها من الأوثان، ومعبدات الشيطان، وكنائس الرفض والطغيان، فأصبح
أهلها عليها حُسرًا، وأحرقوا تلك الكتب القبيحة بعدما جمعوا منها أحمالًا
وأوقارًا، ارتحلوا إلى تلك الأوطان في غاية من السرور والتهان وقد حازوا
أجرًا وأفخارًا.

وفيها توفي شيخ الإسلام، وعلم الأئمة الأعلام، المتبحر في العلوم النافعة
المفيدة، والمعاني التي لم تبرزها سوى فكرته المجيدة، ذو الفكر الوقاد،
والذهن المنقاد، الغائص على درر التوحيد في قعر البحور، الفالق عن جواهره

(١) بلدة تقع شمال غرب مدينة القطيف، وتبعد عنها حوالي كيلين.

(٢) بلدة تقع على الخليج العربي، تبعد عن القطيف حوالي ٣٣ كم.

(٣) مدينة تقع على ساحل الخليج العربي في الوسط بين مدينتي القطيف وسيهات.

(٤) اسم بلدة القطيف قديمًا.

الأصداف حتى زين بها النحور، المستنبط من كتاب الله تعالى ما يقصّر عن بعضه الفهم، ولا يقدر على إبراز شذرة منه ذوو التدقيق في العلم، المتفنن في فهم القرآن والاستنباط، فلا يقاس قعر تبوّنه ولا يغاص ولا يحاط، المتفرد في نشر أعلام التوحيد، القائم فيها لله تعالى بالتجريد، المؤيّد فيها بالإعانة من الحميد المجيد، المسدّد فيما يبدي فيه من الدقائق ويعيد، المنصور من الله تعالى على كل جبار عنيد، وعالم ضال مضل مريد، الذي بهر علمه حين ظهر، وشاع صوت فضله واشتهر، وطبق أطباق الأرض صيته وانتشر، قامع أهل الشرك والضلال، وراذع ذوي الزيغ والضلال، معزّ أهل الدين والإخلاص والجمع، ومُذِلّ ذوي الإلحاد والأهواء والبدع، من أصبح مُحِبّاً للدين به وأضحى منيراً، وظلام الضلال منقشعاً مستطيراً، وثغر الحق متبسمًا تبجحًا وتبشيرًا، وأصبحت به السمحاء مرفوعة العماذ، ثابتة الأطناب والأوتاد، قائمة على نهجها في البادية والبلاد، يؤمها الحاضر منهم والباد، فأرشد الله تعالى بدعوته كثيرًا من العباد، وهلك من أراد الله عليه ذلك فأعرض وناد، فلم يحضر للدعوة ناد، المقيم من السنة لاجئها ونهجها، المقوّم منها مائلها ومعوجّها، ناهج منهج الصواب، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، طيب الله ثراه، وجعل الجنة مثواه.

فلما أراد الله تعالى أن يصب سحاب الرحمة عليه، ويوصل تمام جوده وإحسانه إليه، ويدنيه من حضرته ويقربه لديه، اختار له منزلة الدنو من الحضرة، حتى يوفيه بفضلله أجره، ويمحو عنه إزره، وكان ابتداء المرض به، رحمه الله تعالى، في شوال، ثم كان يوم الاثنين من آخر الشهر وفاته والانتقال، فتقله الله إلى جواره وحضرته، وقربه إلى حظيرة قدسه وجنته، وأدناه إلى دار رضوانه وكرامته، ومحل تفضله وإحسانه ومبرّته، وكانت حاله من العبادة في الصلاة

والصيام، مشهورة بين الأنام، لا يزال سميره القرآن في دجى الظلام، ودأبه إحياء غالب الليل بالقيام، والتأني والتثبت في تنفيذ الأحكام، حتى يتقن ذلك ويحكمه أتم الأحكام، لا يميله الهوى عن الشرع ولا يصده، ولا تحمله على ضده عداوة ولا تردّه، بل يحكم بما ترجح له وجه صوابه، وتبين له فصل خطابه، من كتب الأئمة الأربعة، المقلدة في ذلك المتبعة، لا يعدل إن لم يجد نصًا من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ إلا إليها، ولا يعول إن لم يَلَفْ قاطعًا إلا عليها، بعد المراجعة والتحقيق للنص، وشدة البحث والكشف عن معارض والفحص، وكان، رحمه الله تعالى، وأفاض عليه سحب غفرانه ووالى، هو الذي إليه بيت المال يُجْبى، ويُدفع إليه ذلك ويُحْيى، من جميع بلدان المسلمين، ويفرقه عليهم أجمعين، وكان على حالة رضية، وطريقة من الزهد مرضية، وكان عن ذلك المال مكففًا، وعن كثرة الأكل منه متعففًا، بل يُعجله خروجًا ومصرفًا، ولا يأكل منه إلا بالمعروف، وليس أحدٌ عنه من ذوي الفقر مصروف، وكان سمحًا جوادًا كريمًا، لا يُلْفَى عنده المال مقيمًا، وكان لا يرد السؤال، إما أثناب عاجلاً، أو بعد حال، فيرجع سائله بنجح الآمال. وتوفي، رحمه الله تعالى، ولم يخلف دينارًا ولا درهم، فلم يوزَّع بين ورثته مالٌ ولم يُقسم، بل كان عليه دين كثير، فأوفى الله عنه الجليل والحقير، وقال المصنف يرثيه :

إلى الله في كشف الشدائد نفع
وليس إلى غير المهيمن مفرع
لقد كسفت شمس المعارف والهدى
فسالت دماء في الحدود وأدمع
إمامٌ أصيب الناس طُرًّا بشقده
وطاف بهم خطب من البين موجه
وأظلم أرجاء البلاد لموته
وجل بهم كرب من الحزن مفضع
شهاب هوى من أفقه وسمائه
ونجم نوى في الترب واره بلقع

وكوكب سعد مستنير سناؤه
وصبح تبدى للأنام ضياؤه
لقد غاص بحر العلم والفهم والندى
فقوم جلا عنهم صدا الرين فاهتدوا
وقوم ذوو فقر وجهد وفاقه
لقد رفع المولى به رتبة الهدى
أبان له من لمعة الحق لمحة
سقاء غير الفهم مولاه فارتوى
فأحيا به التوحيد بعد اندراسه
فأنوار صبح الحق باد سناؤها
سما ذروة المجد التي ما ارتقى لها
وشمر في منهاج سنة أحمد
وينفي الأعادي عن حماه وسوحه
ينظر بالآيات والسنة التي
فأضحت به السمحاء يبسم ثغرها
وعاد به نهج الغواية طامسًا
وجرت به نجد ذبول افتخارها
فأناره فيها سوام سوافر
لقد وجد الإسلام يوم فراقه
وطاشت أولو الأحلام والفضل والنهى
وطارت قلوب المسلمين بيومه
فضجوا جيعًا باليكاء تأسفًا
وبدر له في منزل اليمن مطلع
فداجي الدياجي بعده متقشع
وقد كان فيه للبرية مرنع
فأسماعهم للحق تصغي وتسمع
حووا واقتنوا ما فيه للعيش مطمع
بوقت به يعلو الضلال ويرفع
أزيل بها عنه حجاب وبرقع
وعام بتيار المعارف يقطع
وأقوى به من مظلم الشرك مهيع
ومصباحه عالٍ ورياء ضيع
سواه ولا حاذى فناها سميدع
بشيد ويحيي ما تعفى ويرقع
ويدمغ أرباب الضلال ويدفع
أمرنا إليها في التنازع نرجع
وأمسى محياها بضئ، ويلمع
وقد كان مسلوكةً به الناس تربع
وحق لها بالألعمى ترفع
وأنواره فيها تضيء وتسطع
مصائبًا خشينا بعده يتصدع
وكادت له الأرواح تترى وتتبع
وظنوا به أن القيامة تفرع
وكادت قلوب بعده تتفجع

وفاضت عيونٌ واستهلت مدامع يخالطها مزج من الدّم يمع
 بكته ذوو الحاجات يوم فراقه وأهل الهدى والحق والدين أجمع
 فما لي أرى الأبصار قلّص دمعها وليست على فقدها همي وتدمع
 وما لي أرى الألباب تبدي قساوة وليست على ذكره يومًا توجّع
 لقد غدرت عين تضرن بمائها عليه وكبدٌ قد أبت لا تقطع
 يحق لأرواح المحبين أن تُرى مقبوضة لما خلت منه أربع
 وتتلو سريرًا فوقه قمر الهدى وشمس المعالي والعلوم تشيع
 فما بالها قرت بأشباح أهلها ولم تك في يوم الوداع تودّع
 فيا لك من قبر حوى الزهد والتقى وحل به طود من العلم مُترع
 لئن كان في الدنيا له القبر موضع فيوم الجزا يُرجى له الخلد موضع
 سقى قبره من هائل العفو ديمة وبأكره سحب من البرّ مُع
 وأسكنه بحبوحة الفوز والرضا ولا زال بالرضوان فيها يُمتع
 وفيها غزا سعود، أدام الله تعالى له السمو والصعود، فسار بالمسلمين يطوي
 المهامه، ويتحمل في ذاك المشاق والمكاره، وينضي الأجسام والقلوب، في
 قطع تلك المنافز والدروب، حتى وطأ يُمْنى اليُمن أرض الحروب، فشرب هو
 وجنوده من الحناكية^(١)، فروى وارتوى، فعزم أن يصبّح حربًا ومطيرًا على
 الشقرة^(٢) ونوى، فما أقام بعد ذلك ولا ثوى، بل سار حين ألفته منه العيون،
 وذكروا أنهم كلهم على الماء يستقون، وأنهم عنه منهزمون، وقد ظنوا أن
 المسلمين لهم لا يطلبون، فلم يتم لهم على ماء الشقرة شرب ولا ورود، إلا

(١) تقع شرق المدينة، تبعد عنها حوالي ١٠٨ كم.

(٢) من قرى محافظة الحناكية، تبعد عنها حوالي ٣٠ كم.

والمسلمون من عليهم نهود، فكلُّ فر بنفسه وجود، ولم يستطع الوقوف فضلاً عن القعود، فهزمهم الله تعالى بالذل والإرعاب، فشتَمُوا للهروب بين تلك الشعاب، وكان للمسلمين خلفهم طلاب، فشدوا في أثرهم بالسير والذهاب، فلم يبرحوا عنهم ولم ينفصلوا منهم، حتى صاروا شذر مذر، وتوعروا الريعان والحجر، وتحللوا صلد ذلك المدر، فرجع عنهم المسلمون، وشرعوا فيما منحهم الله يجمعون، وغنموا غنيمة عظيمة، وكانت على المشركين أخرى هزيمة، وأخذوا ثلاثين من الخيل، وحازوا مجداً وفخراً، ونالوا مع ذلك أجراً، واجتمع من الإبل في تلك الغنيمة ثلاثة آلاف، فقسمت على التسوية والإنصاف، وقتل من أهل الضلال بعض من الرجال، ورجع المسلمون بنيل الآمال، في أحسن حال، وأنعم قلب وبال، رغماً على أنوف أناس، من ذوي الشر والإبلاس، الذين زين لهم إبليس أعمالهم وزخرف لهم أفعالهم وأحوالهم، وأحال عليهم غرورهم وأوحى لهم، فظنوا أن الطريق الذي عليه الموحدون ضلالة، وحُمق وبدعة وجهالة، وسفاهة محققة مفهومة، ووسوسة عند العقلاء معلومة، وبالخروج موسومة، وستموت بعد موت صاحبها، وينطفئ منير مناهجها ولاحيها، ويندم حينئذ قلب طالبا، فلا تلقى لها من الناس داعياً، ولا تجد بعده سامعاً ولا واعياً، فأبطل الله تعالى فاسد تلك الدعوى، وأخزى ذوي النفاق والأهوا، وألقاهم بقدرته في القعر الأهوى، وطبع على قلوبهم بطابع البلوى، وأعطى أهل الإسلام الغاية القصوى.

وفيهما غزا هادي بن قرملة مع جمع كثير العدد، وليس معهم غير البدو أحد، فجدَّ في سيره ذلك واجتهد، مع أولئك الأعراب، حتى وافق مطير على ماء الحنايج في ذلك الطلاب، فصَبَّحهم على ذلك الماء المورود، فالتقته فرسانهم فبذلوا في الذب المجهود، فاجتلدوا ساعة حتى من الله الودود، بالنصر على

المسلمين فأصبح كل من ذوي الشر مشرود، وأخذ المسلمون ثلاثة آلاف بعير، وفأزوا بأحسن بشير.

ثم دخلت السنة السابعة بعد المائتين والألف.

وفيها غزا إبراهيم بن عفيصان بأهل الخرج والفرع^(١) وأناس من البدوان، فشمّر لقصده وابتدر، حتى بدت له أعلام قطر، فأغار على من بدى منهم وظهر، فأخذ ما معهم من غنم وركاب، بعد مجالدة وضرب، وصدر إلى وطنه وبلاده، بعد نيل مراده.

وفيها غزا سعود، سلك الله به مناهج السعود، فسار بالمسلمين يريد بني خالد، وكانوا مجتمعين، فشمّر في ذلك وجدّ السير والسرى، ولم يكن عنده خبر بما قدر الله لأولئك الورى، من ظهور براك وجماعته، وكان ذلك بعد قتل أبيه وراثته، في بني خالد والحسا وولايته، وأخذه لفرقان من سبيع وغيرهم، واعتدائه عليهم وغارته، فلما توسط المسلمون تلك الفجاج، وتسمنوا ذروة ذلك المنهاج، ورأوا ما بذلك العربان من الاندعار والانزعاج، فعلموا عند ذلك خبره، وفهموا غارته وضرره، فأحضر سعود غزاة الإسلام، ونشر لهم تلك الأعلام، وطلب منهم المشورة والأفهام، وما يترجع عندهم من المرام، هل يقتني أثر هؤلاء الأقوام، أو يقصد أهلهم ومحلهم، فليس عندهم من يحول دونه من الأنام؟ فأشاروا عليه بعد الاستشارة والأفهام، أن يعمدوا إلي أهلهم عاجلاً، فيصبّحهم ويرجع آملاً، فذلك لدينا أولى وأرجح، وأسرع للمراد وأصلح، فأبى ما دَعُوا إليه، وقال إن الأولى والأصلح مصادمة هؤلاء الأشرار، فهو أنكى لهم وأسد في الرأي والأفكار، وصمم على ذلك الشأن، بعزم مرهف

(١) الفرع: يشمل حوطة بني تميم والحريق ونعام والحلوة.

وحزم باتر وسان، فلم يُثَبِّه عن ذلك رأي إنسان، وكان ذلك توفيقاً من الله وإحسان.

فنهض بعد فكرته في حينه وساعته، بعد سؤاله مولاه واستخارته، وجد في السير عازماً، وللملاقات دائماً، وقال بعد رفعه أكف السؤال بخضوع وإذلال: يا من لا تخفى عليه خافية في السر والعلانية، مَكَّنَّا من هؤلاء واجعل منايهم دانية، واجعلهم خبراً بعد عين، وأدر عليهم دائرة البلاء والحين. فعَجَّلَ مولاه له الإجابة، وأدرك منه ثأره وطلابه، فلما وصل إلى ماء اللصافة^(١)، وقد انجلى عمن معه الوجل والإخافة، نزل بها يرصد من أولئك القدوم، ويتحرى لهم كل ساعة الهجوم، حتى أنجح الله تعالى مراده، وجاءه بشير السعادة: قم إلى السعد والإسعاد، فقد تبدى لك كوكب المدد والإمداد، وأشرق يُمكنك في الآفاق، وتلألأ حظك في الإشراق، ولن ترى لأعدائك من باق. فنهض مسرعاً لذلك النداء، فإذا المراد قد طلع ويدا، فأسرعت من قومه خيل العرب البادية، فناوشهم الطعان الفرسان العادية، وظنوا أن هذا غزو لبعض البدوان، فطمعوا عند ذلك في الطعان، وراموا أن يدركوا منه أسباب التهان، فأبى الله تعالى عليهم إلا تستيتهم في البلدان، فلما تناشبت القواضب والحراب، وتلاحمت فرسان الأعراب، طلع عليهم علم الإسلام، وأظلمهم من الحمام غمام، وأمطرت عليهم من العذاب سحائب، وجرعتهم من كؤوس الردى مصائب، وحلت بهم خطوب ونوائب، واستقلت عليهم كروب غرائب، وسُدَّتْ عليهم مناهج المطالب، وأبدى الله تعالى فيهم أموراً عجائب، وصار كل منهم للنجاة طالب، وفي سلامة عمره راغب، وعن حومة الوغى هارب. فأخذ المسلمون

(١) هي قرية الجبلان من مطير وتقع في الصمان.

يقتلون فيهم قتلاً ذريعاً، حتى قتلوا منهم ذلك اليوم ستمائة سريعاً، وأخذوا ما معهم من خيل وركاب، وجدوا في أثرهم الطلاب، وهم يأخذون فيهم ويقتلون، والمسلمون لهم مقتفون، والذي غنم المسلمون من الخيل مائتان، مختلفة النوع والألوان.

وفي تلك الأيام أغار من آل ظفير أقوام وأناس من الحجاز، لم يدركوا سعوداً فصار لهم إلى بني خالد انتهاز، فصبحوا أهلهم، وأخذوا كثيراً من الإبل، وحووا غالب المحل، وجرى بينهم قتال، فرجع أهل الغارة على عجل، وقد فازوا بالأمل، ولما فرغ شأن أهل الشيط^(١) وانقضى، سار سعود يريد الحسا ومضى، وأرسل غنيماً أبا العلاء ومهوس بن شقير إلى من في الحسا من الملا، وكتب معهما كتاباً يدعوهم إلى الدخول في دائرة الأمان، ويطلب منهم الإسلام والإيمان، ويرغبهم في الانقياد والاستسلام لدعوة الملك العلام، ويحث على ذلك جميع أولئك الآنام، ويحذرهم الصد والإعراض، فكان أغلبهم ذلك اليوم به راض، وكانوا إلى الإجابة في مبادرة وانتهاض، بل لم يحصل منهم تردد ولا ارتياض، فأجابوا جميعاً أولئك الدعاة، وكل أطاع بذلك وأحاط به علماً ورعاه، وأسرعوا إلى خطّ الكتاب، وقد بينوا فيه غاية الطاعة وعدم الارتياب، ولم يدخل قلوبهم إذ ذاك ارتياب ولا اضطراب، وحثوا سعوداً على القدوم إلى البلاد، حتى يبايعوه أولئك العباد، ويمهّدها أحسن المهاد.

ولما أرسل سعود غنيماً ومهوساً إلى الحسا، أرسل بعدهم سعود بن غيث مع ركب من المسلمين، وأمرهم بأن يكونوا في طريق الحسا مكمنين، حتى يكونوا لمن أراد الهروب مدركين، فلما قدموا ذلك المحل، وافقوا غزواً لأهل عمان

(١) إحدى ديار مطير بالصمان.

قد جدوا في الهروب على عجل، فقتلوهم وكانوا يزيدون على مائة رجل، وأخذوا ما معهم من الركاب والإبل، فلما قدم إلى سعود الكتاب والرسل، تم له السرور وحصل، وأقبل إليهم تلك الأيام بعد ذلك الانتظام، وكان قدوم الرسل في وسط شعبان، وقدوم سعود أول رمضان، فلما قارب القدوم والوصول، كان لكثير من أهل الحسا إلى ملاقاته حصول، وإسراع إلى رؤيته محبة له وقبول، فنزل قرب عين نجم^(١)، وطلع لسعوده في أفقها نجم، وخرج إليه جميع أهل البلاد، وعاهدوه على الإسلام بانقياد، والاعتصام بحبل الله والقيام على أعداء الله، وأحكموا عقود الالتزام بجميع الشرائع والأحكام، والاهتمام بها أوفر اهتمام، وأقال أولئك الأنام من الجهاد أعوام، ترغيباً لهم في البقاء على الإسلام، وتوليفاً لأولئك الأقوام، فأبوا إلا الذل والصغار، حين أراد الله تعالى لهم الهلاك والدمار.

ولما أخذ منهم أوثق العهود، وأحكم عليهم في البيعة العقود، وقلد بالبيعة رقابهم، وعرف حالهم ومآبهم، وأنهم قد طوقوا بها الأجياد، ولم يدر أنهم من الخيانة على ميعاد، شرع فيما يطلب به شرعاً، وألقى في إنجازهم بصراً وسعاً، فأمر بجميع ما فيها من المعبّدات والقُبب، والقبور التي يُستغاث بها وتُدعى وتُندب، أن يُزال ما فيها من المحظور، وأن يُسلك بها سنة القبور، وأن تستوي على المنهج المشهور، وألا يُصرف إليها نذور، وأمر بهدم ما فيها من كنائس الرفض والبدع، فالتزم أهلها صلوات الخمس والجمع، وبُعِثت أماكن الزبغ والأهواء والضلال، ومعتقدات ذوي السفاهة والاعتزال، وذوي الضلالة والإضلال، وأمر بإقامة شرائع التوحيد والإسلام، وإبطال ما خالف الشرع من

(١) إحدى عيون الأحساء المشهورة.

الأحكام، وبالمواظبة على إظهار الصلوات في المساجد، ومعاقبة كل متخلف عنها معاند، وقتل كل منكر جاحد، ونادى على أنواع الربا بالإبطال، فلا يُسعى في أسبابها ولا يُنال، وإفساد كل حيلة داعية إليه، أو طريقة هادية عليه، فأضحى أهل العقود الفاسدة والحيل، وذوي العقول القاصرة التي لم تدرك المعرفة ولم تتل، يتحسرون على مذاهبهم الأوّل، وذهاب أهل تلك الدول، وأمر بالتدريس في جميع الأربعة المذاهب، وتأييد كل سالك إليها وذاهب، وتعليم العلم ونشره وإحيائه بالمذاكرة فيه، وذكره والتجرد والتجريد في تفهم التوحيد، فقاموا فيه بعدما قعدوا، وشمروا في العلوم واجتهدوا، وأقر الأئمة في مساجدها وأكل حاصلها وفوائدها، وقرر العلماء في المدارس، فأصبح كل في كتب مذهبه دارس، فلم يكن منهجها مضموسًا ولا دارس، وأقر الأحباس والسبل، فلم يصل إلى أربابها خلل، وأبطل جميع أوقاف الرفضة، وعطل ذلك الطريق وهجر كل واحد من أربابه ورفضه، وأبطل جميع أنواع المظالم، وعفى أثر المغارم، فكسد سوق الأخماس، وعُطِّلَت العشور والأمكاس، فاستقالت الحنيفية السمعاء على المنهاج، وزال ما بها من الاعوجاج، فأسفر وجه الحق بعد ظلامه، وتقشع منه كثيف قتامة، وانجلي عن بدر السنة متراكم غمامه، فأضاء نوره وأسفر، واستكمل التمام بعدما أقمر، فصدحت حمائم النصر بألحانها، وصدعت بنغمات العز على أفنانها، وتغنت في روح الإنس على أشجارها بأفنانها، مذكرة بالشكر والحمد لأهل الحسا وسكانها، بإزالة المحذور وحلول التوحيد في أوطانها.

ولما أفرغ جهده في مهد سنن الحق والهدى، ومحق مناهج الضلال والردى، وفرغ من إكماله وأسباب إعماله، وتم له من ذلك المراد، وعزم أن يرحل عن تلك البلاد، فأشار عليه كثير من أهل البلدان أن يبني له حصنًا، وجَدَّ كل منهم

في ذلك واجتهد، وأتوا إليه مرارًا عديدة، فكانت أقوالهم عنده غير راجحة ولا سديدة، ومشورتهم غير مفيدة، واستعانوا عليه بجماعة من قومه من ذوي الشأن، على إنجاح ذلك البنيان، وتعجيله لهم في ذلك الزمان، فلما لم يجد بُدًّا من ذلك سمح لهم باللسان، وأشار بأن يكون موضعه فيما يصلح له من المكان، فاجتمع الرأي والنظر والمشورة والفكر، على أن ليس له مكان يصلح ويليق، سوى بيوت آل حميد وما حولها من الفريق، فطاع بذلك ودان، وهدمت تلك البيوت في ذلك الأوان، وكل بيت ليس ببيت مال واحتيج إليه، أمر أن تدفع إلى ربه قيمته كاملة وتُحضر لديه، فلا يضيع ملك عليه، وحث على ذلك قيمه وأوصاه، وحذره شؤم العقابة إن خالف أمره وتعداه، وشرع أهل ذلك الوطن والمحل في إحكام ذلك البناء والعمل، فلم يرد إتمامه ﷺ.

ثم ظعن سعود، حرسه الله تعالى، عن مكانه وارتحل، وقصد قرية أنطاع^(١) من القرايا ونزل، ولما أراد الله تعالى الذل والهوان بأهل ذلك المكان، وحكم ﷺ بدمار ذلك المحل، وأن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والذلة لأهل الإلحاد والمبطلين، فتح لجميع الضلال والغواة أن يدعوا مسلك الفوز والنجاة، ويلوذوا إلى مناهج البغاة، ويجنحوا إلى ظلم تلك الضلالات، ويقتلوا أولئك القوم الهداة، والجماعة الذين هم للتوحيد دعاة، ويسقوهم صرف الجحام والردى، ويظمسوا بعد ذلك منار الحق والهدى، ويعلنوا بأمور الفسق والردى، ويحسبون أن الله تعالى يتركهم سدى، كلا، وعزته لا يفوته من بغى واعتدى، فسعي في نسج برود الإثم والأوزار، وهياؤا لها أردية وإزار، وقام في ذلك الإزر والآثام أناس كثيرة وأقوام، يُنسبون إلى الكرم والإكرام، وأكثرهم

فساق وظَلَماء، ورفضة وفجّار وعوام، منهم محمد بن سعدون ومحمد بن عبد العزيز، ومن العتبان مهيني بن عمران، ومن أهل الهفوف سعد آل ملحّم وابن عفاف والحبابي وعلي بن أحمد وابن حبيل وصويلج النجار، فاجتمعوا في بعض ليالي تلك الأيام، خارجًا عن البلد والأنام، حين استحكم دُجى الظلام، وأناخ بجرائه على العيون بالمنام، فتعاطوا بينهم مفاتيح الكلام، وتجارّت خيول أفكارهم في ميدان ذلك المرام، وتبارت في ذلك المضمار على الإنفاذ والإبرام، ولكن لا يُدرك ولا يُرام، إلا بعد المعاهدة والمعاقدة والانتظام، وتوثيق ذلك بالحلف والإقسام، والتغليظ في ذلك والإعظام، فحكموا أمرهم بينهم، وأبرموا غدرهم وشيئهم، ولفظوا بنقض العهود في ذلك الميعاد، وأجمعوا على نكث العقود في ذلك الإنفاذ، فأسرعوا بعاشر شوال يوم الجمعة في الارتداد، وقتلوا كثيرًا من أهل التوحيد والرشاد، الذين مكثوا عندهم للتعليم والإرشاد، وتعاطى ذلك الأمر وباشره أهل الشر والفسق والفساد، وغيرهم من ذوي الشقاق والعناد، فأصبحوا وقد أشفوا من دماء المسلمين الفؤاد، فأطفؤوا بتلك الدماء المراقبة لواعج الحزن الذي أربى في الانتقاد، وأوقده الأسف غاية الإيقاد، فباءوا بسخط رب العباد، ودخلوا في دائرة أهل الإبعاد، ومهدوا لأنفسهم من الهلاك مهاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، فاستقلت عنهم حيثنأ أظلة السعد والإسعاد، وطوح بهم في خصلة الطرد والبعاد، فنالوا بعد ذلك أعظم الأنكاد، وقُتل غالبهم بعد أمد من الآماد، وجُلّي بقيتهم في كل بلاد، فهم كل يوم في عناء وضناء وسقم ومقاساة هموم وأحقاد، ولا يزالون في مزيد وازدياد. وجرى ذلك اليوم بتلك الصبيحة، حين وقعت تلك الفتنة القبيحة، في البلد ضجة هائلة عظيمة، وأظلتها حيثنأ خطوب جسيمة، وقُتل ذلك اليوم عبد الله بن فاضل وحمد بن حسين وإبراهيم بن حسن بن عيدان، وهؤلاء يُعلمون الناس

التوحيد في تلك الأوطان، وقُتل أمير المرابطية محمد بن سليمان، وقُتل محمد الحملي الأمير وحسين أبو سبيت الوزير، وسُطي في ابن عياش ومبارك وأخيه شهيل وناجم، ونهبوا بيت أبي سبيت والحملي، وأخذوا ما فيها من المال، وباؤوا بأقبح الأحوال، ثم بعد ذلك أمروا على مبارك بن خليفة وأخيه وصالح بن عياش وأخيه وأحمد بن هديب بأن يحبسوهم في الطرف^(١)، فأقاموا عندهم مدة، وكان جملة من قُتل نحو الثلاثين، وقُتل في الصفوف عبد العزيز اليمني.

ولما سمع محمد بن غشيان، وكان أميرًا على مرابطية من في الكوت^(٢) من أهل الإيمان، أصوات الناس والضجة، وذلك اللغط والعجة، ركب خيلاً مع قومه وابتدر الأصوات، وكان مقيمًا في بيت الباشات، فلما عرف الحال وتحققه، وفهم أن الأمر قد عاجله وأرهقه، قصد كويت الحصار، وكان إذ ذاك لم يكمل له الأسوار، فتحصن هو وقومه فيه عمن يريده ويؤذيه، وكان قد أخذ على ركابه بعض الزاد، لأجل التهيؤ في الحصار والاستعداد، فأطبق خلفه تلك الأمم، حين قصد ذلك القصر وأمّ، وراموا له وقومه إدراكًا، ونظموا له عقودًا وأسلاكًا، وأسرعوا إليهم ونهدوا، وحاولوا في ذلك وجهدوا، وحرصوا على ذلك وجردوا، وأخزاهم الله تعالى فما ربحوا ولا سعدوا.

ثم بعد ذلك بأيام، اجتمع أهل الحسا في انتظام، واتَّعدوا على السور أولئك الأقوام، فخرجوا كأنهم جراد منتشر، وقصدوا ذلك القصر ومن فيه من البشر، وحاولوا فيه بأنواع من الضرر، وجاؤوا بأمور بعضها أدهش وحير الفكر، وبهت العقول وبهر، وأضحى كُلُّ من في ذلك القصر محاطًا به محتصر، يجزم كل من

(١) قرية من قرى الهفوف الشرقية.

(٢) حصن الهفوف.

شاهد تلك الحال أن أجلهم قد قرب واحتضر، فأيدهم الله تعالى وثبتهم ونصر،
 وخذل أعداءهم وأذلهم وقهر، حتى أن محمد بن غشيان عدا عليهم في غفلة
 وقتل أربعة منهم وصدر، وقُتل منهم رجال كثيرة في تلك الأيام ممن قاتل
 وحَصُر، فرجعوا خائبين ولم يكن لهم عليهم مقتدر، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا
 فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، ولم يفتتوا إليه ولم يُقبلوا عليه ولم يكن منهم مدكر، ﴿حِكْمَةٌ
 بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ﴾، وبقي ابن غشيان في ذلك القصر أيامًا، ولم يُدركوا منه
 تلك الأحزاب مرأما، وثبت الله تعالى للمسلمين فيه أقدامًا، فلم يتيسر للأعداء
 عليهم فيه إقدامًا، ونالوا ذلًا وخزيًا وهوانًا وإحجامًا، فكانت هذه الحال آية من
 الله تعالى وإعلامًا، تزيد الموحّد لله في الله إعظامًا.

ولما قل الزاد وطال الحصار والجهاد، ولم يبق عند محمد وقومه شيء من
 الطعام، ولا زهبة يُقاتل بها تلك الأقوام، خرج ليلاً ونار^(١)، وسلك سبيل
 الفرار، وخرج من الحصار، وجد في السير والذهاب، ولم يكن لهم إليه
 طلاب، فشرّ إلى إخوانه وبلده وأوطانه، ولما خرج ابن غشيان وافاه غزو
 للمسلمين من العتبان، فرجع ومن معه معهم وصباحوا قرية الشعبة^(٢) وهجموا
 عليهم بين الدور، ووقع القتال في تلك القصور، وقتلوا منهم رجالًا، وأخذوا
 منها حياوين^(٣)، وأموالًا ورجعوا سالمين.

وجاء سعود، حرسه الله تعالى، الخير، وشاع الحال واشتهر، وهو إذ ذاك
 مقيم على أنطاع، وقد امتلأت بذلك الأسماع، فاستشار أهل الدين والإسلام،
 في الظهور إلى نجد أو الإقبال على أهل الحسا والإقدام، فاختلف لسان

(١) نار: حرب.

(٢) قرية من قرى المبرز.

(٣) أي: حيوانات.

المقال، وتدبير الفكر والبال، في ذلك الشأن والحال، فبعض رأى الإقدام عليه وصوبه، وبعض رأى تأخير ذلك إلى حين وطلبه، حتى يأذن الله تعالى فيه ويهيئ مطلبه، وينزل على أهل تلك الفتنة شدته وكرهه وبأسه وخطبه ونوبه، فسار يريد نجدًا، ويجد السير ذيلًا ووخذاً، ويدعو الله أن ينجز له فيهم وعدًا، ويمكنه من تلك الأعداء، ويهيئ له من أمره رَشْدًا ورُشْدًا، ويوليهِ إسعادًا وسعدًا، فوصل إلى بلاده ذلك الزمان، وصار مجيئه الحسا بعد آن.

وفيها غزا حجيلان بأهل القصيم وبعض البادية، فسار يريد بني عمرو، وكانت للمسلمين معادية، فصَبَّحَهُم بالغارة، فلم يشد كل منهم للحرب إزاره، بل جَدَّ وصدق في النياره^(١)، وقَتَلَ المسلمون منهم رجالًا، وأدركوا من الإبل منالًا.

ثم دخلت السنة الثامنة بعد المائتين والألف.

وفيها سار سعود، سلك الله تعالى به السنن المحمود، يريد الأحسا وإحصارها وتدميرها، وفجَّارها وفساقها وكفارها، وأرفاضها وأسوارها، وذوي الردة والذين أطاروا شَرارها، وقتلوا معلِّمة التوحيد وأضيافها وخُطَّارها، فأغضبت ملك الملوك وقهارها، وأسخطت خالقها وجبارها، وغافر الذنوب وستارها، فأسرع في المسير بالمسلمين، وقد اتفق رأي الموحدين على الحصار والمضايقة والمنازلة، وبذل الجد في الاجتهاد والمقاتلة.

وكان زيد بن عريعر وإخوانه وجماعته حين تلك النازلة، في بلد الكويت نازلة، فأقبلوا بعد مدة على الحسا، فزادهم الله تعالى حزنًا وأسى، وبقوا مع أهلها تلك الأيام، وهم مستعدون لقتال أهل الإسلام، فلما كان آخر عاشوراء

(١) النياره: الهرب.

المحرم، عزم سعود على النزول وتقدم، فنزل على قرى الشمال، وكان في الشَّقِيق^(١) ستمائة من الرجال، فأضرمت نار الحروب، وأحاطت بهم سوء الخطوب، فأوقدت أعظم الوقود، وأحدثت بهم أولئك الضراغة الأسود، فلما نزل سعود في ذلك المكان، خرج أهل الشَّقِيق ومن معهم نحو ستمائة من العسكر من أهل العصيان، ووقع بينهم وبين المسلمين قتال، وقُبل ذلك اليوم بينهم رجال، فلما أضاءت شمس ثاني يوم بالنور، بدر المسلمون إلى القتال فلم يكن من أهل الشَّقِيق ظهور، فسار إليهم أهل الإيمان، وأرادوا البروز فما كان، وبقوا محتصرين في ذلك المكان، وجرى بينهم قتال بالبنادق، قضى الله بالموت على من كان لأجله موافق، وشرع المسلمون في قطع النخل، حتى مَنَّ الله تعالى عليهم بالفتح والفضل.

فلما كان أول ليلة الثالثة حين استحكم الظلام، هرب مَنْ في الشَّقِيق مِنْ أولئك الأنام، وتفرقوا في القرين^(٢) والمطيرفي^(٣) والمبرز، والكل طلب النجاة ولنفسه أحرز، فأتى الخبر اليقين إلى سعود والمسلمين في ساعة الهروب والانهازم، فأرسل أناساً يحفظونها من أهل الإسلام، فألقوها من أهلها خالية، وأخذوا الأموال التي فيها حالية، لما كانت حماتها عنها جالية، ثم بعد ذلك اجتمع أهل تلك القرى في القرين، وهموا بالاشتداد، وعزموا على القتال حين أرادوا تلك البلاد والأمداد، فأطال المسلمون عليهم المحاصرة، ونوهم بطول الإقامة والمصابرة، فكتب الله عليهم الهوان والدلة، وطلبوا من سعود الصلح عن القرية والمحلة، فصالحهم عنها على نصف ذلك، فتناصفوا جميع ما

(١) من قرى المبرز.

(٢) من قرى الأحساء الشمالية، تبعد عن الهفوف حوالي ٨ كم.

(٣) تقع شمال المبرز.

هنالك، من أمتعة وسلاح وحيوان، وجميع أنواع المال وطعام وغيره، فاقسموا على تلك الحال، ونحا أهل المطيرفي في ذلك المنهج، وكل من قرى أهل الشمال على المناصفة عرج.

فلما انقضى شأن الشمال في قليل من الأيام والليال، وطاعت تلك القرى، مما حل بهم واعتري، وذلت أنصارها وهانت، وألقى المقاتل بعضها للإسلام ودانت، وأمر على أهل القرين بالجلء عن الوطن، فكل ارتحل عنه وظعن، سار بعض الخيل والجيش إلى أهل المبرز، فخرجوا جميعاً ومعهم من عندهم من أولاد عريعر وفرسانه والكل قد أبدى شأنه وأبرز، فالتقوا مع المسلمين، وجالت معهم فرسان الموحدين، وجرى في ذلك المجال طعان وقتال، فشدت فرسان التوحيد على تلك الجموع العظيمة، فلم يلبثوا إلا ساعة فشدوا في الهزيمة، وقُتل ذلك اليوم من أولئك القوم غدير بن عمر وحمود بن غرمول، فرجع المسلمون إلى رحالهم ومحلثهم، بعدما جدّ الأعداء في هزيمتهم.

ثم بعد أيام نهّد المسلمون إلى أهل المبرز مرة أخرى، وتقابلوا معهم عصراً، وخرج أهل المبرز للقتال، وكان المعترك دون نخيل أهل الشمال، فتداعى الجميع في ذلك المجال، ولم يقدر فيه انقضاء آجال، فرجع كلٌّ إلى ما له من موضع ومال، فلما عرف المسلمون من أهل المبرز تلك الحال، واختبروا سيرتهم في القتال، سَعَوْا لهم في تهيئة أسباب الحيلة والخداع، بإظهار بواعث الطمع والأطماع، حتى يرغب أهل تلك الجموع والاجتماع، وليستمروا للمسلمين في اقتفاء واتباع، حتى يبعدوا بهم عن تلك المواضع والبقاع، ويحيطوهم عن ذرى تلك التلاع، فلا يكون لهم صعود ولا ارتفاع، ثم بعد ذلك يكرون عليهم للدفاع، ويعطفون عليهم كضواري السباع والنسور الجياح، فيكون حينئذ منهم هروب واندفاع، ورعب واندعار وارتياح، فيشدّ المسلمون عليهم في

الاتباع، بقلوب متوجدة عليهم ذات التبع، وأفئدة لم يفارقها حزن ذلك الافتجاع، ومواض مصقولة الشبا فحدها باثر قطاع، وأسنة كالبرق للماع، سريعة الانتهاب للأرواح والانتزاع.

فلما كان يوم الثلاثاء شمر المسلمون للقتال في الإسراع، واجتمع من أهل الحسا ما لا يقدر عليه ولا يستطيع، ولم يطرق السمع في قتال العرب مثله سماع، حتى كادت أبواب المسلمين أن تزيل القناع، فناداها هاتف الإقبال بصوت ملأ الأسماع: قد جاءكم الفتح والنصر فلا ترجف القلوب ولا تُراع. فسكنت وراضت وكان منها لذلك قبول واستماع، وأقبلوا على أولئك الجنود التي عدت النفع والانتفاع، وقد عزموا على الوفاء لله تعالى وصدق الاتباع، وكلُّ يُنشد بعد الحوقلة والاسترجاع، قول شاعر مقدم شجاع:

أقول لها وقد طارت شَعَاً من الأبطال ويحك لا تراعي
فصيراً في مجال الموت صيراً فما نيل الخلود بمستطاع
فإن الموت غاية كل حي وداعيه لأهل الأرض داع

فصدقوا لهم الحملة، فامتعت ألوان تلك الجموع من الرعب أعظم امتناع، فكان لهم إلى الهزيمة إسراع بعد إزماع، ولم يحصل منهم ولله الحمد مطاعنة ولا نزاع، بل غالب تلك الأمم لم يقفوا ساعة في المجال، فضلاً عن الجلال والقراع، فجفلوا كأغنام صاحت بها أسود بقاع، فصار لهم إلى البيوت معاجلة وانقطاع، وقُتل منهم نحو الستين ذلك اليوم، ومثلها في سائر الأيام فكان بها اقتناع، وانهزم زيد بن عريعر إلى بلدان المشرق، فلم يكن له إلى المبرز رجوع ولا ارتجاع، إلا بعد طلوع الشمس ثاني يوم حين علم حال البلد بتحقيق الاطلاع.

ثم بعد أيام سار المسلمون إلى أهل بلاد ابن بطال^(١)، فجرى فيها قتل كثير من أولئك الضالّل، وانهزم جميع أهلها فلم يثبتوا فيها ساعة لمجال، وأخذ المسلمون ما فيها من الأمتعة والحيوان والطعام والأموال.

ثم بعد أيام سار المسلمون إلى بلدان الشرق يريدون عليها الإقدام، فهجموا على مضيق تلك الدروب، وطاق على الجبيل طائف الخطوب، فافتحم المسلمون عليهم، وأرادوا الوصول إليهم، فوقع عند البلاد قتل وجّالاد، ثم انصرف المسلمون إلى مكانهم، وارتجف أهل الشرق في أوطانهم، وبقي كل من أهل الإسلام تلك الليالي والأيام، يُجَدّ في القتال ويُجَدّ في الصرام، فأسرع المسلمون خصوصًا العربان، وسائر أولئك الأعراب والبدوان، يباكرون صرم النخل والأثمار، ولا يبرحون عنه حتى يدبر النهار، وأهل الحسا في مضائق وبأس ودمار، وضيق معيشة وحصار، فلما أراد الله تعالى أن يبرز في مقام الإظهار، ما قضاه سبحانه لأولياته واختار، ويسلك بهم الطريق السهل الخيار، وينشر لهم أعلام الظفر والتمكين والانتصار، ويستقر قواعد التوحيد في تلك القرى والأمصار، فيشتهر ذلك في سائر الأقطار، أتى برّاك بن عبد المحسن سعودًا، حرمه الله تعالى، فأخبره أن أهل الحسا لهم رغبة في الدخول في الدين وإقبال، وأنهم متندمون على صدور تلك الأفعال، وأنهم يطلبون طريق الإيمان والإسلام، والالتزام بسائر الأحكام، فقال: ذلك لهم ولا يُردُّون، ففساهم لسبيل الحق يهتدون، وعن مَهْجَع الغي ينتهون، ولكن يخرجون للعهد إلينا، ويقدمون للمبايعة علينا. فعاد له بالقول مرارًا، وقال: إنهم لا يقدرّون على

(١) أي: قرية البطالية، نسبة إلى ابن بطال أحد رجال الدولة العيونية، وهي من قرى الأحساء الشمالية، تبعد عن الهفوف حوالي ٧ كم.

مواجهتك خوفاً منك وفراراً، ولا يستطيعوا إلى ذلك المكان إحضاراً. فاستعان براك بكبار أهل التوحيد، على إنجاح ذلك الرأي السديد، فساعدته أهل الدين والإسلام، وقاموا معه أتم القيام، حتى نجح ذلك المني والمرام، واتفق الرأي والانتظام، بين براك وكبار أهل الحسا أن سعوداً إذا ظعن عن ذلك المكان والمقام، وفرغنا من الأثمار والصّرام، أنك تأتينا ونبايعك على الإسلام، ونُخرج زيد بن عريعر وإخوانه، وننفيه هو وأعوانه. ولعل هذه حيلة وخديعة، إذ لم تكن نفوسهم بمجيئه لهم مطيعة.

فارتحل سعود، بلغه الله تعالى المقصود، حين ألح عليه إخوانه في ذلك الشأن، وقالوا: عسى أن يكون هذا سبباً لهم في الإيمان. وجدّ سيره يريد الأهل والأوطان، وقد نال أبهى الأنس والسرور والتهان، وأزهى صلات البر والجود والإحسان، فلما وصل سعود إلى تلك الديار، زال عن الحسا ذلك الخوف والرعب والحصار، وبرحوا على ذلك مدة أيام، وقد وجدوا بعد ذلك لذة المنام، وزال ما بهم من الهم والأسقام.

حتى كان من براك عليهم مفاجأة وإقدام، يريد ذلك العهد منهم والإبرام، والوفاء بما عاهد عليه أولئك الأنام، وقال لهم: هذا وقت الوعد، فقد وصل سعود إلى نجد، وقد حان حين الوفا، فإياكم وسلوك طريق الخلف والجفا، فتصبرون من الهلاك على شفا. فأبوا إلا الخُلف والإخلاف، وركوب متن الإجناف، فلم يحصل بمرامه إسعاف، وثار بينهم القتال، واختلفت كلمتهم بعد ذلك الحال، واقتربت قلوب تلك القبائل، فكان الله تعالى لهم مُذْلاً وخاذل، فلم يقبلوا نصحاً لقتال، ولم يروضوا إلى عدل عاذل، فنفذ فيهم حكم الحكم العادل، والقضاء النافذ الفاصل.

فانصرف عنهم براك، بعد أن لم يحصل على إدراك، وخرج إلى البادية، ثم

بعد ذلك كانت خيله عليهم عادية، وقدم عليهم في رمضان، وجرى القتال والطعان، وخرج جملة من أهل الدين من السياس^(١) مجتمعين، وكبيرهم سيف بن سعدون، فكانوا للقتال كل يوم ينهدون، واجتمعوا في قرية الجشة^(٢)، بعد أن لم يدركوا في المبرز حيلة، فكان ذلك إلى الفتح ذريعة ووسيلة، فاجتمع أولاد عريعر محمد وإخوانه، وجميع جيشه وأعوانه، وأهل المبرز وأهل الصفوف، في بلد الجفر، وكانوا مما لا يضبطهم الحصر، فمكثوا فيه أيامًا، وأطالوا فيه مكثًا ومقامًا، وكل يوم ينهد إليهم برآك والبدو والسياس مجتمعين، ويقع بينهم طعنٌ وطعان، ومجادلة خيل وفرسان، وتلاحم ومصادمة واقتران، وقُتل بينهم رجال في تلك الأيام والليال، والكل ييدي الصبر في حومة المجال، حتى أراد الله تعالى صلاح الحال، وحسن العاقبة للمسلمين والمآل، فأدخل برآك الهفوف باحتيال، فطاب له حينئذ القلب والبال، وتم له السرور والإقبال، وهرب أولاد عريعر دويحس ومحمد وماجد، وكلٌّ من الخاصة مساعد، وأقبل برآك إلى المبرز صبيحة ذلك اليوم، فتلقاه بالقبول أولئك القوم، وأتوه لأجل السلام والتهنة بالقدوم والإقدام، وإنجاح السؤال والمرام، فطلب منهم المعاهدة على الدين والإسلام، والالتزام بجميع الأحكام، فعاهدوه على ذلك وحدانا ومجتمعين، والتزموا القيام بتوحيد رب العالمين، فوفى العهد طوائف وحمائل وآحاد في الفرقان غير منحصرين، والرفضة وكثير من غيرهم دخلوا في ذلك العهد مكرهين، وودوا لو أصبحوا له ناكثين، ولكن الله ضرب عليهم الذلة بحوله إلى يوم الدين، ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

(١) من بني خالد.

(٢) تبعه عن الهفوف حوالي ٢١ كم.

ثم بعد صدور ذلك الأمر وإبرامه، وتحقيقه وإحكامه، وجريان شرائع الدين في الحسا وأحكامه، كتب براك إلى عبد العزيز لمزيد إخباره وإعلامه، قَسَّرَ بذلك الإخبار والإعلام، وبادر بالحمد والشكر لمولى الإنعام، على ما حبا أهل الإسلام من هذه المواهب الجسام، فأمر عبد العزيز براك بن عبد المحسن أن يبدل في الدين جهده، ويوفي عهده ووعدته، ويُجلي ابن فيروز^(١) وأحمد بن حبيب ومحمد بن سعدون، فجلُّوا بعدما ألزم عليهم براك يخرجون.

وفيها غزا محمد بن معقل مع أهل الوشم وأهل القصيم وأهل العجل، فسار بمن معه من المسلمين على غير مهل، حتى أناخ بدومة الجندل^(٢)، فحط فيها رحله ونزل، ثم أخذ يُحاصر أهل تلك القرى، ويُضيق على أهل الزبيغ والافترا، ويفاجئهم كل يوم بالقتال، ويغاديههم بأعظم الفعال والأهوال، حتى ضاقت بهم الحال، وكلهم دانوا بالإسلام بعد إذلال، ولم يبق من تلك القرى إلا قرية بني سراح^(٣)، فلم يكن لها إلى الدين ارتياح، واجتمع عنده كثير من الأموال، فأعطى منها آل درع وكانوا مقاومين لابن سراح، ولهم تقدم وإقبال، وكانوا في حصار شديد ليس عليه مزيد، وقد تمسكوا بما منحوا وأعطوا، فلم يدنسوا وجوههم بغيار الردة ولم يخطوا.

(١) محمد بن فيروز (ت ١٢١٦هـ)، حامل لواء المعارضة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحْمَةُ في الأحياء، له ترجمة في «السحب الوابلة» (٣ / ٩٦٩)، وستأتي قصيدته في تأليب والي العراق على الدولة السعودية، مع رد ابن غنام عليها. ولكن: تأمل كيف اكتفوا بإجلائه رغم عداوته وتأليبه.

(٢) دومة الجندل تعني: قبة الحجر، وهي تقع على مسافة ٥٠ كم جنوب مدينة سكاكا.

(٣) دومة الجندل مقسمة إلى أحياء، في كل حي عائلة كبيرة أو مجموعة من العائلات، منها: حي السراح، وحي الدرع.

وفيهما غزا إبراهيم بن عفيصان بأهل الخرج والعارض وأهل سدير، فشمّر ساعده للجد في السير، حتى وصل إلى بلد الكويت بعد الهجوع، فأناخ يهبي ما معه من الجموع، فلم تنجل الغياهب حتى فرغ من تلك المطالب، ورتب الجيش والكمين، ثم بعد الإسفار أغارت خيول المسلمين، فخرج مقاتلة أهل البلد مجتمعين، وناوشوا المسلمين القتال، وعقدوا للحرب المجال، ثم بعد ذلك ظهر عليهم الكمين، فولّوا مدبرين، وعمدوا إلى البلد مسرعين، وقتل المسلمون منهم نحو الثلاثين، وأخذوا عليهم غنماً كثيرة، وأسلحة ثمينة شهيرة، ورجعوا إلى بلادهم فائزين، وللمال والأجر حائزين.

وفيهما غزا هادي بن قرمة رئيس قحطان، ومعه محمد بن معيقل وأهل الرشم ومطير وعربان كثيرة من البدوان، فلم يزل في ذلك النهج سائر، حتى صبح عرباناً كثيرة من البقوم وبني هاجر، وذلك أنه قرب منهم والليل داج وداجر، والظلام مجتمع المساكر، فلم يُرْعَهُمْ إلا ركام العياثر، والجياد التي كأنها الرياح السوائر، ولمعان المرهفات البواتر، والأسنة التي تفتت في الصدور والمرائر، فراموا الجلال ووطنوا عليه نفوسهم فأصبح كُلُّ على ما أصابه صابر، حتى أراد الله أن يدير من البلاد دائر، على أولئك المخالفين لأمر عالم السرائر، فشد عليهم المسلمون، فأضحى جواد عزهم منكسراً عاثراً، فقتل ابن شري المسمى ناصر، وأرادوا بعده الثبات والتجدد، حتى دهمهم ما لا يستطيعه الضراغم في الآجام والحواضر، فأصبح كل منهم يريد النجاة لنفسه نافر، وعن حومة الوغى بعد شدة البأس هارب نافر، وأخذ المسلمون منهم نحو ثلاثة آلاف من الإبل لكل ضابط وحاصر، وآب جند الضلال خائباً خاسر.

ثم دخلت السنة التاسعة بعد المائتين والألف.

وفيهما غزا سعود، أیده الله تعالى بالنصر والسعود، وكان عربان الشمال له

مراد أو مقصود، فسار بالمسلمين بطوي منشور البید، بأيدي اليعملات على العنق والتوخيد، ويؤم مطلع السها والفرقدين، ولم يبال بما حصل لعيسه من الكلال والأين، ويشكو إليه طول السرى وحلول البرى، قلوب الكُمت والرواحل، وتحنّ إلى الورود من فرط البعد ومداومة الوخذ، فيعللها بزال المناهل، وكان لمطالعة القطب لا ينفك ولا يزال، ولا رتباب النصر والظفر في ذلك الوجه في رجاء وآمال، حتى لمع ضياء البشرى والسرور في ساجي ذلك انديجور، وطلع له كوكب الإقبال والحبور، وهبت على أعدائه ريح الدّبور، فجاءته طلائعه وعيونه بالتهان، بأن القواسم ها هنا وكبيرهم ابن عفيصان، وهم عرب من آل ظفير، فكانوا قبالتة وواقاه في ذلك المسير، فصبّحتهم في أرض الحجر^(١) غارته، ولم تسبقه عليهم نذراته، بل فجأته بحصول مراده بشارته، وبغت أولئك السلف دماره وخسارته، فلم يستطيعوا مع المسلمين الجولان، ولم يعقدوا لحومة الوغى والبأس ميدان، بل ناوش منهم بعض الفرسان، وراموا قليل طعان، ثم شتموا في الهزيمة من غير توان، وقد أخذ المسلمون منهم إبلاً كثيرة، وجميع المحلة والغنم، وكان الإبل ألف وخمسمائة بعير على سبيل التقليل لا التكثير، ورجع المسلمون إلى البلاد، وقد حفهم الإسعاد.

وفيهما جرت وقعة سعد بن قطتان، وكان قبل ذلك قد أبدى للدين إذعان، وأسلم قبل ذلك الزمان، فأراد أن يتبين على أهل الضلال وعباد الأوثان، خصوصاً البدوان، فبنى قصرًا محكمًا، ثم بعد ذلك تبيين في الدين معلمًا، وجاهد من أهل دينه من لم يكن مسلمًا، فنالوا منه ذلًا وهوانًا وندمًا، وأستقام كؤوسًا منزعة دمًا، حتى حاولوا فيه مأثمًا، وهياؤا له أمرًا محرّمًا، فشرطوا

(١) منطقة واسعة تقع شمال شرق منطقة الدهناء إلى الشرق من ليثة، وكانت من بلاد الظفير قديمًا.

لاثنى عشر رجلاً، كل واحد منهم في البأس مقدماً، على قتل ابن قطنان دراهم كثيرة يأخذها كل واحد منهم مغنماً، وينتقدوها بعد الفعل متسلماً، فعند ذلك جد كل واحد فيما كان ملتزماً، فأبدؤا للغدر والمكر حيلة وسُلماً، فهاجروا إلى قصره مبدين للدين علماً، وأقاموا أياماً يدبرون لما راموا أمماً، وقد واعدوا رؤساء أهل دينه على يوم يكون مجيئهم فيه متقدماً، فلما كان بعض الأيام وشرع في الصلاة من كان لها مقدماً، جاء جمع كثير فذُلَّى كل واحد من ذوي المكر له حبلاً ورمى، فصعدوا جميعاً السور ونزلوا وحمي الحرب واحتُمي، ولعب الباطل بينهم وارتمى، وانتخى كل بنخوة الجاهلية وانتَمي، فقتلوا غالب أهل القصر فصاروا شهداء رُحماً، وأخذوا أولاده فأرسلوا الكبير إلى الشريف فجعلوه في حبس الدما، وجاء بقية أولاده عبد العزيز فأعطاهم أموالاً كثيرة وإبلاً شهيرة، وانصرف كل منهم مجبوراً مكرماً.

وفيها غزا سعود، خلد الله تعالى له الإقبال والسعود، فسار بالمسلمين يريد عربان القبلة^(١)، وقد تقدمته طلائع العز والسعد قبله، فجد في طريقه وقد باراه النصر والإقبال، وجاراه التأييد والظفر فلم يكن لهما عنده انفصال، ولا مفارقة ولا زوال، فلم يزل يدأب السير والترحال، ويديم إنضاء الأعوجيات^(٢) على اتصال، حتى أراد الله تعالى من تلك الأمكنة علوة وقربة، ومنحه طلبه أي طلبه، وذلك أنه نزل على قرى تربيته^(٣)، بعد أن طالع بعض العربان من دعاة ذلك المكان، فجرى بينهم مناوشة طعان، ثم انهزموا بعد ذلك حتى توغلوا الحرار، فلم يكن عليهم توصل ولا اقتدار.

(١) من سبيع.

(٢) في (لسان العرب): «وأعوج: فرس سابق رُكب صغيراً فاعوجت قوائمه، والأعوجية منسوبة إليه».

(٣) تبعد عن مدينة الطائف ١٨٠ كم من الجنوب الشرقي.

ثم بعد ذلك أقام سعود في تلك الأراضي، ولم يكن له عن حصار القرى إغراض، فاستمر محاصراً لأهل تلك البلاد، وكل يوم يصدره منهم قتال وجهاد، ومصابرة عند التسور وجلاد، وكل يوم يحمل أهل الإسلام على الأسوار، ويرومون التسور على البلد والانحدار، ويقاسون من أولئك الفجار من طلائع الموت ما يزيغ الأبصار، ويُقتل من أهل الدين والإسلام، في جميع تلك الأيام، نحو عشرة رجال، كان لهم على الشهادة آجال، منهم محمد بن غشيان، وكان يعدّ من الأبطال الشجعان، وقتل من أولئك قريب من ذلك.

ثم شرع المسلمون في قطع ما لأولئك الأقوام، من تلك النخيل العوام، ويخربون فيها كل يوم، حتى كادت تنفث مرائر تلك القوم، حين رأوا قطع تلك النخيل الجليلة، وأربابها عن حمايتها محصورة ذليلة، ولم يكن لهم سبب إلى سلامتها، ولا وسيلة غير المصالحة عنها، وكان ذلك لهم حيلة، فصالح أهل قريتين سعوداً على نخلهم، وقطع نخل قريتين لسوء فعلهم، ثم بعد ذلك الحال وانقضاء المراء على الكمال، عزم المسلمون على الارتحال، فساروا على تودة وتمهال، من غير غلو في السير ولا إيغال.

وفيها غزا إبراهيم بن عفيفان، يجمع من أهل الخرج والفرع والبدو ممن يدعي الإيمان، فسار يجد السير لنيل المراء، حتى أناخ من فطر على بادية تلك البلاد، فأغار عليهم؛ فناروا^(١) فوراً وتركوا الجلال، فأخذ ما عندهم من مال، من أمتعة وغنم وآبال، وقدم بذلك بلد الأحسا، وأقام يبيع ذلك فيها وأرسي، ثم بعد فراغه أصبح فيها وما أمسى.

ثم دخلت السنة العاشرة بعد المائتين والألف.

وفيها أظهر الشريف غالب عساكر كثيرة، وجنودًا غزيرة، ورأس عليهم فهيد الشريف، فنزلت عليه البوداي كل سلف وفريق، وسلكوا للشر كل طريق، وأقبلوا يريدون ابن قرملة، وكانوا على ماء يقال له ماسل^(١)، فأقبل عليه تلك الأجناد والقبائل، وأتوه بعد قتل عيونه على غرة، لينفذ الله أمره، فدهموه وأهله في شعب من الشعاب، وقد ملكوا عليه فم ذاك الشعب، فلا يمكنه خروج ولا ذهاب، فطاعنهم زمانًا طويلًا، وقتل منهم ثلاثين رجلًا، وقتل من خيل ابن قرملة نحو عشرين، ثم انهزم ابن قرملة، وأخذ الشريف تلك القوم المجتمعين، ولم يقتل سوى رجل واحد من المسلمين.

وفيها غزا سعود، يسر الله تعالى له كل مراد ومقصود، فسار بالمسلمين يعتسف من النيافي السهل والصعاب، ويطوي من أديم المواصي كل موحشة يباب، لا يُسمعُ بها غير أصوات العرج والذباب، يظل فيها القطا فراخه فلا يهتدي، ويحير الخربت في مهامها فيتقنع قناع الموت ويرتدي، وتروح على رياضها اليعافير^(٢) وتنتدي، لا يرى بقفرها أنيس، ولا يبصر في لاحبها آثار العيس، مظمة لا يدرك فيها ما يبل صدى الظما، يحاكي لون أديمها زرقه السما، مغبرة الأفق والأرجا، يحس الساري بها بما للجن فيها من الغممة والزمزمة والأزجا، فلم يزل تدأب المظي في ذلك السير الإعناق، والأباطح تسيل منها بتلك الأعناق، حتى قطع بصارم العروتين تلك المفاز، وأراد مولاة لمراده إنجاز، حتى تبين له من سواد الحرة ذلك الحجر، ويدر له منها ذلك

(١) قال ابن بشر (١ / ١٠٣): «الماء المعروف في عالية نجد».

(٢) الغزلان.

المدر، وألقى لها الحجران عند أولئك العربان، وذوي الضلال والعصيان، وكانوا أسلافًا، كبيرهم ابن مجبور من العتبان، فمد لها طول الراحة بعد هزيع من الإعتام، وسجى دباجر الإظلام، إلى أن شدت عساكر الظلام، في الهروب والانهمام، ونادى المنادي بدعوة الإسلام، وأذن للصلاة بالقيام، وقضيت على الطمأنينة والتمام، وكان الدعاء بعد ذلك ختام، بنيل التوفيق والمرام، فأسرعت الرجال إلى الرحال، وأطلق الركاب من الاعتقال، وأسرعت الأبطال إلى الجياد، وتسمنوا صهواتها للجلاد، وشرع كل منهم سنان، وسأل مولاه الإعانة، وجردت القواضب المرهفة، وشنوا على أولئك العربان غارتهم المرجفة، وشهواتهم المتلفة، فانتدبت فرسان الشرك والضلالة، وأقبلوا فرسانًا ورجالة، وجالوا في الحرب مجاله، ثم أنزل الله تعالى عليهم الذلة والبأس، فانهزم ذوو الضلال والإبلاس، وأخذ المسلمون جميع أولئك الناس، وولّوا على أعقابهم، وتوعروا في الحرة في ذهابهم، وعجل الله تعالى لهم بعض عقابهم، فشد المسلمون خلفهم في ذلك الأثر، حتى أعياهم مقاساة ذلك الحجر، وخشّوا على أنفسهم وخيلهم من الضرر، فرجع كل واحد منهم وصدر، وأخذ أهل الإسلام المحلة، وشتت الله حزب الشرك وقّله، وأخذ من الإبل نحو الألفين أو يزيد، ورجع المسلمون بالأجر والمزيد، وأخذ أيضًا عشرة آلاف من الغنم، وغنموا أعظم مغنم، وقُتِلَ ذلك اليوم من المسلمين سبيل، وكان مقدامًا نبيل.

وفيهما غزا قاعد بن ربيع أمير الوادي، فسار بجمع من قومه يريد من هو للمسلمين معادي، وأدلى في ذلك الزمن، وهجر لذة الوسن، حتى رأى من بني هاجر^(١) فريق آل ضمن، فاستقر باله واطمأن، وثبت قلبه وركن، فصبحهم

بالغارة المجيدة، فكانت أسنته لهم عاملة مفيدة، ومرهفاته لهم مبيدة مبيدة، فقتل منهم فوق الأربعين، وأخذ ما عندهم من خيل وإبل وغنم، وولي قليل من الرجال منهزمين.

وفيها أظهر الشريف غالب جموعًا وأجناد، وعساكر من كل قرية وبلاد، وانضم إليه أهل بلدانه، وجميع أعرابه وبدوانه، فرأس فيهم ناصر بن يحيى الشريف، وأمرهم بمصادمة بوادي الدين، ومن هو منتسب للمسلمين، فخرجوا يقتحمون السهل والوعر، ولا يصدهم عن مرادهم الضجر، فلما تحقق عبد العزيز ذلك الخبر، وشاع بين الناس واشتهر، أرسل العربان المسلمين من قبله نجد، وأعلمهم بما عزم عليه الشريف من ذلك القصد، وأمرهم أن ينزلوا بالأهل والأطعان، على هادي بن قرملة كبير قحطان، وأمر ربيع أمير الدواسر والوادي، أن يظهر مع جيش من قومه وينزل على هادي، فالكل من أولئك الأقوام أسرع الامتثال، والقيام لأمر عبد العزيز الإمام، وبادروا لذلك المهم والإعانة في دفع ذلك المدلهم، فلم تمض قلائل من الأيام حتى اجتمع أولئك الأنام، على ماء بنجد يسمى الجمانية، فالتأمت به تلك الأمم البداوية، حتى كان آخر الأيام الشعبانية، نزلت تلك الجموع الشيطانية، وأبرزت من البأس وفرط الإبلاس، واختلاف الأجناس، ما يدهش العقول الإنسانية، ويرعش القلوب الجنانية، فلما بدت الغرة الرمضانية، تلاحمت الفرسان العربية، وشرعت الحراب السنامية، وجردت السيوف الهنداوية، وقتل ذلك اليوم أبو مجبور من الأبطال الفرسانية، وانفصلت جميع الأمم الفرقانية، لما غابت الأنوار الشمسانية.

فلما طلعت شمس ثاني رمضان، تداعى عند ذلك الكماة الشجعانية، وحملوا حملة هائلة ظلمانية، وتصلت تلك القوى الجسمانية والقلوب الصلدانية، وثار تلك العجاج الدخانية، واصطلمت تلك المدافع النيرانية، فأعلن عند

تلك الأمور الهائلة العيانية، أهل الدين والإسلام بشعارهم بتعظيم الصمدانية، والإعلان بكلمة التوحيد والوحدانية، فهزم الله جميع تلك العدوانية، وحف المسلمين النصر والظفر من العناية الرحمانية، وتفرق أهل الضلال في خلال العقبات الشعبانية، وقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل، وأخذوا من الإبل والغنم ما لم يُنَلْ مثله ولم يُرَمَ، وأخذوا جميع المحلة والأزواد والطعام، وتلك المدافع السجرورة ومنسوب تلك الخيام، وكان الغنم التي حصلها المسلمون مائتي ألف، غير ما قضى الله تعالى عليه بالحتف، وعدد ما استولوا عليه من الإبل ثلاثون ألفاً، من غير خطأ ولا ذل، وقُتِل من المسلمين رجال، وإن-هزم الأعداء بأقبح حال.

وكان محمد بن معيقل قد أرسله عبد العزيز لعربان المسلمين مدداً، فلم يأتهم إلا بعدما فرق الله تعالى المبطلين عدداً، وجعلهم فرقاً وبدداً، وكان قدومه عليهم بعد يومين، فأطلب بني هاجر ولم يبال بما معه من الأين، فأدركهم على ماء يقال له القنصلية، فأغار عليهم وقتل نحو الأربعين من تلك البرية، فشدوا في الانهزام بعد تلك القضية، وكان هؤلاء الأعراب شمروا في الانهزام بمالهم والذهاب، حين رأوا جيوش ابن قرملة على قومه مربين، فعاجلوا بالانهزام مدبرين، فاجتمعوا على ماء القنصلية^(١)، وظنوا أنهم قد أحرزوا أموالهم، فخابت آمالهم الظنية، وحوأها كلها ابن معيقل، وعزز بها تلك القضية السوية، وانصرف بتيل أمنية.

وفيها غزا مبارك بن عبد الهادي، ومعه من قومه من أراد الجهاد من بين حاضر وبادي، فسار في عزمه ذلك ومرامه، يجد السير والسرى في جميع لياليه

(١) قال ابن بشر (١ / ١٠٥): «قرب بلد تُرْبَة».

وجميع أيامه، لم يشته النصب، ولم يسأه التعب، فينحل عند همته وأحكامه، حتى قرب من أرض نجران، فألقى هناك بعض البدوان، يسمون آل الهندي^(١)، فكان حينئذ للغارة عليهم مبدي، فلم يشعروا إلا باهتزاز الرماح وبريق الصنّاح، فانتفضوا جميعاً للقتال والكفّاح، ولم يتخلف إلا من ليس عليه جناح، فتطاعنوا ساعة وزماناً، ومكثوا للجلاد حيناً وأواناً، ثم انهزموا بأفطع حال، وقتل المسلمون منهم ثلاثين من الرجال، وأخذوا جميع ما عندهم من المحلة والغنم والآبال، وانصرفوا في أحسن حال.

وفي شهر رمضان من سنة عشر بعد المائتين والألف.

براك وآل الحسا من تحت إمام المسلمين، لمعت للفتنة بوارق، ووحث للفتنة بوائق، وفاح للشر عَرَفٌ وشذا، ولاح طالع النحس والأذى، واستبطن البغي والغدر، واستعلن الفحش والنكر، وعصفت للخيانة رياح، وظهر على الفساق البُشْرُ والارتياح، وعلتهم من الفرح نشوة، وزادت قلوبهم على المسلمين قسوة، واستشق المسلمون للمكر عَرَفُ، فلا يستطيع أن يرجع في المنكر حرفاً، بل يوم ينتظرون يلاقي حتفاً، فاستمرت الحال أياماً وليال، وبطانة الشر تعلو وتزيد، وتضمّر البطش بأهل التوحيد، ولكن ليس عن ساحة الصبر من محيد، فلما أراد الله تعالى إنفاذ الوعد والوعيد، وتهيئة أسباب التمكين لأوليائه والتأييد، وهلاك مَنْ أراد هلاكه وخذلانه، وذلك مَنْ أراد ذله وهوانه، قدح زناده وحقق ميعادها، فأورت بالشر نارها واستطار لهبها وشرارها، وسمى جهاراً منارها، وأعلن أصحابها وأنصارها، وتأزر بإزار الغدر شرارها، وارتدى برداء الفتك فساقها وفجارها، وبقيت تمور بين أهل الفجور تلك الشهور.

هذا، والمسلمون من أهل الحسا بين لعل وعسى، وكلّ تجرع مرارة الخوف واحتسى، وتدرّع بدروع الهم واكتسى، وكابد حرارة الغم والأسى، وقلوبهم بين رجيف واضطراب، ووجيف واكتئاب، إلى يوم للمنية في ارتقاب، وفي حطم البلية في احتساب.

هذا، وإمام المسلمين عبد العزيز، أدخله الله كنفه الحريز، يُرسل المكاتيب ويكثر فيها المعاتيب، ويُعمل الرسل والإرقام، في كل أسبوع من الأيام، إلى براك بن عبد المحسن، ويحضه على نفي المسيء والإحسان إلى المحسن، وقد اهتم بذلك والله هذا الإمام أشد الاهتمام، وأمره أن يقيم الدين أشد القيام، وأن يشيد قواعد الدين، ويبيد جملة المبطلين، ويزيل من الشرك أصله وأساسه، وينفي دعائه وأناسه، ويقيم على الحق والهدى، ويشرد أهل الزيغ والردى، ويبتهل بإقامة السنة، ويتبع منهج الرسول الذي سنّه، ويأمره بإعلان شعائر الإسلام، وإخلاص الدعوة للملك العلام، وإيقاع الخمس الصلوات في المساجد والجماعات، ويبدل له النصيح سرًا وجهراً، ويبين له أنك إن فعلت هذا نلت عزًا وفخرًا، وحَوَّيت من مولاك عزًا ونصرًا، وأعظم لك ثوابًا وأجرًا، وقد ألزم عليه في ذلك أعظم الإلزام، وأمره أن يفني بما عاهد عليه الله حين دخوله في الإسلام، ويفعل ما شرط عليه حين عقد الإبرام، وما التزمه في الحجة من الأحكام، من نفي أهل الباطل والفجور، وطرد أصحاب الفساد والشُرور، كما هو في صحيفة العهد المذكور، وفي حجة العقد مقرر مسطور، فلم تغن التصانح والإنذار، ولم يبادر بما دُعِيَ إليه من إزالة الأشرار، وتعدّر من الإمام في عدم القيام وعدم الوفاء بما عاهد عليه، أن هذا لا سبيل إليه، وقد أعيا الرأي والفكرة، وليس إلى جلاء رؤسا الفتنة من قدرة؛ لما يؤدي إليه الحال، ويترقب في المآل، من الاختلاف والشقاق، وقيام أهل الرفض والنفاق،

واجتماع أهل الزيف والباطل، على أهل التوحيد والأفاضل، والأمر يؤخذ على مهل، ويُتذر أن الأمر جاء على عجل، وأن الفتنة قد حزبت أحزابها، والبدعة قد نخت كبارها وأربابها، وأن الله تعالى قد حقق على الرافضة خرابها، وكبت على فساق تلك البلد ذهابها، وأبدى لهم جزاء ردتهم الأولى وعقابها، وبين لهم شؤم الخيانة ومآبها، وما أشقى به أهلها وأصحابها.

هذا، وأردية البلاء تُنسج وتُحاك، ويسعى فيها كل فاجر أفاك، إذا غسق الليل ودجى الأفلاك، وترامى شرد الباطل في الأفلاك، وكان ذلك يسعى في نسج تلك الأردية والبرود، وعقد تلك الألوية الضالة عن المنهج المحمود، من هو في كل فتنة معدود، وفي كل مقام على المسلمين مشهود، رأس الفتنة ورئيسها الذي يثبت على أصلها وتأسيسها، ويرسي عليه عمودها، وتورق به أغصانها وعودها، وتثبت أوتادها وأطنابها، ويفتح بشؤم فكره بابها، وذلك لكونه لا يزال سميرًا للفساق والفجار، وظهيرًا للعصاة والأشرار، وهو صالح النجار، فكان إذا هدأ الناس، واشتد ظلام الإغلاس، أخذ بالشر والإبلاس، فركب دابته وجد وقصد، قصر علي بن حمد، فأحكم الرأي والمشورة، وعرض عليه تلك الأمور المحظورة، ثم سار من عنده وأجمع محكم قصده، ونحا على الجبابي وقصد، وأحضر ابن عفات واجتهد، وظن أنه لم يشعر به أحد، لكون هذا السعي والاجتهاد، وإعمال المسير والترداد، إنما هو في الليل، وفي النهار يُظهر للمسلمين المناصحة والميل، والمسلمون يعرفون حقيقة حاله، وقبيح ما ينظمه من فعالة، وقد أرسلوا الرسائل والكتب، وجَدُّوا في الطلب، وأعملوا المَطْيَ بالإنعام، إلى عبد العزيز الإمام، يطلبون منه النجدة والممدد والعدة، ويحثونه على النصرة والانتصار، وقد بينوا له جميع الذي صار، وما بدا لهم من الشين الذي صار، والشر الذي ارتفع له غبار، وكذلك أرسلوا إلى الأمير سعود بأن

يسعفهم بالمراد والمقصود.

وكان حينئذ، حرس الله مهجته وأدام عزه ودولته، منيعًا قرب شقرا، فلما جاءته الرسل من المسلمين، ومن والده، متع الله به المسلمين، وقمع به أعداء الدين، أحضر وجوه الغزاة للمشورة فيما يراه، وما عزم عليه وأبداه، وبين لهم ما يراد بأهل التوحيد من أهل الحسا، وما خالطهم من الخوف والآسى، وقال: أريد أن أعجل لهم المدد، قبل أن يقع بهم الفتك من تعاهد عليه واتعد، حتى يكون لهم عونًا، ويلقى العدو به ذلًا وهونًا، بل ربما يكون مجيئه البلاد سببًا لبطلان ذلك العهد والاتعاد، وتخدم بمجيئه نار الفتنة التي توقد كل ليلة غاية الإيقاد. فأرسل وهو في ذلك المكان، إبراهيم بن عفيصان، ومعه مائتا مطية تعجيلًا للرعية، واستدفاعًا لما أعد من البلية، وما عزم عليه من الردة الردية، وكان ذلك رأيًا مباركًا ميمونًا، خاليًا من شوائب النحس مصونًا، وحزمًا شباه مرهفًا مسنونًا، وعزمًا حاز المسلمون به ركودًا وركونًا، فلما أقبلت الرسل إليهم، وقدموا عليهم، وسمعوا كلام البشير، وتحققوا المعجىء والمسير، وفهموا قرب مكان الطليعة، عرفوا أنهم ليس لهم حيلة ولا ذريعة، وأنها ليست لهم بمنعة ولا منيعة، إن لم يسارعوا إلى ما عليه عزموا، ويعجلوا ما عقدوه وأبرموا، وينفذوا ما نوهوه وأحكموا، ويبدروا المسلمين قبل قدوم المدد المقبلين، بما أجمعوا عليه من الفتك، وندبوا إليه من الخيانة والهتك، ونصب أعلام الارتداد، ورفعها بين العباد، وشهرتها عند الحاضر والباد، قبل تلاحق الأمداد، لكي يغمسوا كافة أهل البلاد، في متنت تلك الأقدار، ويضمخوهم بهاتيك الأوضار، ويدخلوهم في دائرة الهلاك والأخطار، فأبى الله العزيز القهار، ألا يكون ذلك إلا على الرافضة والفساق والفجار، فلما آن أن يبدو للقضاء الأزلي آثار، ويظهر بعض ما انطوى في الغيب من الأسرار، وحن

الحين وحق المكر بالأشرار، ولمع بارق قوله تعالى: ﴿وَسَبَّعَهُمُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾.

وأقبل ظلام ليلة الفتنة وسجى، واسودّ فيها محلوك الدُّجى، وأرخى الظلام فيها سدوله، وفقد الأفق من البدر أقوله، حتى أتى أهل الضلال والردى، والذين يريدون الفتك والاعتدا، من الرفعة والنعائل^(١)، وغيرهم من الأراذل وسفلة القبائل، رئيسهم النجار وأنيسهم، إذا انسلخ النهار فاجتمعوا عنده، وعرف كل منهم قصده، وعاودوا الرأي تلك الليلة، وأبرموا التدبير والحيلة، بأن تقتل مَنْ فيها من أهل التوحيد كل قبيلة، بل سمي كلُّ من المتعاهدين قريبه وقتيله، وبنوا التدبير والاحتياي، وصمموا على الفتك والهتك والاغتيال، وبارزوا بالحرب شديد المحال، ﴿وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

هذا، والأنذار على المسلمين تتوالى، والأخبار تتلى عليهم وتتالى، فلما أراد حقن دماءهم ﷺ، وخذلان من ساعد على الفجور ووالى، وتعذيب من اجتمع على الأولى والثانية وتمالى، وإلباسه في الدنيا هواناً وإذلالاً، ومقاساته تنكيلاً ونكالاً، نما ذلك الخبر وفشا ذلك فظهر، بعد أن خفي واستتر، وتحقق أمير السياسب سيف آل سعدون، ما هم له مستعدون، وما هم عليه مجتمعون، فأحضر المهاجرين من إخوانه، وأخبرهم بقصته وشأنه، مع أنهم كانوا لذلك مستيقنين، وللخيانة مستيقظين، وللغدر كل يوم متوقعين، إلا أنهم كانوا على الله متوكلين، وللموت نفوسهم موطنين، فاتفق رأيهم وانتظم، أن يرسلوا إلى من يخشى منه الردى من جماعتهم ويتهم، ومن دخل منهم في الحلف وعزم،

(١) من أحياء الهفوف.

فلما أحضروهم كافة، ووضحوا لهم سبيل المخافة، وما يترقب على ذلك من الآفة، وأن أهل الشر والفساد، يريدون غداً الارتداد، وليس لهم غيرنا مراد، وجيوش المسلمين والأمداد، تطلع عليهم بكرة أو راحة بالنصر والإمداد، فتناولوا بذلك غاية السعد والإسعاد، وتدخلوا في طريق الرشد والإرشاد، وترفضوا منهج من نوى السوء وكاد، ونحا قاصمة الظهر وأراد.

فكان، ولله الحمد والمنة، ذلك النصيح أزال عن قلوبهم الأكنة، وصار ذلك الوعد لهم والإيعاد، مما أجدى فيهم وأفاد، فكأنهم بعدما انتضوا السيوف لملاقاة المحتوف أعادوها في الأغمد، وكأنهم انتبهوا من سنة الرقاد، ودعت منهم تلك النصائح أذن واعية، فأصبحت أركان الردة ولله الحمد ذلك اليوم واهية، حيث لم يقم من السياسب لهم داعية، وانحلت عرا ذلك الإبرام، ورد الله بكيده من رام.

هذا، والنجار بعدما أخذ الكرى والمنام، في ظلام الدياجي أجفان الأنام، دأبه الإقبال والإدبار، وتدبير ما يريد في النهار، يحيك ذلك وينسج، ويدخل البلاد ويخرج، إلا أنه على شأن السياسب لم يُعرج، وقد أعد خارج البلد في بستان هناك رجاله، وسقاهم فيه من رحيق القهوة صافية وزلاله، وكان الوعد بينهم حين تذر قرنهما الغزالة، فلم يلبث الناس بعد ذهاب الإغلاس، إلا قدر ما بدأ من كوة الأفق ضوء السراج، وأشرق على سطح البسيطة نوره الوهاج، وانتشر في بطون الأزقة والفجاج، أهل الفلاحة ذو الحاج، حتى سمعت الجلبة والأصوات، ووقع الذعر والانزعاج، فرجع الناس على أعقابهم ينكصون، وقد خالط الرعب قلوبهم، فهم منذعرون، ولم يكونوا بذلك الأمر يشعرون، ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فتعاضم الأمر وعلا، وشاع شأنه بين الملا، وأسفر وجه الردة وجلا، وزادت

القلوب وجلاً، ﴿وَمَا زِلْنَا بِفَعْلٍ عَمَّا يَسْمُونَ﴾، ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، وزاغت الأبصار والألباب، وغلقت البيوت والأبواب، ونادى منادي القضاء بالعذاب، والذهاب على الذين فعلوا ولكنهم لا يسمعون، ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ونوقفت أشرار تلك القبائل، ولم يكن غالبهم بما عنده فاعل، وهم بين لائم وعاذل، إلا أنهم للسياسب منتظرون، ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾.

وبادر قوم النجار، لأنهم رؤوس الأشرار، فقتلوا شخصاً واحداً، وهو عبد الله بن حسن، وكان النجار عنده قاعداً، وبشيطه موعداً، فأسرعوا إليهم يهرعون، وأقبلوا عليهم يركضون ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتِفِّتُمْ فِيهِ وَنَسِّكْتُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْتَنُونَ﴾، وجرحوا ابن كثير جرحاً، ولم يجعل الله لمرامهم نجحاً، وما أصابوا في المسلمين قرحاً، وقد عرفوا لو يطلبون صلحاً من المسلمين لا يقبلون، ﴿أَلَمْ تَكُنْ عَلَيْنَا نَذِيرٌ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾.

فعند ذلك شممت تلك العصابة، وندب النجار أعوانه وأصحابه وشيدوا الحرابة، ونهضوا إلى السياسب يسرعون، ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ﴾، فدهمهم في الفريق والسكك، ووقع بين البيوت المعترك، وصدق الطعن من سلك، ولكنهم على الحق معتدون، ﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُم مَعًا لَا تُنْصِرُونَ﴾، فحين أبصروا حرارة الطعان، وذافوا مرارة السنان، وحامت عليهم للموت عقبان، في منازلة تلك الإخوان، وتيقنوا أنهم لما يريدون لا يدركون، وأنهم أخطأوا ما يأملون، ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾، فانهزموا بأقيح الذل والنكابة، وقتل منهم واحد هو الغاية، وحف المسلمون باللطف والعناية، لعلهم بأمرهم يعتبرون، وعلى ربهم يتوكلون، ﴿وَإِنَّ جُنَدًا لَهُمُ الْغَالِيُونَ﴾، وأدبروا يعضون أنامل الندم، وولى كل شيطان وانهزم.

ثم اجتمعوا عند رئيسهم وعزم أنهم لجميع المشرق يرسلون، فأرسلوا

يحثونهم على المجيء والتعجيل، حتى يفوزوا بالمنى والتأميل، فلما قدمت عليهم الرسل، وأخبروهم بما حصل، نهذ مقاتلة كل قرية، واجتمعوا للحرب بلا مرية، فلم يرتفع سلطان النهار، إلا والجنود تطلب البدار، وتروم لأهل المبرز الدمار، وقد أقبلوا أولهم، وهم النعائل والرفعة، والذين حضروا ببيعة النجار، ثم أقبل بعدهم من أهل المشرق أعداد، وتتابع لهم جيوش وأمداد، وكل منهم لصدق الحرب في أهبة واستعداد، وتأهب لوطئة البلاد، إن لم يف لهم من حضر الحلف من الفرقان، بذلك الوعد الذي كان، ويرجعوا عن طريق الخذلان، ويقتل كل فريق من عنده من أهل الإيمان، ويحققوا لهم سابق ذلك الميعاد، وينجزوا ذلك الإيعاد.

هذا، وقد استعد من أهل المبرز كل فريق، وأحرز وجعل الأرصاد كل فريق، فيما يؤتى إليه من طريق، وشتمروا للحرب سواعدهم، وأخلفوا مواعدهم، بل أظهروا أعظم الإياء والامتناع، وأشد الذب عن المسلمين والدفاع، وتبين منهم الصدق على ذلك والإجماع، فبقي من عندهم من أهل الفتنة والفجور، ينادي على نفسه بالويل والثبور، وأبصارهم تمور وأفكارهم تخور، وليس لهم من أهل المبرز مساعد، بل كل عن الفتنة قاعد، وهواتف النبلاء عليهم يدرون، ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْعَوْا لَهُ سَعْيًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فحين وضع واستبان، ذلك الخلف والخذلان، لصالح الرئيس الداعي إلى طريق إبليس، ولم يجد ناصراً ولا قبيلاً، ولا معيناً ولا كفيلاً، وأضحى حائراً ذليلاً، لم ير حيلة له إلى البقاء ولا سبيلاً، ولا منهجاً للسلامة ولا دليلاً، إلا مخادعة أهل الإسلام والإيمان، وطلب منهم الدخول معهم والأمان، فراح في ساعته، بعد تدبير فكرته، إلى فريق العتبان، وكانوا ذلك اليوم نعم الإخوان، جزاهم الله تعالى خير، ورئيسهم مهوس بن شقيب، فأخذ منهم الأمان، على

نفسه ومن له من الإخوان، وكان هذا من الله تعالى حكمة باهرة، وقدرة قاهرة، وأمرًا قدره تقديرًا، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾، أبرز خذلان أعدائه عبرة لأوليائه، وتسلية لهم على بلاته، لعلمهم على الفتنة يصبرون، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿فَسَبَّحْنِ الْبُحْرَىٰ بِمُلْكِهِ كُلِّ شَيْءٍ وَاللَّيْلِ تُرْجَعُونَ﴾.

هذا، ولم ينادِ المنادي لصلاة الظهر بالأذان، إلا وقد أقبلت الرسل تبشر بقدم إبراهيم بن عفيصان، بل هم مع الوقت كفرسي رِهان، فحصل الأُنس وطابت النفس، وزاد سرور أهل التوحيد والإيمان، وزال ذلك الهم والخوف والأحزان، وتم السرور، وحصل الفرح والحبور، وهبت رياح القبول والتهان، وبدت شمس الأمان والأمان، ولم يزل أهل المشرق ومن معهم من الرفعة والنعائل، وسائر سفلة تلك القبائل، خلف السور مقيمين، ولمقصودهم رائمين، وعلى مأمولهم عازمين، إذ لم يكونوا عالمين بما قد صار من حال صالح التجار، وما جرى من الأخبار، فلم ينجأهم إلا الخيل تضبع، والأسنة تبرق وتلمع، والبيض تُشرق وتسطع، فكلُّ ولى وانهمز، وتندم على ما كان عليه عزم، وانقضوا بطون الأقدام، ولم يكن لهم غير البيوت لإقدام، فوطئهم من المسلمين خيول، وخرج معهم من أهل البلد فحول، فحالت على قطعة من الأحزاب الفرسان، وجالت عليهم أولئك الرجال الشجعان، فقتلوا جميعًا في ذلك المكان، وجُرُّعوا كأس المذلة والهوان، وباؤوا بالخزي والحسرة والخذلان.

وكان جملة المقتولين نحو الستين، وغالبهم من أهل الجيل، والباقي من بلدان المشرق متفرقين، وفات الحملي ومن معه، حين أقبلت الخيل عليهم

مسرعة، وشرد هاربًا ونارًا^(١)، ولم يجد دون بيته من قرار، وازدحموا عند دخولهم الدروازة، والكل يريد من الخوف السبق وإحرازه، فلما رأى وجوه قومه وجماعته، قبيح فعله وصناعته، ساروا إليه سريعًا، وألزموه أن يخرج مع الحبابي وقدميهما جميعًا، وألحوا في ذلك الأمر عليه، وعرف أن القرار لا سبيل له إليه، وأن وجوه الفريق والأعيان، إن لم يخرجوا عنهم لم يدفعوا عنهم العدوان، وأنهم يسلمونهم إليهم، ولا يدفع عنهم إنسان، خرج هو والحبابي، وأناس من الأشرار، حين أدبر ضوء النهار، واشتد سواد الدُجى، وانقطع منهم الرجا، ففاجأوا علي بن حمد في قصره، واستمدوا من رأيه وفكره، وبقوا عنده ثلاثة أيام، في أكسف حال، وأشر مقام.

هذا، وبلدان المشرق ينهب بعضها بعضًا، وتُسرع إلى القتال والقتل والنهب ركضًا، وتسابق الشمس في الطلوع إلى ذلك الحال نهضًا، إبداء للندامة وطلبًا للسلامة، ومقدمة بين يدي سعود، بهذا الأمر المعدود، لعله يكون للرضا وسيلة، وإلى بقائهم في أوطانهم حيلة، ولم يروا مسلكًا سواه يسلكون.

وفي تلك الأيام المذكورة والأحوال المسطورة، وإبراهيم بن عفيصان محاصر لقرية العمران، ومعه جمع كثير وجم غفير، من السياسب والعتبان، وغيرهم من سائر القبائل والفرقان.

ثم في أثناء المدة المذكورة طلب الحبابي وابن عفات والحملبي، ومن معه من الرجال المحصورة، من إبراهيم بن عفيصان الخروج إلى العقير والأمان، فأعطاهم ذلك وغيرهم أناس، فخرجوا من الإحصار والأحباس، وأرسلهم إلى العقير مع محمد بن ديماس، وكان إذ ذاك لم يتسئم ذروة الضلال والإبلاس، ففقطعوا في ليلتهم تلك المفاوز والقفار، وركبوا صبيحتها متن زاخر البحار،

(١) نار: هرب.

وامتطوا كواهل فلک السيارة، وتيمموا أهل الزبارة، فقدموا عليهم ولم يكن عندهم من الحال خبرة ولا إشارة، حتى فجؤوهم بغتة ذؤو النيارة^(١)، وشرحوا لهم عن الحسا أخباره، وصرحوا لهم أن قصدنا بفعلنا أن نذهب وأثاره، ولم يعلموا أن لله تعالى على عباده غارة، وأن الله تعالى يؤيد دينه وأنصاره، وينصر أهله وأحزابه وأصهاره، ويريد تبيينه في أماكن الرجس وإظهاره، وإثباته في الأحسا وقراره، وأبطل الله كيدهم وما يصنعون ﴿لَا تَرْبُدُونَ كِيدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾.

ولما أراد الله تعالى إبراز حكمته، وتبيين آثار قدرته، واستنارة البرهان والحجة، وتقويم واضح الحجة، قدم سعود مستهل ذي الحجة، فنادى لسان الحال مبشراً بالسعود والإقبال، ومنذراً لذوي البدع والضلال، فأعلن وقال: الحمد لله الذي أطلع شمس الكمال في مظالم السعود، والشكر له على ما أعطى وأنال من الكرم والجود، برؤية هذه الطلعة السعيدة، والعزة المنيرة الرشيدة، فاناخت بقرب النعائل أولئك الجنود، وخفتت رايات الإسلام والبنود، وأصبح جبل الحق ممدود، وفاز أهل التوحيد بالقصود، وتلت ألسنتهم عند ذلك الحال المشهود، على سبيل الهنا ونيل المنى، وإبداء لشكر مولاهم الكريم، وإظهاراً للثناء والتبجيل والتعظيم، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتَيْهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ودارت كؤوس الأنس والأفراح، وامتلا القلب بالفرح وارتاح، وهيمنت في الأجساد والأشباح، حداة النفوس والأرواح، على سطح البسيطة بالطول والعرض، ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، ونُصبت بذلك المحل والمكان، خيام

(١) النيارة: الهرب.

التوحيد والإيمان، فغنت بلابل السرور على الأغصان، ورجعت الأغاني في الألحان، وكررت قول من قال في غابر الزمان شِعْرًا:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر
وطارت قلوب أهل الزيغ والضلال، حين مد فسطاطه وظلاله، وأبصروا
فرسانه وأبطاله، وشاهدوا خيله ورجاله، وقد كانوا بها يكذبون، ﴿وَحَافِكَ بِهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وندموا على السلم حين فات، وقالوا: يا ليتنا نرد.
وهيهات، وتمنوا الموت على الحياة، ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ
مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَسُّوْنَ﴾، فلم يك إلا قد وحط
الرحال، وتسوية الأحمال والأثقال، فتلقاء أهل الهفوف باستقبال، ونهضوا
عليه يسلمون، ونهضوا إليه مستسلمون، ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا أَلْحِقْنَا الْمُسْلِمِينَ
عَلَىٰ مَا نَصَبُونَ﴾، فقابلهم بالقبول والتوقير، وعاملهم بطلائع التيسير، ونفى عنهم
صنائع التعسير، وتلا لسان حاله على منهج التبشير، لعلهم بما أشار لهم
يفرحون: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالنُّكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فأعطاهم إلا من دخل في الردة
الآمان، وأدخلهم في دائرة أهل الإيمان، وأخذوا يبايعونه على الإسلام
بالإيمان، وداعي الحق يذكرهم بأي القرآن عساهم به يتعظون، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ
اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُسُوا الْآيِينَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْلًا إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

ثم أقبل أهل المشرق إليه أرسالا، وقدموا عليه عجالا، وقد رعبت قلوبهم
مخافة وأوجالا، وتغيرت وجوههم ألوانا وأحوالا، لقيح ما كانوا له يصنعون،
﴿أَمَرَهُمُ الرَّهْمَةُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا
يُصْحَبُونَ﴾، وقدموا بشعائر الذل والهوان، على الإساءة منه والإحسان، إذ ليس

عندهم منعة ولا مكان، عن القديوم به يتحصنون، ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَذْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، فشرع معهم في المباينة والمعاهدة، على المتابعة والمعاقدة، والتزام حبل الطاعة والمساعدة، وهم على الوفاء له يقسمون، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ﴾، وأتاه أهل المبرز أهل الإيمان والإسلام، لأداء واجب السلام، وتجديداً لعهد الإسلام، فقابلهم بحسن البشر والإكرام، جزاء بما كانوا يعملون، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ وَإِنَّا لَهُ كَابُونَ﴾.

فلما انقضت أيام العهود، وخف إتيان الوفود، بادر إلى ما هو الأهم والمقصود، وأخذ في تقويم السنن المحمود، الذي به المسلمون يأمنون، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وجرد مرهفه المحدود، لإقامة القصاص والحدود، وأورد الحمام المورود، غالب من باشر الردة الثانية في يومها المشهود، فغدوا لكأس الردى يتجرعون، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وأردف جماعة من المعتدين، وثلة من الفساق المفسدين، وزمرة من الرافضة المبتدعين، الذين هم عن الصراط ناكبون، ﴿إِنَّهُمْ أَلَفُوا أَيْتَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿١٠﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فأفنى رؤوس ذوي الشر والفساد، وأراح من شرهم جميع العباد، وأزاح باقيهم عن البلاد، لا سيما ذوي الشقاق والعناد، الذين هم في الأرض مفسدون، ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَهُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آسَافًا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾، ودام القتل أياماً واستمر، ومكث مدة واستقر، وكل يوم يختبر عن المفسدين الخير، ويقتل من اطلع عليه وعثر، حتى استبرأ الحال والخبر، وعرف أنهم ليسوا بها يمكنون، ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْصُونَ﴾، فساد في البلاد أركان الإسلام، وأذن بالتوحيد فيها بالإعلان، ورفع للسنّة

الإعلام، التي كان الولاة لها يمكرون، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، فبدأ بتسوية تلك القبور، وإزالة ما عليها من المحظور، وقطع تلك الأوقاف والنذور، التي أهل الباطل لها يصرفون، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾، وأرسي بها قواعد الدين، فأسمى أهل الباطل مشردين، ومحا آثار المبطلين، ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وضربت سُرَادِقِ الْأَمْنِ والأمان، وأسس قصر التوحيد بأعلى مكان، وأحكم غاية الأحكام في البنيان، ونودي عليه بأفصح لسان، وأهل الإسلام له منصفون، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، فحينئذ نبذ الضلال ملته، ونعى الشرك حزيه وأمنه، وبكى الرفض أصهاره وفتته، لأنهم كانوا له يشيدون، ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ يُدْعَوْنَ﴾، وفقد أهل العزى عزَّازها، وجعل الخراب جزاءها، وأهل اللات لها يتبعون، ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، ومُحَقَّتِ رسوم البدع والأهواء والإلحاد، وهُدَّتِ دعائم الجور والعماد، وأورق غصن الحق وماد، وبطل ما كانوا عليه يعكفون، ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْبَدُونَ﴾، وأقبلوا على ما أوجبه الله تعالى وفرضه، ودحض أهل الضلال والرفضه، وكلُّ هجر ما كان يدين به وفرضه، وضل عنهم ما كانوا يزعمون، ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ مَعَ الْكَاذِبِينَ﴾، فاندurst ولله الحمد تلك الحقائق، وعطلت تلك الطرائق، ولم يكن لها موافق ولا مرافق، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، وخر عرش الشرك ووهى، لما علاه التوحيد ودهى، وعرف بطلانه ذور النُهي، وشمروا فيما أمر الله به ونهى، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْبِحُهُ مَالِيهِ فَعَرَفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وجد

في تعلم التوحيد الصنعة والشرفاء، فوجدوه لمرض القلوب دواء وشفاء، ولم يجدوا عنها مصرفاً، ﴿فَلِأَلْحَمْدِ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ، وقرر أصحاب الأوقاف والأجاس، وحث أرباب المدارس على تعليم الفقه والتوحيد للناس، فوجدوا عظيم السرور والإيناس، واستمروا علماء المذاهب يدرسون، ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وأقر في أيدي أهل السنة جميع تلك القربات والأسبال، بل زاد غالبهم من بيت المال، واجتهدوا بالقيام في وظائفهم بسرور بال، فهم لهذه النعمة شاكرون، ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

ولما فرغ، حرسه الله تعالى، من ذلك العزم والتجريد، لإقامة سنن الدين والتوحيد، ومهدّها أحسن تمهيد، لعل الناس لها يسلكون، ﴿فَظَرَّ اللَّهُ الْبَرَّ﴾ فطر الناس عليها لا تبدل، لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيْتُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، شرع ينظر في الرعية بالتغيير والتبديل، ويدبر أحوال التأديب والتنكيل، على سبيل التسوية والتعديل، بين أهل الهفوف وكافة الرى وهم لها يوزعون، ﴿فَلَمَّا سُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجِيسَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَئِيسٍ مِمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وفاز أهل المبرز بحسن الحال، والسلامة من الأغلال والنكال، وطابت لهم العاقبة والمآل، لأجل ما كانوا له يدعون، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن سَبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وشد عليهم في ذلك النكال، مقابلة لما في بيوتهم من الأمتعة والأموال، لأنهم دخلوا في العهد على ذلك الحال، لعلهم عن مثلها ينتهون، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، ومكنوا تلك الليالي والأيام، يقاسون حرارة الضنك والإلزام، ويبعون ما عندهم من الأمتعة والحطام، لأداء ذلك الإلزام، ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ * كانوا لا يَنْتَهِوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا

يَقْمَلُونَ ﴿١﴾ وطلب عليهم جميع ألوان السلاح، ومن أخفى عليه شيئاً فليس له في بلده مراح، بل دمه هدر مستباح، فلم يكونوا لشيء منه يخفون، ﴿وَمَا كَانَ رَيْكَ لِيُهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَحُونَ﴾، ثم أمر بهدم الأسوار والبروج، ولا يكون للردة منهج ولا عروج، فأصبحوا بها يهدمون، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فهدمت أسوار قراها والبلدان، مخافة أن ين-زغ بينهم الشيطان، ويطمع بها أحد من العدوان، ويحسبون أنهم يمكنون، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَفْنَا الْإِينَتَ لَعَلَّهُمْ رَّجِعُونَ﴾، ولما تم بناء ذلك القصر المحكم المشيد، على كل وجه من الأحكام والتسديد، والغلظ وارتفاع السمك والتجويد، ووضع فيه من آلات الحرب والطعام ما يحتاج له المرابطون، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَبْرًا وَرَأْيُهَا وَأَنقَضُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وأعد قطعة من خيله وركابه، وجيشاً من جنده وأصحابه، خارج عن القصر قريب من بابه، لإخافة العدوان وأربابه، ولتذب عن البلد من أتوا يخربون، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ﴾.

ثم دخلت سنة الحادية عشرة بعد المائتين والألف.

سار سعود من الأحساء أناله الله الرتبة القعسا، لما اشتاق، حرسه الله تعالى، إلى نجد وصبا، وهيج شوقه نسيم الصبا، وتواجد لها شوقاً وطرباً، كيف وهي الوطن الذي به يستوطنون، ﴿وَمِن ءَايَاتِهِ أَن يَخْلُقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَيَعْلَمَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أمر بأشخاص قوم كثيرة وحماثل، من ضعة الناس وغالبهم أمائل، متفرقة من تلك القبائل، أنهم يحلون في الدرعية يسكنون، ﴿يَتَعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾، ثم أمر بالرحيل والترحال، وأن تقدم تلك الأحمال، وتعجل عن وجه الأثقال، ثم شددت له الرحال، فاستوى عليها وقال

ما كان السلف يقولون: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، وجد في السير إلى نجد، بعدما حاز ذلك المجد، وأكثر الشكر والحمد للمولى الذي له الخلق يشنون، ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وحين قارب أن يلقي عصا السير والسيار، ويحط الرحال في رفيع تلك الدبار، وشرع إليها في النزول والانحدار، من المحل الذي لها ينحدرون قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (١) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾، وبدأ المسجد حين دخوله بالتحية، ثم قصد والده والأهل والذرية، واستقر مجلسه مع والده وأعيان الرعية، وطفق عبد العزيز يشوقهم لما عند الله لعلهم في الدنيا يزهدون، ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾.

وفيها وقعة أحزاب ثويني^(١)، ولما استقر بهجر^(٢) عمود الدين والإسلام، ونشرت على رغم أنوف العدا للهدى أعلام، وثبت أصل التوحيد ورسا، في جميع بلدان الحسا، غشى قلوب المبطلين الحزن والأسى، وتمثلوا ببني عسى وعسى، فهم على تكرار الصباح والمساء، لعودة الباطل مرتجون، ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ تُسْتَظَرُونَ﴾، وشوت قلوبهم حرارة الحزن، ومرارة الهم والمحن، حين ملك أهل الإسلام ذلك الوطن، وثوى فيه التوحيد وقطن، وضاق بهم فسيح الأرض فضلاً عن العطن، وعرفوا أنهم متبعون، ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِزُّونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ فأرجف الله تعالى قلوبهم خوفاً ورفقاً، وسفحوا لذلك دموعاً وعرقاً، وازدادوا ذعراً وغيظاً وحنقاً، وساروا

(١) شيخ قبيلة المنتفق.

(٢) الأحساء.

للتخريب عليها وحداً وعنقاً، وقصدهم لنور الحق يطفئون، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا
نُورَ اللَّهِ وَأَقْوَاهِهِمْ وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسْعَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، وتعاظم ذلك
الأمر عليهم وأربى، وسعوا في تغييره شرقاً وغرباً، وتداعوا عليه عجباً وعرباً،
ولم يعرفوا أن للدين رباً، ﴿لَا يُنْتَلَى عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يُنْتَلُونَ﴾، ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ
وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾، وتجرعوا من سماع هذا الأمر غصة، والكل أخذ من
عظيم الحزن جصة، حين رأوا أهل الإسلام على هذه المنصة، وودوا لو
يدركون فرصة، على المسلمين بها ينتهزون، ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا
لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾، وشتموا ذبول الهممة
بالتبديل والانقلاب، وجدوا إلى تحصيلها في الأسباب، والسعي في بواعث
الاجتلاب، فأبوا بذلك بشر مآب، وما ظفروا بما يرتجون، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾، فملأوا بطون الصحف
والإرقام، من نفث اليراع والإقدام، وبث ما في الصدور والأوهام، فزخرف
القول والكلام، وأرسلوا بها إلى البشارة والحكام، لعلهم في إزالة الدين
يسعون، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وأقام في ذلك الصغار
والكبار، واجتمع عليه السفلة والخيار، وشمر فيه ساعد الجد والإزار، فباؤوا
بالخيبة والأوزار، مما كانوا فيه يمترون، ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ
النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

وانتدب إلى هدم ما قد أسس من الدين وiban، وإزالة ما له من أساس
وأركان، كل رئيس وعالم شيطان، من جميع النواحي والبلدان، ونمقوا في
الطروس قبيح الفعل والبهتان، وأرسلوها إلى الباشا سليمان، وأقسموا له فيها
أنه لا يصلح لهذا الشأن، ولا يقوم بأعباء الرئاسة ومصادمة الكتاب
والشجعان، ومنازلة الجمع والأجناد من سائر العربان، ومقابلة هؤلاء العصاة

العدوان، ومقاتلة حضرهم والبدوان، وإزالة أثرهم من الحسا ومحاصرتهم في البلدان، سوى ثويني من الأنام إنسان، ولا يقدر على ما ذكرناه إلا هو ذو الهيبة والشأن، فأطلقه ورأسه حتى ترى ما يسر الأعيان، ويقر الناظر له في العيان، وتحمد أثر سعيه في قريب من الأزمان، وترى أهل الدين من سطوته يهربون، ومرادهم على الدين يخبون، ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

فلما دعا الباشا^(١) ما حرروه، ووعى ما أثبتوه وقرروه، وتأمل مفهوم ما قد حبروه، وعرف منطوق ما سطره، وفحوى ما كذبوا فيه وزوروه، أمر بإحضار ثويني عنده فأحضره، وحل عليه ورأسه وكبره، وعقدوا له الحكم على الحاضرة والبادية وأمره، ولم يقف الباشا على حقيقة ما دبروه، وأنهم قد بدلوا الأمر عليه وغيره، وحذروه من هذا الذي نفروه، وما هو والله إلا كذب افتروه، وأعانهم عليه قوم آخرون ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فحين حظي ثويني بالرئاسة ونالها، وحاز من أماله منالها؛ نادى برفيع صوته: أنا لهؤلاء الطائفة أنا لها. وأعطى جماعته الأيمان على ذلك وأنالها، وهم لأيمانه مصدقون ﴿وَسِعَ الْعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وندبوه على قتال أهل الدين والتدمير، وحثوه على آلات التيسير، وتعجيل الظهور والمسير، وحرصوه على ألا يبقى منهم صغير ولا كبير، ولا بذر شرباً ولا حقيق، وكان بمسمع من اللطيف الخبير، جميع ما به يحرضون ﴿فَدَرَّاهُمْ يَحْضَرُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ فأقبل متنعمًا بإزالة الدين من أساسه، وإطفاء نوره من نبراسه، وتغيير منهاجه وانتكاسه، وقتل كافة أنصاره وأحزابه

(١) والي العراق سليمان باشا (ت ١٢١٧هـ). انظر ترجمته في «دوحة الوزراء»؛


للكرككلي (ص ٢١٨ - ٢١٩).

وأناسه، واستئصال شأفة بلدانه وأعوانه وأجناسه، واغتر بما جاء به من سواد
رجسه وأرجاسه، وغوغاء أجناده وأحزابه وأنجاسه، ورام هذا المرام لقوة
بأسه، وما شعر أنه مسوق إلى قطع رأسه، واستيفاء بقية أجله وأنفاسه، ولم
يعرف ومن معه من هم له محاربون، ﴿فَلَمَّا سَوَوْا مَادُكِرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ
كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾، وهبط من بغداد
بعد مقاساته بها الانكاد، ومعاناته هم الأسر والقياد والغم الذي غشي الفؤاد،
فأسرع في الامتثال والانقياد، وإحكام آلات الحرب والأهبة والاستعداد،
وحشد الجيوش والأجناد، والاستعانة بالأسباب والأمداد، من كل ناحية وقطر
بلاد، وكلهم بما قدروا عليه يمدون، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ فَدَّ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
أَلْفُرُونَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُونِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾، وسحب
ثوب الخيلاء والته وجزه، وأوطأ سنايك خيل جيشه المجرة، واختال بما داخله
من العجب والأنس المسرة، التي كان في ضمنها له الهلاك والمضرة، والذل
والهوان والمعرة.

إذا لم يكن عون من الله للفتي فأكثر ما يجني عليه اجتهاده
فكان، والعياذ بالله، كالجادع أنفه بكفه، والباحث عن حثفه بظلفه، وهذا
شأن الذين يستدرجون، ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايُنِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾،
وحث السير يريد الفيحا وصولاً، وطوى بأيدي الجياد من المهامه صعباً
وسهولاً، وعزم أن يفي بعهده، ﴿إِنَّ أَلْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُوَلًا﴾، حتى يصادف من
الباشا رفعة وقبولاً، ولقد تكلف بما ليس واللؤ في طوقه، ﴿إِنَّمَا كَانَ ظَلُومًا
جَهْلُولًا﴾، وشمخ بأنفه وجر للكبر ذبولاً، ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ
طُولًا﴾، ولكن أكثر الناس لا يتدبرون ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ولما قارب دخول البصرة في الإقبال، وتبين له منها رسوم وأطلال، خرج إليه
أهلها من الفرخ باستعجال، وتلقوه بالقبول من أميال، وبادروه بالحشمة

والإكرام والإجلال، وأظهروا من التوقير والخدمة والامثال، ما لا يخطر على البال، ولا يحصره في البيان المقال، فدخلها بأبهة تغشى عيون الناظرين رونقاً وحسناً، وتخلج المتأملين فيها ألباباً وذهناً، ويبهر العقول مشاهدة ذلك المقام الأسنى، فتتقص عند مطالعته مهابة وجبناً، وتقول: يا ليت لنا مثله، وكذا أهل الدنيا يقولون: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ أَمَرَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُفْلَحُ إِلَّا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾، ولم يستقر قراره في البصرة، بل ساعة دخلها أخذ يُجهز أمره، ويُظهر تجربته وبأسه وقهره، ويجد في أسباب الحرب والمكايد خفية وجهرة، ويحذر الناس سطوته ومكره، ويخوفهم لكي يساعده ويشدوا أزره، ولقد بذلوا الجِد في مساعدته، وحققوا عزه وغلبته ونصره، وما جال في خلدِهِم أنه قد حفر لنفسه من الشر حفرة، وهي لمصرعه بيديه قبره، ولقد كانت حاله لذوي العقول عبرة، ولكن أكثر الناس لا يعتبرون، ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْ كَفَّ اللَّهُ بِعُنْيِهِمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وفي حدود إتيانه البصرة ووصولها، وهبوطه إليها ودخولها، ومكثه فيها وحلولها، أتته من رؤساء ما تليه من البلدان ومن العلماء، الذين هم لهذا الدين عدوان، وعلى محقة من الأرض أعوان، محررات الوسائل للنفوس، ومحبرات الرسائل في الطروس، والصحف التي أُجيد في السجع منشورها، والقصائد التي جُلِّي بالبهتان صدورها، وأفصح بالعداوة والبغي منشورها، وأبان محض الحسد والاستكبار صدورها، فكانت، ولله الحمد، شؤماً عليه قدومها وظهورها، لما بالغ فيه من الفحش بهتاناً وزوراً، وتعدى فيه عصيانه وفجورها، ومضمون تلك الرسائل والقصائد، ومطلوبها من الأماني والفوائد، حثه على سرعة التعجيل لما هو قاصد، لكي يفوز بما أملوا من المقاصد، ولم يجز على بالهم أن الله تعالى له بالمرصاد، وأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون،

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ واستغاثوا به في منثورهم ومنظومهم وندبوه، وسألوه تعجيل النصره لهم وطلبوه، ولم يخشوا الله تعالى في ذلك ولم يرهبوه، ووعدوه الأجر على ذلك ورغبوه، وتألوا في نصره على الله فيما كتبوه، وليتهم لسوء هذه الجرأة يفهمون، ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، وأعتقوا في سيرهم ذلك ونصوا، وعموا في حكمهم له وخصوا، وجزموا له فيما زخرفوه له بالغلبة ونصوا، وما اكثرثوا بمن عليه يجتروا، ﴿وَمَنْ بَعَثَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضَ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾  وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ.

وقد وصل إلينا من هاتيك الديار، منظومة لابن فيروز من تلك الأشعار، متضمنة لأقبح العار، تبين فساد مبناها وبطلان مفهومها ومعناها بأول وهلة قبل التأمل والاختبار، كيف وقد صرح فيها ناظمها ومُنشئها بالاستغاثة بملك جبار، وظالم تعدى وجار، والدعوة والاستغاثة حق للواحد القهار، كما هم في محكم التنزيل يقرؤون: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَهْتَزُّونَ﴾، ولقد نظمها ابن فيروز وأرسل بها إليه، وقدمت البصرة عليه، فقابلها بالقبول التام، وأبدى من حسن القبول والإعظام، ما زاد على السؤل والمرام، وأمد به بكثير من الحطام، وكان بينهما قبل ذلك محبة وصحبة والثناء، ومعاشرة ومواصلة وانتظام، فهم على الخلعة مجتمعون، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾  يَتَعَبَّدُ لَّا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وهذا نصها:

أنا مل كف السعد قد أثبتت خطا بأقلام أحكام لنا حُررت ضبطا

وقد أجاب عنها المصنف، وأرسل بها إليه، وهذا نص الجواب:

على وجهها الموسوم بالشؤم قد خطا عروس هوى ممقونة زارت الشطا

تخطت فأخطت في المساعي مرامها
وئارت لنار الشرك تذكي ضرامها
لقد شوهت ما زخرفته بزورها
وقد جاء متشيها بزور ومنكر
وحان به داعي العناد لمهيح
فضل عن الإرشاد للحق واعتدى
وجاوز منهاج الهداية راضيا
يحاول تشييدا ورفعاً لما وهت
ويسمى بتحريض وتهيج فتنة
وربك بالمرصاد ممن يريد أن
فلا عجب من يئس عن ذكر ربه
لقد خاب من مسمى غدا طول عمره
ولا كابن فيروز يروم سفاهة
وصار يذود الناس عما أن به
ويدعو إلى نهج الضلالة معلنا
يغالب أمر الله والله غالب
ويرجو من المخلوق غوثاً ونصرة
وذاك من الأقدار ما فك نفسه
لئن كان يدعوه لتفريج كربه
فبشراه بالخسران والذل إن سعى
ومن جرب الأشياء يكتفيه ما جرى
وينظر في عقبى الخيانة والردى
ومرسلها عن نيل مقصوده أخطا
وسارت فبارت والإله لها قطا
كما أنه بالين قد أحكمت ربطا
وقحش وبهتان يعط به عطا
تنكب عن سبل الهداية واشتطا
وغط أناسا في طريقته غطا
عن الدين بالدنيا فما نالها بسطا
قواعده فوق البسيطة وانحطا
تصير إذا ثبت لحاء العدا شمطا
يؤسس ركن الشرك من بعد أن حطا
يُقيض له الشيطان ينشطه نشطا
يصد عن التوحيد من دان أو شطا
دفاعا لحق في البرية قد وظا
أجل شفيح في الجزأ للوى يعطا
ومنهاج أهل الزيغ جهرا به أظا
ويندب من لا يملك الرفع والحظا
بناديه من بعد أغشنا بلا إبطا
ولم يغن عنه المال إذ بذل الشرطا
فليس سوى الرحمن ندعو بلا استبطا
بهضم لهذا الدين أو وافق الضغطا
ويلغى أباطيلا عن الاهتدا شحطا
فكل امرئ خان العهد غدا سقطا

وللشهم في تلك القضايا مواظ
وكم دولة كادت وقادت جموعها
يريدون إخفاء لما الله مظهر
رويدًا فوعد الله لا بد واقع
ومن عارض الأقدار أو سخط القضا
وما ذاك إلا معتد ذو حماقة
فويل له يوم القصاص وحيث لا
سمت عصبة التوحيد عما يشبههم
أبوصف بالطاغوت من جدد الهدى
وأعلن بالإسلام والدعوة التي
وقام بأمر الحق في جاهلية
وأطلع مولاه نجوم سعوته
فسبحان من عم العباد بحلمه
يكفر قوم بالكتاب تمسكوا
وما عمووا بالكفر بل خصصوا به
أفي محكم التنزيل تكفير من دعا
أهل الهوى والزيف والفرق التي
وهل جاء في التنزيل والوحي شاهد
ومن قد غا في الدين سنة صحبة
فتبا وسحقا يا لها من مقالة
لينظر ذوو الأحلام والعلم والتقوى
وفي غربة الإسلام أعظم شاهد

يرد بها عنه الغواية والهمطا
فبادت وما فادت وما أدركت مسطا
 وإتمام نور الله بالحفظ قد حيطا
وقد وعد التمكين من عمل القسطا
فربك قهار له المنع والإعطا
توغر في الإبلال واغتر وانغطا
مناص وأهل النار تسرطهم سرطا
وعن وصفهم بالكفر لكنه الأخطا
وأحيا أصول الدين والسنة الوسطا
لها كشط المختار رأس العدا كسطا
وأهل الردى والشرك تحسه خلطا
بأل سعود حين صاروا له سبطا
وفي هذه الدنيا بأمهاله غطا
وبالهدى والإجاع ما خالفوا شرطا
أناسًا من الإشراك أعمالهم حبطا
إلى الله والتقوى وإسلام من شطا
تحرف وحي الله حازوا الهدى خرطا
بتحقيق إسلام الروافض قد خطا
ينادي عليهم أنهم خبطوا خبطًا
من الإفك والبهتان قد سحبت مرطا
إلى أي قوم في الهدى تبعوا الخطا
بإسلام من قد قام يدعو الورى عبطا

وبرهانه العقلي نصرة رهطه
لقد رفعت أعلامهم بأميرهم
بهم أسفرت شمس الدجى بعد دجتها
ذو الحزم والتسديد والعزم والنهى
يذودون عن ورد الدنيا نفوسهم
فقد بذلوا في ذا النفوس فأحرزوا
وقد ولي الأحسا سعوذ فأسعدت
وأبعد أهل الشرك عنها وأيدت
وقرر أرباب الوظائف كلهم
مدارسهم معمورة بعلومهم
وما أبطلت أحكامهم حيثما أقي
نعم هُدمت للرفض فيها كنائس
وما كان من جور ونكث وبدعة
ولم ينف إلا كل من عمل الردى
فليس ترى إلا مقيداً وهادئاً
وأمر بمعروف وتنكير منكر
وحشا على فعل الصلاة جماعة
فلله رب الحمد والشكر دائماً
لقد من مولانا علينا بمنة
وصب علينا من شآبيب بره
بإنقاذنا من غمرة الشرك والهوى
عسى الله يعلي في الجنان محمداً

وتمكنهم في الأرض أكرم بهم رهطاً
وأبناء أسد الحرب بل بأسهم أسطاً
وزال ظلام الشرك من بعدما لظاً
وأهل المعالي والفخار بهم ينظاً
ويستخون في نيل المايا بها سفظاً
به العز يا طوى لمن أدرك القطا
مساعيه أهل الخير فانتظموا سمطاً
مذاهبهم فيها وما أبصروا غمطاً
وما شاهدوا في كل أوقافهم هبطاً
وما ثبطوا عن نشر أحكامهم ثبظاً
بإبطاله الشرع الشريف وما أخظاً
وكل شعار الرفض عن أرضها ميظاً
وهو وتابوت وكل الدعا معظاً
ومن كان سبباً لمنطقه مسطاً
وعلماً وتحديداً بذا تسمع اللغظاً
وتنكيراً من قد قارف الذنب والسخطاً
وتوبيخ من عنها تخلف أو أبطأ
على نعم لم يحص نظمي لها ضبطاً
وخولنا من فضله خير ما أعطا
سحائب رُحى قد حوينا بها غبطاً
ولولاه كنا في غياهبها ورطاً
ويولي الرضا عبد العزيز الذي وطأ

ويجرسه عن كل سوء ونسله ويبقى سعودًا في سعود وفي إيلا
أبا عمر هُتيت بل هي الوري بما نلت والتوحيد حاز بك البسطا
إليك القرى والمدن ترنو عيونها غمناك ترعاها فتملاها قسطا
وترتاح من عليا سعود ونصره وتغبط نجداً والحسا الآن والخطا
فجهز لها المنصور بالبشر تلقه وتفرش إكرامًا لإقدامه بسطا
فقد طرز الإقبال آيات فوزه براياته والنصر والفتح قد حُطا
وذم شاربًا كأس المسرة والهنا بأطيب عيش والعدا تأكل الخمطا
وأزكى صلاة يفضح المسك عرْفُها تعم رسولًا في الورود لنا فرطًا
كذا الآل والأصحاب ما خط كاتب وغمق في مرسومه الشكل والنقطة

ولنرجع إلى تمام الحديث عن ثويني وحاله، وشرح مسيره وتديره وتدميره ومآله، وذلك أنه لما أقام في ذلك المكان، في ترتيب الحال وتدبير ذلك الشأن، واجتمع عنده من أحباس الأجناد لغات مختلفة وألوان، ومن عُدة الحرب والمدافع وآلتها وقاداتها وحمايتها ورماتها، ما يذهل الأذهان، ولم يجتمع قبله مثله عند إنسان، ولا أحكمت سياسته من هو في شكله من رؤساء الزمان، وانتظم ذلك في قليل من الشهور، وانقادت له طوعًا استدراجًا صعاب الأمور، أذن مؤذن التعدي والفجور، في تلك الجحافل والمحافل والعسكر المجرور، بالارتحال والمسير إلى الأحسا والنفور، والمبادرة بالخروج والظهور، وتردَّى برداء الإعجاب والغرور، ونسي يوم البعث والنشور، يوم يساقون للحساب ويحشرون، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ۞ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ۞.

وانضم إليه كثير من سواد البوادي والأعراب، ونسلوا إليه من كل فج وباب، وتنادوا بينهم أن اغدوا للأخذ والاستلاب، ﴿جُئِدْ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾، وسمحت نفوسهم على المساعدة وتقوية الأسباب بما كانوا يبعضه

يخلون، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي الْبُكُورِ وَالْأَسْوَاطِ وَالْأُصْحَارِ ثُمَّ كَثُرَتْ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾، وأقبل جميع آل ظفیر إليه، ونزلوا بأجمعهم عليه، وكانوا معه ولديه، وخلعوا ما ادعوه قبل من ذلك اللباس، وجنحوا إلى سنن الإبلّاس، واستحوذ على رؤسائهم الوسواس، حتى أنزل الله تعالى بهم البأس، وكانوا عن سبيل الحق يصدون ﴿هُرَّ الْعَدُوُّ فَاعْذَرْنِي فَنَسَكْتُهَا اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

فرحفت تريد الحسا تلك الجنود، والجموع التي ضاق منها الأودية والفجاج والوهود، وقاد معها القنابل والقناير والمدافع التي أصواتها كالرعود، وجدّوا يريدون أن ينالوا المقصود، فقضی الله تعالى أنهم يساقون لحياض الحمام المورود، ويعجلون لأجلهم المعدود، في ذلك اليوم المقدر المشهود، وأخذوا من حيث لا يظنون، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾.

فلما تحقق عبد العزيز الإمام الخبر، عن ثويني بصحيح الكلام واشتهر، عند الخاص والعام أنه نشر، للظهور الرايات والأعلام، رفع يديه لمولاه وسأله ودعاه، وألح في دعائه وناداه، وقال وهو من الإجابة على يقين: يا من يجيب دعاء المضطرين، ولا يخيب رجاء المرتجين، ويكشف سوء عن المكروبين، اكفنا بحولك وقوتك المعتدين، واصرف عنا شر الضلال والمشرّكين، وأنزل بأسك بالمجرمين، واقطع دابر الظالمين، وشتت شملهم أجمعين، واجعلهم في كل فج ممزقين. فلم يتم حينئذ دعائه، حتى قوي في يقينه رجاءه، وغلب على ظنه أن البلا، كتب على جميع ذلك الملا، وأن الهلاك عليهم قد سطر، والإذلال عليهم رقم وزبر، وقد فرغ من ذلك وقدر، فقال: ﴿سَبِّحْهُمْ جَمْعًا وَنِفْلًا﴾، ﴿يَا أَلَسَاءَ مَوَدَّتُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾، فحقق له ذلك الرجا، وأنجح له ما أمّله وارتجى، ولم يكن باب الإجابة عن قبول دعائه مرتجى، والله يحب

الذين إليه في كل حالة يتضرعون، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾.

ثم بعد التضرع والإقبال والدعاء والسؤال، والتذلل بين يدي الله والابتهال، أمر سعيودًا والمسلمين، بالتجهز والخروج أجمعين، لمنازلة المبطلين، ومصادفة المسرفين، وأرسل بذلك إلى كافة البلدان، من هو داخل في دائرة الإسلام والإيمان، البعيد والقريب والقاصي منهم والدان، فكل أجاب طلبته ومراده، ولبى دعوته وإنجاده، وخرجوا للطاعة بدارًا، وللجهاد شوقًا واختيارًا، وقد بلاهم الله بذلك اختبارًا، وامتحانهم ليميز الخبيث من الطيب جهارًا، فلقد أبدى الله ﷻ في هذه الحادثة برهانا ساطعا، وحكما قاطعا، من الآيات والأسرار المطوية الخفيات، والأمور المكتومة الخبيثات، والعقائد التي في الصدور منطويات، والأهوية التي هي قبل ماثلة إلى الرذات، والقلوب التي هي مملوءة ببغض هذا الدين من البريات، وترى بذلك الدوائر من أهل الشرك والضلالات، والأفتدة التي هي بالإحزن على أهل الدين مشحونات، من البدو والحضر، من غير تعداد ولا حصر، ففضح الله تعالى خلقا كثيرا فافتضحوا، وزين لهم الشيطان أعمالهم فما فازوا ولا ربحوا، حيث رغبوا في الردة حينئذ وجنحوا فأوبقتهم الأعمال، فأخرجوا إلى دائرة العدل والإهمال، وزال عنهم الاستدراج والإمهال، فانقطعت بهم الآمال، في مفاوز الهلاك والوبال، ظنوا حين رأوا قوة ذلك العدد والأسباب، أن هذا إبان حلول العذاب، وأوان الدمار والذهاب، على أهل نجد، بل جزموا به من غير ارتياب، ولم يعلموا أن هذا هو، وربّ الأرباب، كله على القطع سراب، فكم غر قبلهم من قبائل، وآل في البيداء المضلة لمعان الآل، ولقد رفع أعلام الآيات الكبير المتعال، لكل من له قلب سليم ولب كامل وبال، وأبرز القواطع على تفرده بالألوهية والعبادة

والكمال، في تلك الحال وغيرها من الأحوال، فأبى إلا الصد والإعراض أهل الإلحاد والضلال، وقالوا: ليس لنا عن سَنَنِ أسلافنا انتقال، ولا نبرج على ما كانوا عليه من سالف الأعمال، وسابق ذلك المنهاج والأفعال، حتى تزول الأرض أو تزال، فأنزل عليهم العذاب سريع العقاب والإنزال، فقطع دابرهم باستئصال، وعاجلهم ذلك قبل حصول مأمولهم وإدراك مطلوبهم وسؤلهم، ونودي عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾.

وخرج جيش أهل الحسا آخر شعبان، وجيوش أهل نجد اجتمع أكثرها في شهر رمضان، وخرج سعود، بلغه الله تعالى كل مقصود، في النصف الأول من شوال، في أحسن حال، وأكمل بال، وقد أمر جيوش المسلمين وأمداد الموحدين، أن يكونوا عند العربان مجتمعين، وينزلوا طرف الصمان، مباراة لأولئك العربان، وكبيرهم محمد بن معيقل، فكان أهل الإسلام كلما أقبل أولئك الطَّغَام ونزلوا مكانًا آخر، ارتحل ابن معيقل ومن معه وَجَدَ في ذلك وبادر، حتى نزل المسلمون قرية^(١)، ونزل أولئك بناحيته بلا مرية، وكانت تلك الجنود والأحزاب، تروم السبق على القطف^(٢) وما يليه من غير ارتياب، فعرف أهل الدين مرادهم وممشاهم، فسبقوهم على ذلك وكان عقباهم الخسر ومثواهم.

ولما خرج سعود لذلك المنهج المحمود، أقام على الحفر يجمع عليه الإمداد، من كل أرض وبلاد، ويرسلها إلى عربان المسلمين، وأجناد أهل التوحيد المجتمعين، وقد أعمل المطي والرسائل، إلى جميع العربان والقبائل،

(١) تبعد عن مدينة الدمام شمالًا بحوالي ٣٢٠ كم.

(٢) يُطلق على منطقة مرتفعة ممتدة من الجنوب إلى الشمال بامتداد المنطقة الشرقية، من غرب الأحساء إلى غرب الظهران، (المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ٣ / ١٠٣٢).

والى جميع قرى الإسلام وبلدانه، ومن حلّ التوحيد بأوطانه، من أهل الجنوب والشمال، فانظم من الخلق والأمم ما لا يحصره القلم، ولا يعبر عنه ناطق بضم، ولما تحقق عنده زوال ثويني وادي القرايا، أرسل حسن بن مشاري، رحمه الله تعالى، مع جنديه من تلك البرايا، حتى يستريح منهم البال ويحسن منهم الحال، فقد كانوا في كرب وأوجال، لا سيما من عدم قدوم سعود عليهم بالاستعجال، ونزوله عليهم تلك الأيام والليال، ولم تعبر أحلامهم ساحل الفكر والاحتيال، ولم تتجار خيول أفكارهم للرأي في مجال، ولم يفهموا ما ابتدأه من نتائج الباب الدهاء من الرجال، ولم يسمعوا ما ورد في صحيح المقال: «الحرب خدعة»^(١) ولله درُّ المتنبي حيث قال شعراً:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هي أولٌ وهو المحل الثاني
فإذا هما اجتماعاً لتفس حرة بلغت من العليا أعز مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان
فقصر باع الأفهام أن تدرك سن الثاني في ذلك المقام، وعدم المبادرة بالإقدام، وظنوا أنه إحجام، ولم يتعودوا ممارسة العقول بالتدبير والسياسة، ولم يتأهلوا للقيام بأعباء الرئاسة، وأضاعوا مواد الحزم، وخطبوا خطط عشواً بلا يقين ولا جزم، وحكموا بما لم يحيطوا به علم، ولم يكونوا من غامضه على فهم، فاستحسنوا ما ليس بالحسن، لكون المقدمة لم تنتج لهم المطلوب في العلن، وإلا فالأناة محمودة، والعجلة مذمومة مسعودة، كما ورد في بعض الآثار ومستحسن الأخبار، ولقد قال من سبق في هذا المضمار:

(١) أخرجه البخاري (٣٦١١) ومسلم (١٠٦٦).

قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل ولقد دبر فكره فيهم مكائد، وأقام لخداعه رصائد، ونصب لهم شُرُكا وحباله تقتنصهم فرسانا ورجاله، وأحكم لهم من الآراء درعا سابعة، وزردا بيوم الهياج نابغة، وهمت عند المنازلة لكتائب الأعداء رابعة، وأسنة مسنونة وعصبة بالنصر مقرونة، لم ير قط عن الأقدام لها تأخر ولا إحجام، بل لا تزال للوغى طالبة، وفي الجهاد راغبة، وللأرواح ناهبة، وللمهيج سالبة، وأراد بهم أمرا أمرا، ومن القاصمة كاهلا وظهرا، فأرسل إلى حسن بن مشاري يأمره أن يجمع عربان المسلمين وجموعهم، على أمواه أم ربيعة، لكونها منزلا للقتال، والمحل الواسع لمنازلة الكتائب والمجانب، فعسى العدو إذا رأى هذه الحال، يظنها رعبا وأجفالا، فيسرع في القُدوم والإقبال، فتقع المصادفة والمزاحمة، وتصدر المقاتلة والملاحمة، فلا يطول مكث لتلك الكتائب، حتى يرى سواد سوادي آيب، فتقع حينئذ في الطعن عجائب، وتبدو أحوال غرائب وخطوب ومصائب، فتضحى كماء الأعداء للنجاة طوالب، وتلك الأحزاب متمزقة هوارب، ويضيق عليهم إذ ذاك فسيح المطالب، ويمسي كل واحد لكأس الذل شارب.

ولكن صدور ما جرى تدبير من ليس له غالب، وإرادة من لا يعجزه في الوجود هارب، وخَيْرَةُ بَرٍّ وَوُضُول، حلیم غير عجول، كريم جواد، يحف بالنصر والإمداد، من أَرادَه من العباد، وكفى بإرادته وخيرته للموحدين وعصبة الدين من خَيْرَةِ ومَراد، وبإمادته وإسعاده من إمداد وإسعاد، فسبحان الذي قدر الأشياء قبل الإبراز والإيجاد، فوقع في الكون ظهورها وبدا مستورها على ما شاء وأراد.

ولما أتى حسن بن مشاري ذلك الأمر من سعود، لم يكن له بدّ عن الارتحال حتى يتم المقصود، فارتحل تلك الأيام، وترك الإقامة في ذلك المقام، وشمر في السير بعد الرحيل، من غير أناة ولا تمهيل، وسار عن الطّف وما يليه بعدما

كان له فيها مراح ومقيل، وقصد ما أمره به الأمير، لكونه رأيًا سديدًا وتدبيرًا من أحسن التدبير، فعند ذلك طمع الأعداء وكافة ذوي الردى، وحسبوا أن ذلك مخافة وجبنًا، ورعبًا أطار قلبًا وذهنًا، فزحفوا إلى المكان الأدنى، فأكسبهم الله ذلًا ووهنًا، وأهلكهم بما كسبت أيديهم، وأورث المؤمنين المحل الأسنى، وذرهم من أموالهم وأغنى، طمس الله تعالى على بصائرهم وأبصارهم وعمى عليهم الحيل والخداع، فلم يعتدوا لذلك بأفكارهم، فالتقوا أنفسهم إلى التهلكة بأيديهم، وهذا شأن قائدهم، يغويهم ثم يرديهم، وقد كشف الله تعالى بالارتحال عن ذلك المكان، ما أضمر في القلوب واستكن في الجنان، وأبرزه سبحانه من أناس في صفحات الوجه وثلثات اللسان، فنطق بالنفاق كثير من العربان، لاسيما في ذلك البدوان، فكاد أن تنفق للنفاق أسواق، ويكون للباطل اعتلاق، وللزور والكذب اختلاق، ومالوا إلى طريق الهوى، وحاولوا عن الهدى نفورًا، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وثبت الله تعالى أهل التوحيد والإيمان، وزادهم فيه تصديقًا وإيقان، وقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ كما في القرآن، فأولاهم أسنى مراتب العرفان، وأفاض عليهم هاتل البر والإحسان، وكانت العقبى لهم مع منحهم من رفيع ذلك الشأن.

وفي حدود هذه الأيام أرسل حسن بن مشاري جيشًا كثيرًا من المسلمين، منهم محمد آل علي المهاشير وفراج وصالح بن عياش، وأمرهم أن يطالعوا أدنى تلك الأحزاب، ويرسلوا إلى براك بن عبد المحسن حتى يسرع إليهم في الإياب، لأنه قد أرسل إلى عبد العزيز الإمام، حدود مسيره إلى الشمال تلك الأيام، يبين له ما جرى وأنه لم يرد ذلك المرام، ولم تطب نفسه بذلك ولم يتقدم له فيه كلام، وإني أريد بالمسلمين اللحق، ولكنني عن ذلك مُعَوِّق، وإن آتاني

من المسلمين غزوان، بادرت إلى لقائهم من غير توان، وكتب كذلك إلى سعود، قبل ظهوره من البلد وبعده، وبذل فيه جهده، وكتب إلى حسن بن مشاري تلك الأيام، وهو غير خائف ولا مماري بل رغبة في الإسلام، والانقياد للأحكام. فلما سار ذلك الغزو إلى تلك الأقوام، لم يحصل لبرك انتهاز فرصة ولا انهزام، لكون الأحزاب به مرجفة، ومنه محذرة مخوفة، فصارت له مكشقة، فردت تلك الغزاة منحرفة.

وفي هذه الأيام أغار فراج كبير سبيع مع غزو المسلمين حاضرة وبادية، فأصبحت خيولهم على المعادين عادية، وكانوا عنهم مخبرين، وعن قدومهم منذرين، فصاروا لهم مستعدين، فوقعت بينهم مطاعنة شديدة، وكان للمسلمين فيها أحوال حميدة، بعدما أناخوا للقتال، ولم يتبين فيهم رعب ولا إجفال، فقتل بينهم رجال، وقتل المسلمون منهم ثلاثة عشر فرسًا، وأخذوا عليهم آبال، ورجعوا في أحسن حال.

وفي تلك الأيام أيضًا أغار تفجان بن سند الندي مع غزو معه على الضويحي^(١)، فأخذ منهم إبلاً كثيرة، وفرعوا يريدون ردها فرجعت أبصارهم عنها حسيرة.

وفي هذه الأيام أرسل سعود رسلاً نحو القطيف، ومعهم ركب آل مرة، لكون الطريق يخيف، فلما أتوا ذلك المكان، وجدوا قومًا من العماثر العدوان، ففاجأوهم على غرة، ونفذ الله فيهم أمره، وقتلوا منهم خمسة وعشرين، وأخذوا السلاح وما كانوا له مجمعين.

وفيها وقع مطر عظيم، وجرى سيل جسيم، وكان ذلك وقت التوسمي وأوانه،

(١) من بني خالد الجوف.

وحينه وزمانه، وأول أيامه وإبانه، فزاد ذلك وأربى، وأشفق منه الناس مخافة وكرهاً، وتلاطم موجه وزاد، وأزال كثيراً من دكاكين أهل البلاد، وتعاضم جريانه وطمى، وصعد بعض البيوت وارتقى، وطرح بعض نخل من البطحاء ورمى، وهدم كثيراً من الركايا، وأقامت منه بيوت خوايا، ونالت منه بعض الضرر الرعايا، وألقى بيوت أهل الدلم وأزالها، وأغرق ما فيها من الأطعمة والطعام والأموال وشالها، فغير من أبواب تلك البيوت حالها، فاخططوا بعد ذلك لسكنائهم خطة، وكان ذلك السيل عليهم من البلاء حطة، ونزل على حريماً برد كثير كبار، لم يعرف له مثيل، قتل بهائم كثيرة، وكسر جمار بعض النخيل، وكسر غالب الأشجار، وحصل للمسلمين منه اندعار، وهدم كثيراً من الجدران، وأشفق منه غالب البلدان، فلجأوا في رفعه إلى الله مولاهم، فكشفه عنهم ومنحهم مناهم.

وفيهما أيضاً في فصل الصيف أتى سيل أخجل الأبواب والأذهان، ولم يجز قبله مثله في سابق الزمان، هدم بعض حوطة أهل الجنوب، وحصل للمسلمين منه كروب، وهدم من العينة والدرعية وغيرهما بيوتاً معدودة، وأغرق زروعاً كثيرة محصورة، ولكن أدرك الناس به نعمة منيفة، ومنه من الله تعالى شريفة، حيث استمر سنة يجري من غير مطر وادي بني حنيفة، فطابت لهم البلاد وحسن لهم العيش والحال، وأقاموا مدة هذه السنة في أنعم بال، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقْوِمُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا يَأْتُسِبُهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقْوِمُ شَيْئًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾.

وفيهما كثر الجراد، وعم في أكثر البلاد، وانتشر في غالب الأقطار، ورأى في كثير من البلدان والأمصار، وحصل للناس من خلفه الصغار الذي لا يقبل الزجر والانزجار، ولا يعتريه من الريح اندعار، أعظم ضرر وإضرار، فأكل ذلك الدبا لما مشى ودبى، ولم يشعر به الناس حتى طلع عليهم جيشه وبنا غالب ثمر

الأشجار، ثم ولى بقدرة العزيز القهار.

وفيها غزا ربّيع بن زيد أمير وادي الدواسر بجيش من جماعته ما بين حاضر وباء، فأسرع في سيره يريد بعض البدوان، ذوي الشرك والضلال والطغيان، فصَبَحَ فريقًا يقال له أبو البؤس من شهران، فشن الغارة على ذلك الفريق دون إمهال ولا تعويق، فشمّر حزب الفسق للقتال بالصدق، وعزموا أن يكشفوا العوادي القوادح، ويوقعوا من عزمهم بالمسلمين أمورًا فوادح، تسويلاً من الشيطان، واغترارًا بالصبر عند الطعان، حتى رأوا من بأس أهل الدين، ما أكذب أمانيتهم فولّوا منهزمين، وقتل منهم نحو الخمسين، وأخذ المسلمون جميع المحلة والغنم والإبل، ورجعوا بالأجر وحسن العمل.

وفيها غزا ربّيع أمير واديه بجمع من حاضره وباديه، فسار بمن معه من المسلمين وحزبه المتبعين، يريد بلدان المشركين، فعمد إلى بيشة، ونزل على الشقيقة والجينة^(١)، ويادهم بالقتال بعد أن أبوا الإسلام وحيته، ثم بعد أن مضوا لهم ليال وأيام، وهو محاصر لهم في ذلك المقام، ورغبوا في طريق السلم والاستسلام، ونزلوا للبيعة على الإسلام، فعاهدوا جميعًا على ذلك، وحسن لهم المقام هنالك.

وفيها أمر عبد العزيز، أدخله الله تحت كنفه الحريز، ربّيع بن زيد أن يسير بجماعته، إلى رنيه^(٢) مع من عنده من أهل ذلك المكان ومهاجرته، فسار ممثلاً لذلك الأمر، حتى أناخ على رنيه فبنى بها قصر، فلما أحْكِمَ بناؤه، وتم رفعه واستعلاؤه، جعل فيه آلة للحرب وكثيرًا من الطعام، وأمر فيه محمد بن سعيد بن

(١) من قرى بيشة.

(٢) تقع في منطقة مكة، على الطريق بين منطقة عسير ومكة.

قطنان، فحين عاينوا أهل رنيه ذلك العمل، رجف بهم ذلك الوطن والمحل، وضاق عليهم فسيح الرحاب، ودهاهم أعظم الاكتراب، وحل بهم الأسى والاكتئاب، فلم يجدوا منهجاً للدفاع، ولم يكن عن الدخول في الدين امتناع، وإن كانت تفر عنه تلك الطباع، وليس لهم في البقاء على حالهم أطماع، فعند ذلك أسرعوا في الإسلام على المبايعة، وأقبلوا للعهد متابعة، فأبدوا أولئك الأقوام مناهج الاستسلام، ودانوا لما تضمنه من الأحكام على طريق الإلزام.

وفيها غزا محمد بن معقل مع جمع من أصحاب الحسا والمهاشير وأهل نجد، وكانت جزيرة العمائر^(١) التي بالبحر له قصد، فسار وقد زال عنه ومن معه من الرجال، رَئُيَ النصب والسامة والكلال، وقد أجهد المطي في السير والترحال، لثلا يعلم ما دبره وهياه من الحال، فلم يزل يجد التسيار، ويقدر بمقراض اليعملات القفار، حتى شخص له لمع البحار، وسمع زخر موجه التيار، وبدت له في الجزيرة الأشخاص، فأسرعت الجيوش الأحسائية، والأبطال المجربة النجدية، إلى خوض اللجة البحرية، مستمدين النصر والإعانة السرمدية، من خالق البرية، ولم تسبق قبل هذه في البحر لأهل الدين غزوة، ولم يفترعوا من تباره صهوة، بل لم يقصدوا نحوه، وخاض معهم بعض الخيل، ولم يكن لأحد عليهم قبل ذلك صدود ولا ميل، فشمر يعوم من كان يحسن العوم من أولئك الجماعة والقوم، حتى وصلوا إلى ساحل الجزيرة، فساروا إليها بأعظم الجريرة، وحين رأى من بها من الرجال، مهول تلك الأفعال، علم أن وراءه من القتال أحوال وأهوال، فركبوا سيارة الأفلاك، فكان لهم بها من السلامة أفلاك،

(١) تقع على الشاطئ الشرقي من الخليج العربي على بعد ٣٥ كم شمال مدينة الجبيل والعمائر من بني خالد.

ولم يكن لهم سبيل ولا إدراك، وقتل منهم بعض الرجال، وأخذ المسلمون جميعاً ما بها من الأموال، فأدركوا فيها ستاً من الخيل الأجاويد، ونحو أربعين من إناث العبيد، وخياماً كثيرة وسلاح، وأمتعة ونقود وأرباح، وفازوا بالأجر والفلاح، ورجعوا من الأمل بالنجاح.

وفيها أرسل غالب الشريف رسلاً إلى عبد العزيز، أصلح الله تعالى له الحال وبلغه جميع الآمال، يطلب منه عالماً من أهل الدين والتوحيد، ويزعم أنه يقصد بذلك تحقيق هذا الأمر ويريد، ويحرض على قدومهم مع مَنْ أرسله من البريد، حتى يقف على الحال عن يقين وعيان، ويحيط بعد ذلك بالعرفان، وينجلي له من المناظرة في شريف ذلك المكان، ما خفي عليه من مدة أزمان، وربما تشرق له أنوار شمس البيان، ويحصل منه بعد الإباء والإصرار إذعان، وبعد النفرة عن عذب ذلك المنهل شرب وإدمان.

فلما عرف إمام أهل الإيمان، ما قصده ذلك الإنسان، وما حرض عليه من المناظرة لديه والتيان، رغب أن يكون انقذح له من الدعوة شيء، أو نشر له من الحق طيء، وربما يبدو منه إياب وفّي، بعد فرط صدود وامتناع وكَيْ، ويقتضي مَنْ شاء من القرب لذلك المكان، وأيضاً فالهداية والتوفيق قد يكونان في أوقات دون أوقات، والله في دهره نفحات^(١) كما جاء عن النبي ﷺ في بعض الروايات.

وكان من حسن سيرة عبد العزيز وفطنته، وبديع هديه وسنته، وعظيم فضل الله عليه ومنته، أنه يدعو إلى الله تعالى بالتي هي أحسن وأحكم، ويرشد العباد للتي هي أقوم، فرأى إسعافه بذلك المرام وإسعاده، واختار أن ينيله مأموه

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٨٦٥) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ١٩١٧).

ومراده، فعسى أن يكون له سبباً للسعادة، فعند ذلك أرسل إليه من أهل الدين من يكشف عنه شبه المبطلين، ويوضح له سبل المهتدين، وهم أناس من أهل الميز والتبيين، وحسن المحاضرة في المناظرة بالبراهين، وكبيرهم حمد بن ناصر بن معمر، وكان هو المرأس عليهم والمؤمّر، فجهزهم بأحسن الجهاز وأتمه، وخوّلهم من معرفته أعمّه، فجدوا للمسير الهمة، وقطعوا تلك المهامه المدلهمة، حتى أتم الله تعالى عليه الفضل والنعمة، وصرف عنه البؤس والنقمة، فوصلوا بعد إنضاء الأعوجيات، وإرقال تلك المهريات في سياسب الفلاة، ومواصلة السرى في الدجنات، بلد الله الحرام ومحلة الحج الذي هو أحد أركان الإسلام، فدخلوها معتمرين، فطافوا وسعوا، وأتوا بالعمرة على التمام، ونحروا الجُزْر التي أرسلها الأمير سعود إلى بيت مولا، في المروة التي تراق دماء شعائر الله، أوصل الله تعالى إليه أجر ذلك وثوابه، وأناله على ذلك القبول وأثابه، وبلغه في الدارين مقصوده وطلابه.

فقابلهم الشريف بالإقبال، وأبدى لهم طلائع الإجلال، وتلقاهم بطلاقة وجه واستهلال، وأنزلهم منزل التوقير والسلامة، ووالى عليهم حشمتهم وإكرامهم، وأحضرهم لديه مع علمائهم ليال، وعقدوا للمناظرة مجال، وتجارى الأذهان فيها للجدال، وشرعوا أسنة المقال، وراموا أسنة الحق بالمحال، ولم يأتوا ولله الحمد على كُلِّ بما يثلج لهم وهيج البال، من النصوص السالمة من الضعف والاعتلال، ولم يجلبوا من البراهين المؤيدة للشرك والضلال، سوى موضوعات الملحدة والضلال، وأكاذيب الزنادقة وغلاة العباد الجاهل، التي عفت منار الحنيفية وما لها من معالم وأطلال، حين جرت على مباحج مناهج محياها الأذيال.

فلما تحققوا ذلك وعلموه، وتيقنوا أنهم لم يجدوا في الدفع وفهموه، أجمعوا

رأيهم وأحكموه، في المغالطة في اللفظ فأبرموه، فراشوا في المقال النِصال، وحددوها للرمي في النضال، ورصدوا للحسن في اللفظ والمقال، لما تبين منهم الخذلان والإذلال، فلم يعشروا في سرد صحيح السنة القامعة لهم والانتقال، على ما فيه لبس لدى مصنف وإشكال، سوى لفظة جرى اللسان فيها على اللحن في الإعراب والإشكال، فارتفع من بعضهم عند ذلك التخطئة بالمبادرة والاعتجال، وناهيك بهذا من نقض في اللب والاختلال، وسخافة في العقل وخبال، ووسوسة من الشيطان أبرزها له في الخيال، وحسبك كونه في الفلج بالحجة لم يبال، ولم يبد منه فضيحة واعتجال، مع أنهم بذلك الإلزام والفلج لم يذعنوا، ويجحدونه وهم به مستيقنون، ﴿كَذَلِكَ زَيَّتْ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِنَّ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وصفة ما جرى منهم أنهم حضروا بيت الشريف، تجاه بيت الله المنيف، وجالت خيول الأذهان لدى غالب، والكل جرى ذلك المضمار لإدراك المآرب، فأول ما افتتحوا به التكلم والتخاطب، وأجمعوا عليه في المطالب، وصدر منهم البداء والتنافر، ووقع منهم بتلك المجالس، وجرى منهم التحاور والمفاوضة والتخاطب فيه والمراوضة، مسألة قتال الموحدين الناس، والكشف عن وجهها حجب الالتباس، فطُلب من حمد بيان الحجة والدليل، والبرهان السالم من الأعالي، والنص القاطع للاحتمال والتأويل، والقامع لساثر الأقاويل، على ذلك المنهج والسبيل، فأتى لهم جزاء الله تعالى الثواب الجزيل، من النص القاطع القامع، لكل أذن واعية وسامع، وأصل لهم من الأصول فيها، ما تودي بالمراد ويكفيها، وجلب من الأحاديث الصحيحة الراجحة، والأدلة الباهرة اللائحة، ما شفى وكفى، وصيرهم من قطع اللسان والحجة على شفا، وأزاح عن محياها القتام ونفى، فقصف على بيت عنكبوتهم

نسيم الحق فهفا، ومزق آثارهم ومناهرهم بعدما هب عليهم وسفا، وأوقفهم على المتصوص، فأقروا وسلموا لتلك النصوص، وصدر منهم الإذعان، بعدما حملهم الشيطان، على كون تلك لم تكن في الكتب مسطرة، ولا موصولة فيها ومقررة، وتفوهوا بحضرة الشريف بذلك، حتى أوقفهم حمد على ما هنالك، ونقل من الكتب التي عندهم ما ضعضع وجدهم، وجلب عليهم علتهم وجهدهم، فوطفت جباههم من العرق، لما داخلهم من الخجل والفرق، فلم يكن لهم حينئذ بد ولا حيلة، حين قرأوا حجته ودليله، ولم يستطع منهم إنسان على جحود ذلك البرهان، بل صار منهم إقرار بذلك وإعلان، ولم يكثروا بما صدر قبل من الكتمان، وما ابتدأوا به من الزور والبهتان، فأمسوا بذلك يقرون وبمضمونه يُصدقون، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُسَيِّدُنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُوا مَنصُورِينَ﴾ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ وَأَشْرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْرُونَ. .

ثم تفاوضوا بعد ذلك في مجالس عديدة في دعوة الأموات، فأبدى لهم من النصوص العادلة السديدة، والآثار الراجحة المفيدة، والأقوال الصحيحة العديدة، ممن له الفكرة بالتحقيق من أقوال الأئمة الكبار، والأتباع المتقدمين الأخيار، ما أدهش العقول والأفكار، مما لا يسع المنصف له إنكار، ولكنهم جحدوا وقوع ذلك في الوجود، وأنكروا أن يكون ذلك في الأقطار موجود، وذلك عندهم واقع مشهود، وهم على ذلك كل ساعة شهود، فالعياذ بالله تعالى عن هذا الإنكار باللسان، مع أنهم متيقنون في الجنان، ويشاهدونه الخلق عندهم بالعيان، فنقول: سبحانه هذا بهتان.

ولا بدع فيما جرى وصدر، فقد قال كبيرهم أول من حضر، وتأهب للمناظرة وانترز، وجرد ذيول الخيلاء وافتخر، واختال من الكبر والأشر: اعلم أي أقول ولا أماري، ولا أخاصمك ولا أناظرك ولا أباري، إن أتيته بالدليل من الكتاب

أو سنة النبي، التي هم خصم لكل كذاب، ولا أجاريك ولا أطالب بما قاله علماء المذاهب، سوى ما قال به إمامي أبو حنيفة، لأنني مقلد له فيما قال، فلا أسلم لسوى قوله من قال، ولو قلت قال رسول الله أو قال الله ذو الجلال! لأنه أعلم مني ومنك بأولئك، وأدل بابتهاج تلك المسالك، والأخذ بغير قول الأئمة هو عين اقتحام جرائم المهالك.

فليقف العاقل على هذا المقال ويقضي منه العجب، حيث صدر من هذا المدعي للعلم مع الله سوء هذا الأدب، فيا بنس ما اقترفه من الإثم واكتسب، لم يخف الله ولم يراقب، ولم يخش سوء العواقب، وحاول بذلك في الدنيا المراتب، حتى يكون من العجاء والرئاسة فيها متوسط الكاهل والغارب.

فلما انقضت تلك الأيام والليال، وتقضت ساعات المناظرة والجدال، طلبوا من حمد بن ناصر بن معمر تأصيل ما برهن به واحتج به وقرر، وكُتب ما سجله عليهم وسطر، فانتدب لذلك، أدام الله نفعه وكثر من الفوائد جمعه، فحرر من الكتب التي عندهم في ذلك المكان، ما أَرَادَهُ من ذلك الأمر والشأن، بعد طلبه منهم تلك الكتب وتسميتها بالأعيان، فجمع لديهم عجالة، وعجل لهم في سَوْحِهِمْ رسالة، أوجز فيها مقالته، وأتى فيها بما فيه كفاية، في الحجة والدلالة، يذعن بعد سماعها كُلُّ منصف عاقل، ويشهد بفضل قائلها كل فاضل، وتقر بصدقها وصحة مضمونها الأمثال، ولا عبرة بمنافق أو غبي أو جاهل، بنى للحق الممين على أساسها صرخًا، وأجاد فيما أحكمه من التحرير إيضاحًا وصرخًا، فأفاد فيما نجاه من التحبير صدعًا وصدقًا، وترك مناظره يعانون في الجواب عنها كدحًا، فلم يدركوا من سعيهم ربحًا، بل زادوا فيما زخرفوه عن الصواب بعدًا ونزحًا، وهي عليك مجلوة، وحججها مقروءة ومملوءة، مميطة لوضيئ حسنها النقاب، سافرة الوجه للنقاد والنقاب، خالية من شين الإسهاب

والإطباب، جالية التجرين والأرتاب، ولكن عيها سلامتها من الإعجاب، وهذا نص الرسالة المزبورة، والعجالة المنفحة المسطورة، وأتيت بها على تأصيلها ووضعها، ولم أغير بديع منوالها وصنعها.

الرسالة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

المسألة الأولى: ما قولك فيمن دعا نبياً أو ولياً واستغاث في تفريج الكربات، كقوله: يا رسول الله. أو: يا ابن عباس. أو: يا محجوب. أو غيرهم من الأولياء والصالحين؟

الجواب: الحمد لله، أستعينه وأستغفره، وأعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان واقفني آثارهم إلى آخر الزمان، أما بعد: فإن الله تعالى قد أكمل لنا الدين، ورسوله قد بلغ البلاغ المبين، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَشِيرَةٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَىٰ ۖ وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَّهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

(١) وهي رسالته الشهيرة «الفواكه العذاب في الرد على من لم يحكم السنة والكتاب»، نشرت في «الهدية السنية» (ص ٦٣ - ١١٨)، وفي «الدرر السنية» (١٠ / ٢٧٩ - ٣٣٥). وطُبعت مفردة مراراً، من آخر طبعاتها: طبعة الشيخ عبدالرحمن التركي، عام ١٤١٥هـ.

أَعْمَى ﴿١﴾ وقال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة^(١). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الآية.

روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكن بهما: كتاب الله وسنة رسوله»^(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(٣).

وقال رضي الله عنه: «ما تركت من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا شيء يقرب إلى النار إلا وقد حدثتكم به»^(٤).

وقال رضي الله عنه: «عليكم بستة وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعصوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»^(٥).

فمن أصغى إلى كتاب الله وسنة رسوله وجد فيهما الهدى والشفاء، وقد ذم الله تعالى من أعرض عن كتابه، ودعا عند التنازع إلى غيره، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨ / ٣٨٩).

(٢) الموطأ (٣٣٣٨) بلاغا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣) والإمام أحمد (٤ / ١٢٦) من حديث العرياض بن سارية، وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٤٣٦٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١١ / ١٢٥) وقال الشيخ الألباني: مرسل حسن (الصحيح ١٨٠٣).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢) والإمام أحمد (٤ / ١٢٦) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٢٥٤٩).

إذا عرفت هذا فنقول:

الذي شرعه لنا رسول الله ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة، والإحسان إلى الميت بالدعاء له، والترحم له والاستغفار له، وسؤال العافية، كما في صحيح مسلم^(١) عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى المقابر يقول: «السلام عليكم يا أهل الديار» وفي لفظ: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا بكم إن شاء الله لآحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية».

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة، كلهم يشفعون له، إلا شُقُّوا فيه» رواه مسلم^(٣).

فإذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعوه، ونشفع له لا نستشفع به، فبعد الدفن أولى وأحرى، فبدل أهل الشرك قولاً غير الذي قيل لهم، بدلوا الدعاء له بدعائه، والشفاعه له بالاستشفاع به، وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحساناً إلى الميت سؤال الميت، وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة بنص رسول الله ﷺ فعن أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة» رواه الترمذي^(٤). وعن النعمان بن بشير

(١) صحيح مسلم (٢٤٩).

(٢) سنن أبي داود (٣١٩٩) وسنن ابن ماجه (١٤٩٧) وحسنه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٦٦٩).

(٣) صحيح مسلم (٩٤٧).

(٤) جامع الترمذي (٣٣٧١) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ٣٠٠٣).

قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه^(١).

ومن المحال أن يكون دعاء الموتى مشروعاً ويُصَرَّف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله ﷺ ثم يُؤَفَّق له الخُلوف الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون! فهذه سنة رسول الله ﷺ وهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، هل نُثَلِّ عن أحدهم نقل صحيح أو حسن؛ أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها، فضلاً عن أن يسألوا أصحابها جلب الفرائد وكشف الشدائد! ومعلوم أن هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله ﷺ بالأمصار عدد كثير متوافرون، فما منهم من استغاث عند قبر، ولا دعاء، ولا استشفى به، ولا انتصر به، ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ من بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأولياء، ولا الصلاة عندها، فإن كان عندكم في هذا أثر صحيح أو حسن فأوقفونا عليه، بل الذي صح عنهم خلاف ما ذهبتم إليه، ولما قحط الناس في زمان عمر بن الخطاب استسقى بالعباس وتوسل بدعائه وقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فسقينا، ونحن نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. فَيُسْقَوْنَ. كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، ذكره في كتاب الاستسقاء من صحيحه^(٢).

ونحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأمته أن يدعوا أحداً من

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٧) والترمذي (٢٩٦٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) والإمام أحمد (٤/

٢٧١) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الترغيب ١٦٢٧).

(٢) صحيح البخاري (٣٥٠٧).

الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وإذا خسر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمَعْذِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَمْ دَعُوهُ لِنُفَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا بينك وبينكم مثل خبير وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْيِيلًا﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُمْ.

قال مجاهد: يبتغون إلى ربهم الوسيلة، هو عيسى وعزير والملائكة^(١). وكذا قال إبراهيم النخعي.

قال: كان ابن عباس يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ هو عزير والمسيح والشمس والقمر^(٢).

وعن السدي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: عيسى وأمه والعزير^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن، فأسلم الجنون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم،

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٤).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٤).

(٣) تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٣).

فنزلت هذه الآية. ثبت ذلك عنه في صحيح البخاري، ذكره في كتاب التفسير^(١).

وهذه الأقوال كلها في معنى الآية حق، فإن الآية تعم كل من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر، فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً، وذلك المدعواً يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين فقد تناولته هذه الآية، ومعلوم أن المشركين يدعون الصالحين، بمعنى أنهم وسائط بينهم وبين الله، ومع هذا فقد نهى الله تعالى عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، ولا يدفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر صيغة تعم أنواع التحويل، فكل من دعا ميتاً من الأنبياء أو الصالحين، أو دعا الملائكة، أو دعا الجن فقد دعا من لا يُغيّثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله.

وهؤلاء المشركون اليوم منهم من إذا نزلت به شدة لا يدعو إلا شيخه، ولا يذكر إلا اسمه، قد لهج به كما لهج الصبي بذكر أمه، فإذا تعسر أحدهم قال: يا بن عباس. أو: يا محجوب. ومنهم من يحلف بالله ويكذب، ويحلف بآبن عباس أو غيره ويصدق ولا يكذب، فيكون المخلوق في صدره أعظم من الخالق! فإذا كان دعاء الموتى يتضمن هذا الاستهزاء بالدين، وهذه المحادة لله ولكتابه، فأَيُّ الفريقين أحق بالاستهزاء وبالمحاداة لله؟ من كان يدعو الموتى ويستغيث بهم، أو من كان لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، كما أمرت به رسله، ويوجب طاعة الرسول ومتابعته في كل ما جاء به!

ونحن، بحمد الله، من أعظم الناس إيجاباً لرعاية جانب الرسول، تصديقاً له

فيما أخبر، وطاعة له فيما أمر، واعتناء بمعرفة ما بُعث به واتباع ذلك دون ما خالفه، عملاً بقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ومعنا، ولله الحمد، أصلاً عظيماً:

أحدهما: ألا نعبد إلا الله. فلا ندعو إلا هو، ولا نذبح النسك إلا لوجهه، ولا نرجو إلا هو، ولا نتوكل إلا عليه.

الأصل الثاني: ألا نعبد إلا بما شرع. لا نعبد عبادة مبتدعة.

وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن شهادة أن لا إله إلا الله تتضمن إخلاص الإلهية، فلا يتأله القلب ولا اللسان ولا الجوارح غيره تعالى، لا بحب ولا بخشية ولا بإجلال ولا برغبة ولا رهبة. وشهادة أن محمداً رسول الله تتضمن تصديقه في جميع ما أخبر به، وطاعته واتباعه في كل ما أمر به، فما أثبت وجب إثباته، وما نفاه وجب نفيه. وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي» فقالوا: ومن أبي يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبي»^(١).

إذا عُرِفَ هذا، فالذي نعتقه وندين به الله، أن من دعا نبياً أو ولياً، أو غيرهما، وسأل منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أن هذا من أعظم الشرك الذي كَفَّرَ الله به المشركين، حيث اتخذوا أولياء وشفعاء يستجلبون بهم المنافع، ويستدفعون بهم المضار، بزعمهم، قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فمن جعل الأنبياء أو غيرهم، كابن عباس والمحجوب أو أبي طالب، وسائط يدعوهم،

ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع، بمعنى أن الخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك حوائج الناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لكونهم أقرب إلى الملك، فمن جعلهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك حلال الدم والمال، وقد نص العلماء، رحمهم الله، على ذلك، وحكموا عليه بالإجماع.

قال في (الإقناع) وشرحه: مَنْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطَ، يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ وَيَدْعُوهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ، كَفَرُ إِجْمَاعًا؛ لِأَنَّهُ ذَلِكَ كَفَعَلَ عَابِدِي الْأَصْنَامِ قَائِلِينَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(١) انتهى.

وقال الإمام أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي، رحمه الله تعالى: لما صعبت التكاليف على الجُهَّال والطَّعَام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسئلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامه، وإلزامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران وتقليلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاق فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا. وأخذ تربتها تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى^(٢). انتهى.

وقال الإمام البكري الشافعي رحمه الله، في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وكانت الكفار إذا سئلوا: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله. وإذا سئلوا عن عبادة الأصنام قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ لأجل طلب شفاعتهم عند الله.

(١) الإقناع (٤ / ٢٩٧).

(٢) نقله عنه الإمام ابن القيم (إغاثة اللهفان ١ / ١٩٥).

وهذا كفر منهم . انتهى كلامه .

فتأمل ما ذكره صاحب (الإقناع) وكذلك ما ذكره ابن عقيل من تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج ، وهو كفر .

وقال الحافظ العماد ابن كثير رحمته ، في تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ : أي إنما يحملهم على عبادتهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين ، في زعمهم ، فعبدوا تلك الصور ، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم ، وما ينوبهم من أمور الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به . قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أي : ليشفعوا لنا ويقربونا عنده . ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل صلوات الله عليهم بردها والنهي عنها ، والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يأذن الله فيه ولا رضي به ، بل أبغضه ونهى عنه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ فأخبر أن الملائكة التي في السموات ، من المقربين وغيرهم ، كلهم عبيد خاضعون لله ، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا كالأمراء عند ملوكهم ، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك أو أبغضوه ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ تعالى الله عن ذلك ^(١) . انتهى كلامه .

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٨٤ - ٨٥) .

وقال الإمام البكري رحمته الله، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ الآية: فإن قلت: إذا أقروا فكيف عبدوا الأصنام؟ قلت: كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه، لكن بطرق مختلفة، ففرقة قالت: ليست لنا أهلية عبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته، فعبادتها لتقربنا إليه زلفى. وفرقة قالت: الملائكة ذوو وجاهة ومنزلة عند الله تعالى، فاتخذنا لنا أصناماً على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله زلفى. وفرقة قالت: جعلنا الأصنام لنا قبلة في العبادة، كما أن الكعبة قبلة في عبادته. وفرقة اعتقدت أن لكل صنم شيطاناً موكلًا بأمر الله، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله، ولا أصابه شيطان بنكبة بأمر الله. انتهى كلامه.

فانظر إلى كلام هؤلاء الأئمة وتصريحهم بأن المشركين ما أرادوا ممن عبدوا إلا التقرب إلى الله، وطلب شفاعتهم عند الله، وتأمل ما ذكره ابن كثير، وما حكاه عن زيد بن أسلم وابن زيد، ثم قال: وهذه الشبهة التي اعتقدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بردها والنهي عنها. وتأمل ما ذكره البكري رحمته الله، عند آية الزمر، أن الكفار ما أرادوا إلا الشفاعة، ثم صرح بأن هذا كفر.

فمن تأمل ما ذكره الله في كتابه؛ تبين له أن الكفار ما أرادوا ممن عبدوا إلا التقرب إلى الله وطلب شفاعتهم عند الله، فإنهم لم يعتقدوا فيها أنها تخلق الخلائق، وتنزل المطر، وتنبئ النبات، بل كانوا مقرين أن الفاعل لذلك هو الله وحده، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى

يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٢﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٨٤﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿١٨٦﴾ الآيةين، إلى غير ذلك من الآيات التي أخبر الله فيها أن المشركين معترفون أن الله هو الخالق الرازق، وإنما كانوا يعبدونهم ليقرّبوهم ويشفعوا لهم، كما ذكره سبحانه في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فبعث الله الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده، لا يجعل معه إله آخر، فأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، وأنه لا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، وأنه لا يرضى إلا التوحيد، فالشفاعة مقيدة بهذه القيود، قال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذُنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْضَى﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

وفي الصحيحين^(١) من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلق على الله أنه قال: «أتى تحت العرش، فأخبر الله ساجداً، وُفْتُحَ عَلَيَّ بمحامد لا أحصيها الآن، فِدَعُنِي ما شاء الله أن يَدَعُنِي، ثم قال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل بسمع، وسل تعط، واشفع تشفع» قال: «فبحد لي حدّاً فأدخلهم الجنة، ثم أَدْعُو» فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

وقال الإمام البكري الشافعي رحمه الله، عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ

(١) صحيح البخاري (٧٤١٠) ومسلم (١٩٣).

أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ: نَفَى الشفاعة، وإن كانت واقعة في الآخرة؛ لأنها من حيث إنها لا تقع إلا بإذنه كأنها غير موجودة من غيره، وهو كذلك، لكن جعل ذلك لتبيين الرتب، وجملة النفي حال من ضمير ﴿يُحْشَرُوا﴾ وهي محل الخوف، والمراد به المؤمنون العاصون. انتهى.

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾: دل على أن الشفاعة تكون للمؤمنين فقط.

قال الإمام الحافظ عماد الدين ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾: يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم، وإنما كان عبد هؤلاء المشركون مع الله آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة عبيد له، كما كانوا يقولون في تلييتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر عنهم بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم يزجرهم عن ذلك، وينهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبهم^(١). انتهى.

والمقصود بيان شرك المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ وأنهم ما أرادوا ممن عبدوا إلا التقرب إلى الله وطلب شفاعتهم عند الله، وبيان أن طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم في الشدائد أنه من الشرك الذي كَفَّرَ الله به المشركين، وبيان أن الشفاعة كلها لله ليس لأحد معه من الأمر شيء، وأنه لا

شفاعة إلا بعد إذن الله تعالى، وأنه تعالى لا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، وأنه لا يرضى إلا التوحيد، كما تقدمت الأدلة الدالة على ذلك، ومعلوم أن أعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عند الله هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد محض، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم وأمرهم، فيأذن سبحانه لمن شاء أن يشفعوا فيه، فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له تعالى، والذي شفع عنده إنما شفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته سبحانه إلى نفسه، وهي إرادته أن يرحم عبده، وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها سبحانه في كتابه بقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مَن قَبِلَ آن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِجَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾.

ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد، كما صرح بذلك النصوص، فروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله. خالصاً من قلبه»^(١) وعن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من عند ربي، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً» رواه الترمذي وابن ماجه^(٢).

فأسعد الناس بشفاعة رسول الله ﷺ أهل التوحيد، الذين جرد التوحيد وأخلصوه من التعلقات الشركية، وهم الذين ارتضى الله سبحانه، قال الله

(١) البخاري (٩٩).

(٢) جامع الترمذي (٢٤٤١) وسنن ابن ماجه (٤٣١٧) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٥٦).

تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْضَى﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ فأخبر سبحانه أنه لا يحصل شفاعته تنفع إلا بعد رضاه قول المشفوع له وإذنه للشافع، وأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله، ولا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه سبحانه علقتها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع، فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعه، وهذه الشفاعه في الحقيقه هي منه، فإنه هو الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع له، والذي وفقه لفعل ما يستحق من الشفاعه، فمُتَّخَذُ الشُّفِيعِ مشرك، لا تنفعه شفاعته ولا يُشْفَعُ فيه، ومُتَّخَذُ الربِّ إلهه وحده ومعبوده هو الذي يأذن للشافع أن يشفع فيه، قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمُوهُ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فبين أن المُتَّخِذِينَ شُفَعَاءَ مشركون، وأن الشفاعه لا تحصل باتخاذهم، وإنما تحصل بإذنه سبحانه للشافع، ورضاه عن المشفوع له، كما تقدم بيانه.

والمقصود أن الكتاب والسنة دَلَالًا على أن من جعل الملائكة والأنبياء، أو ابن عباس أو أبا طالب أو المحجوب، وسائط بينهم وبين الله، يشفعون له عند الله لأجل قربهم من الله، كما يفعل عند الملوك، أنه كافر مشرك حلال المال والدم، وإن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. وصلى وصام وزعم أنه مسلم، بل هو من الأخسرين أعمالًا ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُجْتَنِبُونَ سُوءًا﴾.

ومن تأمل القرآن العزيز وجده مصرحًا بأن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّونَ بأن الله هو الخالق الرازق، وأن السموات السبع ومن

فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن، كلهم عبيده وتحت قهره وتصرفه، كما حكاه الله تعالى عنهم في سورة يونس وسورة المؤمنين وسورة العنكبوت وغيرها من السور، ووجده مصرحاً بأن المشركين يدعون الصالحين، كما ذكر تعالى ذلك عنهم في سورة سبحان والمائدة وغيرهما من السور، وكذلك أخبر عنهم أنهم يعبدون الملائكة، كما ذكر ذلك في سورة الفرقان وسبأ والنجم، ووجده مصرحاً أيضاً بأن المشركين ما أرادوا ممن عبدوا إلا الشفاعة والتقرب إلى الله تعالى، كما ذكر ذلك عنهم في سورة يونس والزمر وغيرهما من السور.

إذا تبين لكم أن القرآن قد صرح بهذه المسائل الثلاث، أعني اعتراف المشركين بتوحيد الربوبية، وأنهم يدعون الصالحين، وأنهم ما أرادوا منهم إلا الشفاعة، تبين لكم أن هذا الذي يُفعل عند القبور اليوم من سؤالهم جَلَبَ الفوائد وكشَفَ الشدائد، أنه الشرك الأكبر الذي كَفَّرَ الله به المشركين، فإن هؤلاء المشركين شَبَّهوا الخالق بالمخلوق، وفي القرآن العزيز وكلام أهل العلم من الرد على هؤلاء ما لا يتسع له هذا الموضع، فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس تكون على أحد وجوه ثلاثة:

إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه. ومن قال إن الله لا يعرف أحوال العباد حتى يخبره بذلك بعض الأنبياء أو غيرهم من الأولياء والصالحين، فهو كافر، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

الثاني: أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعبته ودفع أعدائه، إلا بأعوان يعاونونه، فلا بد له من أعوان وأنصار لذلك وعجزه. والله سبحانه ليس له ولي ولا ظهير من الذل، وكل ما في الوجود من الأسباب فهو سبحانه ربه وخالقه، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين

إلى ظهورهم، وهم في الحقيقة شركاؤهم، والله سبحانه ليس له شريك في الملك، بل لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد، ولهذا لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، فإن من شفع عنده بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب، أثر فيه بشفاعته حتى يفعل ما يطلب منه، والله لا شريك له بوجه من الوجوه.

الثالث: أن يكون الملك ليس مريدًا لنفع رعيته والإحسان إليهم إلا بمحرك يحركه من خارج، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظه، أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه، تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته. والله تعالى رب كل شيء ومليكه، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأسباب إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه إذا أجرى نفع العباد بعضهم على يد بعض، فجعل هذا يُحسِن إلى هذا ويدعو له أو يشفع له، فهو الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن، والداعي إرادة الإحسان، والدعاء، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يُكْرِهُهُ على خلاف مراده، أو يُعَلِّمُهُ ما لم يكن يَعْلَمُهُ، والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون عنده إلا بإذنه، كما تقدم بيانه، بخلاف الملوك، فإن الشافع عندهم يكون شريكاً لهم في الملك، وقد يكون مظاهراً لهم معاوناً لهم على ملكهم، وهم يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، والملك يقبل شفاعتهم تارة لحاجته إليهم، وتارة لجزاء إحسانهم ومكافأتهم، حتى أنه يقبل شفاعته ولده وزوجته لذلك، فإنه محتاج إلى الزوجة والولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لَتَضَرَّرَ بذلك، ويقبل شفاعته مملوكه، فإنه إذا لم يقبل شفاعته يخاف ألا يطيعه، ويقبل شفاعته أخيه مخافة أن يسعى في ضرره، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا أحد يقبل شفاعته أحد إلا لرغبة أو لرهبة، والله تعالى لا

يرجو أحدا ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الغني سبحانه عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، والمشركون يتخذون شعفاء مما يعبدونه، مثل الشفاعة عند المخلوق، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﷺ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ فَأَخْبِر سبحانه أنما يُدعى من دونه لا يملك كشف الضر ولا تحويلا، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه، فقد نفى سبحانه ما أثبتوه من توسط الملائكة والأنبياء. وفيما ذكرناه كفاية لمن هداه الله، وأما من أراد الله فنته فلا حيلة فيه ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرِيْدًا﴾.

وأما المسألة الثانية: وهي من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. ولم يُصَلِّ ولم يُزَكِّ، هل يكون مؤمنا؟

فتقول: أما من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وهو مقيم على شركه؛ يدعو الموتى، ويسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، فهذا مشرك كافر حلال الدم والمال، وإن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. وصلى وصام وزعم أنه مسلم، كما تقدم بيانه.

وأما إن وحّد الله تعالى ولم يُشرك به شيئا، ولكنه ترك الصلاة والزكاة تكاسلا عنها، فهذا قد اختلف العلماء في كفره، والعلماء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة، لا يجتمعون على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء ردّوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى الرسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ قُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال العلماء: الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول

هو الرد إلى سنته بعد وفاته . وقال تعالى : ﴿وَمَا آخَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وقد ذم الله من أعرض عن كتابه ودعا عند التنازع إلى غيره ، فقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَآلَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّيزِينَ يُصْذَوْنَ عَنْكَ صُذُوكًا﴾ . إذا عُرِف هذا فنقول : اختلف العلماء ، رحمهم الله ، في تارك الصلاة كسلاً من غير حُجود ؛ فذهب الإمام أبو حنيفة ، والشافعي في أحد قوليهِ ، ومالك إلى أنه لا يُحْكَمُ بكفره ، واحتجوا بما رواه عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خمس كتبهن الله على العباد ، من أتى بهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»^(١) .

وذهب إمامنا أحمد بن حنبل ، والشافعي في أحد قوليهِ ، وإسحاق بن راهويه وعبد الله بن المبارك والنخعي والحكم وأيوب السختياني وأبو داود الطيالسي ، وغيرهم من كبار الأئمة والتابعين ، إلى أنه كافر ، وحكاه إسحاق بن راهويه إجماعاً ، ذكره عن الشيخ أحمد بن حجر في شرح الأربعين ، وذكره في كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر)^(٢) عن جمهور الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين .

وقال الإمام محمد بن حزم : سائر الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين ومن بعدهم يكفرون تارك الصلاة مطلقاً ، ويحكمون عليه بالارتداد ، منهم أبو بكر وعمر وابنه عبد الله وعبد الله بن عباس ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة ، ولا نعلم لهؤلاء مخالفاً من الصحابة .

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥) والنسائي (٤٦١) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٣٢٤٣) .

(٢) الزواجر (١/ ٢٥٧ - ٢٦٧) .

وأجابوا عن قوله ﷺ: «من لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له» أن المراد عدم المحافظة عليهن في وقتهن، بدليل الآيات والأحاديث الواردة فيها وفي تركها.

واحتجوا على كفر تاركها بما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة»^(١).

وعن بريدة بن الحصيب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العهد بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(٢) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. إسناده على شرط مسلم.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بين العبد والكفر والإيمان الصلاة، فإذا تركها فقد أشرك»^(٣) وإسناده صحيح على شرط مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يومًا فقال: «من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورًا وبرهانًا ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف» رواه الإمام أحمد وأبو حاتم ابن حبان في صحيحه^(٤).

(١) صحيح مسلم (٨٢).

(٢) المسند (٥/ ٣٤٦) وجامع الترمذي (٢٦٢١) وسنن النسائي (٤٦٣) وسنن ابن ماجه (١٠٧٩) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٤١٤٣).

(٣) قال الشيخ الألباني: رواه هبة الله الطبري بإسناد صحيح (صحيح الترغيب ٥٦٦).

(٤) المسند (٢/ ١٦٩) وصحيح ابن حبان (الإحسان ١٤٦٧) وحسنه الشيخ الألباني (التمر المستطاب ١/ ٥٣).

وعن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ﷺ فقال: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تتركوا الصلاة عمداً، فمن تركها عمداً خرج من الملة» رواه ابن أبي حاتم في سننه^(١).

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله» رواه الإمام أحمد^(٢).

وعن أبي الدرداء قال: أوصانا رسول الله ﷺ ألا أترك صلاة متعمداً، فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة. رواه ابن أبي حاتم^(٣).

وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة...» الحديث^(٤).

وعن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة. رواه الترمذي^(٥).

فهذه الأحاديث كما ترى صريحة في كفر تارك الصلاة، مع ما تقدم من إجماع الصحابة، كما حكاه إسحاق بن راهويه وابن حزم وعبد الله بن شقيق، وهو مذهب الجمهور من التابعين ومن بعدهم، ثم إن العلماء كلهم مُجْتَبِعُونَ على قتل تارك الصلاة كسلاً، إلا أبا حنيفة ومحمد بن شهاب الزهري وداود، فإنهم قالوا: يُحْسَنُ تارك الصلاة المفروضة حتى يموت أو يتوب.

(١) رواه الضياء في الأحاديث المختارة (٣٥١) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الترغيب ٣٠٠).

(٢) المسند (٥/ ٢٣٨) وصححه الشيخ الألباني (الإرواء ٢٠٢٦).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠٤٣) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٧٣٣٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٦١٦) والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٢٩) وابن ماجه (٣٩٧٣).

وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٥١٣٦).

(٥) جامع الترمذي (٢٦٢٢) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الترغيب ٥٦٥).

ومن احتج لهذا القول بقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله» فقد أبعد التُّجعة؛ فإن هذا الحديث لا حجة فيه، بل هو حجة لمن يقول بقتله، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

واحتج الجمهور على قتله بالكتاب والسنة، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فسرط الكف التوبة من الشرك وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإذا لم توجد الثلاث لم يكف عن قتالهم.

قال ابن ماجه: حدثنا نصر بن علي ثنا أبو أحمد ثنا نبأ الربيع بن أنس عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته وحده لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، مات والله عنه راضي»^(١) قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء.

وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما نزل ﴿إِن تَابُوا﴾ قال: خلع الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

وأما السنة فنبت في الصحيحين عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»^(٢) فعلق العصمة على الشهادتين والصلاة والزكاة.

(١) رواه ابن ماجه (٧٠) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الترغيب) (١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٣) ومسلم (٢٠).

وقد بعث النبي ﷺ كتابًا فيه: «من محمد رسول الله إلى أهل عمان، أما بعد: فأقرُّوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأدوا الزكاة، وخطوا المساجد، وإلا غزوتكم»^(١) أخرجه الطبراني والبخاري وغيرهما، ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي في شرح الأربعين.

وروى ابن شهاب عن حنظلة عن علي بن الأشجع أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يقاتل الناس على خمس، فمن ترك واحدة منهن قاتله عليها كما تقاتل على الخمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

وقال سعيد بن جبير: قال عمر بن الخطاب: لو أن الناس تركوا الحج لقاتلناهم على تركه كما نقاتل على الصلاة والزكاة.

وبالجملة؛ فالكتاب والسنة والآن على أن القتال ممدود إلى الشهادتين والصلاة والزكاة، وقد أجمع العلماء على أن كل طائفة ممتنعة من شريعة من شرائع الإسلام فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله، كالمحاربين وأولى. انتهى.

وأما حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» فهذا لا إشكال فيه، بحمد الله، وليس لكم فيه حجة، بل هو حجة عليكم، قال علماؤنا رحمهم الله: إذا قال الكافر: لا إله إلا الله. فقد شرع في العاصم له، فيجب الكف عنه، فإن تم ذلك تحققت العصمة، وإلا بطلت، ويكون النبي ﷺ قد قال حديثًا في وقت فقال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» ليعلم المسلمون أن الكافر المحارب إذا قالها كف عنه وصار ماله ودمه معصومًا، ثم

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٨٤٩).

بين النبي ﷺ في الحديث الآخر أن القتال ممدود إلى الشهادتين والعبادتين قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»^(١) فَبَيَّنَ أَنَّ تَمَامَ الْعَصْمَةِ وَكَمَالِهَا إِنَّمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ، وَلَثَلَا تَنَعَ الشَّبْهَةَ بِأَنْ مَجْرَدَ الْإِفْرَارِ يَعْصِمُ عَلَى الدَّوَامِ، كَمَا وَقَعَتْ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ، حَتَّى جَلَّاهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ثُمَّ وَافَقُوهُ ﷺ. انتهى.

ومما يبين فساد قولكم وخطأ فهمكم في معنى حديث أبي هريرة، أن الصحابة ﷺ، أجمعوا على قتال مانعي الزكاة، بعد مناظرة حصلت بين أبي بكر الصديق وعمر ﷺ، واستدل عمر على أبي بكر بحديث أبي هريرة، فبين صديق الأمة ﷺ، أن الحديث حجة على قتال مَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ، فوافقه عمر وسائر الصحابة، وقَاتَلُوا مانعي الزكاة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويصلون، ونحن نسوق الحديث، ثم نذكر كلام العلماء عليه ليتبين لكم أن فهمكم الفاسد لم يقل به أحد من العلماء، وأنه فهم مشنوم مذموم، مخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة، فنقول:

ثبت في الصحيحين^(٢) عن أبي هريرة ﷺ، قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا»! قال أبو بكر: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق للمال، فوالله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله، ما

(١) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٦) ومسلم (٢٠).

هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. وهذا الحديث خرج به البخاري في كتاب الزكاة، ومسلم في كتاب الإيمان، وهو من أعظم الأدلة على فساد قولكم؛ فإن الصديق رضي الله عنه، جعل المُبَيِّح للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب.

وقد تكلم النووي، رحمه الله تعالى، في شرح صحيح مسلم فقال: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ وأن من قال ذلك عصم نفسه وماله، إلا بحقتها، وكُلت سريره إلى الله تعالى، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام، واهتمام الإمام بشرائع الإسلام. ثم ساق الحديث، ثم قال: قال الخطابي في شرح هذا الكلام كلامًا حسنًا، لا بد من ذكره لما فيه من الفوائد، قال رحمته الله: مما يجب تقديمه في هذا أن يُعَلَّمَ أن أهل الردة كانوا إذ ذاك صنفين:

صنف ارتدوا عن الدين وناذبوا الملة وعادوا لكفرهم، وهم الذين عنى أبو هريرة بقوله: من كفر من العرب.

والصنف الآخر: فرّقوا بين الصلاة والزكاة، فأقروا بالصلاة، وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها إلى الإمام، وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح بالزكاة ولا يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي وقبضوا على أيديهم في ذلك، كبنى يربوع، فإنهم جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم، وفي أمر هؤلاء عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر رضي الله عنه، فراجع أبا بكر رضي الله عنه، وناظره، واحتج عليه بقول النبي ﷺ بقوله: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَدْ عَصَمَ نَفْسَهُ وَمَالَهُ» وأن هذا كان من عمر

تعلقًا بظاهر الكلام، قبل أن ينظر في آخره ويتأمل شرائطه، فقال له أبو بكر: الزكاة حق المال. يريد أن القضية قد تضمنت عصمة دم ومال معلقة بإيفاء شرائطها، والحكم المعلق بشرطين لا يحصل بأحدهما والآخر معدوم، ثم قايسه بالصلاة وردوا الزكاة إليها، وكان في ذلك من قوله دليل على أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعاً من الصحابة، ولذلك ردوا المختلف فيه إلى المتفق عليه، فلما استقر عندهم صحة رأي أبي بكر رضي الله عنه، وبأن لعمر صوابه، تابعه على قتال القوم، وهو معنى قوله: فلما رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال عرفت أنه الحق. يريد انشراح صدره بالحجة التي أدلى بها، والبرهان الذي أقامه نصاً ودلالة^(١). انتهى.

فتأمل هذا الباب الذي ذكره النووي، رحمه الله تعالى، وهو إمام الشافعية على الإطلاق، تجده صريحاً في رد شبهتهم أن من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. لا يباح دمه وماله، وإن ترك الصلاة والزكاة، فالترجمة نفسها صريحة في رد قولكم، فإنه صرح بالأمر بالقتال على ترك الصلاة ومنع الزكاة.

وتأمل ما ذكره الخطابي أن الذين منعوا الزكاة منهم من كان يسمح بها ولا يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي وقبضوا على أيديهم، كني بربوع، فإنهم أرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم، وأنه عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر في هؤلاء، ثم إن عمر وافق أبا بكر على قتالهم.

وتأمل قوله: واحتج عمر بقول النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وكان هذا من عمر تعلقاً بظاهر الكلام قبل أن ينظر إلى

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٢ - ٢٠٣).

آخره ويتأمل شرائطه. وتأمل قوله أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعاً من الصحابة.

وقد أشار الخطابي إلى أن حديث أبي هريرة مختصر، قال النووي رحمته: قال الخطابي: وبين لك أن حديث أبي هريرة مختصر، أن عبد الله بن عمر وأنس رضي الله عنهما، رَوَيَا بزيادة لم يذكرها أبو هريرة، ففي حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «أُمرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» وفي رواية أنس: «أُمرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن يستقبلوا قبلتنا، وأن يأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم، إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»^(١) انتهى.

قلت: وقد ثبت في الطريق الثالث المذكور في الكتاب من طريق أبي هريرة وروايته أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»^(٢).

وفي استدلال أبي بكر واعتراض عمر رضي الله عنهما، دليل على أنهما لم يحفظا عن رسول الله ﷺ ما رواه ابن عمر وأنس وأبو هريرة، وكان هؤلاء الثلاثة سمعوا الزيادة في رواياتهم في مجلس آخر، فإن عمر لو سمع ذلك لما خالف، ولما كان احتج بالحديث، فإن هذه الزيادة حجة عليهم، ولو سمع أبو بكر هذه الزيادة

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٣) والترمذي (٢٦٠٨) وصححه الشيخ الألباني (الصحيح ٣٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢١).

لاحتج بها، ولما كان احتج بالقياس والعموم والله أعلم^(١). انتهى كلام النووي.

فتأمل ما ذكره عن الخطابي تجده صريحاً في رد قولكم، وتأمل قوله: فإن عمر لو سمع ذلك لما خالف ولما كان احتج بالحديث، فإن هذه الزيادة حجة عليهم.

وبالجملة؛ فحديث أبي هريرة حجة عليكم لا لكم، ولو لم يكن فيه إلا قوله «إلا بحقها» لكان كافياً في بطلان شبهتكم؛ فإن الصلاة والزكاة من أعظم حقوق (لا إله إلا الله) بل هما أعظمهما على الإطلاق.

ومما يدل على بطلان قولكم وفساد فهمكم في معنى هذا الحديث، أعني حديث أبي هريرة: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أن جميع الشراح والمُحَسِّنِينَ لم يُؤُولَوْهُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَخْرُجٌ فِي الصَّحَاحِ، وَهَؤُلَاءِ شَرَاةُ الْبُخَارِيِّ، وَكَذَا شَرَاةُ مُسْلِمٍ، هَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى تَرْكِ قِتَالِ مَنْ تَرَكَ الْفَرَائِضَ؟ بَلِ الَّذِي ذَكَرُوهُ خِلَافَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا احْتِجَاجُ عَمْرِو بْنِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ مُوَافَقَتُهُ لِأَبِي بَكْرٍ عَلَى قِتَالِ مَنْعَى الزَّكَاةِ، لَكَانَ كَافِيًا، وَنَحْنُ نَذَكِّرُ لَكُمْ كَلَامَ الشَّرَاحِ عِذْرًا وَنَذْرًا.

قال النووي، رحمه الله تعالى: قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فمن قال: لا إله إلا الله. فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله تعالى: قال الخطابي: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون (لا إله إلا الله) ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف. قال: ومعنى «وحسابه على الله تعالى»: أي: فيما يسرونه

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٦).

ويخفونه. قال: ففيه أن من أظهر الإسلام وأسرَّ الكفر أنه يُقبلُ إسلامه في الظاهر، وهذا قول أكثر العلماء، وذهب مالك أن توبة الزنديق لا تقبل، ويُحكى ذلك عن أحمد بن حنبل^(١). هذا كلام الخطابي.

وذكر القاضي عياض، رحمه الله تعالى، معنى هذا وزاد عليه وأوضحه، فقال: اختصاص عصمة المال والنفس ممن قال (لا إله إلا الله) تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد مشركو العرب وأهل الأوثان ممن لا يوحد، وهم كانوا أول من دُعِيَ إلى الإسلام وقولوا عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقول (لا إله إلا الله) إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، فلذلك في الحديث الآخر: «وأنِّي رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة» هذا كلام القاضي. قلت: ولا بد من الإيمان مما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء في الرواية الأخرى لأبي هريرة: «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به»^(٢) انتهى كلام النووي.

فتأمل ما ذكره الخطابي، وما ذكره القاضي عياض، أن المراد بقوله (لا إله إلا الله) التعبير عن الإجابة إلى الإيمان، واستدل لذلك بالحديث الآخر الذي فيه: «وأنِّي رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة»، وتأمل قوله أن المراد بحديث أبي هريرة مشركو العرب وغيرهم ممن لا يوحدون، وأما الذي يقر بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقول (لا إله إلا الله) إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده. وتأمل قول النووي: ولا بد من الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ.

(١) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٦).

(٢) شرح مسلم للنووي (١/ ٢٠٦ - ٢٠٧).

وبالجملة فقولُه ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لم نعلم أحدًا من أهل العلم أجراه على ظاهره وقال إن من قال (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) يُكْفُ عنه ولا يجوز قتاله، وإن ترك الصلاة ومنع الزكاة، هذا لم يقل به أحد من العلماء، ولازم قولكم أن اليهود لا يجوز قتالهم لأنهم يقولون (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وأن الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب لا يجوز قتالهم لأنهم يقولون (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وأن الصحابة مخطئون في قتالهم مانعي الزكاة لأنهم يقولون (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) ولازم قولكم أن بني حنيفة مسلمون لأنهم يقولون (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) سبحان الله! ما أعظم هذا الجهل ﴿كَذَلِكَ يَطْعَى اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومن العجب أنكم تقرؤون في صحيح البخاري هذا الباب في كتاب الإيمان، حيث قال: باب ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ حدثنا عبد الله بن محمد المسندي قال: حدثنا شعبة عن واقد بن محمد: سمعت أبي يحدث عن ابن عمر رضيهما الله، أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا وَيَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(١). ثم بعد ذلك هذه الآية والحديث الذين ذكرهما البخاري وبأي شيء تدفعون به هذه الأدلة؟

وقال الإمام أبو عيسى الترمذي في سننه، في باب (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ): حدثنا هناد أنبأنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى

يقولوا لا إله إلا الله...» الحديث^(١) ثم أردفه بحديث أبي هريرة في قتال أبي بكر لمانعي الزكاة، وساق الحديث بتمامه ثم قال: (باب ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة) حدثنا سعد بن يعقوب الطالقاني أنا ابن المبارك أنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، ويستقبلوا قبلتنا، ويأكلوا ذبيحتنا، وأن يصلوا صلاتنا، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم، إلا بحقها، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»^(٢) وفي الباب عن معاذ بن جبل وأبي هريرة، هذا حديث حسن صحيح.

والمقصود بيان ذم هذه الشبهة التي دسها من يدعي أنه من العلماء على الجهالة من الناس، أن من قال (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فهو مسلم، لا يجوز قتله ولو ترك فرائض الإسلام، وهذا كلام الله، وهذا كلام رسوله، وهذا كلام العلماء صريحا في رد هذه الشبهة، بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على أن الطائفة الممتنعة تقاتل على ترك الصلاة ومنع الزكاة، وإن أقروا بالوجوب، كما تقدمت النصوص الدالة على ذلك، بل قد صرح العلماء أن أهل البلد إذا تركوا الأذان والإقامة يقاتلون، وصرحوا أيضا بأنهم لو تركوا إقامة الصلاة الجماعة يقاتلون، وكذا لو تركوا صلاة العيد، وعلماء حرم الله الشريف يقولون: من قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ونفسه، وإن لم يصل ولم يرك! فسيحان مقلب القلوب والأبصار، وهل هذا إلا معارضة لكلام الله ورسوله وكلام أئمة

(١) جامع الترمذي (٢٦٠٦).

(٢) جامع الترمذي (٢٦٠٧).

المذاهب، وهذا كلامهم موجود في كتبهم يصرحون بأن من ترك الصلاة قتل، وأن الطائفة الممتنعة من الصلاة والزكاة والحج تقاتل حتى يكون الدين كله لله، ويحكون عليه الإجماع، كما صرح بذلك أئمة الحنابلة في كتبهم.

فإذا كانوا يصرحون أن من ترك بعض شعائر الإسلام، كأهل القرية إذا تركوا الأذان، أو تركوا صلاة الجماعة، وتركوا صلاة العيد، فإنهم يقاتلون، فكيف بمن ترك الصلاة رأساً؟ وهؤلاء يقولون: من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم نفسه ودمه، وإن كانوا طائفة ممتنعين من فعل الصلاة والزكاة، بل يصرحون بأن البوادي إسلام، حرام علينا دماؤهم وأموالهم، مع العلم القطعي بأنهم لا يؤذنون ولا يصلون ولا يزكون، بل الظاهر عندهم أنهم كافرون بالشرائع، وينكرون البعث بعد الموت! سبحان الله! ما أعظم هذا الجهل!

وقد ذكرنا من كلام الله وكلام رسوله، وكلام شراح المحدثين، ما فيه الهدى لمن هداه الله، وبيننا أن العصمة شرطها التوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فمن لم يأت بهذه الثلاث لم يكف عنه ولم يخل سبيله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُلٌّ مَرْصُودًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِالْحَقِّ نَادَىٰ أُنثَىٰ وَلَئِنْ لَمْ يَنْصَرِفْ عَلَيْهَا لَخَسْفٌ لِلَّذِينَ صَوَّاهُ بِقَرَارٍ كَرِيمٍ﴾ وقال النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ».

وأما كلام الفقهاء في كتبهم فنذكره على التفصيل:

أما كلام المالكية؛ فقال الشيخ علي الأجهوري في (شرح المختصر): من ترك فرضاً آخر لبقاء ركعة بسجدها من الضروري قُتِلَ بالسيف حَدًّا على

المشهور. وقال ابن حبيب وجماعة خارج المذهب: كافر. واختاره ابن عبد السلام^(١) انتهى.

وقال في فضل الأذان: قال المازري: في الأذان معنيان:

أحدهما: إظهار الشاعث والتعريف بأن الدار دار إسلام، وهو فرض كفاية، يُقَاتِلُ أهل القرية حتى يفعلوه، إن عجزوا عن قهرهم على إقامته إلا بالقتال. والثاني: الدعاء للصلاة والإعلام بوقتها.

وقال الأبي في (شرح مسلم)^(٢): والمشهور أن الأذان فرض كفاية على أهل المصر؛ لأنه شعار الإسلام، فقد كان رسول الله ﷺ إن لم يسمع الأذان أغار، وإلا أمسك. وقول المصنف: يُقَاتِلُونَ عليه. ليس القتال من خصائص القول بالوجوب، لأنه نص عن عياض في قول المصنف: والوتر غير واجب، إلا أنهم اختلفوا في التماسي في ترك السن هل يقاتلون عليها، والصحيح قتالهم وإكراههم، لأن في التماسي على تركها إمامتها انتهى.

وقال في فضل صلاة الجمعة: قال ابن رشد: صلاة الجمعة مستحبة للرجل في نفسه، فرض كفاية في الجملة. ويعني بقوله (في الجملة) أنها فرض كفاية على أهل المصر، ولو تركوها قوتلوا، كما تقدم. انتهى.

وعبارة غيره: وإن تركها أهل بلد قوتلوا، وأهل دار أجبروا عليها. انتهى كلام الشيخ رحمه الله، علي الأجهوري^(٣).

فانظر تصريحهم أن تارك الصلاة يُقتل باتفاق أصحاب مالك، وإنما اختلفوا

(١) الفواكه الدواني (٢/ ٢٠١).

(٢) (٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

(٣) مواهب الجليل (١/ ٤٠٥).

في كفره، وأن ابن حبيب وابن عبد السلام اختارا أنه يقتل كافراً، وتأمل كلامهم في الطائفة الممتنعة عن الأذان وعن إقامة الجماعة في المساجد، وأنهم يُقَاتِلُونَ، فأين هذا من قولكم أن من ترك الفرائض مع الإقرار بوجوبها لا يحل قتالهم لأنهم يقولون لا إله إلا الله!

وأما كلام الشافعية؛ فقال الإمام العلامة أحمد بن حمدان الأذري رحمته الله، في كتاب (قوت المحتاج في شرح المنهاج): من ترك الصلاة جاحداً وجوبها كفر إجماعاً، وذلك جارٍ في كل جحود مجمع عليه، معلوم من الدين ضرورة، فإن تركها كسلاً قتل حُداً على الصحيح والمشهور، أما قتله فلأن الله تعالى أمر بقتل المشركين، ثم قال: ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فدل على أن القتل لا يرفع إلا بالإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولما في الصحيحين: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها» ثم قال: إشارات:

منها قتله ردة، ووجد لشرذمة، منهم منصور التميمي وابن خزيمة، وقضية كلام الرونق، أنه كلام منصوص، حيث قال: فإذا قُتِلَ ففي ماله ودفنه بين المسلمين قولان: أحدهما ما رواه الربيع عن الشافعي أن ماله يكون فيئاً ولا يدفن بين المسلمين. والثاني ما رواه المازني عن الشافعي أن ماله لورثته ويدفن في مقابر المسلمين. وقال في المستعمل: سألت الربيع: ما يصنع بماله إذا قتله؟ قال: يكون فيئاً.

ومنها قال في (الروضة): تارك الوضوء يقتل على الصحيح، جزم به الشيخ أبو حامد^(١). وفي (البيان): لو صلى عرياناً مع القدرة للستر، أو الفريضة فاعداً

(١) روضة الطالبين (١/ ٦٦٨).

بلا عذر، قُتِلَ، وكذلك لو ترك الشَّهَد أو الاعتدال. حكاه ابن الأستاذ عن البحر، فإنَّ صحَّ طرد في سائر الأركان والشروط، ويجب أن يكون محله فيما أجمع عليه.

ومنها لو امتنع من الصوم والزكاة حُبَسَ ومُنِعَ من الفطرات، وقال إمام الحرمين: يجوز أن يكون الممتنع مما يضيق عليه، كالممتنع من الصلاة يجبر عليه، فإنَّ أبي ضُربت عنقه. قال المصنف: والصحيح قتله بصلاة واحدة، بشرط إخراجها عن وقت الضرورة. انتهى كلام الأذرعى.

فانظر كلامه في قتل من ترك الصلاة كسلاً، وأنَّ الربيع روى عن الشافعي أن ماله يكون فيثاً ولا يُدفن في مقابر المسلمين، وتأمل كلام أبي حامد وكلام صاحب الروضة في قتل تارك الوضوء، وكلام صاحب البيان فيمن صلى عرياناً مع القدرة على الس-ترة، أو صلى الفريضة قاعداً بلا ع-ذر، أنه يقتل، فأين هذا من قولكم أن من قال لا إله إلا الله كف عنه ولا يجوز قتاله بوجه من الوجوه؟

وقال الشيخ أحمد بن حجر الهيثمي في (التحفة) في حكم تارك الصلاة: إن ترك الصلاة جاحداً وجوبها كفر بالإجماع، أو تركها كسلاً مع اعتقاد وجوبها قُتِلَ لآية ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ وخبر: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ...» لأنهما شرطان، وفي الكف عن القتل والمقاتلة بالإسلام وإيتاء الزكاة، لأنَّ الزكاة يمكن الإمام أخذها، ولو بالمقاتلة ممن امتنعوا وقاتلوا، فكانت فيها على حقيقتها، بخلافها في الصلاة فإنه لا يمكن فعلها بالمقاتلة. وقال في باب صلاة الجماعة: وقيل: هي فرض للرجل، فيجب، بحيث يظهر بها الشعار، فإن امتنعوا كلهم أو بعضهم، كأهل محل من قرية كبيرة، ولم يظهر الشعار إلا بهم قوتلوا، يقاتلهم الإمام أو نائبه لإظهار هذه الشريعة الكبيرة. وقال في باب الأذان والإقامة:

سنة. وقيل: فرض كفاية، فيقاتل أهل بلد تركوهما، أو أحدهما، بحيث لم يظهر الشعار. وقال في باب صلاة العيدين: هي سنة. وقيل: فرض كفاية، فعليه يقاتل أهل بلد تركوها. انتهى كلامه في (التحفة)^(١).

فانظر إلى كلامه في قتل تارك الصلاة كسلاً، وتأمل قوله أن الآية والحديث شرطان في الكف عن القتل والمقاتلة الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن الإمام يأخذ الزكاة، ولو بالمقاتلة ممن امتنعوا وقاتلوا، وتأمل كلامه في باب صلاة الجماعة، وأنها تجب بحيث يظهر الشعار في ذلك المحل، حتى في البادية، وأنهم يقاتلون إذا امتنعوا، بل كلامه في الأذان والإقامة، وأن الأمام يقاتل على تركها، وعلى ترك أحدهما، على القول بأنهما فرض كفاية، وتأمل كلامه في الطائفة إذا امتنعوا من صلاة العيدين. فأين هذا من كلام من يقول أن أهل البلد والبوادي إذا قالوا لا إله إلا الله محمد رسول الله لم يجز قتالهم وإن لم يصلوا ولم يزكوا، فسبحان الله ما أعظم هذا الجهل!

وأما كلام الحنابلة فقال في (الإقناع) وشرحه في كتاب الصلاة: من جحد وجوبها كفر، فإن تركها تهاوئاً وتكاسلاً لا جحوداً يهدده، فإن أبى أن يصلحها حتى تضايق وقت الذي بعدها وجب قتله، لقوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا الشُّرُكَينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فمتى ترك الصلاة لم يأت بشرط التخلية، فيبقى على إباحة القتل، ولقوله ﷺ: «من ترك الصلاة عمداً متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ورسوله»^(٢) رواه أحمد عن مكحول، وهو مرسل جيد. ولا يُقتل حتى يُستتاب ثلاثة أيام، كالمترد نصاً، فإن تاب بفعلها وإلا قُتل بضرب عنقه، لما روي جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «بين الرجل وبين

(١) حاشية الجمل على شرح المنهاج (٢/ ١٢٩).

(٢) المسند (٦/ ٤٢١).

الكفر ترك الصلاة» رواه مسلم، وروى بريدة أن النبي ﷺ قال: «من تركها فقد كفر» رواه الخمسة، وصححه الترمذي^(١). انتهى.

وقال في باب الأذان والإقامة: فإن تركهما، أي الأذان والإقامة، أهل بلد قُوتلوا، أي قاتلهم الإمام أو نائبه، حتى يفعلوهما، لأنهما من أعلام الدين الظاهرة، فيقاتلوا على تركها كسلا كصلاة العيد^(٢).

وقال ﷺ، في باب صلاة الجماعة: وهي واجبة وجوب عين، فيقاتل تاركها، وإن أقامها غيره، لأن وجوبها على الأعيان بخلافه^(٣).

وقال في باب صلاة العيدين: وهي فرض كفاية، إن تركها أهل بلد يبلغون الأربعين، بلا عذر، قاتلهم الإمام، كالأذان، فإنه من شعائر الإسلام الظاهرة، وفي تركهما تهاون بالدين^(٤).

وقال في باب إخراج الزكاة: ومن منعها، أي الزكاة، بخلاً بها وتهاوناً، أُخِذَتْ منه قهراً، كذَيْنِ الْآدَمِيِّ، وإن غيب ماله أو كتمه، وأمكن أخذها، بأن كان في قبضة الإمام، أخذت من غير زيادة، وإن لم يكن أخذها استتيب ثلاثة أيام وجوباً، فإن تاب وأخرج كُفَّ عنه، وإلا قُتِلَ، لاتفاق الصحابة على قتال مانعها، وإن لم يمكن أخذها إلا بالقتال وجب على الإمام قتاله إن وضعها موضعها^(٥). انتهى كلامه في (الإقناع) وشرحه.

فتأمل كلامه فيمن ترك الصلاة كسلاً من غير جحود أنه يُستتاب فإن تاب وإلا

(١) كشف القناع (١/ ٢٢٨).

(٢) كشف القناع (١/ ٢٣٤).

(٣) كشف القناع (١/ ٤٥٤).

(٤) كشف القناع (٢/ ٥٠).

(٥) كشف القناع (٢/ ٢٥٦).

قُتِلَ كَافِرًا مَرْتَدًا، وتأمل كلامه في أهل البلدان إذا تركوا الأذان أو الإقامة أو صلاة العيد أنهم يقاتلون بمجرد ترك ذلك، فهذا كلام المالكية، وهذا كلام الشافعية، وهذا كلام الحنابلة، الكل منهم قد صرح بما ذكرناه، فإذا كانوا مصرحين بقتال من التزم شرائع الإسلام، إلا أنهم تركوا الأذان وتركوا صلاة الجماعة وتركوا صلاة العيد، فكيف بمن ترك الصلاة رأسًا، كالبوادي، ولا يُزَكُّون ولا يُصُومون، بل يُنْكِرُونَ الشرائع، ويُنْكِرُونَ البعث بعد الموت، هذا هو الغالب عليهم، إلا من شاء الله، وهم القليل، وإلا فأكثرهم ليس معهم من الإسلام إلا أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ومع هذا يجادل علماء مكة ويقولون إنهم مسلمون، وإن دماءهم وأموالهم حرام بحرمة الإسلام، وإن لم يصلوا ولم يزكوا ولم يصوموا، لأنهم يقولون (لا إله إلا الله)! وهل هذا إلا رد على الله حيث يقول: ﴿فَأَقْضُوا الصَّلَاةَ بِحُسْنِ الظَّاهِرِ وَمِنَ الْبَاطِنِ﴾ (١) وهذا هو الذي يقولون: يُخْلَى سَبِيلُهُمْ وإن لم يصلوا ولم يزكوا.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ» (٢) وهذا هو الذي يقولون: من قال (لا إله إلا الله) فقد عصموا دمه وأمواله وإن لم يصلوا ولم يزكوا! ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهذا كتاب الله وسنة رسوله.

وهذا إجماع الصحابة على قتال من ترك الصلاة أو منع الزكاة، قال صديق الأمة أبو بكر رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ. وفي رواية: عناقًا، لقاتلتهم على منعها.

وهذا إجماع العلماء، قال في شرح (الإقناع): أجمع العلماء على أن كل طائفة ممتنعة من شريعة من شرائع الإسلام، فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله وحتى لا تكون فتنة كالمحاربين وأولى^(١). انتهى.

قال أبو العباس، رحمه الله تعالى: القتال واجب حتى يكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب، فأى طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء والأموال والخمر والزنا والميسر، أو نكاح ذوات لمحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي لا يكفر الواحد يتركها بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تُقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء، وإنما اختلفوا الفقهاء في الطائفة الممتنعة إذا أصرت على ترك بعض السنن؛ كركعتي الفجر والأذان أو الإقامة، عند من لا يقول بوجوبها، ونحو ذلك من الشعائر، فهل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا، فأما الواجبات أو المحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف في القتال عليها^(٢). انتهى.

فتأمل كلام الحنابلة وتصريحه بأن من امتنع عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة، كالصلوات الخمس، أو الصيام، أو الزكاة، أو الحج، أو ترك المحرمات؛ كالزنا أو شرب الخمر أو المسكرات، أو غير ذلك، فإنه يجب قتال الطائفة عن ذلك حتى يكون الدين كله لله، ويلتزموا جميع شرائع الإسلام، وإن

(١) كشاف القناع (٦/ ١٦٧) نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠٣).

كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، ولمترمين بعض شرائع الإسلام، وأن ذلك مما اتفق عليه الفقهاء من سائر الطوائف فمن بعدهم، فأين هذا من قولكم أن من قال لا إله إلا الله فقد عصم ماله ودمه وإن ترك الفرائض وارتكب المحرمات؟ بل من تأمل سيرة النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده عرف أن قولكم هذا مصاد لما فعله النبي ﷺ وما فعله الخلفاء الراشدين من بعده، فيا سبحان الله أما علمتم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وهم يقولون (لا إله إلا الله) وسبى نساءهم واستحل دماءهم وأموالهم!

أما علمتم أن رسول الله ﷺ أراد أن يغزو بني المصطلق عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَائِزٌ يَنْبَغِي فَتَبَيَّنُوا﴾!

أما علمتم أن علي بن أبي طالب حرق الغالية مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله)!

أما علمتم أن الصحابة قاتلوا الخوارج بأمر نبيهم ﷺ مع أنه ﷺ أخبر أن الصحابة يحرقون صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وقال: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم»^(١)!

أما علمتم أن الصحابة قاتلوا بني حنيفة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، ويؤذنون ويصلون!

أما علمتم أن الصحابة قاتلوا بني يربوع لما منعوا الزكاة، مع أنهم مقرون بوجوبها، وكانوا قد جمعوا صدقاتهم، وأرادوا أن يعثوا بها إلى أبي بكر، فمنعهم مالك بن نويرة! وفي أمر هؤلاء عرضت الشبهة لعسر ﷺ، حتى جلاها الصديق أبو بكر وقال: والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ

(١) أخرجه: البخاري (٣٦١١).

لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق.

وقد تقدم ذلك مبسوطاً، وذكرنا لفظه في شرح مسلم في باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. أما علمتم أن رسول الله ﷺ بعث البراء إلى رجل تزوج امرأة أبيه، كما رواه الترمذي في سننه، حيث قال: (باب فيما جاء فيمن تزوج امرأة أبيه) حدثنا أبو سعيد الأشج أخبرنا حفص بن غياث عن أشعث عن عدي بن ثابت عن البراء قال: مر بي خالد أبو بردة، ومعه لواء، فقلت: إلى أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه برأسه^(١). حديث حسن غريب انتهى.

ولو تتبعنا الآيات والأحاديث والآثار وكلام العلماء، في قتال من قال لا إله إلا الله وترك بعض حقوقها، لطال الكلام جداً، فكيف بمن ترك الإسلام كله، وكذب به واستهزا على عمد، إلا أنهم يقولون (لا إله إلا الله) كهؤلاء البوادي! وفيما ذكرناه كفاية لمن طلب الإنصاف، فقد ذكرنا الأدلة من كلام الله، وكلام رسوله، وإجماع الصحابة، وإجماع العلماء بعدهم، فإن كان هذا الذي ذكرنا له معنى آخر ما فهمناه بينوه لنا، من كلام الله وكلام العلماء، ورحم الله امرأً نظر لنفسه وعرف أنه ملاق الله الذي عنده الجنة والنار.

وأما المسألة الثالثة: وهي مسألة البناء على القبور، فنقول ثبت في الصحيح والسنن عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن البناء على القبور وأمر بهدمه، كما رواه مسلم في صحيحه، حيث قال: حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي ليلى عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي: ألا

(١) جامع الترمذي (١٣٦٢) والحديث أخرجه البخاري (٢٣١٤) ومسلم (١٦٩٦).

أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته^(١).

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا حفص بن غياث عن أبي جريح عن ابن الزبير عن جابر رضي الله عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يبنى عليه، وأن يكتب عليه^(٢).

وقال أيضاً: حدثنا هارون الأيلي قال: حدثنا ابن وهب قال: حدثني عمر بن الحارث أن ثمامة بن شفي حدثه قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره يسوى، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها^(٣).

وقال الترمذي: باب (ما جاء في تسوية القبور) حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن حبيب عن أبي ثابت عن أبي وائل أن علياً رضي الله عنه، قال لأبي الهياج الأسدي: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته^(٤). قال: وفي الباب عن جابر.

وقال ابن ماجه: باب (ما جاء في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها والكتابة عليها) حدثنا أزهر بن مروان حدثنا عبد الرزاق عن أيوب عن أبي الزبير عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور^(٥).

(١) صحيح مسلم (٩٦٩).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٧) ومن طريقه أخرجه مسلم (٩٧٠).

(٣) صحيح مسلم (٩٦٨).

(٤) جامع الترمذي (١٠٤٩) والحديث أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٥) سنن ابن ماجه (١٥٦٢) وصححه الشيخ الألباني (صحيح ابن ماجه).

حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا حفص بن غياث عن أبي جريح عن سليمان بن موسى عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يكتب على القبر شيء^(١).

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي نبا وهب حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن القاسم بن مخيمرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ نهى أن يبنى على القبر^(٢).

قال النووي رحمه الله، في شرح مسلم: قال الشافعي في (الأم): رأيت الأئمة في مكة يأمرهم بهدم ما يبنى. ويؤيد الهدم قوله: ولا قبرا مشرفا إلا سويته^(٣).

وقال الأذري رحمه الله، تعالى في (قوت المحتاج): ثبت في صحيح مسلم النهي عن التخصيص والبناء، وفي الترمذي وغيره النهي عن الكتابة، قال القاضي: ولا يجوز أن يبنى عليها قباب ولا غيرها، والوصية عليها باطلة. قال الأذري: ولا يبعد الجزم بالتحريم في ملكه وغيره، من غير حاجة، على من علم النهي، بل هو القياس الحق، والوجه في البناء على القبور والمباهاة ومضاهاة الجبابرة والكفار، والتحريم يثبت بدون ذلك، وأما بطلان الوصية بالبناء على القباب وغيرها من الأبنية العظيمة وإنفاق الأموال الكثيرة عليه، فلا ريب في تحريمه، والعجب كل العجب ممن يلزم بذلك الورثة من حكام العصر، ويعمل الوصية بذلك. انتهى كلام الأذري، رحمه الله تعالى.

ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما أنتم عليه من فعلكم مع قبر أبي طالب والمحجوب وغيرهما، وجد أحدهما مضادا للآخر مناقضا له، لا يجتمعان أبدا، فنهى

(١) سنن ابن ماجه (١٥٦٣) وصححه الشيخ الألباني (صحيح الجامع ٦٨٤٣).

(٢) سنن ابن ماجه (١٥٦٤) وصححه الشيخ الألباني (تلخيص أحكام الجنائز ١ / ٨٥).

(٣) شرح مسلم للنووي (٧ / ٢٧).

رسول الله ﷺ عن البناء على القبور، كما تقدم ذكره، وأنتم تبنون عليها القباب العظيمة، والذي رأيته في المعلاة أكثر من عشرين قبة نهى رسول الله ﷺ أن يزداد عليها غير ترابها، وأنتم تزيدون عليها غير التراب التابوت الذي عليه لباس الجوخ، ومن فوق ذلك القبة العظيمة المبنية بالأحجار والجص!

وقد روى أبو داود من حديث جابر أن رسول الله ﷺ نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزداد عليه.

ونهى رسول الله ﷺ عن الكتابة عليها، كما تقدم من صحيح مسلم. وقال أبو عيسى الترمذي: (باب ما جاء في التجصيص والكتابة عليها) حدثنا عبد الرحمن بن الأسود أخبرنا محمد بن ربيعة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها وأن توطأ. هذا حديث حسن صحيح.

وهذه القبور عندكم مكتوب عليها القرآن والأشعار.

وقال أبو داود: (باب البناء على القبر) حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرني ابن جريج قال: حدثني أبو الزبير أنه سمع جابرا يقول: سمعت النبي ﷺ نهى أن يتعد على القبر، وأن يجصص، وأن يبنى عليه. انتهى. ولعن رسول الله ﷺ من أسرجها، والذي رأيته ليلة دخولنا مكة، شرفها الله تعالى، في المقبرة أكثر من مائة قنديل، هذا مع علمكم أن رسول الله ﷺ لعن فاعله، فقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج. روى هذا أهل السنن^(١).

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦) والترمذي (٣٢٠) والنسائي (٢٠٤٣) والإمام أحمد (١/ ٢٣٧) وضعفه الشيخ الألباني (ضعيف الجامع ٤٦٩١).

وأعظم من هذا كله وأشدّ تحريماً الشرك الذي يفعل عندها، ودعوة القبور، وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، لكن تقولون لنا: إن هذا لا يفعل عندها، وليس عندنا أحد يدعوها ويسألها، ونقول: اللهم اجعل ما ذكروا حقاً وصدقاً، ونسأل الله أن يظهر حرمة من الشرك، ولا ريب أن دعاء الموتى وسؤالهم جلب الفوائد وكشف الشدائد، أنه من الشرك الأكبر الذي كفر الله به المشركين، كما تقدم بيانه في المسألة الأولى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَمْ دَعْوَةُ الْخَلْقِ﴾ إلى آخره.

وقد روى الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «الدعاء مخ العبادة» وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

قال العلقمي في (شرح الجامع الصغير): حديث الدعاء مخ العبادة، قال شيخنا في (النهاية): مخ الشيء خالصه، وإنما كان مخها لأمرين: أحدهما: أنه امتثال لأمر الله تعالى، حيث قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فهو محض العبادة وخالصها.

والثاني: إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع عمله عما سواه ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة، ولأن الغرض من العبادة هو الثواب المطلوب عليها، وهذا هو المطلوب من الدعاء^(١).

(١) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٦٤١).

وقوله: «الدعاء هو العبادة» قال شيخنا: قال الطيالسي: أتى بالخبر المعروف باللام ليدل على الحصر، وأن العبادة ليست غير الدعاء. وقال شيخنا: قال البيضاوي: لما حكم أن الدعاء هو العبادة الحقيقية، التي تستأهل أن تسمى عبادة، من حيث إن فاعلها مقبل على الله، معرض عن سواه، ولا يرجو ولا يخاف إلا منه، واستدل عليه بالآية، يعني قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فإنها تدل على أمر مأمور به، إذا أتى به المكلف قبل منه لا محالة، وترتب منه المقصود ترتب الجزاء على الشرط، والسبب على المسبب، وما كان كذلك كان أتم العبادة وأكملها. انتهى كلام العلقمي، رحمه الله تعالى.

وليكن هذا آخر الكلام على هذه المسائل الثلاث، فإن وافقتمونا على أن هذا هو الحق فهو المطلوب، وإن زعمتم أن الحق خلافه فأجيبونا بالكتاب والسنة، فإنهما بين الناس فيما تنازعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقد ذكرنا لكم الأدلة من الكتاب والسنة وكلام الأئمة، فإذا أجبت على هذه المسائل الثلاث أجبتكم عن بقية المسائل، إن شاء الله تعالى، ولنختم الكلام بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هَدَمَتْ صَوْمُكُمْ وَبِيعَ صَلَوَاتُكُمْ وَمَنْحَدٌ يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَكْبَرُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ والحمد لله أولاً وآخراً كما يحب ربنا ويرضى، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

ثم دخلت السنة الثانية عشرة بعد المائتين والألف.

وفيها أظهر الشريف غالب عثمان المضايقي مع كثير من العساكر والجيش، وذوي السفاهة والطيش، وقصد عربان الإسلام لكون جرودهم^(١) عند سعود،

(١) الجرود: الطوائف الكبيرة من القوم المحاربين.

ولم يكن عند الأهل كثير من أهل الإقدام، بل كانوا غزاة حماة تلك الأقوام، فظن أنه يحصل منهم على مرام، فأسرع الوصول إليهم، وقدم وهم على ماء عقيلان آل روق من قحطان^(١)، وغيرهم من سائر العربان، وكبيرهم مسفر بن نقيحان، فأغارت عليهم فرسان الشريف، بقوة تُرعب وتُخيف، فثبت لهم أولئك العرب، ولم يكن أحد منهم عزم على الهرب، وصبروا على الجلاد، خوفاً على الأموال والأولاد، حتى أعانهم الرحمن، فانهزم ذوو الطليان، وتبعهم أولئك البدوان، وقتلوا منهم فوق الخمسين، ونار^(٢) الباقي مدبرين، ومات كثير منهم من الظمأ متفرقين، وأخذوا كثيراً من السلاح والركاب، وخسر جميع الأحزاب.

هذا، ولنرجع إلى تمام الحديث عن ثويني وإكماله، وما لقي في طريقه من سوء أعماله، وذلك أن الله تعالى الولي الحميد، المبدئ المعيد، المنتقم من كل جبار عتيد، لما أراد فيه إنفاذ الوعيد، وأن يولي المسلمين من فضله المزيد، ويجري لهم عادته من النصر والتأييد، ويخذل كل رائم لهم الهوان ومريد، من كل باغ وشيطان مريد، أقبل بقطع المفاوز، ويعقب وراءه كل مهمة ويجاوز، ويروم أنه بالحسا فاتر، وأنه لولايتها مناهز، وعن مصادمة المسلمين في بلدانهم بعد ذلك غير عاجز، يعلل بذلك نفسه إذا سجي الدجى، ويحقق له الغرور ذلك الرجا، يولي في تلك المسامرة ويعزل، ويحكم بما شاء على من شاء ويفصل، ولم يدر أن الله تعالى له بمرصد، وأن القضاء له بمقعد، فلم يطل له على تلك الأمواه مقام، بل أسرع في المسير والإقدام، ولم يكن له عن أرض الشباك^(٣)

(١) قال ابن بشر (١ / ١١٠): «دون بيثة».

(٢) نار: هرب.

(٣) قال ابن بشر (١ / ١٠٨): «الماء المعروف في ديرة بني خالد». وهو بالقرب من بلدة

«ثاج»، وثاج تقع غرب مدينة الجبيل بحوالي ٨٠ كم.

إحجام، لما قضي عليه بشرب كنوس الحِمام، وأن الله تعالى بحكمته التي بها
للسموات والأرض القيام، وحسن لمن فيهن بها الانتظام، وقدرته التي قهرت
جميع الأنام، وإرادته التي تم بها الوجود واستقام، اختار أن يبين للناس ما فيه
آية عظيمة، يستدعي بها إذعانا لوحداية الله ذوو العقول السليمة، وسالكو
المناهج القديمة المستقيمة، ولكن الله تعالى إذا طبع على القلوب بطابع
الحجاب، وسلب الإدراك والمعرفة من الأبواب، فلا تحس بما يصدر من
العجاب، وتتمادى فيما هي فيه من الزيف والارتباب.

فلما نزل ثوبي في رياض أراضي الشباك، مدت له من الحبال شباك،
ونصب له من أسباب انجم أشراك، حتى تخدم نار الغواية والإشراك، وترجع
خاسئة على أعقابها أولئك السلاك، فناداه منادي القضاء المجيد، إلى أين
تذهب وتريد، وقد حان هلاكك غير بعيد، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ وَمَا
يُغَيِّدُ﴾، ﴿وَيَأْتِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تُغَيِّدُ﴾ فلم تمض له إلا أيام
قليلة، فصاح به أخرى وأسمعه قبيله، وناداه ولكن لا يسمع ولا يجيب، ﴿وَلَوْ
تَرَوُا إِذْ فَرَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَعِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، وجعل الله تعالى منية ذلك
الضرغام، الذي لا يستطيع بأسه ولا يرام، على يد أذل وأضعف الأنام، وذلك
أن الأسرار الغيبية، والمصالح التي نيط بها نظام البرية، وجميع العوالم العلوية
والسلفية، لا تدرکها جياذ الأفهام والأذهان، بل تحجم دون ذلك الميدان، ولا
يكون لها فيه جولان، ويقصُرُ باعها عن ذلك ولو أطلق لها عنان، فترجع حينئذ
ألباب أهل العرفان، وصفوة أهل التوحيد والإيمان، حين تشاهد تلك الحكم
التي ظهرت في غاية البيان، وأبرزها من هو كل يوم في شأن، في وقتها المقدر
لها بحسبان، إلى زيادة الإقرار والإذعان، لمكوّن الأكوان ومقدر الآجال
والأزمان، ومحتم الفناء على كل إنسان وملك وجان، بمصداق، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

ومما يفتح هذا الباب لذوي البصائر والألباب، ويحث على التوحيد وإخلاص الدعوة لرب الأرباب، هذا البرهان الذي شاهده أولو الأبصار، والحكم العادل الصادر من قاصم كل جبار، المبرز في مساق النصرة والانتصار، صوناً لزال الشريعة عن الأكدار، وقدر زعاف الأشرار، ليستيقن أهل الدين بعد التتبع والاعتبار، ويزيد أهل الإيمان إيماناً بذلك الاستبصار، فلا تبدر العقول والأفكار، إلى امتطاء كاهل الإنكار، ولا تدخل في ضنك القنوط فتزيغ منها الأبصار، فما في الغيب من خفي الأسرار، أجل من أن تحيط به البصائر المستضيئة بالأنوار، فتبارك الذي أقصى من شاء من العباد، ونحاه إلى يبداء الإبعاد، وقسم له الطرد والحرمان، وأضله على علم لإرادته به الهوان، وسبحان الذي قرب أوليائه إلى جنبه، ومنح أصفياه لذيذ خطابه.

وحاصل بيان هذه المنقبة، وتهيئة أسبابها الموجبة، وإشراق أنوار هذه الموهبة، أن ثويني لما ظهر للحراية، وكان منه إليها تلبية وإجابة، وفتح من الشر باب، وارتد من البدوان كثير من العربان، كما قدمناه عن آل ظفير، وكلُّ أقبل إلى الفتنة يسير، جاء بنو خالد الذين في الشمال، وأسرعوا إلى براك بن عن المحسن ومن معه من قومهم وأعلموهم بالحال، وخوفوهم من ثويني وما أتى من الكيد الذي لم يسبق له مثال، وأراد براك الامتناع، فهددوه بالأسر والاعتقال، فأشمل بعد ذلك هو ومن معه وكانوا إلى لقاء ثويني في استقبال، وهاجر من قوم براك جماعة كثيرة وقصدوا الدرعية، بعد صدور تلك القضية، ثم بعد ذلك خرجوا مع أهل الجهاد، وكان طعيس ممن هاجر وأبى الارتداد، وخرج للغزو مع تلك الأمداد، وكان يكثر الدعاء لمولاه والسؤال، ويُدِيم التضرع والابتهال، ويتمنى ذلك في كل حال، ويتفوه بذلك بين الرجال، حتى يظن سامعه أن به وسواساً وخبال، ويستبعد أن يكون للأسود والأشبال، إلى جمى ثويني وصول واتصال،

أو تدرك منه مرأماً أو منالاً، فضلاً عن مثل هذا المهان الذي لا يلقى إليه بال،
يجسر على هتك تلك الأبهة العديمة المثال، ووطء بساط تلك الحضرة التي
دون رحبتها خطوب وأهوال، فلا يرام الوقوف عندها ولا تنال.

فأراد الله الكبير المتعال، أنه يغزو مع متاع أبا رجلين، وهم أهل أربع ركاب
يريدون اختلاس بعض الآبال، فوافقتهم أناس من آل ظفیر ذوي الضلال،
فأخذوهم وبقي طعيس عند أولئك الجنود، وأخذت نفسه تُحدثه بتلك الآمال،
ويُصمم على ذلك ويدعو بتيسيره في البكور والآصال، فاستعد للإقدام وباع
نفسه وأبرم الاحتیال، وأخذ حربته وقد قوى الله عزيمته، فجاء وهو قاعد مع
بعض الرجال، فأنفذ فيه الحربة، وكان منه له اغتيال، فلما أحس بالطعنة جرد
صارمه فضرب به طعيساً، وقام عليه مع غيره رجال، فقتل بعد ذلك في الحال،
ولم يكن له ساعة إمهال، عليه رحمة الله تعالى، وبقي ثويني ذلك اليوم إلى
العصر، ثم كان له إلى القبر انتقال، فضجت تلك الأمم مما حل بهم ودهم،
وذعرت وارتجت، وماجت قلوبها بعدما رعبت وعجت، وحاق بها مُدْلَهُمُ
الخطب، وعراها وقراها الزمان ما أوهى قراها، وضاق عليها فسيح الفجاج
والرحاب، وأحاط بهم رجز من العذاب، وانهزم منهم براك ونار، وأرسل
للمسلمين بالأخبار، وتبعه أناس من قومه، وجد في الهروب من يومه، ولم
يثبت لهم قوة ولا قلوب ولا قرار، بعدما صدر من براك وجماعته ذلك الفرار،
وحاول قوم ثويني وناصر أخوه في الثبات واجتماع الحال، فلم يحصل له ما
يرجوه، وأبت تلك العربان وندت أسلاف البدوان^(١)، وشمرت في الانهزام
والذهاب جميع طوائف الأعراب، وشتت الله شمل أولئك الأحزاب، واستمر

كل واحد منهم في الهزيمة لا يلوي أحد على أحد ولا يجيب، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي مَكْرٍ مُّبِينٍ﴾.

ولما تحقق المسلمون ما صدر وجرى، وتبين لهم صدق ما نزل بهم وعرا، بادر حسن بن مشاري وجميع أهل الإسلام، في طلب أولئك الجموع العظام، وشتموا في أعقاب أولئك الأقوام، يأخذون ويقتلون، والأعداء منهزمون ولا يلوون، وتركوا جميع ما عندهم من الغنم، وما ثقل من الطعام والنعم، ولم يكن لهم على جرّ المدافع الكبار، حيلة ولا وسيلة ولا اقتدار، فأخذ المسلمون جميع المدافع ولم يكن دونها مدافع، وغنموا من جميع الأموال ما لا يخطر على البال، واستمروا في آثارهم على ذلك المنوال، إلى قريب الجهراء يجمعون الأموال ويقتلون الرجال، فقتل منهم في الصبيحة^(١) جماعات من تلك البرية.

ورجع المسلمون بعد نيل الآمال في أنعم عيش وبال، وأقبل سعود، بلغه الله المقصود، في حدود ظهور أنوار تلك الآية، وقد رفع طالع الإقبال على رأسه للنصر راية، فأحاطت به من جوانبه الألفاظ والتوفيق والعناية، وحق السعد والحفظ والرعاية، ونوى أن يغزو أولئك الجنود، ويبذل فيهم المجهود، وعزم على ذلك وصمم، وأجمع عليه رأيه وتقدم، وقال: لا بد في أرضهم من الوطأة والمجال، حتى يكون ذلك أردع وأقمع لذوي الضلال. فانتدب إليه من كبار المسلمين رجال، وقالوا: هذا صعب المثال، والركاب والجياد لا تستطيع السير بحال، وكفى ما وقع بهم من القتل والإذلال، وما نالوا من الشر والوبال، وعسى أن يتم لك المراد على الإمهال. فجنح إلى قولهم وراض، وكان له عن عزمه إعراض.

وأقام سعود حرسه الله في تلك الأرض، يجمع الغنائم ويأخذ منها الخمس
الفرص، ويقسم الباقي على المجاهدين، حتى وزعت بينهم أجمعين، وكان
جميع ما حصل من الإبل ثلاثة آلاف، من غير مبالغة ولا إسراف، والذي جمع
من الغنم فوق مائة ألف، وأكثرها عاجلة الهلاك والحتف، ولم يدرك من الخيل
إلا قليلاً، ونال أهل الإسلام عزاً جليلاً، ونصراً مؤيداً جميلاً، وثواباً عظيماً
وأجرًا جزيلاً، ورجع حزب البغي ذليلاً، وقد نكله الله، ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ
تَنكِيلًا﴾، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وأقام سعود على تلك الأمواه أيام، وأطال بها المقام، ثم بعد ذلك سار إلى
الحسا ونزل عن المبرز شمالاً، وقد انشرح صدره ونعم بالآ، ومكث يدبر شئوناً
وأحوالاً، ويعاتب مَنْ تَبَيَّنَ فيه رعب وأبدى خفة عند تلك الأحزاب واعتجالاتها،
ويؤنب من نار^(١) إلى البحر ويويخه مقالاً، ويحثهم على الاجتهاد والاجتماع،
والمساعدة في الجهاد والدفاع، عند نزول طوارق الفتن، وحلول عوارض
المحن، حتى ينالوا بذلك الدرجة العليا في الأخرى والدنيا، ويحوزوا أسمى
المراتب السنية، ويفوزوا بأسمى المطالب السمية.

واجتهد بعض أهل الحسا على بعض، وصار لهم في السعاية عنده إسراع
وركض، ولم يقفوا عند حدود الله تعالى بالترك والرفض، وراموا بذلك إليه
تقريباً ووصولاً، ومنزلة وتمكيناً لديه وحصولاً، وجمعوا له في ذلك الميدان،
من قبيح الزور والبهتان، جملة وفصولاً، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ
وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، فدأبوا في السعاية لديه بالنمائم،
والكل من أهلها للمحظوظ الدنيوية دائم، ولم يخشوا عاقبة المآثم، ومن هو

(١) نار: هرب.

بخفي حالهم عالم، وكاد أن يكون سوقها قائم، لولا من الله عليه بلطفه فزجر أهل تلك المظالم، وأصبح لمناهجها يزيل عنها تلك المعالم، ولجميع موادها حاسم، وينشد قول شاعر عالم^(١):

كذبت مناكم صرحوا أو هجموا الدين أمتن والسجية أكرم
وأردتمو تضيق صدر لم يضق والسمر في ثغر الصدور تحطم
وزحفتمو بمحالكم محرب ما زال يثبت للمجال فيهزم
أني رجوتم غدر من جريتمو منه الوفاء وجور من لا يظلم

ونباهم عن تعاطي تلك الخصلة القبيحة الذميمة، والكبيرة التي لا يرضاه، فضلاً عن كونه يتعاطاها، من له مسكة من الدين أو شيمة، فيا لها من كبيرة في الدين عظيمة، لو لم يكن فيها من الإغلاظ والإعظام، إلا قوله عليه الصلاة والسلام على سبيل التهديد والتحذير والإعلام، لكافة ذوي الدين والإسلام من سائر الآنام: «لا يشم عَرَفَ الجنة نَمَام»^(٢)، وقول الله تعالى في الذكر الحكيم: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاظٍ مَّهِينٍ﴾ هَذَا مَثَلٌ بَنِيهِمْ، لكفى عن اقترافها وسرعة الهجوم عليها والإقدام، وقد جاء فيها من الوعيد ما لبس عليه مزيد من صحيح قول الأنام، مما لا تحيط به الأفهام، ولا تحويه الإرقام، ولكل من سرده الأقالام، ولا يليق باستقصائه هذا المقام، قال المصنف مهنيًا للأمير سعود، ولأبيه عبد العزيز، في قدوم سعود الحسا، بعد قتل ثويني:

تلاًلاً نور الحق وانصدع الفجر وديجور ليل الشرك مزقه الظهر
وشمس الأمانى أشرقت في سعودها ولاح بأفق السعد أنجمه الزهر

(١) ابن زيدون، في ديوانه (ص ٣١١ - ٣١٢).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرج البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥) من حديث خُذَيْقَةُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ».

وجلى ظلام الخطب بيض صنائع وأسفر وجه الوقت بعد تعيس
 فأيامه بالأنس بيض شوارق وهبت رياح النصر والفوز والهنا
 وروح روح الأنس كل موحد كأن به من نشأة اللطف نشوة
 وغنت بروضات السرور بلابل فأصل التهاني دانيات قطوفه
 ونادى متادي الحق بالخلق معلنا فما قلب ذي ظهر بفيضا أضله
 بأفراح منا بالبشير وقوله بأذيق العدا كأس الردى فسمما الهدى
 وفلت جنود المعتدين ومزقت فمن حامد منا ومثني وساجد
 لقد أقبلوا والأرض ترجف منهمو وساروا بأسباب المكائد والردى
 وقد زاغت الأبصار واحتنتك الفضأ وقد زابت الأبصار واحتنتك الفضأ
 فأبوا وقد خابوا وما أدركو المني جنود فساد وابستداع وفتنة
 يريدون أن يطفوا مصابيح نوره أرى الله أن يسمو الضلال على الهدى
 وتعلو البواغي والطواغي وحزبها

كأن سناها في غياهبه بدر وحالت بصنع الله أحواله الكدر
 تضىء كما أضوى بديجوره فجر فحق لنا منها البشائر والبشر
 ففي قلبه سكر وما مسه خمر ترنج منها العطف واستحكم السكر
 يرجعن ألحانا يهش لها الصخر وفرغ المني غصن وأوراقه خضر
 ألا فليحل الحمد وليعظم الشكر وفاجأه عند التوى ذلك الظهر
 أرى الفتح والإقبال والعز والنصر وشلت يمين الشرك وانقصم الظهر
 وزال ظلام الشرك وانحق النكر لمولاه شكرا بعدما انكشف الأمر
 وقد أدبروا بقفوههم الذل والصغر إلينا فما أغناهم الكيد والجتر
 علينا كأن الأرض مما بنا شبر وبادروا وما سادوا وعقباهم الخسر
 بقودهم الإضلال والبغي والفجر ويخفوا قويمًا لا يرام له ستر
 ويظمس أعلام الخيفية الكفر على عصابة في الدين شرعهم الذكر

وينسخ آيات الكتاب وحكمه
لقد فل غضب الشرك بل ثل عرشه
وحالت مغانيه وأثوت ربوعه
كأن لم تكن فيه الملاهي مرثة
نعمي الشرك أحزاب الضلالة بعدما
وقامت نواصي الرفض يندبن أهله
رمى الله أحزاب الضلال كما رمى
أديرت عليهم في الشباك رحي الردى
وحاق بهم ما أضمرنا من طوية
فمنهم مئات بالصبيحية اغتدت
مرايع فيها للطيطور مراتع
إذا مرها المجتاز يلقي موائدا
رب رب طعيس لا طعيس تقشعت
لقد حق وعد الله واعتز جنده
نولى إله الخلق نصرة دينه
أرانا بهذا البطش ذو العرش آية
رأى جزعاً منا فأبدى انتقامه
على أن مولانا أبان بصنعه
عيون القضا ليست نياما وسهمه
وحسن الرجا للعبد أقوى وسيلة
غنى رجال أن ينالوا مناله
فهم في انتظار النحب يرجون فوزهم
لحون الغنا والعود والطبل والزمر
وسل حسام الدين واندرس الشر
وزالت مبانيه فساحاته صفر
ولم يجتمع للهو في ساحة سمر
تغشاهم الإذلال والعار والوزر
بحرقة قلب فيه من فقدهم جمر
ذوي الفيل إذ أعياء عن مكة الحصر
ودارت كئوس للمنايا لهم خمر
وخانهم المغوي وخانهم المكر
تراوحها الأشبال والذئب والنمر
وترقص فيها النسر والحز والصقر
وليس بها إلا كماء العدا جزر
سحائب رجز بالمنايا لها شر
فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر
فأعلى منار الحق وانشرح الصدر
وذكرى لنا في ضمنها يظهر البشر
وذكرنا للوعد إذ جاءنا الصبر
لنا أن جند الحق لم يدره الحجر
مصيب فما يغني عن القدر الحذر
إلى قصده والعسر يتبعه اليسر
وقد عاهدوا بالبيع إن سامهم سعر
وقد سمحوا بالعمر إن حارب الغمر

فمن مبلغ عني العداة رسالة
أتيتم إلينا راثمين قطيعة
ورتم ذرا السمحا وجبّ سنامها
وناويتم الإسلام والله دونه
نقاستم الأحساء قبل مناهها
أمانّي من أردى العباد بمكره
نعستم فهجرّ دونها حُطة البلا
ومن دونها يومٌ به يعرف الفنا
بها الأسل كالآجام والأسد حولها
أنبيوا سراعًا قبل أن يهتك الغطا
أفبقوا فأنتم في دجى غمرة الردى
ألم ينهكم عن مهيع الغي ما جرى
ألم يأن أن تأووا إلى معقل الهدى
تبين نهج الحق والرشد للورى
وقامت على الدين القيم شواهد
فآياته محفوظة عن معارض
يشيعها التسديد حيث تيممت
تشعشع من خمسين عامًا ضياؤه
سقى قبر من أحياه شؤبوب رحمة
فقد جاءنا يدعو إلى الدين بعدما
فجاده الأبحار فيما أتى به
ونوظر حتى ألزم الخصم عجزه
أنبيوا فما يأويكم السهل والوعر
فحل بكم بأس وعاجلكم حذر
وهدم دعائمات عليها رسا قصر
وأحزابه والسمر والبيض والبر
فللروم شطر والبوادي لهم شطر
وما وعده إلا الأباطيل والغدر
ودون حماها يُقطع الهام والنحر
وتروى المواضي والمثقفة السمر
مثال الرواسي والنجيع به بحر
ويكشف عن وجه المخدرة الخدر
وأبصاركم عمي وفي سمعكم وقر
ففيه لذي الألباب عن غيهم زجر
فقد جاءت الآيات واستبج النذر
فليس لمن ينحو سبيل الردى عذر
يقصر عن تعددها الضبط والحصر
وراياته لا يُستطاع لها كسر
ويتبعها التأييد والنصر والقهر
ولم تبق أرضٌ ليس فيها له ذكر
وعم سحاب العفو من ضمه القبر
عفا رسمه والأرض من نوره قفر
من الحق والبرهان يكشفه السّر
وصار إليه الفلج والورد والصد

فعودي بغيا واهتضائا ونصرة
 وهوا بما لم يدركوا من وقية
 نفته العدا لما جفته أقارب
 فجاهد حتى أطلع الله بדרه
 فهم أنجم للمهتدين وصارم
 لقد أحرزوا خُصَلَ الفخار وأبرزوا
 فأضحت بهجر شرعة الحق غضة
 بهدي إمام المسلمين ومهده
 نهن بهذا الفتح يا بن محمد
 هنيئا لك الفتح الذي فتحت له السم
 هنيئا لك الفتح الذي طأطأت له
 فهذا هو الفتح الذي بضياته
 وهذا هو الفتح الذي جل قدره
 فله فتح طبق الأرض صيته
 بك الدين يا عبد العزيز مؤيد
 فراع جناب الحق في الخلق وارعهم
 وأحسن إليهم واعف عنهم ولا تطع
 يسارع في سخط الإله تقربا
 ولا تصطفني للنصح إلا مجربا
 فلا بد من حشر ونشر وموقف
 وبالعدل والإحسان والعفو والتقا
 أثابك مولاك الكرامة في الجزا
 لملة آباء عليها مضى العمر
 فما ناله مما أرادوا به صُر
 فأواه بل ساواه من خصه البر
 بآل سعود حتى شد له الأزر
 شباه بهام المعتدين له طر
 من الدين مطوئا فلاح له نشر
 وصوّح نبت الشرك وانقطع البذر
 أضاءت نواحيها فأرجأها سفر
 فقد تم للدين القوم به فخر
 موات والفردوس وافتخرت هجر
 جباه الملوك الصيد واتضع الكبر
 تهلل وجه الدهر وابتمس الثغر
 فليس بمُخص فضلُه النظم والنثر
 وهزت به البلدان وارتعدت مصر
 يعمره بالبيض أبناؤك الغر
 يعدل وإحسان لكي يعظم الأجر
 بهم قول واش جل مقصوده النثر
 إليك لكي يدن فينمو له الوفر
 تقيًا نقيًا ليس في قلبه وحر
 مهول به التقوى تكون هي الذخر
 ينال الرضا والملك يبقى له الخير
 وجادك من هطال سحب الرضا قطر

سعاد بهذا الفتح هنتت فليكن
 وإسبال ذيل العدل والصفح والرضا
 أساء الأعادي ظنهم فيك فاعتدوا
 فظنوا سفاها أن حزمك رازم
 وأنتك وإن بعد إذلاجك السرى
 وقد عرفوا منك الشهامة والدَّما
 فأنساهم الشيطان ما يعرفونه
 وما جحدوا ما استبقنوا منك في اللقا
 وما غرهم إلا تأنيك عنهمو
 فبُرد الوغى ما لم يُجد نسجه الحِجَا
 وأصل الوغى التدبير والرأي ساقها
 فلبثك عن صدم الأعادي خديعة
 وتا الله ما اخترت المقام على اللقا
 وما أنت إلا مسعر الحرب إن خبت
 بربك أركان الشريعة قد رست
 لئن زادت الأحما بنصرك بهجة
 وإن لم تكن زاحفتهم بعد رجنتهم
 وقابلهم بأس الإله ورجزه
 فولّوا سراعا مدبرين وخلفهم
 عصاة توحيد إذا اشتبك القنا
 تخوض عباب النقع والموت ناقع
 أدام لهم ري بك النصر والهناء

بقباله منك التجاوز والغفر
 لِحَانٍ فَإِن العفو يسمو به الحر
 وما علموا ما ينتج الرأي والفكر
 وعزمك معقول اليمين به حصر
 وحدّك من بعد المضاء به دثر
 ومن بأسك المشهور عندهم الخبر
 ليقطع منهم حيث أغواهم الدبر
 ولكنهم من شؤم أعمالهم غُرّوا
 ولم يفهموا أن الأناة لها سر
 ويحكمه التدبير قبل اللقاء طمر
 وأغصانها صبر وأثمارها نصر
 ومكر فما يلقى عليك به سخر
 لجُبن ولكن المراد بهم فقر
 وخواض حاميتها إذا حمي الدر
 وقوم منها ما تخلله الصعر
 فقد زانت الدنيا بوجهك والعصر
 فقد زاحفت عنك المهابة والذعر
 وصاح بهم صوت القضاء ألا فِرّوا
 ليوث شرى من طبعها الفتك والأمر
 وضاق مجال الخيل وانتفخ السحر
 كأن حياض الموت عندهم نهر
 كما للعدا منك النكاية والقسر

وأولاك مجذاً يحسر الطرف دونه ويقصر عن إدراكه البدو والحضر
ولا زلت في الدنيا عزيز مؤيداً لك النقض والإبرام والنهي والأمر
ودونك من خرد القريض خريدة يحلّ سناها أن يماثله الدرّ
نحتك وخمر التبه يهصر عطفها عسى أن يرى حسن القبول لها مهر
وأزكى صلاة يبهر البدر حسنها على خير مبعوث به رفع الإصر
كذا الآل والأصحاب ما جادت الصبا على الروض مطولاً فمطرها الزهر
وفيهما غزا ربيع بأهل الوادي، ومن يرى فجاج تلك الأرض من سائر
البوادي، فسار حتى نزل في أرض بيضة، فأعد عند الجنينة والشقيقة، وكانتا
للمسلمين هناك جنده وجيشه، فاستمر يغير على أهل تلك البلد والقرايا،
وينالون منها عظم البلايا، ويصبحهم بالغارة كل ساعة وحين، فليسوا من
مقاسات القتال بمستريحين، فأقاموا على تلك الأحوال مدة، يقاسون منه تضيقاً
وشدة، فلم يحسن لهم تلك الأيام، في بلدانهم سكنى ولا مقام، ولا يهناون
بطعام، ولا يجدون راحة منام، حتى أقبلوا على القسر منهم والإرغام، إلى
منهج الاستسلام، فطلبوا الدخول فيه، ولا يجوز لأحد أن يبعد من أراد ذلك
وينفيه، فدخل الإسلام كثير من أولئك الأنام، وعاهد على ذلك كثير من القرى،
حتى جرى عليهم من الردة ما جرى.

وسبب ذلك أن غالب الشريف لما تحقق عنده ما جرى على أهل بيضة، تكدر
حاله وتنغص عليه المعيشة، فدبر فكرته وحيلته، وحقق قصده ووسيلته، فأظهر
جيشاً كثيراً وجماً غفيراً، واستمد سائر البوادي، فكل بالإسراع أجاب ذلك
المنادي، فرأس فيهم الشريف فهيد، فخرج بأعظم الكيد، وسار حتى نزل على
الجنينة، وكانت للإسلام سابقة، وتلك القرى بعدها لاحقة، فدعاهم إلى النزول
بالأمان، أو قطع تلك البواسق الحسان، فأجابوه لذلك من غير توان، وظهروا

عليه من ذلك المكان، فأوقع بهم الخزي والهوان، وقتل منهم كثيرًا من أهلها ممن يدعي الدين، وينتسب للموحدين، وأسر أناسًا كثيرة ونهب البلاد، وعابنوا أقبح الفساد.

ثم بعد مضي ذلك وانقضائه، وصدور قدر الله وقضائه، على أولئك العباد، وما نالوا من الذل والإنكاد، سار إلى رنيه عاجلاً، وكان لنيل المأرب منها آملاً، فأناخ على النخيل والحلل، ورام أن يقطعها على مهل، وظن أهلها إليه لا يخرجون، وإذا رأوها يقطعها يزعجون، ويحنون عليها حنين الثكلى، وكفى بذلك تنكيلاً ونكلاً، ألا يدركوا منها أكلاً، فحين نزل قريباً منها خرجوا إليه سراعاً، فتحوه عنها وطال بينهم مجال القتال، وصبر على البأس أولئك الرجال، وطاعنوا دون الحلل والنخيل، وليس عندهم سوى الرجا تأميل، فأمدهم بالنصر والظفر، من علم حالهم وأعان فرسانهم ورجالهم، وكتب على أعدائهم خذلانهم وإذلالهم، بعدما سول لهم الشيطان وأملى لهم، فقتلوا منهم مائة رجل، ثم انهزم فهيذ ومن معه على عجل.

وفيها غزا هادي بن قرملة مع كثير من قومه قحطان، وقليل من سائر العربان، فسار حتى انقلب له ضياء الأمل، وتقشع عنه قتام النصب والكسل، فأبصرت البقوم عيونه فحققت ظنونه، فعند ذلك كسا تلك الأقوام، من نقع الغارة قتام، ودجا عليهم من سنايك الجياد ظلام، فاشتد الزحام، وحانت المضاجع في الرجام، فاجتلدوا لحظة وكل أخذ من النجدة حظه، ثم بعد ذلك انهزم الأعدا، وحامت على رؤوسهم عقبان الردى، فولّوا على أعقابهم مدبرين، وقتل المسلمون منهم نحو الستين، وأخذوا منهم كثيرًا من الإبل، ورجعوا بحسن الأمل.

ثم بعد مضي شهرين، عاد عليهم طائف البين، فأغار عليهم هادي بن قرملة،

فأدرك منهم فوق ما أمله، وتلاحمت بعد الغارة فرسان البوادي، فكان طالع الإقبال لهادي، فصدقت أبطاله ونصحت رجاله، فحسنت عند ذلك حاله، فانهزم أعداؤه، ونجح رجاؤه، فأخذ من الغنم ألوف، وجرع أربعين رجلاً الحتوف، وأدرك بعض الآبال فنعم له البال.

وفيها رأس سليمان باشا بغداد حمود بن ثامر، بعدما قتل الله ثويني وانهزمت تلك الجيوش والعساكر، وكتب الله عليهم التمزيق والشتات، فنفرقوا أيادي سباً في الفلاة، ولم يكن لهم بعد ظهور البراهين والآيات، صبر ولا اجتماع ولا التفات، وظن الباشا سليمان أن تلك الأحزاب والعربان، إذ رأس حموداً على البصرة والبلدان، تُقبل عليه وتجتمع لديه، ويكون لهم في التخریب أمر وشأن، فأرسل إليه النُجب والبريد، بذلك للرئيس والتأييد، مصحوباً بخُلعة فاخرة جميلة، وصِلات وافرة جزيلة، فترنح عطفه بخمرة الملك، فاستضاءت رحابه حين انتظم واسطة لذلك السلك، وأشرق نأديه بعد ذلك الحلك، ولم يدر أنه طوّق بأطواق من الشر والهلك، فلما أدرك الرئاسة واحتوى، وكرع في مواردها حتى تضلع وارتوى، وما خطر على باله ما كمن في ضمنها وانطوى، وتسسم كاهل السياسة وارتقى، واختار من أعوانها وانتقى، وتقلد أعباءها وتطوق، وتحلى بحلّالها وتحقق، أقبل إليه كل من تشتت وتفرق، والتأم عليه كل من تقطع وتمزق، وأسرع لديه كل من خاف من المسلمين وأشفق، وكل من صد عن التوحيد والحق، ورام للدين وأهله مغالبة، وأنه يدرك منهم مطالبه، وسيعلم من تكون له العاقبة، وأنها كما نطق به الكتاب المبين، من غير شك لعباده المتقين، وحزبه المؤمنين وجنده الموحدين.

وفيها غزا من أهل الحسا غزو، وأميرهم أبا رجلين مناع، فلم يكن لهم دون

الكويت اقتناع، ولا حيلولة ولا دفاع، فصبحوا تلك البلد بعد حث وإسراع، فأغار ذلك الجيش على أطراف البلاد، بعدما جعلوا لهم كمينًا للجلاد، فأخذوا غنمًا كثيرة، وفزع أهل البلاد بجموع غزيرة، وعدة عظيمة شهيرة، فوقع بينهم قتال من بعيد، والرمي يصيب فيهم ويحيد، وكل من الفئتين ليس له على الثبات من محيد، حتى طلع ذلك الكمين المعداد، فانهزم أهل البلد وكان لهم إليها ورود، وما كان لهم دون ذلك صدود، فملك المسلمون أعقابهم، وكان كؤوس الردى شرابهم، وعجل الله تعالى لهم عذابهم، فقتل منهم نيفا وعشرين، وأخذ ما معهم من سلاح وولى الباقي منهم منهزمين.

وفي تلك الغزوة صادف منصور بن فضيل مع ركب معه من العماير^(١)، وهو إذ ذاك للقطيف سائر، فقتل ومن معه، وجُرع جِمامه فجرعه.

وفيهما أيضًا وافق مناع أبا رجلين وغزو أهل الحسا ما جلب لهم السرور والإيناس، وهو ركبٌ معهم محمد بن ديماس، فقتل من معه، وخاضت البحر بمحمد بن ديماس فرسه مسرعة، فدعي عند ذلك بالأمان، لكونه لم يعرفه من المسلمين إنسان، فأقبل بعد ذلك سريعًا، ونال ذلًا شنيعًا، فقيدَ وأسيرَ بعدما ملَّك وقَّهر، ثم بعد صدور القضية، أتى به مناع إمام المسلمين في الدرعية، فحاول على قتله حجة شرعية، وطريقًا يري ذمته عند رب البرية، فكأنه، حرس الله تعالى من المكروه مهجته، وأدام توفيقه ونعمته وبهجته، تورّع في المسارعة إلى قتله، مع ما صدر من قبيح فعله، فقد كان وقافًا عند الحدود، وكان يدرؤها بالشبه كما للنص بذلك ورود، ولكنه ترك ابن ديماس يعاني همّ الأحباس.

وفيهما أغار مشاري بن عبد الله آل حسين، على فريق من زُعب^(٢) فقتل الله

(١) من بني خالد.

(٢) إحدى قبائل بني سليم.

تعالى له الهلاك والمحن، وكان غازيًا من الكويت مع أهل عشرين مطية، وبعض من الخيل، فلم يدرك إلا الرزية، ومفاجأة الحمام والمنية، معاقبة لأفعاله الردية، وشؤم صنعه في البرية، ونفوته عن التوحيد، وموالاته لكل شيطان مريد، وبذل جده في مصادمة الحق والهدى، ومساعدته لأهل الضلال والردى، وقيامه مع من تعدى وجاره، من سائر طوائف الفساق والنجار، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

وفيها أرسل كثير ممن حول مكة من البدو إلى عبد العزيز يطلبون منه الإسلام والأمان، وجعلوا بينهم واسطة حمود بن ربيعان، فأجابهم إلى ذلك الإمام، وشرط عليهم النكال، فالتزمو ذلك الأنام، وجعل على كل بيت شيئاً من الدراهم، وعلى كل سلف ركاباً وسلاحاً وخيلاً جياداً كرائم، لكونهم قد نزعوا حلية الدين، ونزغوا إلى طريق المبطلين، وكان التنكيل بالمال، مما لا خفاء في جوازه ولا إشكال، والتمعاقبة بذلك جائزة واردة، والنصوص عليه شاهدة، ولا عبرة بمن كانت بصيرته جامدة، وفكرته لذلك جاحدة، وكانت هذه سنة عبد العزيز، حرسه الله تعالى، فيمن عدل عن الحق والمنهاج، وركب طريق الزيف والاعوجاج، فراض على ذلك الاشتراط، من كان له بالمسلمين ارتباط، وفي الإسلام رغبة واغتيباط، وهم كثير من أولئك العربان، وأعظمهم كثرة فرقان العتبان.

ولم يبق ممن يسيم مواشي الأبال في تلك الشعاب والتلال، سوى البقوم من أهل الضلال، فشق ذلك على غالب، وكان عليه من أعظم المصائب، وهمه ذلك وأقلقه، وأزعجه ما جرى وأرهمقه، وأحزنه ما صدر من حالهم، ودخلهم في الإسلام بعد ضلالهم، وتحقق أن ذلك عليه داء عضال، وأنهم يجرون عليه الهوان والإذلال، فلم يلف بعد معاودة الفكر والبال، طريقاً إلى التوصل في

بقائهم عنده على تلك الحال، إلا الخروج والاستعداد للقتال، ومصادمة الأعراب والবাদي، ومكابرتهم بالجيوش والعوادي، فعند ذلك شمر في الأمر وسعى، ونادى على الإغاثة ودعا، وأقبل إليه أحزابه شبيعا، وخرجوا معه تبعا، فجد في وجهته مسرعا، فوافى عيوننا لابن قرملة، فأخذهم وتهددهم حتى دلوه على ما أراد وأمله، فلم يشعر هادي إلا بغالب عليه عادي، وتطاعنت الفرسان ولم يحضر من فرسان قحطان سوى ثلاثة عشر فارسا من الشجعان، فحامي بينهم سكير الوغى، ولم يكن دون الجلال مبتغى، فقتل من قوم الشريف خمسة أفراس، وأقام ابن قرملة معهم في غاية الجلال والمراس، وهزم أكثر الإبل، فلم يدرك منها غالب غاية الأمل، وأخذ منها بعضا في ذلك المجال، وأخذ كثيرا من بعير الظهر ذي الأتقال، ثم حصل بينهم المفارقة والانفصال.

ثم بعد ذلك عمد هادي ومن معه إلى رنية، وأقام غالب على ماء القنصلية، ثم سار إلى رنية من غير رنية، فنزل عليها ليلي وأيام، وحاصر من فيها من الأنام، ممن دان للإسلام، وحاول نزول أهلها بلبين الكلام، ورغبهم في نبذ العهد والذمام، فلم يفر منهم بسؤل ولا مرام، فأخذ يقطع النخيل وزين له الشيطان أنه يفوز بتأميل، فعند ذلك أسرع أهل البلاد إليه، وصمموا في البيعة عليه، فالتقوا ذلك اليوم، وحمي القتال بين القوم، وقتل بينهم رجال، ثم وقع التفرق والانفصال، وأقام على تلك الحال أياما وليال، ثم أراد الله تعالى ذله وهوانه، وخزيه وأعوانه، وذلك أنه في بعض تلك المواطن، وأهل البلاد يقاتلونه في بعض الأماكن، ونار الوطيس بينهم حامية، وعيون الجراح منهم دامية، عدا عليهم ابن قرملة مع أناس من جماعته، فوقع بينهم قتال، وقُتل كثير من أحزاب الشريف في ساعته، وكان جميع من قتل من قومه قبل ذلك اليوم وفي يومه مائة وزيادة، فانصرف ولم ينل منها مراده، ولم يرد تعالى إسماعه، بل سلب منه مدده وإمداده.

ولما أتى الخبرُ عبد العزيز بما صدر من غالب الشريف، أرسل إلى حجيلان أن يسير مع أهل القصيم حتى يتم لابن قرملة المطالب، ويسلك معه ما أراد من المذاهب، ويعينه على ذلك العدو المحارب، وكان سعود، بلغه الله المقصود، إذ ذاك مقيمًا بالأجردي^(١)، يريد أن يغزو أهل الشمال ويعتدي، فأناه الخبر اليقين، بما صار من المعتدين، وحزب غالب المسرفين، فأرسل ربيع أمير الوادي مع جمع من المسلمين، ممن كانوا معه مجتمعين، وللغزو في تلك الأيام مريدين، فأمرهم أن يعجلوا المسير، ويساعدوا ابن قرملة حتى يحصل بهم له الفرج والتيسير، ويشمروا ساعد الهمة والعزيمة أتم التشمير، فساروا منه وهو في ذلك المكان، فصار ولله الحمد له شأن ولهم شأن، وحصل لكل منهم بهجة وسرور، وانتصار واستعلاء وتمكين من الكفار، فقصده سعود السها وجعله أمامه، وقصد ربيع ومن معه أهل تهامة، فنال كل من المسلمين مرامه، وأدرك العز والكرامة.

وبعدما صار من غالب تلك الأفعال، جر من الفخر الأذيال، فشمّر إلى بيشة سائرًا، وعلى من بها من المسلمين غائرًا، ولمن له فيها من الجماعة معيّنًا وناصرًا، فرجعه الله تعالى ذليلاً خاسرًا، مهانًا مشتًا ولله الحمد عائرًا، وذلك أنه لما أتى إليها وأناخ بجمعه عليها، هرب من فيها من المسلمين، ولم يكونوا في تلك البلدان مقيمين، وقد هاجر قبل قدومه إليهم ووفوده عليهم ناس من أهل بيشة كثيرة، كان لهم في الدين بعض بصيرة، ففارقوا في رنية والوادي، وكان الله تعالى لهم مرشدًا وهادي، وحملهم على الهجرة والهرب، والفرار عن المسكن الذي هو للنفوس مطلب، سبب هو أعظم السبب، وذلك أن غالب تلك

(١) وادي الأجردي، يقع شرقي القصيم.

البلاد، يرغبون في منهج الغي والفساد، وأنهم أنفوا من أهل الدين، وكانوا لعداوتهم مضمرين، وتبين وظهر وتحقق واشتهر، أنهم أرسلوا إلى غالب الشريف، يأتي إليهم بلا توقف ولا وتوقيف، ويقتل من دان بالتوحيد حتى يرجف غيرهم ويخيف، فأتاهم سريعاً لذلك الحال، فأقام عندهم أياماً وليال، يرتب ما أراد من الأحوال، ثم لما عزم على المسير والارتحال، أخذ أناساً معه في الاعتقال، وقادهم معه في السلاسل والأغلال، فشمّر ساعد المسير، لما يريده من الحزم والعزم والتدبير، فقال أعظم الهلاك والإذلال والتدمير، فالحمد لله العلي الكبير.

وذلك أنه أسرع في تسياره، يريد قضاء بعض أوطاره، حتى يرجع متبجحاً عند رعيته وأنصاره، ويدخل متبخترًا بحضرة بلده وأهل داره، فنزل على قرية يقال لها الخرمة^(١)، وفيها سكن قليل من الناس مسلمة، فلما علموا بقدومه لتلك القرية، هربوا وندوا، وطلبوا النجاة لأنفسهم وشدوا، فتعلقوا البدوان، وساروا مع العربان، فساعة أناخ بها ركابه، ومدّ بها أطنابه، وقر له بها القرار، أشعل في تلك القرية النار، وعجل الله لها بالدمار، وكانت عقباه في يومه ذلك البوار، وأظهر الملك القهار، والمنتقم الجبار، فيه للمسلمين آية الانتصار، وعلمنا من أعلام الأقدار، وبرهاناً على الوجدانية لا يعرف له مقدار، ولا يحاط بكنهه في الفكر والاعتبار، يجل عن القيام بحق حمده وشكره، وتقصر الألسنة عن الثناء عليه وذكره، فمواهبه سبحانه لأهل الدين، وفواضله على كافة الخلق أجمعين، ونصرته لعباده المؤمنين، وإعازته لأوليائه المفلحين، ودفعه عنهم

(١) تقع شمال شرقي مدينة الطائف، وتبعد عنها حوالي ٢٣٠ كم، وهي تابعة لإمارة منطقة مكة.

صروف الحادثات والنوب، وتفريجه عنهم الشدائد والكروب، أكثر من أن يعدّ ويحصّر، وأشهر من أن يُحصى ويذكر، ولكن أين الألباب الذي تعي ذلك وتفهم، وتخلص التوحيد وتُسَلِّم وتَسَلِّم، وتحزن على ما جرى منها وتندم، وتذكر ذلك الضلال الأعظم، والغي الأقيح الأقدم، في ذلك الزمان الذي مضى وتقدم، فنسأله أن يوزعنا شكر نعمائه، ويوالي علينا فيض بره وآلائه، وأن يصرف عنا مضلات فتنه وابتلائه، ويحقق لنا سؤلنا ومأمولنا في حسن رجائه، وتحقيق الحديث والخير، عما جرى على غالب وجنده ممن شاهد الأمر وحضر، أنه لما نزل بذلك المكان والمحل، وفعل بالإحراق له ما فعل، لم يكمل له أنس، ولم تغب له فيه شمس، حتى دهاه فيها ما أزهق الروح والنفس، وذلك أنه لما عمد إلى ذلك المكان، وسار لقصده ذلك الشأن، أتى خبره ربّيع أمير الوادي وابن قرملة أمير قحطان، فاستعانوا الرحيم الرحمن، في الغزو عليه بأثره حتى ينالوا بذلك الثواب من الله والإحسان، ويوقعوا به بعض الذل والهوان، ولم يقع في رؤوئهم أنهم لجنده منازلون، ولجيشه مصابرون ومقاتلون، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ جُنِدْنَا لَهُمُ الْقَالِيلُونَ﴾، فجعدوا السير بأثره يطلبون، ولبعض النصرة عليه من مولاهم مؤملون، فلم يفاجئه إلا وفرسانهم عليه مشرفون، وذكر له أن هؤلاء ربّيع وهادي وقومهم لهم متبعون، فركض برجله الأرض وفحص وقال: الآن أفترس الضرغام وأفتنص، ولكن لا تروم السنانير الأشبال، ولا يروم السرحان^(١) على الريال^(٢)، ولا تحوم بُغاث الطيور على العقبان والنسور، أيحاكي طنين الذباب زئير ليث الغاب؟ ولئن حكمت صولة الأسود، في الانتفاض الهرة والقروء، فلا تناظرها في البأس والورود،

(١) الذئب.

(٢) الرجل الذي يغزو وحده.

والإقدام والنُّهود:

ومن رام في الهيجا لقاء جحافلي وخوض لظى بأسى يوم التنازل
فقد ضل في قعر السفاهة والردى وألقى في قعر الظنون السوافل
وأضحى ينادي بالحماقة جهرةً ويرفل في ثوب من الجهل نافل
أنسمو إلى مجدي وذروة مفخري جميع الورى أو يدركون منازل
مجاز تمى دون ذاك مثاله فأين الثريا من يد المتناول
أمان كلع الآل^(١) لم يرو صادقاً ومحسبه الظمان عذب المناهل
لقد عدمتني الكمت^(٢) يوم مجالها ولا وسط بي الجمع يوم التنازل
ولا أروت الأسل الظما سحِب راحتي

آخر ما وُجد من التاريخ، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا
نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.



(١) السراب.

(٢) الكميت من الخيل: بين السواد والحُمْرة.